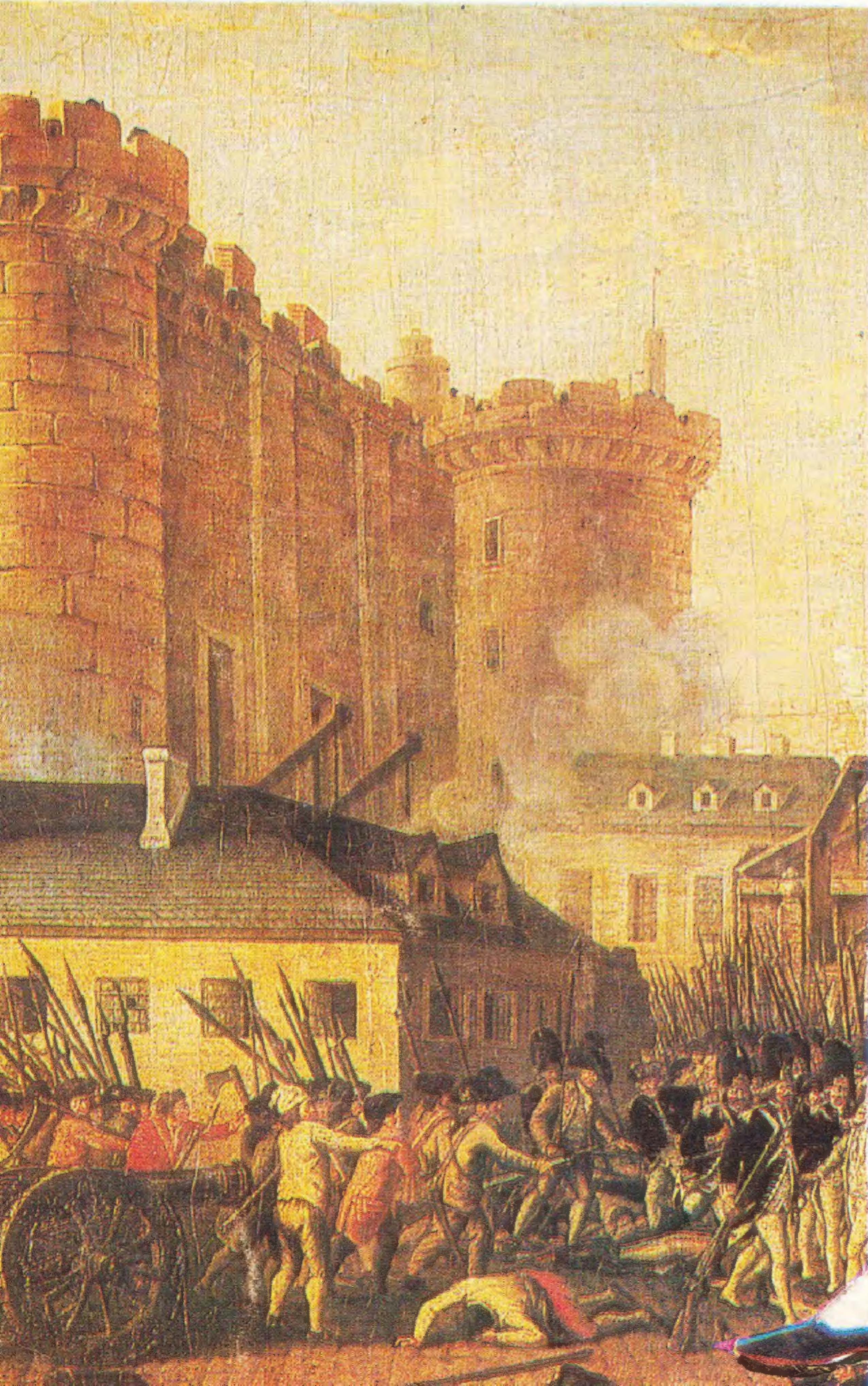


فرانك تيرنر
سيتقن أوزمنت

التاريخ من بيتي جوفانبر

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود



الجزء الثاني



النايخ من شتى جوانبه
مجموعة مقالات

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمسعى المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني:
علياء أبو شادي

إهداء 2005

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود
القاهرة

النارنج من شتى جوانبه

مجموعة مقالات

إعداد
ستيغن أوزمنت
فرانك ستيرنر

ترجمة
د. أحمد حمدي محمود

الجزء الثاني

رقم



المنشأة للنشر والتوزيع

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

THE MANY SIDES OF HISTORY

By : STEVEN OZMENT / FRANK M. TURNER

الفهرس

الموضوع	صفحة
تمهيد	٧
رابعاً	
القرن السابع عشر	١٩
اندلاع الحرب الأهلية الانجليزية	٢٣
الحكم الفردى للويس الحادى عشر	٤١
المعنى الاجتماعى للينوتينية	٦١
خامساً	
القرن الثامن عشر	٧٩
تمرد القوزاق وحرب الفلاحين فى روسيا	٨٣
الموت كوسيلة للردع : الاعدام العلنى فى فرنسا	١١١
وسائل التسويق فى السوق الدولية	١٣٥
حروب الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة	١٦١
الدستور المدنى لرجال الدين فى الثورة الفرنسية	١٨٧
اصل الاتجاه المحافظ فى المانيا	٢١١
سادساً	
القرن التاسع عشر	٢٣٣
العالم الرومانتيكى	٢٣٥
المرأة عملها واسرتها فى اوربا القرن التاسع عشر	٢٥٧
الحمى - الحمى	٢٨٥

تمهيد

يعنى التصدي لبحث العالم الحاضر - تاريخيا - مواجهة عالم فكرى جم التعقيد ، لم يكتشف أكثره الا منذ ثلاثين سنة أو يزيد ، ولا يتجاوز ما تم الكشف عنه النزر اليسير ، فلم يسبق قبل ذلك أن اعتبرت الحدود التى يتوقف عندها البحث التاريخى والكتابة التاريخية هى الحدود التى يفرضها حب الاستطلاع عند المؤرخ ، ومجالات أنشطة البشر ، ولقد كانت نواحي التجربة الانسانية التى يستقصيها المؤرخون الآن للمرة الأولى موجودة على الدوام ، مثلما كانت الطبيعة الفزيائية التى يدرسها العلماء الآن لأول مرة ، موجودة أيضا . غير أنه فى كلا الحالتين ، ساعدت الاهتمامات المعاصرة الجديدة والتقنيات الجديدة والمخيلات المنطلقة على الاهتمام الى كشف وتفسيرات تتطلب الكثير من الحاجة الى إعادة النظر فى فهم الماضى ، ولقد تولت من المعرفة الجديدة والمناهج الجديدة مواضع مستحدثة أوسع وأبعد فى التاريخ ، مثلما حدث فى العلم .

وبوسعنا أن نقارن التغيرات الحديثة العهد فى الدراسات التاريخية ، بما يجرى عند التخطيط لإنشاء شبكة من الطرق العلوية . فلقد أدت الاحتياجات الاقتصادية التى أدركت حديثا ، والرغبة فى توفير فرص عمل ، وارتقاء الأجهزة والمعدات التكنولوجية - أحيانا - الى تيسير إنشاء الطرق العلوية . وبمجرد الانتهاء من إنشاء الطريق العلوى ، تظهر امكانيات إقامة مشروعات عملية جديدة ، أو إقامة مجتمعات جديدة، وسيؤكد حب الاستطلاع عند المسافرين مدى ما تحققه هذه الطرق العلوية من نفع ، ويحدث تفاعل بين المسافرين على اختلاف أهدافهم ، وبين القائمين بالإدارة الذين ينظمون ويديرون خدمات أسفارهم . كما يحدث تفاعل بين هؤلاء الناس وبين أهل البقعة التى أنشئ فيها الطريق العلوى . وما كان هذا التفاعل ليحدث قبل إنشاء هذه المشروع . وعندما يرقب العمال والسياح الطريق العلوى الجديد فإنهم يواجهون مشاهد ومناظر - وأحيانا عادات وتقاليد - لم يسبق

تعرفهم عليها من قبل • وربما بات بإمكانهم أيضا إنشاء مجتمعات جديدة ، وينتهى بهم المطاف الى ادراك وجوب احداث تكامل بين كل ما استحدثت من تجارب ومجتمعات وافكار ، وبين العالم الذى عرفوه قبل وجود الطريق العلوى • ولا بد ان يقوم الأشخاص الذين لم يسافروا على الطريق بدورهم بتحقيق تكامل بين تجاربهم وبين المعارف المستخلصة من المسافرين العائدين • وسيكتشف من استمروا يحيون فى مجتمعاتهم الأصلية أن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية قد ازدادت ارتباطا وثيقا - بالضرورة - بالمجتمعات المنشأة حديثا على جانبى الطريق العلوى ، وأيضا بمن يعيشون عند طرفه الأبعد • وبعد افتتاح طرق علوية جديدة فى البحث ، أصبح المؤرخون المحترفون يمثلون جمعا هائلا من الباحثين الساعين لاحداث تكامل بين المعرفة القديمة والمعرفة بمعناها الجديد •

وحتى قرابة خمسينات القرن العشرين ، تركزت الاهتمامات الأولية للمؤرخين الأوربيين على الاهتمامات المتصلة بإنشاء الدولة ، والعلاقات الدبلوماسية ، والمؤسسات الدينية ، ودور العظماء فى الماضى ، وليس من شك فى وجود بعض الاستثناء لهذا الإطار العام للكتابة التاريخية • فلقد ظهرت بعض كتب ومقالات مرموقة عن الحياة الاقتصادية والعمال والأطفال والنساء ، ولكن عددها كان ضئيلا نسبيا ، اذ غلب على انتباه المؤرخين الاهتمام بالدبلوماسية والسياسة العامة ، والمنازعات الطائفية داخل الكنيسة والخلافات السياسية ، ومن الناحية الجغرافية ، تركزت أغلب الاحداث التى رواها المؤرخون وحللوها فى عواصم البلدان موضع الدراسة • وتحلث المؤرخون عن ما دار فى أذهان أهل الصفوة من مفكرى هذه العواصم ، وفضلا عن ذلك ، فلقد كتب المؤرخون متأثرين بسياق يتمحور حول أوربا ، أو من منظور عالمى • ولم تحظ الشعوب غير الأوروبية فى أفضل الأحوال بما هو أكثر من الانتباه الهامشى ، فلقد اعتقد المؤرخون - بوجه عام - أن الحضارات الأخرى أقل اثارة للاهتمام ، وأقل أهمية وقيمة من الحضارة الأوربية •

ان مثل هذه النظرة التاريخية ، ومثل هذه الاهتمامات المتركة على جوانب بالذات ، هى ذاتها نتاج لحقبة معينة من التاريخ الأوربى • فإبان الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ، و ١٩٤٥ ، تمتعت الأمم الأوربية بالسيادة على العالم بدرجة تفوق ما تمتعت به من سيادة طيلة العهود الماضية ، وأحدثت القوى الأوربية العظمى تأثيرا عارما فى النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية فى شتى أنحاء المعمورة - وقد ساعد على منح الغلبة لأوربا

ما حدث من تقدم في الاقتصاديات الصناعية وظهور دول قوية تركز النفوذ السياسي في يديها بفضل جيشها الضخم وأساطيلها الهائلة • والحق أن من واجبنا أن نعترف بأن «الدولة - الأمة» (*) المستندة إلى اقتصاد صناعي وقوة عسكرية عاتية هي أقوى نظام استطاع البشر خلقه ، بغض النظر عن آثاره الحميدة أو المردولة • ولقد استهوى سلطان هذه «الدول - الأمم» وأفعالها المؤرخين طويلا ، وسيطر على انتباههم بالضرورة • وبالمقدور ارجاع تدهور غلبة التاريخ السياسي إلى شعور المؤرخين بالاحباط - وبخاصة في فرنسا - إبان عشرينات القرن العشرين ، من مسلك حكوماتهم الممثلة لأمتهم •

غير أن للعلاقة بين البحوث التاريخية وبزوغ «الدول - الأمم» بعدا أساسيا آخر • ففي القرن التاسع عشر ، كان هناك تلازم بين كتابة التاريخ وإيقاظ الوعي التاريخي ، إذ ساعد التاريخ على وضع حجر أساس الإيمان بالحياة القومية المدنية • وكان من بين العوامل الأساسية في إنشاء الدولة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وضع برامج للتعليم تشدد على التطور التاريخي للأمم ، وتشيد بالشخصيات القومية المرموقة - وبخاصة من الذكور - باعتبار شخصيات مثل جان دارك والملكة اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا في القرن السادس عشر من الاستثناءات الكبرى - والتي بمقدور من يحيون في شتى الأنحاء الشعور بإمكان تقمص شخصياتهم • وإبان القرن التاسع عشر ، ألف مؤرخون عديدون من أمثال ماكولي في إنجلترا ، وجيزو في فرنسا وترايتشكه في ألمانيا كتباً تاريخية من جملة أجزاء تهدف إلى توطيد الاعتزاز بالماضي العريق والإيمان بأنواع ذات طابع خاص من التقاليد والأنظمة القومية السياسية • واعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية سيفيد شعوبهم ، واستمر هذا التقليد سائدا في القرن العشرين ، عندما ازدهرت النزعة القومية في أوروبا ، واشتعلت نار المنافسة بين الدول - الأمم قبل الحرب العالمية الأولى ، وبعدها •

واجتذبت أحداث القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين انتباه المؤرخين ودفعتهم إلى الاهتمام بالموضوعات السياسية وموضوعات «الدولة - الأمة» • فبدأ (بالثورة الفرنسية) عبر الحرب العالمية الثانية ، نشب اضطراب سياسي في جميع الأمم الأوروبية ، وجاء في أعقاب الثورة الفرنسية ذاتها نابليون وثورات ١٨٣٠ وثورات ١٨٤٨ ، كما

ظهرت الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية ، كما حدثت قلاقل بين أصحاب النزعات القومية في الامبراطورية النمساوية الهنجرية وظهرت الأحزاب الاشتراكية الكبرى ، واندلعت الثورة في روسيا ، ونشأت « دول - أمم » في شرق أوروبا ، وقامت الحركة الفاشية في إيطاليا ، والحركة النازية في ألمانيا . وبدأت هذه القلاقل والثورات السياسية من بين أكثر الأحداث إثارة للاهتمام في تلك الأيام ، بعد أن تركت آثارها على أرواح عشرات الملايين من الأوروبيين . فلا عجب إذا اهتم المؤرخون بالكتابة عنها وعن مسبباتها ، بل وطفقت في بلاد مستقرة نسبيا كبريطانيا العظمى على اهتمام المؤرخين السياسيين ، ممن سعوا لتفسير أسباب الاستقرار السياسي في هذه البلدان .

وساعدت حروب أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على منح الصدارة في البحث التاريخي للمشكلات السياسية والدبلوماسية . فلقد اشتبكت دول أوروبا في عدة حروب كحرب القرم التي بدأت ١٨٥٤ ، والحرب العالمية الثانية ، في صراعات دموية عديدة ، تواءمت هي وعلاقاتها السلطوية النسبية في القارة الأوروبية . واشتبكت هذه الدول أيضا في صراعات استعمارية شتى في مختلف أنحاء العالم ، وبذلك نقلت خلافاتها وصراعاتها إلى ما وراء البحار ، وأنشأت امبراطوريات استعمارية ، وطفقت الحرب واحتمالات شن الحروب على جانب كبير من الحياة العامة ، والمناقشات العامة ، وتسببت الحروب التي نشبت - خصوصا الحربان العالميتان في القرن العشرين - في فقدان عدد مهول من الأرواح ، وتدمير قدر كبير من الممتلكات . فلا عجب أيضا ، إذا طفقت العلاقات بين القوى الكبرى على الكتابة التاريخية .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ، تدخلت جملة عوامل ، دفعت المؤرخين إلى التمرد على ما أصبح يسمى حينئذ بالتمتابة التاريخية التقليدية ، بعد أن نعمت أوروبا بالسلام زهاء أربعين سنة أو يزيد . فلقد صمم الساسة الأوروبيون إبان هذه الحقبة على الحيلولة دون تكرار حالات عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي أدت إلى نشوء الحركات السياسية السلطوية بين الحربين العالميتين ، وإلى نشوب الحرب في آخر الأمر ، وترتب على ذلك احتلال العوامل الاجتماعية في المجادلات والمناقشات العامة، حيزا أكبر من الحيز المخصص للعوامل السياسية . وأدى هذا الاستقرار الذي جاء في أعقاب الحرب وتحول الاهتمام إلى الجوانب الداخلية ، واضطلاع الدولة بمهمة تدبير الخدمات الاجتماعية ، إلى زيادة الاهتمام

التاريخي بالعوامل التي ساعدت على تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي .
وبدا بوضوح موضوع المجتمع ينافس في الصدارة في التحليل التاريخي
موضوع الدولة .

وساعد ما يقارب خمسين سنة من السلام الأوربي على جعل مشكلات
العلاقات الدبلوماسية بين الدول الأوربية تتخذ مظهرا أقل الحاحا نوعا .
فلقد انحصرت القارة الأوربية الآن (١٩٨٧ - ولا يخفى أن الموقف تغير
الآن تغيرا شاملا) بين قوتين تتمتعان بالحد الأقصى من القوة (الولايات
المتحدة والاتحاد السوفيتي) ، وأدت نهاية الامبراطوريات فيما وراء البحار ،
وعملية تصفية الاستعمار الى تقلص مساحة اللعبة التي تدور فيها المنافسة
بين الأمم الأوربية . ولم يسفر هذا التحول في اوضاع قوى الدول الأوربية
عن انتهاء التاريخ الدبلوماسي ، ولكن الأصح هو القول بنزوع هذه الكتابات
الى اتباع روح أكثر تركيزا على الناحية العلمية ، وتضاؤل الميل للنظر
للأحداث على أنها امتداد لسياسة خارجية ترمى الى هدف قومي ما .

وبوجه عام ، لم تختف المشكلات التاريخية التي تبحث بالطريقة
التقليدية ، كما أن جميع المشكلات والمعضلات الفكرية الرئيسية التي
تناولتها هذه الكتابات لم تهتد الى حلول مقبولة ، وإن كان بعض المؤرخين
هذه الأيام قد يؤثرون استبعاد هذه المسائل الخلافية ، وكان هذا هو الحل
الأمثل . وبدلا من ذلك رأينا ظهور اهتمامات جديدة في عشرات السنوات
الأخيرة تتخذ الصدارة في نظر المؤرخين ، وزودتهم بوسائل جديدة تمكنهم
من متابعة هذه الاهتمامات ، ونجم عن ذلك ازدهار موضوعات تاريخية شتى ،
انضمت الى موضوعات البحث الآن ، وساهمت العلوم الاجتماعية بنصيب
كبير في المناهج الجديدة - كالتحليل الكمي والأنماط الاقتصادية
وسوسيولوجية المعرفة وعلم النفس والتحليل النفسي ، ونظريات
أنثروبولوجية شتى . وتيسر هذه المناهج الاستقصائية والتحليلية للمؤرخ
الاستفادة بالوثائق بعد أن اغفلت طويلا دون رجوع اليها . وتضم هذه
الوثائق شهادات التعميد والوفاة ، والكشوفات الحسابية للأراضي المزروعة
وتقارير ومحاضر الشرطة وشهادات الأطباء والمسؤولين عن الصحة العامة
وسجلات الضرائب . وبالإضافة الى ذلك ، فلقد ساعدت نظريات العلوم
الاجتماعية على تقديم العون للمؤرخين لمحاولة تقديم تفسيرات هامة لأنماط
من السلوك الاجتماعي بدت يوما ما مجرد غرائب في نظر من عاشوا بعد
ذلك بالعديد من القرون ، وساعد هذا الاتجاه - بوجه خاص - على فتح
نافذة مطلّة على عالم الريف والثقافة الشعبية ، وفحصها وتحليلها تاريخيا ،

تبعاً لذلك • وبعد أن زاد عدد وسائل التحليل التاريخي ، أتاحت الفرصة للمؤرخين للانتقال إلى مجالات جديدة من البحث • بيد أنه يتعين النسيب إلى وجوب الحرص على عدم تفوق هذه الوسائل والطرائق وطغيانها على مخيلة الأشخاص الذين يستغلونها ، فالأهم من المنهج الجديدة هو حب الاستطلاع الذي يدفع المؤرخين إلى توجيه أسئلة جديدة ، وسبر غور التجربة الإنسانية التي سبق اغفالها •

وأهم تغير ملحوظ حدث في عالم البحث التاريخي الأوربي القريب العهد هو ظهور « التاريخ الاجتماعي » • ويضم هذا المصطلح - الذي يبدو مهوشاً نوعاً - مجموعة متنوعة واسعة من الاهتمامات والموضوعات التاريخية • ويركز هذا العلم الجديد الانتباه التاريخي على نوعيات البشر التي لم يلتفت إليها المؤرخون كثيراً ، أو أغفلوها اغفالا كاملاً ، انهم طوائف البشر الذين نادراً ما اشتركوا - أو لم يشتركوا قط - في بنيان السلطة الاجتماعية والسياسية ، خصوصاً الفلاحون وعمال الصناعة والنساء والأطفال • فقد أصبحوا الآن يلقون ما هم جديرون به من عناية التاريخ • ولم يعد ينظر إليهم كمجرد مادة سلبية تخضع لإرادتها لقوى سياسية واجتماعية أعنى • وبدلاً من ذلك ، يعترف بأنها قد شاركت بدور فعال في صنع التاريخ ، ثانياً - لقد ازدادت عناية المؤرخين الاجتماعيين - الذين كثيراً ما يستعينون بالأنثروبولوجيا - بالأنماط الاجتماعية والتجارب الاقتصادية للحياة اليومية لهذه النوعية من البشر • وتبرز في صفحات التاريخ الاجتماعي البيانات الخاصة بالأبحاث والعلاقات الجنسية والأدوار الاجتماعية التي تستند إلى نوع الجنس والحياة الأسرية ورعاية الأطفال ، وطقوس الموت وتدير الغذاء والمأوى واستخراج الموارد الطبيعية ، واستغلالها ، والتنظيمات الاقتصادية المحلية • ويحتل هذا النوع من الوقائع حيزاً أكبر في التاريخ الاجتماعي • وأخيراً فبينما كان المنتصرون في الصراعات الاجتماعية والسياسية في الماضي يحتلون الصدارة في اهتمام المؤرخين ، فإننا نرى المؤرخين الاجتماعيين أميل إلى الاهتمام بالتجارب والظواهر التاريخية التي وصفها إدوارد طومسون (١) - وهو من أبلغ من عبروا عن رسالة التاريخ الاجتماعي ، « بأنها تماثل الحارات المسلوذة والقضايا الخاسرة ، بل والخاسرين أنفسهم » • وفي هذا المقام ، لقد كرر المؤرخون الاجتماعيون محاولة الإفصاح - تاريخياً -

(١) E. P. Thompson في كتاب The Making of the English

Working Class. (نيويورك ١٩٦٢) من ١٢ •

عن أولئك الذين لم يكن هناك صوت ينطق باسمهم ، ممن لا تعرف لهم أسماء من أبناء الماضي • وحاولوا أيضا الدعم التاريخي لذلك النهر من الأشخاص الذين ألفوا أنفسهم في عصور مغايرة مغلوبين على أمرهم من أثر التعيرات الاجتماعية والسياسية • ان هذه الخاصية الأخلاقية لتدريخ الاجتماعى لها أثر كبير فى جاذبية هذا النوع من التاريخ •

ومثلما اتجه التاريخ الأبر الى التركيز على السياسة والدبلوماسية والصفوة من الذكور ، فان التاريخ الاجتماعى هو فى ذاته - فى أغلب الظن - من النتيجة التى لا مفر منها للأحوال التاريخية الراهنة • فمذ ١٩٤٥ ، وفى شتى أنحاء العالم الغربى ، حفلت الجامعات بحشود من ملايين الطلبة الذين انحدروا ديموقراطيا من تلك الجماعات الاجتماعية بالذات ، التى كانت تستبعد فيما مضى من عالم سياسة وحضارة الصفوة ، وبمرور الزمان ، رأينا هؤلاء الطلبة يتساءلون عن التجربة التاريخية لأشخاص من الماضى يتماثلون معهم ، ومن أمثال من يرتقون فوق ظهورهم • فقبل أن يسمح لأبناء العمال بالانخراط فى الجامعة زرافات ووحدا ، لم يكن هناك غير قلائل يرغبون فى معرفة تاريخ الطبقة العاملة • ثم رأينا أناسا فى ستينات القرن العشرين ممن كانوا لا يرون أية حاجة الى التواؤم وسياسة وحضارة صفوة الأمس فى أى عصر ديموقراطى حق يشرعون فى متابعة دراسة تاريخ اللاصفوة ، ورأيانهم يتعهدون بينهم وبين أنفسهم فى حالات كثيرة بإنشاء جيل جديد من الباحثين المهتمين بمسائل بعيدة الاختلاف عن المسائل التى كانت تهم أسلافهم •

ويعكس الكشف الهام عن التاريخ القريب العهد للنساء - بالمثل - التغيرات التى طرأت على البيئة الاجتماعية والسياسية فى العقود الثلاثة الماضية • اذ لا يقتصر الأمر على حدوث زيادة فى النساء اللاتى تلقين تعليما أعلى • ولكن لعل الأهم من ذلك هو ما حدث من تقدم فى الحركة النسوية من استحثاث على العناية المستحدثة باستحضار التجارب الماضية للنساء ، وفهمها • ويتطلب البحث فى هذه التجربة بالضرورة أبحاثا ممتدة فى مشكلات الزواج والحياة الأسرية ورعاية الأطفال واقتصاديات الأسرة ، وتجربة العمل عند النساء ، وأيضا النماذج الأبر لمشاركة النساء فى الحياة السياسية •

غير انه ربما كان من الخطأ المغالاة فى التشديد على التنويه بعدم وجود لا تواصل بين البحث التاريخى فى الماضى والبحث التاريخى فى

الحاضر • اذ يحاول اليوم مؤرخون كثيرون - وان كان هذا الرأي لا ينطبق عليهم جميعا - تحقيق وعي تاريخي لاناس يظن أنهم يعيشون في مجتمع طبقى ، بينما كان المؤرخون فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يحاولون التزويد باحساس بالوعى السياسى القومى لاناس يدركون أنهم يعيشون فى دول ذات نزعات قومية • أجل لابد من الاعتراف بأن انجاز المؤرخين - فى الماضى والحاضر على السواء - يعكس الوسط الاجتماعى والسياسى المعاصر • فليس المؤرخون فى جميع مجالات التخصص اقل من نظرائهم فى الماضى ، فى ناحية الاهتمام بمشكلات السلطة ، سواء ظهوروا فى سياق « الدولة - الأمة » واتحاد العمال والقرية او الأسرة • والى جانب ذلك ، فكما اتخذ التاريخ السياسى والدبلوماسى الصدارة فى عصر سادته مثل هذه المسائل ، حدث شئ مماثل فى التاريخ الاجتماعى الذى اتخذ الصدارة عندما سادت العصر الصراعات الاجتماعية والدولة المؤمنة بتحقيق الرفاهية لابنائها •

فهل تعنى جميع هذه التغيرات ، وارتفاع شأن التاريخ الاجتماعى ، احتجاج أحد سبيل النظر الى الماضى ، وبزوغ وسيلة أخرى تنهيا لاتخاذ الصدارة ؟ • ان الاجابة عن هذا السؤال بالسلب ، وان اتصفت هذه الاجابة بالحدر والحسم معا • وليتنا نرجع ثانية الى تشبيه الطرق العليا ، فلقد فتحت عملية اثرء حب الاستطلاع ، والاعتراف باحقية الاستعانة بمناهج جديدة ، وادراك وجود مشكلات جديدة فى عشرات السنين الأخيرة من البحث التاريخى ابوابا جديدة ، ولكنها لم توصل ابوابا أخرى • ومن ثم رأينا العديد من المسافرين والداملين على الطرق العلوية الجديدة يعودون حاملين تقارير عن مشاهدات لم يكشف النقاب عنها من قبل ، وعن الفرص الفكرية العظمى التى صادفوها فى المنعطقات ، بل لقد قام بعضهم بتوطيد ما قامت به المجتمعات الباكورة من عمليات ريادية • ويعكس اضطرابهم ما فى هذه التجربة من حباثة ، ومدى التزامهم الشخصى بما يقومون به ، ولكن الزمان كفيل باحداث التكامل بين القديم والحديث • وثالبا عندما يفتح طريق علوى ، فان حركة المرور تبتعد عن الطريق السابق توطده ، ولكن حركة المرور سرعان ما تعاود الرجوع الى الطريق الأقدم ، بعد أن يزداد ازدحام الطريق الحديث ، أو تصبح المشاهد القديمة غير مألوفة ، وتجذب متفرجين جددًا •

وثمة أربعة عوامل دينامية تتغلغل المجتمع التاريخي ، وتؤكد استمرار التعددية : أولا - بعض مشكلات أساسية ، كانت موضع عناية التاريخ التقليدي كمشكلة بزوغ الدولة المطلقة ، واندلاع الحرب الأهلية في إنجلترا ، أو بدء الحرب العالمية الثانية . وتستحث أمثال هذه الأحداث ، بحكم شدة أهميتها ، وتعقدها ، على استمرار البحث فيها . ويجرى في كل مشكلة من هذه المشكلات ، وفي العديد غيرها من ميادين البحث التقليدية عمل هام وحيوي . ثانيا - لقد غدا الفهم الجديد للقوى الاجتماعية والتاريخ المحلي والحياة المادية ، قوى دافعة لإعادة بحث المشكلات التاريخية المعترف بها منذ أمد بعيد كالامبريالية واندلاع الثورة الروسية وظهور النازية . ثالثا - في نطاق حرفة كتابة التاريخ ، كما هو الحال في أي مجال آخر من الحياة الإنسانية ، يحدث تارجح في النظر الى عواقب الأحداث . فقد يؤدي الاهتمام بقضايا جديدة في تاريخ اليوم الى تقلص البحث في مجالات كان لها الصدارة في زمان سابق . وبمرور الأيام ستعرض المجالات الحديثة للارهاق من وطأة الأعباء التي تصحب البحث فيها ، ويكتشف ما في بعض قضاياها من تفاهات ، كما حدث سلفا في حالة التاريخ الدبلوماسي . وسينظر للمجالات الأقدم للبحث على أنها من المجالات المهملة التي تستاهل مشكلاتها المدينة التي مازالت بلا حل اثاره فضول مؤرخي المستقبل . وفضلا عن ذلك ، فان الخلافات والمجادلات التي تثيرها الأنواع الجديدة من البحث التاريخي ، ستؤدي الى ظهور أنواع جديدة من سبل سبرغور الماضي ، واخيرا فالظاهر أن المؤرخين عندما يبحثون الماضي يتجاوبون هم والاهتمامات المعاصرة ، فعندما تحدث تحولات في الاهتمامات المعاصرة - وهذا أمر لا مناص من وقوعه - ستأسر انتباهنا مجالات جديدة من البحث التاريخي . وثمة شيء واحد يبدو مؤكدا : فكما أن الدراسات التاريخية الماضية والحاضرة ليست مودعة في خزانة حديدية مغلقة ، كذلك الحال فيما سيظهر من دراسات مماثلة مستقبلا .

ان العديد من الأبحاث التالية ستقود القارئ بطريقة مباشرة الى المجال الجديد للتاريخ الاجتماعي ، وستصور له المجال الواسع المتنوع الذي عني ببحثه المؤرخون الاجتماعيون . وفي بعض الحالات ، تولى المؤرخون فحص فئات أو جماعات طالما تجوهلت ، أو نظر اليها على أنها تقوم بدور سالب ، أو بدور المتلقي ، بدلا من قيامها بدور المرسل الفعال في التاريخ . ومن هنا سنرى مثلا ايزابيل ماداريجا وهي تعيد لنا رواية أحداث أكبر انتفاضة قروية في تاريخ روسيا ، وتحدث عن الضيق بالتغيرات التي طرأت على الحقوق التقليدية للفلاحين ، وسنرى جوان سيكوت وكويزا

تيلي وهما نقصان كيف حاولت الفتيات اللاتي انتقلن من الريف الى المدن في القرن التاسع عشر استبقاء العادات الفردية ، في البيئة المدنية الحديثة . أما تسويوشي جازيجاوا ، فانه سيفحص التغيرات التي طرأت على البنية الاقتصادية والاجتماعية للقوة العاملة في بتروجراد ابان الحرب، مما ساعد على تحفيز العمال لاحداث تغير ثوري اثناء الحرب العالمية الاولى .

وفي المقالات الأخرى ، يلاحظ اكتشاف المؤرخين الاجتماعيين لأبعاد اجتماعية لم يلحظها أحد من قبل ، او لعل أحدا لم يعرها ما تستحق من تقدير . وتشير مرجريت جاكوب الى الدروس الاجتماعية التي استخلصها علماء لاهوت انجليز معينون في مشارف القرن الثامن عشر من العلم عند نيوتن . ويصور ميكائيل كنلى التفاعل بين الحكومة الفرنسية الثورية في باريس والأندية الجاكوبية المحلية ، فيما يتعلق بالتحولات في السياسة الدينية للشورة . ويربط ريتشارد هاملتون بين تجنيد الأعضاء الأول للحزب النازي وبين التجارب الاجتماعية للجنود الألمان المهزمين في الحرب العالمية الاولى . وفي كل مقال من هذه المقالات ، يساعد تقدير دور العوامل الاجتماعية على فهمنا لكيفية تقبل الأفكار العلمية ، وكيفية تكون السياسة الحكومية او ارتقاء الحركة السياسية .

وأحيانا يسمح لنا اتجاه المؤرخين الاجتماعيين بفهم أي مسلك بنا سلفا غريبا وشاذا ، او ربما قاسيا ووحشيا . وفي هذا المقام ، يحلل جون ماكمانرز الدور الاجتماعي للوحشية في عمليات الاعدام العلني في فرنسا القرن الثامن عشر ، ويساعدنا مؤرخون اجتماعيون آخرون على الاحساس بما كانت عليه اوضاع الحياة آنئذ . ويعرض انطوني وول المخاطر والمخاوف التي واجهتها جميع الطبقات والفئات في القرن التاسع عشر من أعراض الأمراض التي لم تكن طريقة علاجها معروفة حينذاك .

ولم يقلل التشديد الجديد على دور المجتمع من الحاجة الى فهم ماهية الأفكار التي أثرت في الأشخاص في لحظات معينة من التاريخ الأوربي .
والحق ان التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار غالبا ما يرتبطان كل بالآخر .
ويكشف مقالا فرنكلين باومر وكلاوس ابستين عن بزوغ الأفكار التي عارضت الثورة الفرنسية وارتأبت في حركة التنوير . ويساعدنا هذان المقالان على فهم ما قام به المحافظون والرومانتيكيون في بدايات القرن التاسع عشر، ويكشف بحث روبرت دارنتون للجانب العملي وراء نشر « الانسكلوبيديا » عن الطريقة التي تتبعها الأفكار في انتشارها داخل المجتمع ، عندما تشعر

الحكومة بالعلاء نحو الكثير منها ، وثبتت تصوير أوجين فيبر لأثر ملأهب المدرسة الجديدة فى القرن التاسع عشر فى فرنسا كيف وطلت الأفكار التى انتشرت بفضل التعليم الاحساس الجديد بالنزعة القومية فى فرنسا . ويصور أيضا النزاع على النفوذ بين القسس والمدرسين العلمانيين فى مقاطعات الريف فى فرنسا . ويحلل ميكائيل هوارد المعتقدات الخاصة بالحرب الهجومية ، التى أدت بطريقة مباشرة الى مصرع مئات الآلاف من الجنود فى الحرب العالمية الأولى . ويضع روبرت وول خطين تحت الطريقة ، التى استطاعت عن طريقها حادثة كبيرة كالحرب العالمية الأولى خلق مجموعة من الأساطير فى غضون عشر سنوات ، وأحدثت اضطرابا فى فهم الماضى والتوقعات من أجل الحاضر .

واكتشف المؤرخون أيضا عجزهم عن تجاهل دور الاقتصاد والتكنولوجيا . ويضع روبرت دارنتون مرة أخرى فى الصدارة الصعوبات التقنية البهتة التى اكتنفت مشروعا رحيبا كنشر « الانسكلوبيديا » . ويكشف جنيفر تان الصعوبات التى واجهها صناع الحركات البخارية الأوائل عند تسويق مخترعاتهم التى كانت تعد من مفاخر هذا العصر . ويربط دانييل هادريك بين كيف استطاع الأوروبيون بطريقة مذهلة توطيد أقدامهم على جزء كبير من الدنيا وبين التقدم التكنولوجى فى أوربا ، ويتتبع ميكائيل ماندلباوم أثر التغيرات على التقدم فى صناعة الأسلحة وأنظمة التوزيع (توزيع السلع) على طابع تحالف الناتو .

ومازالت السياسة ومسائل دبلوماسية القوى العظمى محتفظة بدورها المحورى فى الأبحاث التاريخية . ويتتبع أنطونى فلتشر سلسلة الأحداث التى غالباً ما كانت غير متوقعة التى أشعلت فتيل الحرب الأهلية الانجليزية . ويصف ريتشارد بونى كيف أمسك لويس الرابع عشر بزمام الخيوط المتحركة فى السلطة السياسية حتى استطاع توطيد النموذج الاستبدادى الكلاسيكى للنظام الملكى (الموناركى) . ويبحث روبرت تاكر الوسيلة التى لجأ اليها ستالين لإنشاء شكل من الأشكال التى تكررت بعد ذلك للحكم السياسى الفردى المناسب للقرن العشرين . ويوحى تحليل سالى ماركس لقضية التعويضات بأن ما يعتقد الناس عن الموقف السياسى والاقتصادى قد يكون أهم من طابعه الحقيقى . ويميط كل من رونالد سملسر ووليمسون موراى اللثام عن شتى جوانب سياسة التهدة وميثاق ميونخ .

غير أن القليل من هذه المختارات بمقلوره أن يصور ما هو أكثر من جانب واحد من شتى جوانب التاريخ ، أو كان من واجبه أن يفعل ذلك .

فلا بد ان يراعى من يتناول السياسة بالضرورة البنيان الاجتماعى والتوقعات الشخصية والاجتماعية • ولا بد أن يراعى من يكتب تاريخاً اجتماعياً « الأفكار » • وليس باستطاعة المؤرخ الفكرى كتابة تاريخه بغير معرفة بالمجتمع والتكوين السياسى للمصر موضع البحث ، والحق ان من أهم اركان البحث التاريخى والكتابة التاريخية - وان لم يكن هذا الشرط موضع تقدير كامل - ادراك التأثير المتبادل لمختلف المناهج المتبعة فى تناول الماضى • وعلى الرغم من أنه من المناسب التحدث عن انقسام الفعل الانسانى الى اقسام مستقلة ، الا أن الحياة ذاتها لا تعاش على نحو مجزأ ، ولن يكتب التاريخ كتابة صحيحة باتباع هذه الطريقة •

وتصور المختارات المنتقاة لهذه المطالعات الطابع المتعدد الجوانب والثرى والذى لكتابة التاريخ الأوروبى فى العهد الحديث ، وترمى الى تقديم العون لطلبة التاريخ ، وغيرهم من القراء لتقدير التنوع الثرى لنظراته الفكرية • وبعد أن يفرغ الطالب من قراءة هذه المقالات ، فانه قد يدرك أن أى وصف لعصر النهضة والحركة الهيومانية ، اتبع منذ أكثر من قرن من قبل أحد كتاب عصر الملكة فيكتوريا ، لم يعد مناسباً لمهنة المؤرخ :

« لما كانت ماهية الهيومانية هى الاعتقاد الذى يعتقد أنه لا يحتوى أى شك بانه لا وجود لشيء ما من الأشياء التى اهتم بها الأحياء من البشر ، رجالاً ونساء ، يمكن أن يفقد حيويته ، لذا يستطيع ادراك ماهية الهيومانية من اللغة التى تكلموها أو من طريقة استماعهم الى النبوءات فى ضمت ووقار أو من نظرتهم الى الأحلام التى مرت بخاطرهم ، أو الى أى شيء شعروا نحوه بتعلق واقتان ، أو تحمسوا له ، أو أضاعوا وقتهم فى سبيله (٢) » •

ان هذا العالم الفسيح من تجربة ماضى البشرية فى صورته المتعددة • هو العالم الذى يسعى المؤرخون للكشف عنه ووصفه وتفسيره •

القرن السابع عشر

أثناء القرن السابع عشر ، بدأ ظهور تنظيمات جديدة للسلطة السياسية في أوروبا . ويكمن في صميم هذا الاجراء طابع العلاقة بين الأنظمة الملكية المركزية ، ومراكز السلطة السياسية المحلية ، المتمثلة بوجه خاص في طبقة النبلاء والأعيان . وفي نهاية المطاف ، اتخذ الصدارة نموذجان سياسيان مختلفان : ظهر النموذج الأول في إنجلترا ، والآخر في فرنسا . وكما هو متوقع ، فقد نسب الى هذا الاجراء الاضطراب الديني بظلاله القتاتية ، وكان ماضياً في طريقة في خطى حثيثة .

ففي إنجلترا ١٦٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية بين القوى التي تدين بالولاء للملكية والقوى التي تدين بالولاء للبرلمان الذي يتزعمه كبار الأعيان الى حد كبير . وازدادت الخلافات الأصلية الدستورية حدة من تأثير الخلافات الدينية الأساسية التي أثارها أنصار كالفان ممن يطلق عليهم اسم « البيورitan » . ويفسر أنطوني فانتشر كيف استغل الزعماء البرلمانيون البيورitan المخاوف الشعبية الدينية من حدوث مؤامرة كاثوليكية ضد الحريات الانجليزية ، عندما هاجموا سياسات شارل الأول . وأحدثت الحرب الأهلية المترتبة انقلاباً في إنجلترا دام عشرين سنة . غير أن هذه الحقبة من القلاقل قد تبعتها في هذا القرن ثورة ١٦٨٨ ، التي وطدت النموذج السياسي الإنجليزي الذي قيد فيه البرلمان حكم النظام الملكي ، وساده أيضاً التسامح الديني .

وفي فرنسا ، حكم لويس الرابع عشر حكماً فردياً ١٦٦١ . ولقد شهد لويس في طفولته آخر تمرد للنبلاء الفرنسيين المعروفين باسم « أنغروند » . وعندما بلغ سن الرشد ، صمم على أن لا يدع سلطانه يتعرض لأي تحد . ويتبع ريتشارد بوني الأسلوب الذي سار عليه الملك لاختضاع

مراكز القوة الممثلة للنبل ، والمدن ، فسيطر على الواحدة منها تلو الأخرى ، إلى أن أخضعها في نهاية المطاف لهيمنة النظام الملكي . فضلا عن ذلك ، فلقد ألغى لويس الرابع عشر ١٦٨٥ ميثاق نانتي ، وبذلك انتهى التسامح الديني والبروتستانت الفرنسيين . وتوطدت وحدة الدولة الكاثوليكية . والنموذج السياسي الذي تمخض عن ذلك هو ما يعرف بمصطلح « الحكم المطلق » ، وقلده ملوك مختلفون في أوروبا في القرن التالي .

بيد أن السياسة وحدها لم تكن هي المتحكمة في القرن السابع عشر ، الذي شهد أيضا تصاعد حركة الفكر العلمي الذي بدأه كوبرنيك . ويعبر مصطلح الثورة العلمية عما حدث من فهم انساني جديد للتكوين الفيزيائي للكون - وللفلك بوجه خاص - ففي مدة تقل عن القرن ونصف القرن من الزمان ، انتقل المفكرون العلميون الأوروبيون من تصور الكون المتمركز حول الأرض ، إلى تصور كون تدور فيه الأرض حول الشمس . وأعظم أسماء اتبعت هذا الاتجاه الجديد هي : كوبرنيك وكبلر وجاليليو ونيوتن . وتفسر مرجريت جاكوب كيف استعان الكتاب المسيحيون بهذا الفهم الجديد لحالة انتظام الكون الفيزيائي في الدفاع عن الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وكيف سخر هذا الفكر الثوري العلمي لغايات اجتماعية محافظة .



الملك لويس الرابع عشر

اندلاع الحرب الأهلية الانجليزية

أنطونى فلتشر

كانت الحرب الأهلية الانجليزية من بين أكثر الأحداث اضطراباً في القرن السابع عشر في أوروبا . وبدأت هذه الحرب ١٦٤١ . وما أن جاءت ١٦٤٩ حتى توالى الأحداث ، فخضعت كنيسة إنجلترا لحركة الإصلاح الدينى الراديكالى ، وألغى مجلس اللوردات وأعدم الملك ، وبعد أن ساد الاضطراب زهاء احدى عشرة سنة عادت الملكية ١٦٦٠ . ولم يكن هناك من هو قادر قبل ١٦٤٢ على التنبؤ بمثل هذه الأحداث التى تبعها اندلاع الحرب الأهلية بين القوى الموالية للملك والقوى الموالية للبرلمان ، أجل ! لم تخطر مثل هذه الأحداث ببال أحد . واتسم الاضطراب باتساع نطاقه، مما دعا الى ارجاع اندلاع هذا الصراع فيما بعد الى النزاع حول المبادئ الدستورية الكبرى والمعتقدات الدينية . ولا شك أن قلائل قد تساءلوا عن الأحداث المباشرة والتحويلات المباشرة فى الجو السياسى التى أدت الى تصدع النظام السياسى واختيار الانحياز لصف أحد طرفى النزاع .

وليس هناك شك فى وجود مجالات للصراع بين الملك شارل الأول والبرلمان ، ابتداء من منتصف عشرينات القرن السابع عشر . فلقد زاد الملك دخل الحكومة ، وحكم البلاد دون رجوع الى البرلمان من ١٦٢٩ الى ١٦٣٩ ، أبان تلك الحقبة ذاتها التى ظهرت فيها الحركة البيورتانية ، وما صاحبها من تركيز على اللاهوت الكالفانى ، وانتشار فى طول البلاد وعرضها لقراءة التوراة ، ونزوع القسس الى حث الجميع على اصلاح أنفسهم بأنفسهم . وقوبلت هذه الدعوة بمعارضة شديدة من أساقفة كنيسة إنجلترا ممن يتبعون لاهوت أرمنيوس (**) و يقيمون الطقوس المقدسة .

(*) نقلا عن كتاب The Outbreak of the English Civil War تأليف

Anthony Fletcher (١٩٨٠) .

(**) الحركة الـ Arminian تنسب الى عالم اللاهوت الهولندى Arminious

الذى كان يدعو الى مذهب الارادة الحرة ، ويعارض كالفان .

ولم يتوقف الملك شارل عن مؤازرتهم، بل وتزوج أيضا أميرة فرنسية كانت تتبع الكنيسة الكاثوليكية . وليس هناك من ينكر الطابع الخطير لمثل هذه العوامل ، التي ارتدز عليها الصراع ، وإن كانت لا تعد بالضرورة مبررا كافيا لنشوب حرب أهلية .

وفي ١٦٣٩ ، دعا شارل البرلمان - بعد تردد دام طويلا - للمطالبة بالتصديق على بعض الاعتمادات لنصرف منها على الحرب ضد اسكتلندة ، وكان يسعى لارغامها على اتباع « الكتاب الانجليزى للشعائر العامة » واتيساع احكومة لكنيسة الأساقفة بدلا من اتباع الكنيسة الاسكتلندية الكالفانيه القوية ، ورفض البرلمان التصديق على الضرائب ، فأمر شارل بحل البرلمان . وهكذا أصبح هذا البرلمان يعرف باسم « البرلمان قصير الأجل(*) » . وفي ١٦٤٠ ، دعا شارل الى انتخاب برلمان آخر أطلق عليه اسم البرلمان طويل الأجل أو المعمر(**) ، وكان من بين زعمائه جون بيم ، الذى كان من المسعدين الصريحين للملك ، ومن البيورتان الأشداء ، ولما حدثت مواجهه بين البرلمان وشارل بعد أن ثار الخلاف بينهما ، وبعد أن حاول الملك القبض على أعضاء البرلمان ، ادعى بيم وأنصاره وجود مؤامرة بابوية لفرض الكاثوليكية على انجلترا ، وتقويض دعائم الحرية والديانة الحققة تبعا لذلك . وأخطر بيم ومؤيلوه شارل بهذا الرأى فى مظاهرة كبرى ١٦٤١ . وساعتت سنوات علم الثقة والمنازعات الحديثة العهد بين الملك والبرلمان ، والجدل حول من يحق له السيطرة على الجيش (الذى كان منهما آئتد فى اخماد ثورة نشبت فى ايرلاندة) على استحثاث كثيرين على تصديق هذه الاتهامات . وما هى الا شهور قليلة حتى ارتبط اسم شارل فى عقول الناس بالنوايا الشريرة للمؤامرة البابوية المزعومة ، وارتبط ايضا اسم البرلمان بالدفاع عن الحرية والديانة الحققة . فى هذه الحالة المضطربة ، التى أثارت البلبلة ، اندلعت الحرب الأهلية ، ورمز فيها الملك الى المبادئ الدستورية ، كما رمز البرلمان الى المبادئ الدينية ، واحتلم الصدام بين اتباع المبدأين .

لا يلزم رد الأحداث الكبرى الى أسباب كبرى ، وإن كان من الطبيعى أن يسعى المؤرخون للبحث عن هذه الأسباب . فحتى عهد قريب ، كان التاريخ البرلماني لبواكير القرن السابع عشر يعانى من أصفاد تقليد الأحرار(***) وتصوراته الكاسحة عن دورى الحكومة والمعارضة ، بالرغم من عدم مساهمة هذه التصورات لعصرها . فليس من المحتوم حدوث صراع بين الملك

Short Parliament.

(*)

Long Parliament.

(**)

Whigs.

(***)

والبرلمان يسفر عن ظهور دستور متوازن في القرن الثامن عشر . كما أنه لم يثبت إمكان تفسير الحرب على أنها ثورة اجتماعية . إذ كان الانقسام في الرأي يمثل بكل جلاء انقساماً داخل الطبقة الحاكمة . وبالمثل فلا يفي بالغرض أيضاً التفسير المستحدث الذي يفسر الصراع على أنه قد وقع بين البلاط والأهالي . فلم يخطر ببال أحد من أغلب من اشتركوا في القصة التي سنرويها في الصفحات التالية ، أنهم ينتمون إلى أي طرف من الطرفين ، كما أنه كان من المستبعد لأي أحد ممن عرفوا العالم البيورقاني من محاضراته وشعائره صومه أو ممن حدقوا بأبصارهم متأملين لوحة الرسام الهولندي روبنز التي مجد فيها عائلة ستيوارت (*) ، أن يرتاب في وجود صراع بين النزعتين في ثلاثينات القرن السابع عشر ، فلا بد إذن من وجود سبب أقوى من الصراع بين النزعتين لدفع الملك ورعاياه لخوض الحرب .

فما الذي تعنيه مثل هذه الأحداث ؟ . ان أي بيان مفصل يروي حدثاً هاماً كاندلاع إحدى الحروب الأهلية ، ويتتبع الأحداث خطوة خطوة ، سيكتشف بالتأكيد مدى التعمد الكامن في أية عملية سياسية من هذا القبيل ، وسيكتشف كيف تسلسلت الظروف الضرورية التي أدت إلى ظهور شيء ما يتناقض تناقضاً شديداً هو وافتراضات عامة الناس عن العلاقة الاجتماعية والسياسية . غير أنه ليس هناك ما يدعو إلى تجريده السرد السياسي للقصة من كل معنى يمتد إلى أغوار بعيدة . فلا يصح القول على الإطلاق بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت مجرد مصادفة . فلقد لعب الحظ والاتفاق دورهما بلا مرأ . ولكن لعل الأحداث كانت ستجىء مختلفة ، لو أن التمرد الايرلندي لم يقع في نفس الوقت الذي وقع فيه . وعلينا أن لا ننسى أن القصة حافلة أيضاً بمثالية بعض الأشخاص ، والشاعر الجماعية والأهواء الأيديولوجية .

ولقد بينت دراسات البرلمانات والادارة في الحقبة الواقعة بين ١٦٠٣ و ١٦٤٠ وجود انقطاع في أداء هذه الهيئات لواجبها في بواكير حكم ستيوارت . وازداد ذلك وضوحاً عندما اشتلت وطأة الحرب في عشرينات القرن السابع عشر ، ومرة أخرى ١٦٤٠ . غير أنه من المهم أن نلاحظ - نظرياً على الأقل - أن المشكلات الإدارية التي تركز عليها الاهتمام بعد نشوب الحرب الاسكتلندية ، قد أمكن حلها خلال ١٦٤١ بفضل اصلاحات بيم الاقتصادية ، وفرضه ضريبة عامة للدخل وعقده معاهدة سلام مع اسكتلندة وتسريح الجيوش . وبعبارة أخرى ، فإن صبح وصف ما حدث

(*) هذه الصورة موجودة في سقف Inigo Jones Banqueting House في وايت هول .

١٦٤٠ و ١٦٤١ بالأزمة الدستورية ، فإنها لا تزيد عن أزمة أمكن التغلب عليها ، ولم تكن هناك حاجة ماسة لاشعال حرب أهلية .

ورأى بعضهم الاهتمام المحورى فى الحقبة بين ١٦٤٠ ، و ١٦٤٢ كامنا فى ارجاع الخلل الى أسباب برلمانية ، ومعاداة الأغلبية « للأرمنية » وضريبة السفن(*) ، والرغبة فى ازالة ستراتفورده من الحياة العامة، وتنظيم العمل بالبرلمان . غير أن مثل هذه النظرة قد أرجعت فى تحليلها المشكلات التى لازمت البرلمان عهدا طويلا الى بداية عهده ، ولا أظن أنه قد خطر ببال معظم من زحفوا نحو وستمنستر فى نوفمبر ١٦٤٠ أن هناك سببا برلمانيا يدعوهم الى ذلك . فلقد ساد الاعتقاد بأن الهدف من البرلمانات هو حل الخلافات بالمصالحة وتصفية النزاعات ، مما يوحى بتجاوب أغلبية أعضاء البرلمان مع هذا الهدف ، ولم ير أحد ماعدا بيم وقلة من أصدقائه الحميمين المسألة فى ضوء بعيد الاختلاف . فقد ظنوا أن ارجاع السبب الى البرلمان سيساعد على استئصال المؤامرة التى أصابت الأمة فى الصميم . ولا بد - بالتاكيد - من اتخاذ سوء تصورهم الأساسى للموقف السياسى الذى ذاع بطريقة متزمتة ، وانتشر فى الشهور التالية كنقطة بداية لتفسير أسباب اندلاع الحرب . فالمشكلة المحورية اذن لم تكن ارجاع هذه الأسباب الى خلل ما ، بقدر كونها التساؤل حول لماذا التفت الكثرة فى وستمنستر وما وراءها حول بيم وأعوانه وتشبثوا بهم، رغم نظرتهم المحبطة ومغالاتهم فى تصور متاعب الأمة ؟

لقد أشيد بالمعية زعامة بيم واقتداره فى السيطرة على المؤيدين ، وألباب المتعاطفين عليه فى المجلسين . ولكن ليس بمقدور أحد أن يتناسى التباين بين تكتيكات بيم وحادثة تبصرها ، ونزعتها العملية ، والأساس العاطفى لسياسته . فلعل هذه السياسة نفسها توحى بتعارضها مع العقل . اذ كان زعماء البرلمان أناسا غير قادرين بحكم أدوارهم على التفرقة بين الحقيقة والشائعة ، ولم تتوافر لهم الرغبة فى القيام بذلك . فمن البداية اقتضت بضاعتهم على الكلام البليغ . فلا ننسى ما يجره عدم الثقة من ويلات . ولقد تصدع الايمان . وشيئا فشيئا ، اختفت فرصة استعادة الثقة بالملك وحوارييه . وشاركت فى هذه العملية الأحداث الخارجية والطارئة ، وكشفت لأعضاء البرلمان عن مغزى قصة بيم وما تنبىء به من نتائج واضحة للعيان ، ومن ثم علينا أن ندرك وجود عدة أحداث شاركت فى صنع قرار بيم كمؤمرات الجيش والمؤامرة التى جرت فى اسكتلندة ضد منتقدى الملك والتمرد الايرلاندى ، ومحاولة الملك القبض على خمسة أعضاء من البرلمان . وفى

(*) Ship money - ضريبة فرضت على الموانئ والمدن والأحياء السكنية

والريف البريطانى ، لجمع مبالغ من المال تخصص لانشاء سفن حربية .

كل مرة كانت تقع أحداث تؤيد وجود هذه المؤامرة ، وتثبت وجود بصمات الملك عليها . وبدأت المناوشات في وستمنستر ووايتهول في ديسمبر ١٦٤١ ، وبدأ حضور الملك لجلسة مجلس العموم بعد ذلك ببضعة أيام كأنه تصعيد منطقي لكل ما قانه بيم وأعوانه منذ ٧ ديسمبر ١٦٤٠ . ولابد أن يكون ريتشارد باكستر - وهو من بين من علقوا بعد ذلك على تفسير بيم للحرب - قد خطرت بباله تلك الأيام عندما كتب يقول : « لقد بدأت الحرب في شوارعنا ، قبل أن يتسنى للملك أو البرلمان حشد أية جيوش » .

وعلى الرغم من موجة العداء التي تعرض لها بيم بعد ذلك ، إلا أنه كسب أتباعا أقوياء في لندن في خريف ١٦٤١ . وعلق الوزير نيقولاس على العقبة الرئيسية التي اعترضت إعادة اعلان سلطة الملك فقال « ان الصخب الذي صحب النية للعودة الى العقيدة الكاثوليكية هو أول من تسبب في بغض الشعب لحكومة كل من الكنيسة والكومنولث » . ومن دلائل الروح التي سادت العاصمة (لندن) الرسالة التي أرسلها أوبريان المقيم في كوفنت جاردن الى سير فيليب برسيفال : « بالرغم من أنني أقسمت بالولاء لخبطة البابا وجلالة الملك ، إلا أنني لا أجرو على التمرد عليهما . فالاضطهاد أمر مريع جديد وشديد الوطأة » .

كان من الطبيعي أن لا تعي الاقاليم رسالة بيم الا بعد مضي وقت طويل . غير أن المظاهرة الكبرى (*) قد كشفت في نهاية المطاف عن النية المبيتة . ادّعى آنته توماس ستكوديل من يوركشاير عن الاستعداد للتشهير بانهم الأعضاء الخمسة ، ووصفه بأنه مؤامرة يسوعية . وربطت الدعاية البرلمانية كل ما فعله الملك بين يناير ونوفمبر ١٦٤٢ والمؤامرة البابوية وزعم أن تطهير الملك لبعثة السلام في ١١ يوليو كان بمثابة مقدمة لتيسير التغير الكبير المستهدف للدين والحكومة ، مع الاكتفاء بذكر مثل واحد . واستمر وقع هذه الدعاية واضحا في الالتماسات التي قدمت في ربيع هذه السنة ، واستمرت أصداؤها تتردد عالية طوال الصيف . وجددت الالتماسات الجديدة الصيحات البيغافية لشهرى فبراير ومارس . وتمثل التفجرات التي ثارت في وادي ستاور ضد الكاثوليكية مدى ترحيب الجماهير بهذه الصيحات . وكشفت أعمال البحث في بيوت الرافضين في عدة مقاطعات عن وجود مبالغ طائلة من المال وأسلحة مكسدة ، ساعدت اعتمادا على براعة الدعاية المصاحبة لها على زيادة التوتر فحسب ، بدلا من أن تعيد الاطمئنان الى القلوب .

ويرجع انتصار بيم الى أنه عندما فرض مخاوفه من زحف الديانة الكاثوليكية بطريقة كاسحة على عامة الناس ، وما عرف عنهم من قابلية للتأثر بمثل هذه الأساليب ، فإنه نجح في اقناع عديدين بتأهب البابويين لاشعال النيران . وانتشرت الشائعات - التي لم تكن بغير أساس بطبيعة الحال - بأن البابويين قد أمدوا الملك شارل بما يحتاجه من مال . ووفقا لما جاء في أحد التقارير التي انتشرت في سائر الأنحاء ، فإن الملك قد تلقى بالفعل مبلغ ٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني من البابوية والاكليروس ونسب عامة الناس المرة تلو الأخرى عدوان الملكيين الى الرعايا الكاثوليك للملك . فرأينا جون أوزبورن يخطر هنري أوكسيندن في ٢٧ يوليو « بانقضاء البابويين على لانكشاير ، وتهديدهم بانزال الولايات بالبروتستانت المقيمين في هذه البقاع » ، وأبلغ إيرل ستافورد أعضاء البرلمان في ٨ يوليو في معرض روايته للأحداث (*) : « لقد تأمر جميع البابويين واليسوعيين في انجلترا سويا للاحاق الدمار به وبأسرته » . وأبلغ صيدلاني من جرائتهام جاره الذي اعترف بمناصرته للملك قبل ذلك بأيام : « ان لديك قلبا عفنا داخل جسدك ، لأنك بتأييدك للملك ستتضرر الى مناصرة البابويين » . وانتشرت الأقاويل عن البابويين ممن التفوا حول العرش في يورك وأعرب أحد الوجهاء (**) عن مخاوفه من احتمال استغلال « أمر البرلمان بنزع سلاح دعاة الانفصال محليا لتجريد أفضل البروتستانت ، وتركهم بلا حول ولا قوة ، لكي ينكل بهم البابويون - الذين كانوا ما زالوا غير مسلحين - ولكي يقطعوا رقابهم » واحتل جورينج بورتسموث في بداية شهر أغسطس ، وزعم أن ما ساعده على تحقيق هدفه هو العون الذي تلقاه من أربعمئة أو خمسمئة من «القرصان والبابويين» . وذكر أن سير بيفل جرينفيل - هكذا تقول الحكاية - زار أغلب الأعيان البابويين في كورنول وديفون - متنكرا - خلال شهر أغسطس لجمع الرجال والمال للملك . وتولى سير جون بيرون الزمام في اكسفورد بمساعدة ليف من البابويين وغيرهم من الأشخاص اليائسين . وأبلغ قاضي المصالحة (***) في كنت في ٢٣ نوفمبر « عن انزعاج الفرق المدربة مما يفعله البابويون الذين ياقون كل ترحاب بعد أن أطلق اللوردات سراح أحدهم من سجن مينستون » بعد أن سمعوا في جميع التصريحات أسماءهم مقترنة بحزب الأسقفين ، مصلح كل بلاء وشقاء .

لم يعرف عن الزمرة المحيطة بيم أنهم اتصفوا بقدر من السذاجة يدفعهم الى افتراض قيام البابويين وحدهم بتغيير العقلية الانجليزية وقلب

Leicetshire.

Monmouth hire

Lentball

(*) من .

(**) من

(***) ابلغ رئيس مجلس العموم لنتهول

حكومة انجلترا . اذ اعتمدت براعة المخطط الكاثوليكي والمظاهرة الكبرى على مناصرة جماعة من رفاق السلاح مؤلفة من الاساقفة « أو الجزء الفاسد من الاكليروس ، بمعنى أصح » والمستشارين أو رجال البلاط ممن يعملون لصالح أنفسهم طمعا في المغنم التي يحصلون عليها مقابل اشتغالهم عملاء لدولة أجنبية . ويعكس رد الفعل السريع لاحتجاج الاساقفة على أحداث ٣٠ ديسمبر ١٦٤١ المزاعم التي تشبثوا بها بعناد وانحيازهم الى صف الخونة . وأزيح ستراتفور من الطريق ، بعد أن اعتقد كثيرون أن هؤلاء الاساقفة يمثلون أكبر حزب مشبوه في المملكة . وعومل الاكليروس المنحل بعد اقتلاع جندوره بصرامة . فكما لاحظ أحد المعقبين(*) في ٢١ يوليو ١٦٤٢ : لقد أثبتت أبحاث المجلس أن الاكليروس الذين تسببوا في استيراد « مذاهب شريرة كالأرمينية » كانوا غالبا من أصحاب النفوس المفضوحة . وكتب رئيس البرلمان الى لجنة الأمن في ٢٢ أكتوبر يوحى بمصادرة جميع الأموال التي جمعت في عيد القديس مايكل ، بوساطة الاساقفة والعمداء والشماسين « باعتبارهم عصابة من الأشرار الذين أثبتوا مسئوليتهم عن حالة الشقاء التي نعاني منها الآن » .

وتزايد تاويل فكرة وجود حزب شرير يجنح الى الحاق الأذى والدمار بالامة ، عندما تكشف أحداث أواخر ١٦٤١ ، وبدايات ١٦٤٢ . فلقد استدرج أشخاص مثل ديجبي وجورنيج بسهولة الى الشبكة . واعتقد ديوز أن جورنيج شخصية منحلة من الزنادقة ، تعمل لحساب البابويين لتحويل بورتسماوث الى حامية ملكية . وتعذر تجاهل الحقيقة البسيطة التي كشفت عن مرافقة ضباط الجيش الذين حاربوا مواطني لندن في وستمنستر ووايتهول في نهاية ديسمبر ١٦٤١ للملك شارل في ٤ يناير ١٦٤٢ وتجرعهم لشراب نخبه في كنجستون ، وأطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم الفرسان . وما لبثوا أن تمتعوا بالخطوة عند الملك مثل مستشاريه راسخي القدم . ولاحظ سير جون هوتمان أن كثيرين ممن التفوا حول الملك عند بوابات هل في ٢٤ أبريل كانوا من المنتسبين الى البرلمان ! .

وهكذا انكشف الستار عن حقيقة المؤامرة ، أكثر من ذي قبل ، بعد أن كشف أنصارها الأبرياء عن أنفسهم . فلم يعد هناك من بين من تأثروا بدعاية بيم من يرتاب في تستر البابويين وراء الاساقفة والاكليروس والفرسان . ففي رسالة الى سيرجون بانكس في ٣١ مايو أجمل إيرل اسكس أعداء الامة عندما وصفهم « بالمجرمين البابويين الراغبين في التربع على حساب متاعب البلاد » . وبعد ذلك بخمسة شهور ، وفي رسائله التي أعلن فيها احراز « نصر موفق » في ادجهيل نبذ بانكس الجيش الموالي

للملك ووصفهم اجمالا « بالأشخاص اليائسين المرضى بالولاء للدولة » . ولم يبق غير فلائل من أمثال هنرى مارتن الذى ازدرى خرافة الظن بأن الملك أسير مسلوب الارادة من قبل مستشاريه . أما أغلب زعماء البرلمان فمن غير المستبعد أن يكونوا قد آمنوا نصف ايمان بدعايتهم . فرأينا ترماس نول يكتب للناخبين فى نورويش فى ١٠ سبتمبر ما يأتى : « انى مقتنع بأنه لو شعر هؤلاء المجرمون ، والفرسان الذين فى معيتهم بالاطمئنان الى امدان النجاة بارواحهم ، فان جلالة الملك سيمسح حينذاك الحضور الى البرلمان ، ولعله شديد التأييد لهذه الفكرة » ، ولا يستبعد أن يكون معظم أعضاء البرلمان قد رددوا نفس النغمة . وليس هناك ما يدعو الى الارتياح فى اخلاص رسالة دنزيل هولز الى بانكس ، التى كتبت على عجل فى مجلس العموم فى ٢١ مايو . اذ كان واثقا من نزوع البرلمان الى الخضوع للملك وتعبير أعضائه عن كامل الولاء والاخلاص بمجرد ظهور أول علامات دالة على تغير موقف جلالته ، وتخليه عن المستشارين الذين دفعوه الى اتباع موقف البغض والمعارضة لكل ما يقومون به . وبذلك خانوا أمانة ولائهم له .

وترجع قوة قضية البرلمانيين فى وستمنستر وما وراءها الى ما اتسمت به من مسلك تلقائى ، لم يحدث أى اختلاف بشأنه . فلم يكن هناك أى شك فى وصم أعداء الأمة بالأشرار المتعنتين . وبذلك غدا التوثوم والتناغم مع البرلمان والوثوق فيه رد فعل دفاعى وضرورى . وظهر هذا الاحساس واضحا جليا فى التماسات بواكير ١٦٤١ . وعبرت عنه بعض الاستعراضات الصيفية التى أشرفت عليها الميلشيا . وكم تأثر بها شديد التأثير من جاهدوا فى مجلس العموم حتى النهاية . وعبر دنزيل هولز فى حديث له فى ٢٧ يناير ١٦٤٢ عن اعتقاده بحفاظ البرلمان على معايير الاستقامة والالتزام بالواجب العام ، مما جعله يحظى بالتفرد كأداة يستعان بها لخلاص الدولة : « ذكرى من يسعى فى سبيل الحصول على الخطوة ، أو يعمل مدفوعا بغايات الود أو البغض ، أو أية غايات أخرى ، ولا يحرص على مراعاة الاخلاص فى فكره ، لا يستأهل الجلوس بين هذه الجدران . وكم أنا موقن أنه لن يدخل جنة الخلد أبدا » هكذا عبر سير سيموندس ديويز فى ١٦ مايو عن شعوره بأن كرامته وعزة نفسه مرتبطتان بما ينجزه «البرلمان طويل الاجل» . وأردف قائلا : « من ناحيتى أظن أن من يحلمون بتحقيق السعادة لأنفسهم بعد القضاء على البرلمان يملكون قدرا غير عادى من الحكمة يؤهلهم للصعود الى القير ! ولست أرغب قط فى مشاهدة ذلك اليوم الذى يتحطم فيه البرلمان » .

على أن كل هذا لا يزيد عن أحد وجوه الحقيقة . فاقعد عاش شارل الأول ومستشاروه الحميمون فى عالم عقلى مغلف بالمثل . فاقعد زودرة

تجربته في عشرينات القرن السابع عشر بنظرة هوائية مسممة عن البرلمانات، وباحساس شديد بعدم الثقة في أشخاص بالذات ، اعتقد أنهم على استعداد لتحدي ملكه لأسباب شخصية وأناية . وازداد استعار متاعبه هو والاسكتلنديين من جراء اعتقاده بأن البيورتان مشاغبون بفطرتهم . ولقد لازمته هذه الفكرة واستحوذت عليه، وترجع الى تأثره يكون(*)، والمساجلات التي دارت بينهما ابان ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ عن امكانات مسارعة البابا بالنهاوض لمساعدته . وصور كون التمرد الاسكتلندي بأنه حصيلة الشراة والطموح المغلف بغلاف الدين . ورأى الملك - بكل بساطة - الشخصية الانجليزية بنفس المنظور . فلقد أخطر أعيان يوركشاير في ٤ أغسطس : « عدم استبعاده أن يسلمه البرلمان هو وأبناءه » لحفنة من الأشرار الذين كونوا عصابة ترمى الى التخلص مني . « وصرح لجيشه في ١٩ سبتمبر : « انكم لن تواجهوا أي أعداء، ولكنكم ستواجهون خونة معظمهم من أتباع براون(**) واللامعمدانين والملحدين ، أي من الساعين لتدمير الكنيسة والدولة معا » . ولخص في مناسبة أخرى (***) قضيته على الوجه الآتي : « لقد عوملت من قبل حزب شرير قوى في هذه المملكة يهدف الى ما هو أدهى من تحطيم شخصي وتاجي وقوانين البلاد والسلطة الحاكمة للكنيسة والدولة » .

واستندت قوة شخصية شارل على احساسه الدائم بعدم استجابته لأحد غير الله . وتحدث على رأس جيشه قبل أن يخوض معركة ادجهيل بيومين عن « الكفر الانساني ، المجرد من التقوى عند ذلك النفر الذي لا يستجيب لكلمته » . « علما بأنه لا يهدف الى أي شيء غير اسعاد مملكته والدفاع عن الكنيسة والقانون وحرية رعاياه » . وأصر على القول « ان علينا أن نتحرر من الطموح الذي يملأ عروق من يتصفون بالعظمة ويسعون لزيادة عظمتهم لأننا نحن الأعظم بالفعل ، وسيبقى الحسد والحقد بعيدين عنا ما دمنا لا نسعى للتنافس والتسابق » . ولعل اساءة فهم الملك لأهداف خصومه ودوافعهم كانت خطورتها ستقل لو اختلفت شخصيته عن ذلك . اذ كان شارل من الأشخاص الذين أسرفوا في عدم الوثوق حتى في أشد الناس ولاء له . أما نظرة الآخرين له فقد تركزت على تصوره كشخصية محبة للعزلة تتسم بالجرأة ، غارقة في ثقافة بلاطه الكوزموبوليتانية ، التي لم يفهموا أصلها وفصلها ، ورأوه شخصية شديدة التعلق بزوجه الفرنسية ، التي لم يعنهم أمرها من بعيد أو قريب . أما ما دفعهم للارتباب فيه - على حق - فكان ضلاله وميله للتأمر . وابان ما دار من جدل حول تنفيذ قوانين

Con.

(*)

(**) Brownists : انصار Robert Browne (١٥٥٠ - ١٦٣٣) وقد

الف جماعة دينية متطرفة .

(***) في حديثه الى اهل Denbighshire في ٢٧ سبتمبر .

المكابرة(*) في برلمان ١٦٢٥ ، كان بمقدور أى عضو في البرلمان الاعتراض عليه دون وجل فكانوا يقولون «أن تعلق الملك بالدين يتبع أهواءه وأمانيه» . وما كان أحد يجرؤ على التفوه بمثل هذه العبارات قبل ١٦٤١ .

واهتزت ثقة الناس بشاؤول من جراء تزعزع سياسته وترددها إبان النصف الأول من ١٦٤١ . وجاء تشدده فيما بعد كأنه برهان يؤيد ما يقال عن استيلاء البابويين على لبه . وأدت أغلاط الملك - لا سيما انشقاق خمسة أعضاء من زمرة - إلى وقوع أحداث جسيمة ترتب عليها عدم حل الأزمة السياسية . وأسفرت بالمثل عن إصابة النظام الملكى (لعائلة ستيوارت) فى هذه اللحظة بالذات بالوهن . وكان بالاستطاعة الرد على مظالم ثلاثينات القرن السابع عشر بأصدار قوانين جديدة . أما الخسارة المريعة فى الثقة التى نجمت عن إلغاء سياسات جيمس الأول الخارجية والدينية ، وإقحام ثقافة ملكية غريبة ، فقد تعذر إعادتها لسابق عهدها . ولما كان نفوذ الملك قد تدنى لدرجة كبيرة ، لذا لم يكن مستغربا تعرضه لما شاع من قصص المؤامرات التى تحدث بين عنها .

فلقد لاحظ إيرل بريستول فى حديث إلى اللوردات فى ٢٠ مايو ١٦٤٢ « بأن أمراضنا ترجع إلى أوهامنا وشعورنا بالزهو بأنفسنا (وأعنى بذلك مخاوفنا ومظاهر غيرتنا) أكثر من ارتدادها إلى أى سقم حقيقى أو خلل » . وجاء تحليله حصيلة لما أدركه إدراكا فعليا : « من اليسير تهدئة الاختلافات التى ترد إلى أسباب معقولة ، بل ومن الممكن التهوين من الشعور بأية أساءة ، وتفوق قدرتنا على ذلك القدرة على تخفيف حالات الغيرة النابعة من عدم الثقة بالنفس . والتى تتعرض للتفاقم والتشكل فى أشكال شتى توائم كل مناسبة » . وعرض معقب آخر (**) تحليلا رصينا مماثلا فى رسالته إلى سير جون بانكس قبل ذلك يوم واحد : « من الواضح الجلى ، أنه لا الملك ولا البرلمان مجردان من المخاوف وبواعث الغيرة . فالملك يخاف ويغار خشية فقدانه لسلطانه والعدوان على حقوقه . أما البرلمان فيخاف ويغار من فقدانه للحرية التى يتعين أن يتمتع بها الرعايا الذين ولدوا أحرارا ، والتى تسمح بها قوانين البلاد » . وصرح نورثمبرلاند وهو يتذكر عبارة قيلت ١٦٢٨ : « لعل تغيير الحكومة من الأمور التى يخشاها الطرفان » . وكان بعض البرلمانيين صرحاء عندما أبلوا الاهتمام بالحفاظ على حرياتهم . فكتب سير رالف فيرنى فى يونيو ١٦٤٢ : « فحتى ننع بالسلام ، لابد أن نستمتع بالحرية . وإذا لم أستمع بالحرية ، فإنى لن أنشد السلام من

(*) Recusancy laws القوانين التى صدرت لالزام المواطنين باتباع الشعائر التى تفرضها الكنيسة .

(**) Northumberland.

صميم فؤادى » . واقتنع جون هاتشنسون بوجود مؤامرة لاعادة العقيدة الكاثوليكية « الا أنه لم يؤيد اتخاذ هذه الذريعة كمبرر للحرب ، مثل الدفاع عن الحريات الانجليزية العادلة » . ولقد وردت هذه الرواية على لسان زوجته . والظاهر أن ما أفصح عنه فرنى وهاتشنسون هو عدم قدرتهما على الوثوق فى امكان حكم الملك باتباع القانون .

ومن المهم حيويًا التفرقة بين المشكلات التى نارت من وراء الأزمة السياسية ١٦٤١ و ١٦٤٢ (كتلك الخاصة بالميليشيا وتعيين مستشارين وما ترتب عليهما) . وليس من شك أن ايرل بريستول وايرل نورثمبارلاند قد أدركا هذه المسألة ادراكا صحيحا . اذ استندت الحرب الأهلية على وجود علم ثقة متبادلة .

فمنذ وقت باكر يرجع الى ١٦٢٦ ، ازدادت المخاوف من فكرة المساواة ، من ناحية ، ومن العقيدة الكاثوليكية من ناحية أخرى . وأعتقد من منظور الحياة الانجليزية المعاصرة بوجود هوية بين هاتين الناحيتين . انها مخاوف يعكس كل طرف منها المخاوف الأخرى ، وتتبادلان التأثير على نحو غريب . اذ ساعدت كل منها بالضرورة على ترسيخ الأخرى . وما حدث ١٦٤١ ، ١٦٤٢ هو تعرض طائفتين من الناس للتقييد كسجناء للأساطير المتنافسة التى تتغذى كل منها على الأخرى ، بحيث بدت الأحداث وكأنها تؤيد تفسيرين متعارضين للأزمة السياسية . وكان التفسيران أصلا نتيجة لاساءة تصور ووقوع فى الخطأ . ولربما بدا هذا الأساس أساسا هشًا لا يبرر قيام الحرب الأهلية . غير أن الحرب يجب أن ينظر اليها على ضوء اجذاب مخيلة القرن السابع عشر . اذ كان المجتمع حينذاك مجتمعا يفتدى فيه الناس من أجل عمليات تفتقر الى القدرة على تصور الأنظمة السياسية والموازنة بينها . وكان هذا المجتمع شديد الاتباع لنظرة تقليدية للعالم تراه مكانا لا يتوافر له « الا قدر محدود من الخير » ، ولا يتسنى لأى شخص أن ينعم بالخير الا على حساب شخص آخر .

لهذه الأسباب ، فلا بد أن يخفق أى بيان عن أصول الحرب الأهلية يتجاهل انصاف مضمونها الأيديولوجى استنادا على ما شابه من خلل . فاذا كان الخوف وانعدام ثقة الأمة قد جعل الحرب أمرا لا مفر منه ، الا أن هناك - يقينا - عاملا آخر أكثر اتصافا بالايجابية دفع الناس الى امتشاق الحسام ضد بنى وطنهم . اذ كان هناك عديدون على الجانبين ١٦٤٢ يعتقدون أنهم يحاربون فى سبيل قضية ما ، وأن رسالتهم لا تقتصر على الدفاع عن الدولة ضد حفنة منشقة أو ضد احدى المؤمرات . نعم لقد اندلعت الحرب الأهلية لوجود توافؤ بين اساءة الفهم الميئوس منها ، وعدم الثقة التى لا تقبل المصالحة ، مما أدى الى نشوب صراع أيديولوجى شرس .

ولعل تعريف ايدولوجية الملكيين ، كان الأصعب عند اندلاع الحرب ، لأنها لم تتبلور الا حثيثا . ومنحت المشاعر التعميمية الهلامية الملك قدرا كبيرا من التأييد المبدئي ، وان كانت هناك تلميحات باستناد مناصرة النظام الملكي على دعامة من الاتجاه الانتقادي لأهداف النخبة المسيطرة على وستمنستر ، وتكتيكاتها ، وتكشفت المثالية الموجبة التي ساندت أولئك الملكيين ، وتوطدت ، خلال ١٦٤٢ . وانصب جوهر هذه المسألة على التمسك بالتصور التقليدي المعتدل لدور الكنيسة في المجتمع ، مع التشديد على أهمية اتباع نظام خاص في العبادة وحكومة الكنيسة على السواء .

أما جوهر الأيدولوجية عند البرلمانيين فكان قوامه الربط في عقول الناس بين الكفاح ضد العقيدة الكاثوليكية والحفاظ على الدين الحق . وأرجع أحد المؤرخين جوهر الصراع مع الملك « الى الصدام بين الدين الحق والعقيدة الكاثوليكية » . ولن يتسنى لنا فهم حماسة البرلمانيين في بداية الحرب الا اذا قدرنا مدى ما أصاب كثيرين منهم من احباط من المظهر المتقلب للكنيسة التي اتخذت موقفا متأرجحا بين الاصلاح الديني وما استلهمته من رؤياها لأورشليم الجديدة ، والصدمة التي أحدثها اعتداء الملك في العقد السابق على التيار الأساسي للأنجليكانية البيورتانية المعتدلة . وكما بين هولز في حديث له في ٢٢ يونيو ١٦٤٢ : « لقد رأى البروتستانت مدى ما تعرضت له حقيقة الدين وجوهره من تآكل من تأثير المظاهرات الفارغة والاحتفالات غير الضرورية ، والأخطاء الفادحة للعقيدة الكاثوليكية والارمينية ، التي فرضت علينا تحت اسم مذهب كنيستنا ، فانفتح الباب على مصراعيه أمام جميع مظاهر الفجور » . ووصف مقدمو الالتماس باسم « اسكس » الدين بأنه أنفس من أرواحهم وحرقاتهم : « ان هدفنا الرئيسي هو الحفاظ على الدين » كما صرح أحد أعضاء البرلمان في معرض تعليقه على رد الملك على الاقتراحات التي أرسلت الى قصر بيفرلي في ٢٥ يوليو : « لقد بدا الآن ان الغرض الأساسي للبرلمان هو تحطيم الدين » .

أما بيت القصيد وراء هذه الأزمة فقد كان مستقبل الكنيسة ، وليس مشكلة ايليشيا أو تعيين المستشارين ، والعبارات المباشرة عن انعدام الثقة السياسية . وكان على رأس الموضوعات التشريعية المطروحة على مجلس العموم في صيف ١٦٤٢ مشروع الدعوة لاجتماع رجال الدين ، والغاء التعددية ، واستئصال البدع الأرمنية واستبعاد القسس المنحلقين ، وكانت هذه المشروعات هي التي حاول أعضاء البرلمان التعجيل بعرضها على مجلس اللوردات ، مما دفعهم الى الاسراع في الاقتراح التاسع عشر على اعطاء الصدارة لمعاهدة محادثات أكسفورد في الأشهر الأولى من ١٦٤٣ .

وذكر ديويز(*) في حديث له في يوليو ، « أنه بينما أعلن بصراحة عن حقوق الرعية في التمتع بالحرية والامتلاك ، إلا أن المسألة الأساسية التي مازالت تحتاج الى طمأننتنا هي اصلاح الدين » . اذ كان ديويز من بين من اعتقدوا أنه من واجب البرلمان درء خط تكرار هجوم الأرمنيين على الدين الحق ، بعد ادراك مقدار الاساءة الناجمة عن هذه الاحتفالات ، والتي لا تعد ضرورية بأي حال ، ومن ثم يتحتم الغاؤها تماما ، وبذلك تنتهى متاعبنا التي نعانى منها فى سبيل ارضاء أصحاب الضمائر الضعيفة ، الذين يقبلون عليها ، والتي ما كانت لتستمر باقية بدونهم » . وقبل ذلك بأيام قليلة ، شدد ديويز على القول بأن البرلمان لا يرغب تعديل « أى جزء أساسى أو جوهرى من ديننا الراسخ » وكل ما يسعى اليه هو تعديل بعض أشياء فى الاطار الخارجى ، أو فى حكومة الكنيسة » . ومما يدعو الى السخرية ، أنه بينما قدح الملكيون فى البرلمانين لصفحتهم عن المتعصبين ، الا أنهم قد لجأوا فى الواقع الى وسائل قمعية . فمثلا فى سبتمبر ١٦٤٢ ، سجن أحد عمال الطرق بأمر مجلس العموم ، لأنه قام بالوعظ علنا فى هولبورن .

ولم يكن باستطاعة زمرة البيورتان فى معسكر البرلمانين التنازل عن اعتقادهم فى علو مكانة الحقيقة . ثم غدا هذا الاعتقاد متعارضا هو ودعوة فوكس التقليدية للولاء للحاكم الذى يحكم باسم الله . وهكذا تحول التيار المناهض للكاثوليك الى دفع الناس الى العصيان . وهكذا يكون الملك هو الذى فتح الطريق للدعوة الى الحرب الخفية التى تفجرت من منابر لندن ١٦٤٢ ، وهو الذى أرغم فئة عليا القوم على التحالف على نحو غير طبيعى مع البيورتان الراديكاليين ممن ينتمون الى مرتبة متدنية من المجتمع . وباختصار يصح القول بأن الصلة بين البيورتان والحرب الأهلية كانت الى حد كبير من صنع شارل الأول .

وفى بداية الحرب ، كان التأييد الشعبى مسألة حاسمة لتدعيم البرلمانين . وفى مقاطعة مثل سوسكس ، ما كانت الاليجاركية البيورتانية المحصنة لتقدم على خوض معارك البرلمان بغير اعتماد على الحماسة التأقائية لعائلات الأعيان فى الاحراج والأقاليم الشرقية . وهى حماسة تغذت لسنوات طويلة على مشاعر التقوى التى اشتهر بها البيت الانجليزى ، والبطام الخاق كه منولث يرعاه الله ، واذا كان بعض الأشخاص(**) قد قاموا بدور الزعامة الضرورية ، فان أشخاصا (***) آخرين قد ساندوا قضية

D'Ewes.

(*)

(**) من أمثال John Herbert Morley, Sir William Bereton Pyne.

(***) من المشتغلين بالتجارة وفى مقدمتهم Nehemiah Willington من لندن

وتاجر الأقمشة Samuel Priestley ومن أهل المدن المتحمسين مثل John Coulton

البرلمانيين في هذا المضمار . ويمثل وصف وارتون لزحف البرلمانيين الى وورستر صورة للنضال البيورتاني . وكتب وارتون بعد التقهقر الى كوبرى بويك : « على الرغم من أنني وآلاف عديدة كنا معرضين للتهلكة ، الا أنني كنت وإنتا من مناصرة الله لنا في نهاية الأمر » . وترك لنا شقيق بريستلي بينة عرفتنا كيف ذهب الى الحرب برغم توصلات أسرته ، مفضلا الاصرار على الموت في سبيل قضية خيرة على رؤية مأساة كتلك التي وقعت في ايرلاندة، وخطط لها في انجلترا . وتعتبر رسالة صمويل تيرنر لأخيه في لندن عن حملة الفرسان على هنلى في يناير ١٦٤٣ عن نفس الروح : « لا جدال في وجوب وصف من لم ير الله حاضرا في كل لحظة من لحظات هذا القتال ، عاملا على انقاذنا (وفركشة) أعدائنا بأنه قد فقد نعمة البصيرة » . وعندما سمع رالف جوسلين الذي ذكر أن « دوافعه للاسهام في تقديم المقترحات كانت نابعة من مشاعره نحو الله وكتابه المقدس » بأنباء ادجهيل بعد المعركة بثلاثة أيام ، أثناء توجهه لالقاء موعظة أحد أيام الصيام ، لاحظ توافق موعد هذه المعركة ومواعيد صلواته في يوم الأحد السابق لها : « عندما كنت أدعو الله أن يؤازرنا ضد أعدائنا » ، وهذا ما يؤيد القول بأن الحرب الأهلية الانجليزية كانت حربا دينية .

وهكذا اندلعت الحرب في انجلترا ، وسالت فيها الدماء على نحو ما كان أحد ليتكهن به ، أو يتوقعه قبل ذلك بسنتين . لقد كانت حربا غير طبيعية ، مثلما أدرك الناس آنئذ . واستند احساس الانجليزى بالأمان في هذه الحقبة على ايمانه بما اتصف به المجتمع المدني من توازن وتناغم وكرامة . وبإمكاننا أن ندرك حتى بالرجوع الى الفن المعماري وتماثيل الكنيسة في هذه الأثناء الى أى حد تمسكوا بهذه المعتقدات . فلم يكن الأشخاص مهئين للتوفيق بين التغير السياسى أو الانقلاب السياسى وبين دعائم عالمهم النهنى . فلقد أحدثت الحرب الأهلية انفصاما عما سبقها من أحداث ، وأرغمت على التحرر الموجه من الماضى . فاذا لم توصف هذه الحرب بالحرب التى لا مفر من وقوعها ، فإن هذا سيبرر شعورنا بمأسويتها . فهناك خليط عجيب من الحق والمثالب يكمن وراء الأحداث التى تحدثنا عنها . وعندما اندلعت العداوات ، كانت مصحوبة بمظهر هزلى ، أضفى على الحرب صورة رقصة الموت (ماكابر) . فلقد ذبح الملكيون ثمانية من رجالهم عندما انفجر أحد المدافع أمام قلعة وارويك في أغسطس ١٦٤٢ ، وطاحت رؤوس أربعة جنود في لواء بدفورد « نتيجة لاهمالهم العناية بذخيرتهم » أثناء تقدمهم نحو شربورن بعد ذلك بأسابيع قليلة .

وأخر انطباع ترك أثره في عقولنا هو الانفعالات التى أحس بها الأفراد من جراء تورطهم في هذا المأزق، بعد وقوع الرجال والنساء في صراع لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، وان صح القول بأنه كان من صنعهم . اذ بدا للعديد من

أبناء الفئة الحاكمة لانجلترا أن الحياة المتحضرة على حافة الانهيار . ولقد عرفنا من رسائل مختلف الأفراد الأحرار التي شعروا بها من جراء توقعهم اندلاع الحرب . ففي تلك الأيام الباكورة التي سادها الوثام من عهد « البرلمان طويل الأجل » ، كان أحد البسطاء (*) يحلم بكوخ في الريف فقال لزوجته : « أتخيل وجود بيت صغير نعيش فيه سويا على خير حال حيث نمضي ما بقي لنا من أيام في سلام ديني ، لأن هذا البرلمان سيحقق السلام والسكينة لنا جميعا » . وفي صيف ١٦٤٢ ، تأمل حالة بنى وطنه في أسى : « ان كلا الطرفين يسعى لاتباع القوانين . غير أن المشكلة لا تنصب على كيف سنحكم حكما شرعيا ، بقدر تركزها على من سيكون السيد والقيصل الذي يحتكم اليه عند تنفيذ هذه القوانين . انها حالة مؤسفة أن تستنزف ثروات هذه البلاد ونفائسها - وربما دماء أبنائها - في قليل من الغايات المراوغة » .

وشعر المعتدلون المخلصون بأوجاع أشد . انهم الأشخاص الذين لم يكن بمقدورهم ادراك النزاع كمسألة نظرية ، وان لم يكن باستطاعتهم تجنب الانحياز لفريق أو آخر . وكان أثر هذه الحرب على الصداقات الوطنية التي تمتد جنورها في أغوار بعيدة ، أشد ايلاما . وعبر اللورد سافيل في رسائله الى الليدي تمبل في خريف ١٦٤٢ عن شعوره بالمرارة لما حدث من قدح في سمعته في وستمنستر ، ولكن ما أثلج صدره هو تعرض صديقه الفيكونت ساي لتزييف صورته في جميع المحافل . وكتب سير جون بوتس الى ديويز ٢٢ سبتمبر : « عليك أن تنصف صديقك وتحميه من الألسنة الفحاحة ، التي أسمع قرقتها بأذني . يا سيدي اننى أؤكد لك ان ضميرى يدفعنى الى التمسك بالكومنولث الذي لن أحيده عن الولاء له » .

لم يتخيل أحد من العديدين من أبناء الأعيان وعلية القوم الذين ناضلوا أثناء الحرب الأهلية حدوث نصر فوري لأحد الطرفين . وأعلن سافيل : « لن أَرْضَى أن يمتن الملك البرلمان ، كما لا أَرْضَى أى حط من قدره ، قد يفسح المجال لعامة الناس لكي يتحكموا فينا جميعا . فبرغم شدة حبي للملك ، الا أنه لا يسعدنى أن أتخلى عن البرلمانيين ، رغم أنهم كانوا مخطئين » . واعترف سير وليم وولر فيما بعد بمقتة للحرب رغم اشتراكه فيها . ولكنه كان يرغب دائما « أن لا يصاب أحد الطرفين بسوء على حساب فوز الطرف الآخر » . وكتب جون هوثام لايرل نيوكاسل في ٩ يناير ١٦٤٣ ما يلي : « اننى كالآخرين أمجد الملك الى حد كبير ، وأحب البرلمان ، غير انى لا أميل الى رؤية أحد الطرفين يقهر الطرف الآخر قهرا مطلقا ، لأن هذه النتيجة ستعده اغراء كبيرا لفرض الارادة وممارسة العنف » .

وساقت الحرب الأهلية طبقة الأعيان الى الظلمات ، وحاولوا استبقاء
مظاهر الحياة ، كما عرفوها ، بينما كانت البلاد معرضة للفناء من أثر
الصراع . وكتب جون هوثام الى نيوكاسل في رسالة (١٨ ديسمبر ١٦٤٢)
يطلب مبادلة الأسرى : « يا الهى ! كم أعتبرها منة كبرى أن لا تحول هذه
الاختلافات - التي أرجو الله أن يصلح أمرها - دون دفعك الى تناسي صداقتنا
القديمة » . ولعله لا وجود لرسالة ماثلت الرسالة التي كتبتها احدى
السيدات (*) فى ٢٧ ديسمبر ١٦٤٢ فى تعبيرها عن مرارة الحرب الأهلية ،
وفىها تحدثت عن المعاملة التي لقيتها من قبل أنصار الملك فى هرفورد
شاسبر :

« ان أفكارى شاردة فى تيه . ولست قادرة على الاهتداء الى اجابة
تعرفنى لماذا يعاملوننى على هذا النحو ؟ وعندما أراجع نفسى لا أرى شيئا
غير المحبة والاحترام يغمران فؤادى . وعندما أتأمل الصلات العديدة التي
ربطت أغلب وجهاء هذا البلد بسير روبرت هارلى ، وبعضها صلات قرابة ،
وبعضها الآخر صلات زمالة ، الى جانب صداقته المخلصة الطويلة والاكيدة لى
بفضل أدبه الجم وحسن معاملته لامرأة غريبة وفدت الى بلاده ، فأننى أعجب
من هؤلاء الناس ، فبرغم تحليهم بالأخلاق الكريمة ، فانهم استطاعوا الابتعاد
عن جميع هذه الالتزامات » .

نعم لم يكن بمقدور عليّة القوم آنئذ أن يدركوا علم احتمال نشوب
ثورة انجليزية .

المراجع

- R. Ashton, **The English Civil War, 1603-1649** (1978).
- W. Haller, **Liberty and Reformation in the English Revolution** (1938).
- C. Hibbard, **Charles I and the Popish Plot** (1983).
- C. Hill, **The Century of Revolution 1603-1714** (1980).
- D. Hirst, **The Representative of the People ?** (1975)
- J. P. Kenyon, **Stuart England** (1978).
- J. Morrill (ed.) **Reactions to the English Civil War (1642-1648)** 1982.
- J. Morrill, **The Revolt of the Provinces : Conservatives and Radicals in the English Civil War 1630-1656** (1980)
- J. G. Pocock, ed, **Three British Revolutions 1614, 1688, 1776** (1980).
- C. Russel, **Parliaments and English Politics 1621-1629**, (1979).
- L. Stone, **The Causes of the English Revolution 1529-1642** (1972).
- L. Stone, **The Crisis of the Aristocracy 1558-1641**, (1965).
- D. E. Underdown, **Revel, Riot, and Rebellion : Popular Politics and Culture in England (1603-1660)** 1985.

الحكم الفردى للويس الحادى عشر

ريتشارد بونى

أدت سنوات الحكم الفردى للويس الرابع عشر لفرنسا (١٦٦١ - ١٧١٥) فى أعقاب موت الكاردينال مازاران الى توطيد أقدام السلطة الملكية المطلقة فى فرنسا ، وجاءت بنموذج سياسى تطلع الملوك الأوربيون الآخرون لتقليده ، فلقد أمسك لويس زمام جميع السلطات السياسية فى يديه . اذ كان الملك نفسه ، وليس رئيس وزرائه ، هو المسئول عن الحكومة . فلم يكن بمقدور أى شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص ، أو هيئة من الهيئات التمتع بقوة مماثلة لقوة الملك الحاكم ، كما لم يكن باستطاعة أحد تعدى ارادة الملك السياسية .

وفى البداية ، وضع لويس جميع وزرائه تحت سيطرته المباشرة ، وكشف عن نوع الولاء الذى يتوقعه من أتباعه ، ونوع الخدمات التى ينتظرها منهم ، عندما قبض على فوكيه المسئول السابق عن المالية الذى تربح من وظيفته . وفيما بعد ، تجاهل لويس ما قام به وزيره الذى حظى بأعظم تقدير منه (يعنى كولبير) ثم أقدم لويس بعد ذلك على كبح جماح استقلال المدن ، بحيث يتسنى للحكم الملكى المركزى فرض الضرائب على إيرادات هذه المدن ، ثم شرع فى تحديد الحقوق المدنية للبروتستانت الفرنسيين . وهى سياسة ازداد تصاعدها بعد نقض ميثاق نانت ١٦٨٥ . ولما كان لويس قد شهد فى طفولته التمرد الأرسقراطى المعروف باسم « الفروند » ، فانه بذل جهدا كبيرا لتقييد سلطات النبلاء ، ممن اكتسبوا اللقب بحكم المولد أو المنصب الذى شغلوه ، وحد بطريقة صارمة من سلطة البرلمان المحلية التى كانت بمثابة مجالس يسيطر عليها النبلاء . وقصد الملك بهذه الاجراءات السياسية الحد من سلطان أية جماعة قد تحاول تأكيد استقلالها بالسلطة ، أو تقدم على فعل غير خاضع لارادته .

Political Change in France : Richard Bonney

(★) نقل عن

under Richelieu and Mazarin (١٩٧٨) .

وفي نهاية المطاف ، فقد أحاطت بسياسات الحكم الفردي للويس الرابع عشر أحداث عديدة مثيرة للسخرية . فلقد سعى لرفع شأن النظام الملكي ودعم سلطانه داخل البلاد حتى يتسنى له اتباع سياسة خارجية عدوانية . واحتاجت مغامراته خارج فرنسا الى استمرار امتشاق السلاح والتأهب للحرب ابتداء من ١٦٦٧ حتى ١٧١٢ . غير أنه عندما حل هذا التاريخ الأخير ، كانت الحروب التي شنها قد جردت مملكته من خيرة أهلها ، وجردت أرضها من الأخضر واليابس ، وأضعت من سلطات النظام الملكي ذاته ومن مكانته .

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فعلية بالحكم ، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة الى رئيس للوزراء ، في اليوم الذي تلا وفاة مازاران (٩ مارس ١٦٦١) . وكان الملك الفتى قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة في ٧ سبتمبر ١٦٤٩ عندما كان في الحادية عشرة من عمره . وكان أول قرار سياسي أصدره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال دي ريتز (١٩ ديسمبر ١٦٥٢) . وبين ١٦٥٣ و ١٦٥٥ ، كان مازاران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يوميا على الأقل لتصريف أمور الدولة . ولاحظ موروزيني سفير فينسيا أنه عندما كان لويس يعتقد أن القرارات المتخذة لا تلائم مصلحته - بالرغم من اقرار الآخرين لها - فانه كان يوقف العمل بها ، ويصمم على رفضها (١) . وهكذا عرف مازاران لويس في تودة ، ولكن بطريقة تدريجية ، أسلوب الحكم . وخشى أنصار الفروند من استغلال مازاران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتى فيلقنه السياسة في صورة زائفة وضارة (٢) .

واثبتت الأيام صحة مخاوفهم . غير أن وظيفة مازاران كرئيس للوزراء ، وليس كمشرف على تعليم الملك ، هي التي أتاحت له فرصة تعليم لويس مبادئ السياسة . وهكذا كانت المبادئ التي استرشد بها لويس في السنوات الأولى لحكمه الفردي في أغلب النواحي تقريبا تعزيزا للسياسة التي اتبعها مازاران قبل موته . والحق ان لويس قد طبق المبادئ التي صاغها مازاران وهو على فراش الموت ، والتي أملاها لويس على أحد سكرتيريه في ٩ مارس ١٦٦١ . ومن ثم يعد لويس الرابع عشر تلميذا لمازاران في السياسة .

(١) Ne conviennent pas vraiment à son service, quoiqu'elles
soient approuvées par le autres il les casse, en les désapprouvant
résolument.

Fausse et pernicieuse politique.

(٢)

ونصح مازاران لويس باحترام سيادة المجالس السيادية ، ولكن عليه قبل ذلك أن يرغم أعضاء هذه المجالس على التزام حدود واجباتهم ، وكانت النتيجة المباشرة لهذه الوصية هي القرار الذي أصدره في ٨ يوليو ١٦٦١ ، والذي يؤكد سيادة مجلس الملك على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار (*) صفقة قاضية ضد كرامة المجلس السيادية . ولكن لويس كرر التأكيد لهم بأنه لم يقصد بهذا القرار « المساس بسلطة هذه المجالس ، وإنما المقصود فقط هو تنظيم مهامه على نفس النحو الذي اتبع في تنظيم المجلس الأعلى » (**) . واتبع لويس هذا الاجراء في ٢٥ أكتوبر ١٦٦٥ بأن أعاد تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعلق على هذا القرار في مذكراته بالقول : « لقد جعلت المجالس تتمتع بالسيادة ، ومنحتها استقلالها . ولقد دفعتهم الى ادراك عدم استطاعتى تحمل تجاوزاتهم » (٢) . وفي ١٦٧٣ ، تقييد حق الاحتجاج والتظاهر ، فلم يعد من الميسور تقديم أى احتجاج الا بعد اتخاذ اجراءات قانونية مناسبة . ولربما لم يقصد لويس بهذا الاجراء ما هو أكثر من الاجراء الوقتى المناسب لحالة الحرب ، ولم يهدف الى تطبيقه بصفة دائمة . وعلى أية حال فلقد ظلت فرنسا فى حالة حرب أو حالة استعداد للحرب منذ ١٦٧٣ حتى وفاة لويس ١٧١٥ ! وهذا يعنى أن القرار ظل ساريا طيلة حياته . وكما انكمش الدور السياسى للمجالس ، كذلك تضاءلت امتيازاتها الاقتصادية . فحتى ١٦٦٥ ظلت الجهات المعنية تمارس مهامها الاستثمارية بدرجة معقولة . ومع هذا فقد حدث تخفيض للامتيازات المالية بعد ١٦٣٩ ، ثم أوقفت تماما ١٦٤٨ ، ثم تعرض أعضاء البرلمان فى اكس وروان لعملية حط لمرتبة وظائفهم بعد انشاء نظام لمنح الأجور كل ستة شهور ، وان كان هذا النظام قد أدى فى الواقع الى مضاعفة مصروفات هذه المجالس . ومع هذا فقد تصدى الأعضاء لهذه الاجراءات واستعانوا بالقوة المسلحة ١٦٤٩ ، ونجحوا فى الغائها . غير أنه بعد ١٦٥٢ لم يتكرر التجاء أى برلمان للقوة المسلحة ضد سلطة الملك ، ولم يصدر بعد

Un coup fatal à la dignité des compagnie souveraines. (x)

Les compagnies ... se regardaient comme autant de souve- (**)

rainetés : éparées et independantes

(٢) نصح مازاران لويس باحترام المجالس السيادية مع « ارغامها على التزام حدود واجباتها » . وكانت النتيجة المباشرة لهذه النصيحة صدور القرار (٨ يوليو ١٦٦١) الذى يؤكد سيادة المجلس الملكى على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار « لطمة قاضية تمس كرامة المجالس السياسية ... » ولكن لويس عاود التأكيد لهم « بأننى لم اقصد من القرار تقليص السلطات السابق منحها فى أكتوبر ١٦٦٥ ، باعادة تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعقب على ذلك فى مذكراته بالقول : « لقد اعتبرت المجالس نفسها ذات حقوق منفصلة ومستقلة .. ولقد افهمتهم اننى لن أطبق تجاوزاتهم » .

١٦١٦ إلا القليل من القرارات التي تنقض القرارات الملكية . بيد أن هذا التدهور السياسي لم يدم طويلا . إذ استطاعت البرلمانات الاقدام على اتخاذ خطوات سياسية فعالة مرة أخرى بعد ١٧١٥ . أثبتت أهميتها على المدى القصير على أقل تقدير . وتوافقت هذه الخطوة هي وانتصار الحداثة في الميدان السياسي النظري بغض النظر عن النظريات البروتستانتية كتلك التي وضعها جوريو (*) بعد ١٦٨٥ . أما الآراء الداعية للمقاومة - خصوصا المقاومة عن طريق المؤسسات القانونية - فقد اختفت بالفعل من فرنسا . ولم يعد هناك أصحاب نظريات من بين شاغلي الوظائف يتبعون الطريق الذي اتبعه شارل لويسو (**) ، ويجادلون دفاعا عن حقوق المجالس السيادية ضد حكومة لويس الرابع عشر . وهكذا توقف شاغلو الوظائف عن اصدار نظريات أو تعليقات سياسية . وكان هذا التدهور من أهم مظاهر موقف المجالس السيادية ، التي لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها في ديسمبر ١٦٦٥ عندما خفض كولبير - بتعسف - مرتبات العاملين ، بعد أن اكتشف ضخامة الاعتماد المخصص لذلك ، مما يحرم ابواب الاقتصاد الأخرى القيام بأية عمليات استثمارية منتجة . وحاول هذا الاجراء تخفيض اعتماد بعض الوظائف القائمة بمقدار الثلث . وفضلا عن ذلك ، فقد شهدت المجالس السيادية تضاؤل عدد القضايا المعروضة عليها نتيجة تشكيل عدة مجالس تابعة للملك بصفة مباشرة ابان ستينات وسبعينات القرن السابع عشر كمجلس العدالة ومجلس تعديل امتيازات النبلاء ، ومجلس مراجعة الديون والاشراف على موارد المياه والغابات وهكذا . وبذلك فقد أعضاء المجالس قدرا كبيرا من دخلهم ومن الهدايا العينية (***) ، مما أثبت أن الوظيفة كانت مصدر رزق مهمين . وأنشأ لويس الرابع عشر ما لا حصر له من الوظائف الجديدة ، كان من بينها بعض وظائف تابعة للبرلمانات ، وبخاصة في تسعينات القرن السابع عشر . وخفض مرتبات شاغلي الوظائف القائمة دون تعرض لأية مقاومة من المجالس تماثل المقاومة التي واجهها في أربعينيات القرن السابع عشر . وربما قام مازاران بتحذير الملك من طموح فوكيه . ومن المؤكد أنه أخبره « أن الملك الذي لا يقدر على الحكم لا يستحق أن يحكم » (٣) . وهكذا يكون القرار الذي اتخذته الملك بالحكم دون رجوع لرئيس الوزراء ، والذي أعلنه في ١٠ مارس ١٦١٦ تطبيقا لاحدى رغبات مازاران وهو على

(*) Pierre Jurieu (١٦٢٧ - ١٧١٣) عالم اللاهوت الفرنسي

البروتستانتى . وعرف بمجادلاته مع بومويه وتصديه للويس الرابع عشر .

Charles Loyscau.

(**) ()

Epices.

(***) ()

Un roi qui ne pouvait gouverner n'était pas digne de regner. (٢)

فراش الموت • وأوحى مازاران الى لويس أيضا بتعيين كولبير كمساعد لفوكيه • وعلى الرغم من قيام كولبير بخدمة مازاران باخلاص منذ ١٦٥١ - وبذلك بدأ وكأنه يمثل استمرارا لسياسة الحكومة - الا ان انتقاده لفوكيه بدءا بسنة ١٦٥٩ قد تضمن تصميمًا على الابتعاد عن بعض مظاهر الماضي ، لا سيما نظام تمويل الحرب والسلطة المبالغ فيها التي كان يتمتع بها ناظر المالية • وفضلا عن ذلك فان كولبير كان بحاجة للخلاص من فوكيه • اذ قدرت الثروة التي تركها مازاران عند وفاته بحوالى سبعة وثلاثين مليونًا من الجنيهات ، مما دعا كولبير الى السعى للخلاص من كل مخلفات هذا الماضي السياسى غير المشرف • فقد اعتبر فوكيه محسوبًا لمازاران ومسئولًا عن كل تصرفاته المالية • وألقى اللوم عليه • وتم القبض على فوكيه فى ٥ سبتمبر ١٦٦١ ، أى بعد عشرة أيام من الغاء وظيفة ناظر المالية (*) وانشاء المجلس المسمى «المجلس الملكى للشئون المالية» (**) وكان هذا المجلس الجديد فى مرتبة أدنى من مرتبة مجلس الدولة ، ولكنه كان يعمل على المجالس الصغرى الأخرى كالمجلس الخاص مثلاً • واختص المجلس الملكى للشئون المالية بتحقيق قدر من الرقابة الفعالة يفوق ما كان يقوم به ناظر المالية دون أن يمس التاج بأى سوء • وترأس لويس الرابع عشر هذا المجلس ، وبذلك اختلف عن أبيه - وعن نفسه أيضا فى خمسينات القرن السابع عشر - فكان يخطر بجميع تفصيلات المسائل المالية والأعمال الروتينية للحكومة • وحرص لويس بكل دقة على الهيمنة بسلطانه على هذا المجلس • فكان يشطب بنود المصروفات التى لا يقتنع بوجود ما يبررها • وعندما انتقل لويس الى جبهة القتال ١٦٧٢ ، عهد للملكة بترأس المجلس أثناء غيابه • وبعد ذلك بسنتين لعله ازداد حذرا • اذ طلب من كولبير اخطاره بصفة منتظمة أسبوعيا بالأعمال الهامة للمجلس • غير أن لويس احتفظ لنفسه لدى عودته بسلطة مراجعة حساب الشئون المالية الملكية •

وأخفق المجلس الملكى للشئون المالية عندما رأسه المستشار سوجيه (***) بين ١٦٣٥ و ١٦٦١ فى الحد من سلطات ناظر المالية ، ومن ثم أبعاد عن الاطلاع على تفصيلات الادارة المالية ، ومن نطاق المبادرة السياسية ، وكنتيجة للحكم الصادر فى سبتمبر ١٦٦١ ، لم يعد من حق المستشار بحكم كونه وزيرا التدخل الرسمى فى شئون مجلس الدولة أو المجلس الملكى الجديد للشئون المالية • ومن ثم رأينا ليتبيه (****) الذى عين ١٦٧٧ وبونتشارتران (****) الذى عين ١٦٩٩ مستشارين يتمتعان

Surintendance

(*)

Conseil d'état et des finances.

(**)

Séguier.

(***)

Le Tellier.

(****)

Pontchartrain.

(*****)

بهذا الحق • ولم يتمتع بهذا الحق آخرون (*) • وحدث تدهور مماثل لمنصب المستشارية في عهد ريتسيديو وماراران عندما خضع لقيود النظام الحكومي الذي يسند الى وجود رئيس للوزراء • فقد سمح بحرية التصرف لأفراد قلائل (**)، ممن شغلوا قبل ذلك منصب قوميسير للملك في الاقاليم ، كما عمل ثلاثة منهم كمستوين في الاقاليم تحت رئاسة ريتسيديو وماراران ، دون تعرض لأي وهن من جراء الخصوع لرئاسة أو اشراف رئيس مسن أو مجلس يتألف من العديد من الأعضاء • ولو أردنا معرفة مدى ما حدث من غير فما علينا إلا أن نقارن بين كولبير عندما شغل في البداية وظيفة ناظر المالية ، أو مراقب عام الشئون المالية • فلم يزد عمله في الحالى عن مراجعة القرارات • أما بعد انشاء المجلس الجديد ، فقد عهد اليه بالمحافظة على سجلات الايرادات والمصروفات ، واقتراح المشروعات التي حققت نتائج سياسية هامة ونفعا ماليا كبيرا • ولقد مارس كولبير هذه المسئولية بالفعل ، دون أن يتمتع بأية سلطة سياسية مستقلة • وفي بعض حالات نادرة ، تجاوز فيها حدوده ، فوجه الملك اليه لوما شديدا •

ونظر كولبير الى المجلس الملكي للشئون المالية كوسيلة يمكن الاستعانة بها لاصلاح الأوضاع المالية اصلاحا جذريا • وسعى كولبير لتخفيض النفقات الاجمالية ، بحيث لا تتجاوز اثنين وأربعين مليونا من الجنيهات ١٦٦٣ • وكان من العسير اتباع القيود التي فرضها كولبير ، ولكنه عندما شكا الى لويس الرابع عشر (١٦٧٠) وأبلغه بأن زيادة المصروفات تحول دون تنفيذ اصلاحاته ، وكان مقدار الزيادة موضع شكايته (٧٥ مليونا) أى أقل من التجاوزات التي حدثت في أية سنة من السنوات الواقعة بين ١٦٣٦ و ١٦٦٢ ، أى السنوات التي توجد وثائق دالة على قيمة الايرادات والمصروفات فيها • ومع هذا فقد حققت اصلاحات كولبير مزايا سياسية ومالية للحكومة في المدى القصير • ففي الناحية السياسية ، عادت بالنفع على لويس الرابع عشر وكولبير بفضل تمكنها من تحقيق بعض الأهداف البناءة للويس الرابع عشر شخصا • وفي الناحية المالية ، يسرت تخفيض المصروفات الحكومية والغرامات الموقعة على الممولين من قبل مجلس الدولة (***) (١٦٦١) ، وبذلك تحقق التوازن في مصروفات الحكومة • وفي الوقت نفسه ، فالى جانب قضاء كولبير على الاسراف ، فانه أعاد تنظيم دخل النظام الملكي الفرنسي ، وأدرك وجوب استبعاد الارتكان على ضريبة الحرب

(*) من أمثال Segurier ابتداء من ١٦٦١ حتى وفاته ١٧١٢ •
و Etienne d'Aligre (عين ١٦٧٢) و Boucherat (عين ١٦٨٥) •
(**) مثل Le Tonnelier, Marin, Sève Aligre, Colbert
Pervart, de Breteuil.
(***) Chambre de justice.

كمصدر رئيسي ليرادات التاج الفرنسي . وتبعاً لذلك حرص على تخفيض أو تخفيف المتأخرات المستحقة عن آخر سنوات المدة التي أمضاها مازاران في رئاسة الوزارة ، وخفض ضريبة الحرب بالتدريج ، حتى وصلت الى ما مقداره أربعين مليوناً من الجنيهات حتى في سنوات الحرب مع هولاندة (١٦٧٢ - ١٦٧٨) وبذلك انخفضت الى مستوى أقل من مقدارها في ١٦٥٨ ، وخفض هذه الضريبة مرة أخرى ١٦٨٠ ، فبلغت اثنين وثلاثين مليوناً . ومن أسف أن آثار هذه الاستقطاعات قد محيت عندما حدث كساد في المحصول الزراعي بعد ١٦٧٠ . وفضلاً عن ذلك فمن الآثار الحميدة لتخفيض ضريبة الحرب ، ما حدث من ازدياد في الدخل غير المباشر . وعندما مات كولبير ١٦٨٣ ، بلغ الدخل ٦٥٨ مليوناً ، وبلغ مقدار الضرائب غير المباشرة ما يساوي نصف الدخل الاجمالي للتاج ، بينما انخفضت ضريبة الحرب الى ٣٠٪ من مجموع الدخل . ويعد قانون الايجارات، الذي دارت المفاوضات بشأنه مع فوكونيه(*) ١٦٨٠ بداية لتطبيق أحد الأنظمة المالية التي حققت نجاحاً باهراً في فرنسا في القرن الثامن عشر ، مثلما حدث في ضريبة الفلاحة (**) التي جمعت عدة ضرائب غير مباشرة في ضريبة واحدة للمزرعة . وارتبطت بهذه الاجراءات التغيرات في وسائل جباية الضرائب . ففي ١٦٦١ ، ابتكر كولبير نظاماً خاصاً بالمحصلين العموميين (***) وأعاد اتباع الوسائل المألوفة بدلاً من الاعتماد على نظام المحاسبين والاستعانة برجال الجندمة للارغام على سداد الضرائب . ويحتمل أن تكون الحكومة قد جسست النبض قبل اصدار هذا القرار في أواخر عهد فوكيه ، وان كان كولبير هو الذي عجل بتنفيذه . ويصح القول بأنه قد أمكن الاستغناء التام عن وسائل الارغام على دفع الضرائب عن طريق الجهات الحكومية المسئولة في ستينات القرن السابع عشر ، باستثناء حالات قليلة نسبياً . وبعد ١٦٦١ ، ازداد ارتياب كولبير عمن سبقوه في جدوى الاستعانة بالقوة المسلحة لجباية الضرائب . ويعزى الى هذا الاتجاه الأخير بوجه خاص ، والى الاصلاحات المالية والاتجاه المعتدل الذي اتبعته الحكومة ، ما حدث من تغير في النظرة الى دور المسئولين الاداريين بعد ١٦٦١ ، على أن هذه الاصلاحات المالية التي قام بها كولبير لم تزد عن جانب واحد من الاجراءات الاقتصادية التي هدف كولبير من ورائها الى شد أزر الصناعة والتجارة والزراعة الفرنسية ، في فترة الكساد الاقتصادي . وبرز في هذه السياسة ما سمي بحرب « التعريفة الجمركية » التي فرضها كولبير على الهولانديين وقد احتلت مكانة

Fauconnet.

(*)

Ferme-générale.

(***)

(****) المحصلون العموميون receveurs-généraux والوسائل المألوفة voies ordinaires.

المصادرة في هذه السياسة أيضا مجسداً لانشاء نظام المتصرفين (*) أيضا في المشروعات الاستثمارية المحلية التي ساعدت على تقديم العون للفقراء وتوزيع الغلال عليهم ، لا سيما أثناء الازمات الطاحنة في السنوات ١٦٩٣ و ١٦٩٤ و ١٧٠٩ و ١٧١٠ .

واختلف المؤرخون في الحكم على اتجاها كولبير نحو المتصرفين . فطالما أسيء فهم تعليماته الى مكاتب الشكايات في سبتمبر ١٦٦٣ . وقيل ان كولبير كان يعتبر هؤلاء المتصرفين (**) مجسداً لموظفين مؤقتين ، بالاستطاعة الاستغناء التام عن خدماتهم عند الضرورة . ويرجع هذا الحكم الى فقرة غامضة في تعليمات كولبير ، وربما رجع أيضا الى أنه كان يصدر التعليمات الى مكاتب الشكايات وليس الى المتصرفين . وفي الحق قد يجوز القول بأن « مكتب الشكايات والمتصرف » قد عنيا نفس الشيء في هذه الحقبة . وعلى الرغم مما حدث من تحول سريع في مسئوليات هؤلاء المتصرفين في ستينات القرن السابع عشر ، الا أن هذا لا يعنى أن نظام المتصرفين كان مجرد اجراء وقتي ، وأنهم كانوا على هامش الحياة في فرنسا ، كما يبين من اختيار بعض هؤلاء المتصرفين السابقين في مهام مثل الاشتراك في محاكمة فوكيه (***) . ومن ثم فلا يجوز الظن بأن كولبير قد تخيل امكان الغاء وظائف المتصرفين المقيمين في الأقاليم ، كما نستطيع أن نستخلص من مذكرته المؤرخة في أول أكتوبر ١٦٥٩ الى مازاران والتي اعتبر فيها « وجود المتصرفين من المقومات الأساسية للإصلاح المالي » . ومن ثم رأيناه يكتب قائلا : « من المستحيل أن ينهض بجميع هذه المهام في الأقاليم الا من يشغلون وظائف المتصرفين » (٤) . وفضلا عن ذلك ، فإنه لا يعقل أن تكون الحكومة قد قررت الغاء نظام المتصرفين اعتمادا على تكليف موظفي الحسابات (١٦٦٠ - ١٦٦١) بعمليات جباية ضريبة الحرب ، وأنهم عقدوا اجتماعات غير قانونية بحجة تسريع انجاز هذه المهمة . ويذكر أن الحكومة قد رفضت مطالب هؤلاء الموظفين الحسابيين ، ولم تمس السلطات المالية للمتصرفين ، بل وأمرتهم بوضع نهاية لاجتماعات موظفي الحسابات . وهكذا يكون

(*) intendants ولعل وظيفة المتصرف في تاريخ الاتراك والماليك هي أقرب الوظائف الى هذه الوظيفة التي يتحدث عنها الكاتب .

(**) (***)

Maitres des requêtes

(****) ومن الأمثلة الجيدة بالذكر أيضا الصراع على الولاية بين كولبير ولى وانتقادات لوفوا للعسكريين ١٦٦٦ .

(٤) toute ces choses ne peuvent estre exécutées dans les provin-
ces que par la ministère des intendants.

كولبير قد اعترف بالمسئولية المالية للمتصرفين في ١٦ نوفمبر ١٦٦١ و ١٢ فبراير و ٢٥ أغسطس و ٦ سبتمبر ١٦٦٣ . وترجع أية سلطة تمتع بها الصرافون (أمناء الخزينة) الى المهام التي كانوا يكلفون بها من قبل المجلس . فلا عجب اذا رأينا هؤلاء الأمناء يندبون حظهم ويقولون ان « وظائفنا قد حل بها الخراب (٥) ، وأن المتصرفين قد انتزعوا منا ما كان يشرفنا ووثبت دورنا الفعال ، ولم يتركوا للعاملين معهم غير المهام الثقيلة لمواجهة الحملات الشرسة التي كان يشنها الملك » واحتفظ المختارون (*) بمعظم الوظائف القضائية الجنائية والمدنية ، وان وجب أن لا ننسى قضايا الفساد التي نسبت الى هؤلاء المختارين وعرضت على مجلس الملك في ستينيات القرن السابع عشر ، مما أكد على شدة الحاجة الى الاشراف الدقيق من قبل المسؤولين الاداريين . ولم يكن بمقدور هؤلاء المسؤولين فعل أى شيء أكثر من ملاحقة أمثال هؤلاء الموظفين اذا ارتكبوا جرائم خطيرة ، تتوافر الأدلة بشأنها . . .

وبعد ١٦٦٩ لوحظ استبقاء المسؤولين الاداريين مدة أطول في المقاطعات أكثر مما كان يحدث في الماضي . ففي السنوات الخمسين بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ كان « المتصرف » يقضى خمس سنوات في المتوسط في مقاطعته ، أى سنتين أكثر من المدة التي كان يمضيها في عهد «الفروند» . ومن هذا يتضح أن الشرط الذي وضعه ريشيليو ومازاران لتحديد مدة خدمة المتصرف بثلاث سنوات ، يعاد بعدها تعيين المتصرف أو ينقل أو يستدعى ، قد استغنى عنه ابان سنوات الحكم الفردي للويس الرابع عشر ، ولعل كل مقاطعة كانت تتوقع أن يتولى ادارتها تسعة أو أكثر من هؤلاء المتصرفين في الخمسين سنة الواقعة بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ . وفاق الاستقرار في المقاطعات التي يختار محافظوها بالتعيين الاستقرار في المقاطعات التي ينتخب متصرفوها (**). فهل كان هناك عامل مساعد يفسر أسباب احتفاظ المتصرفين « المعينين » بوظائفهم ؟ . ربما رجع أحد الأسباب الى ما كان يقوم به كولبير من استبيان عن ديون المدن . ولاحظ بوشو ١٦٦٦ أن تصفية الديون القائمة لن تفي بالغرض ، فيلزم أيضا منع المقاطعات من تجشّم أعباء ديون جديدة . وقدر

(٥) "nos charges sont tombés dans la dernière décadence ... et le intendants retiennent ce qui est de plus honorable et plus effectif et ne laissent dans les bureaux que le fardeau du grand nombre d'expéditions pour le Roy."

(*) Elus.

(**) (★★) فلقد شهدت مقاطعة Montauban أحد عشر متصرفا . أما Moulins Rouen, Poitiers, فقد شهدت ربما ما هو أكثر من ذلك . وخدم Basville كمتصرف في بورغونيا زهاء ٢٧ سنة (١٦٥٦ - ١٦٨٢) بينما خدم Bouchu في Langudroc مدة ٢٢ سنة (١٦٨٥ - ١٧١٨) .

كولبير هذه الملاحظة . ففي مذكرة أرسلها الى المتصرفين في ٢٩ فبراير ١٦٨٠ ، طالب باقتراحات عن الطريقة التي يمكن أن تتبع لتحقيق ذلك . وتقرر تنفيذ ما جاء في تقارير المتصرفين في المنشورات التي صدرت في ١٨ نوفمبر ١٦٨٠ ومرسوم ابريل ١٦٨٣ . فلقد نقل هذا المرسوم مراقبة الشئون المالية للبلديات من المدن الى المتصرفين . وباستثناء السنوات الواقعة بين ١٧٤٦ و ١٧٧١ ، فقد حدد هذا المرسوم اطار العلاقات بين الحكومة والمدن ، واستمر العمل بهذا النظام الى أن حدثت الثورة الفرنسية . ولم ينص المرسوم على قيام المتصرف بمراجعة حسابات البلديات لأن كولبير لم يقر هذا الاجراء ، « واعتبره مسئولية ضخمة لن تحقق أية فائدة تذكر للشعب » (*) . ومع هذا فان ما حدث كان نتيجة لتشريعات كولبير . ويرجع الى هذا العامل أكثر من أي عامل آخر ما حدث من فرض للرقابة الادارية (**) على المدن . وازدادت أعباء العمل الذي ينهض به المتصرفون نتيجة لهذا الاجراء ، وما ترتب عليه . وكان المتصرفون مضطرين الى الاعتماد على عون الرؤوسين أثناء عمليات المراجعة وتصفية الديون ، « لانجاز مثل هذا العمل الضروري » (***) . وما أن جاءت ١٧١٨ حتى أصبحت المسائل التي تخص المدن هي الشغل الشاغل للمتصرفين ، الذين كانوا ينهضون بمسئوليتهم من خلال شبكة من المساعدين المنتدبين (****) ، للتأكد من صرف مخصصات المدن في وجهها الصحيح . وجردت المدن من استقلالها السياسي والمالي . وترتب على ذلك اتاحة الفرصة لاستغلال التاج لها اعتمادا على قواعد أشد قسوة وصرامة أكثر مما كان ميسورا قبل ذلك . وبعد ١٦٨٣ ، حل محل استغلال المسئولين المحليين واساءة تصرفهم واستغلال الدولة للمدن بطريقة جائرة . وارتفعت الاحتياجات المالية من أثر سنوات الحرب التسع وحرب الخلافة الاسبانية ، ثم بلغت أوجها ابان الحرب مع البولنديين وحرب الخلافة الاسبانية (في القرن الثامن عشر) .

أما العامل الثاني الذي أطال بقاء المتصرفين فكان الرقابة الصارمة التي فرضها لويس الرابع عشر على البروتستانت . ففي ١٦٥٧ ، كان البروتستانت (****) يخشون حدوث اضطهاد وشيك لهم . وأثبتت الأحداث في السنوات التالية - خصوصا بعد ١٦٦١ - صحة مخاوفهم . وأسفرت المحادثات بين ممثلي الاكليروس والمستشار سيجيه في ١٣ فبراير

“un travail immense qui ne produiroit aucun avantage aux (×)
peuples.

tutelle administrative.

(××)

Pour avancer un travail si nécessaire.

(×××)

Subdélégués.

(××××)

Midi.

(×××××) في

١٦٦١ عن الاتفاق على تنفيذ بنود مرسوم نانت (*) (الذي صدر في ١٥٦٦) ونشره . ولم يتخذ أى إجراء في هذا الشأن حتى موت ماراران في ٩ مارس . على أنه في بحر شهر أويزيد من وقاة الوزير الأول (مازاران) أوفدت البعثات الأولى . وفي ١٥ يونيو ١٦٦١ ، وعد لويس الرابع عشر الاكليروس بتنفيذ اعلان ١٦٥٦ تنفيذا كاملا . ومن سخریات القدر ، أن تنصر « حركة الورع الكاثوليكي » بعد أن كان الوهن قد اعترى نفوذها السياسي . غير أن لويس تمكن من القضاء على هذه الحركة بأن عمد الى اتباع سياسة تتبنى فكرة شن حرب صليبية ضد البروتستانت (**). ويذكر الملك في مذكراته أنه سعى ١٦٦١ لتنفيذ التنازلات التي نص عليها ميثاق نانت . ونفذ ذلك عن طريق المبعوثين الذين أوفدهم فيما لا يقل عن ثلاث عشرة مقاطعة في فرنسا . وفي بعض الأحيان ، احتفظ البروتستانت بحقوقهم . غير أن حجر الأساس كان قد وضع . اذ نصت النظرية الجديدة ، كما عبر عنها ١٦٦٦ على « وحدة المجتمع وعدم جواز تقسيمه أو المشاركة فيه » ، لأنه كاثوليكي قلبا وقالبا (٦) ، وقيدت تقييدا صارما اقامة قداسات بروتستانتية ، كالتي نصت عليها المادتان ١ ، و ١١ من مرسوم نانت . وبوجه عام كان المبعوثون البروتستانت حريصين على الحفاظ على رضا الملك ، واتبعوا وجهة نظر المتصرف الكاثوليكي . وأحيانا كان المتصرفون يستدعون بعض أفراد اضافيين من الهجنوت للمساعدة في انجاز عملهم . ولعلمهم كانوا عملاء لهم . وربما كانوا يأملون من وراء ذلك الى اضعاف القرارات التي يصدرها المبعوثون البروتستانت (***) وحتى في الحالات التي لم يتبع فيها المبعوث البروتستانت المتصرف الكاثوليكي ، فقد لوحظ ايفاد مبعوثين من قبل مجلس الدولة لبحث الالتماسات والشكايات . وكانت البعثات التي يرسلها المجلس مؤلفة - بطبيعة الحال - من الكاثوليك وحدهم ، وقد تضم اثنين من الأعضاء البارزين في حزب الورع وابن أحد العاملين . وهذا يثبت أن الاحراء من أوله لآخره كان موجهها ضد البروتستانت ، وتمخض في نهاية المطاف عن اصدار تصريح ٢ أبريل ١٦٦٦ الذي حد بصرامة من مرسوم نانت .

(*) Commi aire pour l'exécution de l'edit de Nantes.

(**) ففي Languedoc مثلا دبر Bazin de Bezons و De Peyremales هجوما منظما على حقوق البروتستانت (التي سمحت لهم بالمشاركة في الحكومات البلدية من خلال Consuls mi partis . وأعاد الكاثوليك فرض هيمنتهم على Mazamet, و Montpellier, Bedarieux, Sommières

(٦) La communauté ne peut 'tre divisés ni partagé.

(***) Bazin de Bezons القاضي الملكي Anoul في Uzès للمساعدة في استجواب المتصرف .

وبدا اضطهاد الهجنوت باتباع الأساليب القانونية . ففي ٢١ يناير ١٦٦٩ ، تقرر تعطيل المجلس التشريعي (*) في باريس وروان ونقل مجلس كاستر الى احدى المدن الكاثوليكية . وبعد ذلك بعشر سنوات ألغيت المجالس التشريعية الباقية ، وضمت الى البرلمانات المحلية . . وبعد ذلك بعشر سنوات هطل سيل من التشريعات المقيدة بعد ١٦٧٩ ، التي أدت الى نقض مرسوم نانت بعد صدور مرسوم فونتانيبلو في ١٨ أكتوبر ١٦٨٠ . وأدى النزوع الى ارغام البروتستانت في بواتييه وأماكن أخرى بعد ١٦٨١ على اعتناق العقيدة الكاثوليكية الى خلق موقف جديد . وحدثت نتيجة مماثلة لذلك من أثر النزاع البعيد الغور بين لويس الرابع عشر والبابوية . وهكذا يتضح أن نقض مرسوم نانت كان وليدا لمجموعة من الظروف الخارجية والداخلية . على أنه كان بالمقدور تنفيذه بطريقة فعالة بغير استبعاد للحقوق المدنية البروتستانتية في السنوات التي سبقت ١٦٨٥ . وبعد هذا التاريخ ، ازدادت مسئوليات المتصرفين حيال المرتدين الجدد (**) (وهو الاسم الذي أطلق على البروتستانت حينذاك) . وأمر المتصرفون باضطهاد البروتستانت الذين قبض عليهم أثناء محاولتهم الهروب الى الخارج ، وأمروا بحكم قرار مجلس الدولة الصادر في ١٣ مايو ١٦٨٦ بالاشراف على جرد الممتلكات التي تركها المنفيون البروتستانت كاجراء تمهيدى يسبق مصادرة هذه الممتلكات . واضطهد المتصرفون « المرتدين الجدد » الذين بقوا في فرنسا وكانوا يأملون العودة الى ممارسة عقيدتهم الأصلية - واضطهدوا أيضا الجماعات التي أسرتها القوات المسلحة أثناء اجتماعاتها المحظورة التي كانت تقام فيها الشعائر البروتستانتية - بل لقد حاول المتصرفون تنفيذ أوامر الاضطهاد حتى على من فارقوا الحياة من « المرتدين الجدد » ، الذين رفضوا الشعائر المقدسة التي أقيمت لهم وهم على فراش الموت ! نعم لقد تركت الأساليب التي اتبعها بعض المتصرفين عند معاملتهم للبروتستانت آثارا بعيدة على سياسة الحكومة . فلقد دارت مطارحات طويلة بين باسفيل وبوسويه (أعظم عقلية كاثوليكية في العصر) حول هل يحق للمتصرفين والقوات المسلحة ارغام « المرتدين الجدد » على حضور القداس . ومما له أهمية بالغة تأييد المتصرفين لفكرة ارغام المرتدين الجدد على الحضور . ولقد شعر باسفيل بالارتياح في سياسة تهديد البروتستانت . غير أن هذا قد حدث فيما بعد إبان الصراع الطويل ضد التمرد الكالفاني بعد ١٧٠٢ الذي اشترك فيه القميصاري (***) في احدى المدن الفرنسية (****) .

Chambres de l'édit.

(★)

Nouveaux convertis.

(★★)

*** جماعة من الكالفانيين الفرنسيين اشتهرت بهذا الاسم لارتدائها قمصانا تشبه

Camisc

أقمصة النوم النسائية

Cévennes

مدينة (★★★★)

ولقد أشير أنه رغم اتباع لويس الرابع عشر لمازاران في سياسته ،
 إلا أنه في ستينات القرن قد نحا منحى جديدا في سياسته • وأنشأ
 مجلسا جديدا • وأقدم على اصلاح المسائل المالية في النظام الملكي الفرنسي •
 وأجرى تحريات خاصة للتعرف على ماهية ديون البلديات ، وطريقة
 تسديدها • وفقد البروتستانت جميع حقوقهم المدنية ، وتعرضوا - فيما بعد
 للتهديد - في سبيل دفعهم للارتداد عن البروتستانتية • وترتب على هذه
 المؤثرات استمرار بقاء المتصرفين في المقاطعات مدة أطول مما حدث قبل
 ١٦٦١ • ولو صح أن لويس الرابع عشر ، يسعى حقا للحفاظ على السلام ،
 لما كان من المستبعد أن ينعم بحرية أعظم للعمل ، ولكان باستطاعته الخلاص
 من مخلفات ريشيليو ومازاران • ولقد ارتبطت اصلاحات كولبير المالية
 بالضرورة بالأحوال الاستثنائية لسنوات السلام الاثنتي عشرة بين ١٦٦٠
 و ١٦٧١ ، وأيضا بمخططاته للنهوض بالصناعة والتجارة والزراعة في
 فرنسا في سنوات الكساد الاقتصادي • ومن المحتمل أن لا يكون كولبير
 من أنصار الحرب باعتبارها تتعارض على طول الخط هي وسياسة الاصلاح
 والاقتصاد في النفقات • غير أن لويس لم يكن في نيته الحفاظ على السلام
 من أجل السلام • فقد كانت لديه مخططاته الخاصة بالخلافة الأسبانية ،
 وعمل على إعادة تفسير تسوية وستفاليا ١٦٤٨ لصالح فرنسا • وفوق
 كل ذلك ، فانه في ١٦٧٢ ، أراد معاقبة الهولانديين لأنهم أنشأوا تحالفا
 ثلاثيا ضده قبل ذلك بأربع سنوات • وتصاعدت الحرب الهولندية بسرعة ،
 وتحولت الى حرب ألمانية أيضا • وفي ١٦٧٤ ، بلغ المجموع الكلي للنفقات
 ١١٣ مليونا من الجنيهات (وكانت قيمة الجنيه مماثلة لقيمة ١٦٥٣ على
 وجه التقريب) • وترجع الى الدين الذي خلفته الحرب الزيادة الكبرى في
 لنفقات التي تجاوزت ١٣٠ مليونا في سنتي ١٦٧٩ و ١٦٨١ • وبعد وفاة
 كولبير ١٦٨٣ ، انهارت جميع اصلاحاته ، وبدأ لويس ١٦٨٩ يواجه أول
 - اعين كبيرين مع الموارد المالية المهولة لانجلترا • ونادرا ما كان يجتمع
 مجلس الملكي للشئون المالية السابق انشاؤه ١٦٦١ ولو فرض أن اجتمع ،
 فان عمله كان يقتصر على التصديق على القرارات التي اتخذها المراقبون
 العامون للمالية (*) الذين كانوا يعملون نظارا للمالية • وكان كولبير يأمل أن
 يساعد الدخل غير المباشر على التزويد بأساس يحقق مساواة أفضل في
 توزيع أعباء الضرائب • غير أن أهم شرط للجباية الموقفة للضرائب غير
 المباشرة هو الحفاظ على السلام • وبعد اندلاع الحرب ١٦٨٩ سرعان
 ما انخفض دخل الحكومة من العائدات غير المباشرة ، فاضطرت الحكومة
 للعودة الى فرض ضريبة الحرب ، وانشاء وظائف مختصة بتمويل الحرب •
 واتسعت الفجوة مرة أخرى بين الإيرادات والمصروفات ، ومن ثم فلم يبق

أمام التاج أى خيار آخر سوى الاستعانة بخدمات رجال المال من أمثال صمويل برنار وأنطوان كروزال ، ودفع الفائدة الباهظة التى يطالبون بها مقابل خدماتهم ، وبذلك يكون لويس الرابع عشر قد شق طريقه الى الحرب بدلا من أن يواصل ضغط الاتفاق والاصلاح . ولعله ظن أن مطالب السياسة الخارجية الفرنسية يجب أن تتخذ الصدارة على جميع الاعتبارات الداخلية . ومن هذه الناحية ، يصح وصف سنوات حكمه الأخيرة بأنها كانت استمرارا مباشرا لعهدى رئيسى الوزارة ريشيليو ومازاران .

ان هذا يعنى أن الاهتمامات الأساسية للحكومة فى السنوات التى أعقبت ١٦٧٢ قد تشابهت بالضرورة هى واهتمامات الحكومة فى السنوات بين ١٦٥٣ و ١٦٦١ ، وتركزت على كيفية تمويل الحرب دون انارة تمرد كبير بين دافعى الضرائب الفرنسيين . وكان الاهتمام بصالح دافعى الضرائب من الفلاحين فى فرنسا من بين جوانب الحكومة ، التى شدد مازاران على وجوب الاهتمام بها ، حتى وهو على فراش الموت . ويوحى التغاضى عن متأخرات ضريبة الحرب فى بواكير ستينات القرن السابع عشر بأن هذه الفكرة كان لها بعض التأثير على لويس الرابع عشر . غير أن الحرب الطويلة تحتاج الى فرض المزيد من الضرائب وازديادا فى سوء حال الفلاحين من تأثير الكساد الاقتصادى . وحتى فى سنوات السلام ، فلقد حدثت بعض حالات عصيان(*) . وجرت الحروب الأخيرة فى أعقابها أحداث تمرد أخطر من ذلك خصوصا بين الكاميسار البروتستانت عندما انتفضوا ١٧٠٢ (وتعد هذه الانتفاضة موجهة أيضا ضد فرض الضرائب) (**) . وبالرغم من أن «التمرد ضد الضرائب» قد حدث على نطاق له أهميته إبان الحكم الفردى للويس الرابع عشر، ووجه أحيانا الى المتصرفين، إلا أن تصاعده لم يتفاقم الى درجة مماثلة لما سبق أن حدث إبان عهد ريشيليو ومازاران . ولا وجود لتفسير بسيط يفسر السبب ، لأنه يرجع - من ناحية - الى ما حدث من تبدل فى توجهات الفلاحين . فعندما يورغم الفلاحون على تركيز كل جهدهم على النباش بأظافرهم بحثا عن لقمة العيش ، فإن ما حدث من كساد زراعى

(*) كتلك التى وقعت فى Bénéauge (١٦٦١ - ١٦٦٢) وفى Lustucru وفى Boulonnais ١٦٦٢ وفى Audijois فى و Chalosse (١٦٦٥-١٦٦٢) وفى Roure, وفى Vivarais (١٦٧٠) . ثم حدثت أحداث غزو وعصيان أخرى بعد اندلاع الحرب فى Agen و Le Mans, Bordeaux و Torrebt بين جميع أحداث المناوشات مع القرويين فى فرنسا فى القرن السابع عشر .

(**) ولا تنس أيضا انتفاضة Tard-Avisés ١٦٧٥ وفى Quercy ١٧٠٧ .

ربما غدا من المعوقات الفعلية للاحتجاج أكثر من نزوعه الى تشجيع الاحتجاج
الفعلى . نعم لقد كان الفلاحون فى عهد ريشيليو ومازاران أحسن حالا
ومن ثم فانهم كانوا سيخسرون من عصيانهم ما هو أكثر من زيادة الضرائب
التي يدفعونها للدولة . وهناك عوامل أخرى يجب أن توضع فى الحسبان
كزيادة قوة الحكومة ، وبخاصة عندما توافر لها المزيد من القوات فى
معظم السنوات ، وازياد رسوخ مكانة المتصرفين بعد ١٦٦١ ، والعقوبات
الأكثر وحشية التي كانت توقع على العصاة .

ومن الميقون منه أن اتجاه النبلاء الى المسألة قد ساعد الحكومة فى
مهمتها لحصر العصاة الفلاحين وقمع حركتهم ، ولقد أشار مازاران - وهو
على فراش الموت - على لويس الرابع عشر بالحفاظ على امتيازات النبلاء ،
وعمل لويس بنصيحته يقينا ، فيما يتعلق بالامتيازات الاجتماعية
والاقتصادية ، ولكنه لم يسمح للنبلاء المنتمين الى عائلات أعرق وأرسخ قدما
بدخول الحكومة الا فى مناسبات خاصة ولافراد معينين . وأبرز مثل لذلك
هو الدوق بوفيليه (*) بعد ١٦٩١ . ومن الحقائق الملفتة عن الحكم الفردى
للويس الرابع عشر ، والتباين الكبير بين موقفه بعد نضجه وموقفه عندما
كان مازال حدثا ، عدم تمرد الوجهاء والأعيان عند اقصائهم . فلقد أجهضت
محاولات تأمر الشفالييه دى روهان (**) ١٦٧٤ ومحاولة شومبرج ١٦٩٢ ،
بالرغم من اصدارهما البيانات المعهودة الداعية الى الحاجة الى استعادة
الامتيازات الخاصة بالنبلاء والبرلمانات والمقاطعات وتخفيف الضرائب ،
واشتركت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية وسياسته الدينية الداخلية
فى الحيلولة دون حدوث عمليات تخريب باستثناء ما حدث من فئة صغيرة
للقايا . أما الحجج التي ذكرها « حزب الورع » فى عشرينات القرن السابع
عشر بعدم عدالة الحرب ، لأنها أحدثت انقساما فى أوروبا الكاثوليكية فى
الوقت الذى وجدت فيه أقلية بروتستانتية (لها وزن) فى فرنسا ، فانها
لم تنطبق على الحالة بعد ١٦٦٦ الا لاما . وأثبتت علم صحتها ١٦٨٥ .
اذ حارب لويس الرابع عشر الانجليز والهولانديين البروتستانت ، وأرغم
طائفة الهجنوت على الركوع تحت قدميه . وأدى استعداد الامبراطور
لتقاسم الارث الأسباني مع فرنسا بعد ١٦٨٠ ، الى استبعاد احتمال عقد
تحالف كاثوليكي يضم أسبانيا الخاضعة للهابسبورج والنمسا ضد
فرنسا .

(★) البارون François Houl de Beauvillier (١٦١٠ - ١٦٨٧) .

(★★) الشفالييه Louis de Rohan (١٦٣٥ - ١٦٧٤) .

Schomberg (١٦١٥ - ١٦٩٠) Armand-Frédric .

وحدث تحول تدريجي للنبل بين مستينات القرن السابع عشر وسبعيناته داخل الاقاليم بفضل السياسة الملكية الواعية . فبعد أن كانوا جماعة مشاغبة الى أبعد حد ، من المتعذر تحديد نوازعهم في عهد ريشيليو ومازاران ، فانهم تحولوا خلال الحكم الفردي للويس الرابع عشر الى جماعة تتمتع بميزات شخصية وباستقلال كبير ، وان كانت ملتزمة بالقانون بدرجة متزايدة ، ومن اليسير تحديد ملامحها قانونيا . وما حدث من محاولة لاصلاح حال النبلاء من قبل المتصرفين ، تنفيذا لتعليمات كولبير له أهمية بالغة ترجع على أقل تقدير لنفور النبلاء من هؤلاء المتصرفين .

وهناك سوابق واضحة للتحريرات التي جرت للتأكد من صحة من يحملون لقب النبالة . ففي السنوات ١٥٩٨ و ١٦٣٤ و ١٦٤٠ و ١٦٥٠ ، ألغيت شهادة حديثة العهد بالانتماء الى طبقة النبلاء (*) . وجرى تحريرات للتأكد من ادعاءات الانتماء الى هذه الطبقة . وظهر في احدى المقاطعات كتابان عن انساب النبلاء . ولكن هناك مقاطعات أخرى لم تكتمل فيها التحريرات ، أو لعل سجلات البحث لم يعثر عليها . وعمد كولبير الى اجراء عملية مسح واستقصاء أكثر احكاما امتدت الى مختلف العصور في أغلب أنحاء فرنسا .

وكان من بين أهداف هذه الحملة هدف مالى للتأكد من الغاء جميع الالقاب الزائفة ، حتى يتحمل اعباء ضريبة الحرب الجميع بالتساوى ممن يحق لهم ذلك بحكم المولد ، (٧) . غير أن هذا الاستقصاء كان له جانبه السياسى أيضا . وبغض النظر عن النتائج غير الصحيحة التى أسفر عنها البحث فى صحة ألقاب النبلاء ، الا أنه حقق ثلاث نتائج هامة : النتيجة الأولى - أنه فى شتى أنحاء فرنسا - باستثناء بريتانى وبروفانس ، اتضح أن المتصرف بحكم اتصاله الوثيق بمجلس الملك (ولكن ودون اشارة الى المحافظ) - قد أصبح الفصيل الذى يؤتنس برأيه لتحديد من يحمل لقب النبالة بصفة شرعية ، ومن لا يحق له ذلك . وفى كل مقاطعة ، كان هناك نبلاء زائفون رفضت مزاعمهم (**) ، وطلب منهم دفع غرامة لاتقل عن مائة جنيه . ولم تكثر بعض عائلات مرموقة بهذه التحريرات ، ولم تحرص على الاحتفاظ بسجلات تثبت أحقيتها فى اللقب ، ظنا بأن مسألة نسبها وأصلها وفصلها مفروغ منها ، ومن ثم ألفوا أنفسهم فى مواجهة مصاعب جمة عندما واجهتهم رغبة المتصرف بالاطلاع على ما يشبى الانتماء الى طبقة النبلاء . كما أن البحث عن الأسانيد التى تثبت ذلك فى المحاكم المحلية وسجلات الكنيسة والأديرة

(٧) Le fedreau de la taille soit porté avec egalité par tous ceux que la nais ance y assujettit.

annoblissement. (٨)

(***) فى مقاطعة Caen اسم المؤلف الأول Mesmes de Roissy
(١٥٩٨ - ٩٩) والثانى Etienne III d'Aligre (١٦٢٤ - ١٦٣٥) .

كان اجراء مكلفا ، ولا يسفر عن نتائج مؤكدة . وفي مقابل ذلك ، لم يصادف نبلاء الهندام(*) صعوبات كبيرة لاثبات زعمهم ، والانتماء الى طبقة النبلاء ، وغالبا ما كان البحث يمتد الى ما قبل ١٥٥٠ . فتوارىخ التهيؤ للوظائف التي تدل على الانتماء لطبقة النبلاء كانت معروفة . ولعل من حصلوا على لقب النبالة عن هذا الطريق ، كانوا احرص على اثبات هذا الحق ، واحتفظوا بالوثائق الدالة على أحقيتهم . وثانى نتائج التحريات هي التعريف الجديد للنبالة . فلم يعد النبيل الشخص الذى يدعى أنه نبيل ، أو من يعتقد أنه من النبلاء ، أو يتمتع بحق الاعفاء من الضرائب المباشرة . ولكن النبيل أصبح الشخص الحاصل على شهادة معتمدة من المتصرف بحقه فى هذا اللقب . وهى شهادة قانونية ملزمة ، يتم الحصول عليها بعد استقصاء الوثائق والأسانيد ، وثالث نتيجة مستخلصة من التحريات ومن الاجراءات الحكومية المصاحبة هي اقبال باب الانتماء الى طبقة النبلاء بعد ستينات القرن السابع عشر . فلقد تزايد الاتجاه الى اختفاء الفروق بين نبلاء الهندام والنبلاء الأصل(**) . ويرجع ذلك - من ناحية - الى تضائل الكسب من مظهريات اللقب ابان حكم الملك لويس الرابع عشر . فكانت أغلبية « نبلاء الهندام » تضطر الى الاعتماد على ايراد ممتلكاتها لتعويض خسارة الدخل المكتسب عن طريق الوظائف التي كانت تتطلب انفاقا على النواحي المظهرية . وزادت التحريات الخاصة بالقب النبالة من صعوبات الحصول على اعفاءات جديدة من الضرائب . وفي ظل (النظام القديم) كانت عملية اغتصاب النبالة ، أو الحصول على اللقب « بالأمر » دون رجوع لشجرة النسب ممكنة دوما . أما بعد تشديد المتصرفين الرقابة على ضريبة الحرب ، فقد ساعدت الى حد كبير على الاقلال من المطالبات الزائفة بالاعفاء المالى . ولم يستطع النظام الملكى فى عهد البوربون القضاء قضاء مبرما على استقلال النبلاء ، ثم زال خطر التهديد الذى كان يمثل النبلاء على البنيان السياسى بين ١٦٢٤ و ١٦٦١ بفضل التحريات التي أجراها المتصرفون والجهات المصاحبة الأخرى للمراقبة التشريعية والسياسية . وفى ذات الوقت فقد الفلاحون ممن تزعموا حركة التمرد على الضرائب والتي كانت موجهة ضد التاج ، والطامحون فى التزعم قواعد انطلاقهم .

Preuves nobilitaires.

(★)

Noble de robe, Nobles d'épée.

(★★)

بيد أنه يتعين عدم المبالغة في تقدير مستحدثات لويس الرابع عشر بعد ١٦٦١ . ففي أغلب الحالات ، لم تزد التغيرات التي جاء بها عن تعزيزه للمنجزات السياسية التي حققها ريشيليو ومازاران . وزادت من متانة خيوط التواصل حقيقة نهوض نفس العائلات التي كانت تسيطر على الحكومة ووظائف المتصرفين قبل ١٦١٦ ، بنفس هذا الدور بعد هذه السنة أيضا . إذ كان وزراء لويس الرابع عشر يختارون في الأغلب من عائلات احتلت الصدارة في عهد ريشيليو ومازاران (*) . لكل هذه الأسباب وحدها ، لم يكن من اليسير قيام لويس الرابع عشر بوضع سياسة تختلف عن السياسة التي اتبعها ريشيليو ومازاران ، وأن ينجح في تنفيذها .

(*) لوحظ تشكيل ابن كولبير : Seignely وابن Colbert : Croissy re Torcy شلة من الوزراء . وشكل ميشيل Le Tellier ونجله Lauvois وابن لوفوا و Barbezieux فريقا ثانيا . وكان هناك وزراء قلائل من أمثال Pontchartrair و Chamillart لم ينضموا إلى أي فريق من الفرقاء . أما Lionne وزير خارجية لويس الرابع عشر من سنة ١٦٦٢ إلى ١٦٧١ فكان ابن شقيق Servien ، وانضم للحكومة اعتبارا من ١٦٥١ على أقل تقدير . وكان Pomponne الذي خلف Lionne من محاسيب فوكيه وعمل كمستول إداري عن الجيش في خمسينات القرن السابع عشر . وخدم بالمثل مستولون إداريون كثيرون ممن عينهم مازاران خلال الحكم الفردي للويس . وكان هناك أبناء واحفاد للمسؤولين الإداريين ممن عينهم ريشيليو ومازاران . وبذلك وصل عدد من يندرجون تحت هذه الفئة إلى عشرين شخصا .

المراجع

- P. Goubert, **Louis XIV and Twenty Million Frenchmen**, 1966.
- R. Hatton ed, **Louis XIV and Europe** (1976).
- W. H. Lewis, **The Splendid Century** (1953).
- A.L. Moote, **Revolt of the Judges : The Parliament of Paris and the Fronde**, (1971).
- D. Ogg, **Europe in the Seventeenth Century** (1925).
- L. Rothrug, **Opposition to Louis XIV : The Political and Social Origins of the Enlightenment** 1965).
- J. C. Rule, **Louis XIV and the Craft of kingship** (1970).
- W. J. Stankiewicz, **Politics and Religion in 17th Century France** 1960.
- G.R.R. **Treasure, Seventeenth-Century** (1966).
- J. B. Wolf. **Louis XIV** (1968).

المعنى الاجتماعي للنيروتينية

مرجريت جاكوب

يمثل نشر كتاب « مبادئ الرياضيات » لايزاك نيوتن (١٦٨٧) نقطة تصاعد الثورة العلمية . وبعد ذلك ، انتشرت على نطاق واسع نظرية نيوتن عن الجاذبية الكونية وفهمه العام لآليات الطبيعة الفيزيائية وتفسيره العقلاني لها ، بفضل دوائر العارفين في أوروبا . واثرت نظرياته في العديد من مجالات الحياة الفكرية غير المرتبطة ارتباطا مباشرا بالطبيعة الفيزيائية . وكانت الحياة الدينية من بين النواحي الهامة من هذه النواحي الفكرية في عصر ارتبطت فيه الاعتبارات الدينية برباط وثيق بالفكر الخاص بالمجتمع .

وفي إنجلترا ، قام عالم آخر بالقاء سلسلة من المحاضرات بين فيها كيفية الاستعانة بتعليم العلم في دعم « الدين الطبيعي » يعنى الاعتقاد بأن حقائق الدين ومن ضمنها حقائق الأخلاق ، بالمقدور تعليمها اعتمادا على مشاهدة الطبيعة والتدقيق في أحوالها ، واشترك علماء نيوتونيون انجليز مرموقون ، من بينهم ريتشارد بنتلي وصمويل كلارك ووليم درهام وجون هاريس ووليم ويستون بالقاء بعض الأبحاث أثناء موسم محاضرات بويل الذى عقد خلال أواخر القرن السابع عشر ومشارف القرن الثامن عشر ، وتصور كتاباتهم المزايا الدينية والاجتماعية التى أمكن استخلاصها من الفيزياء النيروتينية فى السنوات التى أعقبت الثورة المجيدة ١٦٨٨ .

وكان هؤلاء المحاضرون من أنصار بويل من أتباع طائفة «الخلاصيين»(*) ، أو اللاهوتيين المعتدلين فى كنيسة إنجلترا ، ومن الراغبين فى حماية الدين

نقلا عن كتاب The Newtonians and the English Revolution (1720-1790) : Margaret. C. Jacob (١٩٧٦) .

(*) Latitudinarians جناح من كنيسة إنجلترا فى منتصف القرن السابع عشر يهدف الى اتباع نظرة جامعة تقتصر على النقاط موضع الاتفاق العام بين شتى الطوائف المسيحية ، وتستبعد جميع النقاط الخلافية ، التى ربما تنافرت مع العقيدة المسيحية .

من أوصاب المذهب المادى الملحد الذى ربطوا بينه وبين الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز • وسعوا - من ناحية أخرى - لمقاومة أى تطرف دينى صاحب حالة عدم الاستقرار التى نجمت عن الحرب الأهلية الانجليزية • وقد ذكروا أن الفهم الصحيح لعالم الفزياء عند نيوتن ، بطابعه العقلانى ، والمنظم انتظاما أشبه بانتظام الآلة ، لابد أن يؤدى الى الاعتقاد بأن الله أيضا يتصف بالعقلانية ، ويتعين أن يعبد عن طريق العقل • واعتقدوا أيضا أن الفزياء النيوتينية تحمل فى ثناياها الاعتقاد بوجوب خضوع المجتمع لنظام مماثل للنظام الذى تتبعه الطبيعة الفزيائية • وحثوا الأثرياء على كبح جماح سعيهم نحو تحقيق الصالح الشخصى ، حتى لا تؤدى الأنانية المتهوسة الى أحداث بلبلة اجتماعية وسياسية • وراوا أيضا أن تأمل انتظام الطبيعة الفزيائية وتصور الأشخاص للمجتمع كشئ منظم بطبيعته ، قد يؤدى الى الاعتقاد فى وجود نظام هرمى اجتماعى واضح ، ربما كان من الخطأ اعتراض الكائنات البشرية عليه • وعلى هذا النحو ، شعر محاضرو بويل أنهم جمعوا بين مبدأ دعم فضيلة السعى المعتدل من أجل الصالح الذاتى وبين الدعم القوى للوضع الاجتماعى والسياسى الراهن(*) • واستند الدرسان (الدرس الأول الموجه الى الأغنياء والدرس الثانى الموجه الى الفقراء) على تفسيرهم فى دعم النظرة النيوتينية للعالم •

حددت سلسلة المحاضرات التى وضعها روبرت بويل وأشرف عليها فى سنواتها الباكرة اثنان من أصدقائه الحميمين : افلين وتينسون مضمون فكرة الدين الطبيعى الانجليزى واتجاهه ابان القرن الثامن عشر • وما أن جاءت ١٧١١ ، حتى أضحي الاطلاع على محاضرات بويل من مقومات معرفة المثقفين • وأثرت هذه المحاضرات ، بالإضافة الى محاضرات ريتشارد بنتلى (١٦٩٢) والى حد كبير محاضرات صمويل كلارك (١٧٠٤ - ١٧٠٥) ووليم درهام (١٧١١ - ١٧١٢) أعظم تأثير فى سائر أنحاء أوروبا • فعندما هاجم الفيلسوف الفرنسى هولباخ المذهب التآلهى (١٧٧٠) فانه ركز على الفلسفة الطبيعية لمحاضرات بويل • وعندما عبر روسو عن احساسه بوجود الله فى الطبيعة ، استشهد بكلارك كأول مؤيد لرايه • وتعلم صمويل جونسون الكثير مما يعرفه عن العالم من مطالعته لمحاضرات بويل •

وتدل الشهرة الكبيرة التى حظيت بها هذه المحاضرات فى القرن الثامن عشر على مدى ما قدمه هذا الفريق المعتدل من خدمات للكنيسة • وكان الأوصياء على هذه المحاضرات يختارون المحاضرين بعناية فائقة ، ووجهوا حججهم للدفاع عن الدين الطبيعى والدين السماوى اعتقادا منهم بأن جهودهم وانتقاداتهم ستبساعد على الحفاظ على الزعامة المعنوية للكنيسة

ونفوذها السياسى فى مجتمع مهمل من كل ناحية بالاحاد . وعندما نتذاكر ما احتوته المحاضرات ، ونراجع ما حدث حينذاك ، سنرى أن أهم ما حققته محاضرات بويل بين ١٦٩٢ - ١٧١٤ فكريا هو التكامل بين الفلسفة الطبيعية لنيوتن باعتبارها دعامة جديدة للأيدولوجيا الاجتماعية البروتستانتية الجرة . ويرجع الفضل فى احداث هذا التكامل - أساسا - الى جهود بنتلى وكلارك ، وبمقدار أقل لجون هاريس ووليم درهام ووليم تينسون .

وأغلب الظن أن النيوتينية قد فهمت فى بداية عهدها كظاهرة فكرية مجردة فحسب خالية من أية أيدولوجية مجاوزة للواقع ، أو مضمون اجتماعى وسياسى . ولم يشعر أحد بلور نيوتن الخلاق الأفضل نوعا فى الناحية الاجتماعية والناحية السياسية ، الا بعد أن ظهرت الأبحاث التاريخية الحديثة جدا التى تصورت نيوتن خاضعا لاهتمامات عصره ، مما دفعه الى الحرص على احداث وفاق فى فلسفته الطبيعية حتى تساير روح العصر . أما المذهب الذى نسبته أنصاره اليه (والذى رضى عنه بصفة جوهرية) والمصادر التى ارتكن اليها الأحرار عند معارضتهم له فقد ظهرت فى الكتابات الحديثة على أنها متصلة بالناحيتين الدينية أو الفلسفية فحسب . وقيل ان رجال الكنيسة قد اتبعوا الفلسفة الطبيعية لنيوتن لأنهم كانوا يخشون الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، والعون الذى قد تقدمه للملحدين والماديين . ولكن لماذا كانوا يخشون الاحاد ، ويخشون أكثر من ذلك المذهب المادى - بوجه خاص - عندما يستند الى الديكارتية ؟ فهل اقتصر التعرض للخطر على التقوى المسيحية ؟ وهل كانت النيوتينية مجرد أحد أسلحة الحرب بين التمسك بالدين والهرطقة ؟ لعل مثل هذه النظرة قد جعلت الدين مجرد مسألة اقتناع عاطفى وتجربة روحانية مجردة بعيدة عن الواقع الاجتماعى ، أو ربما قيل لنا ان النيوتينية قد أعادت توكيد النعمة التى ردها الاسميون (فى القرون الوسطى) من القائلين بالارادة والاختيار فى اللاهوت المسيحى الذى نما فى أواخر القرن الثالث عشر ، وأنه من ثم « فمن غير الضرورى - ومن المضلل حقا - التسليم بوجود حالات تشابه اجتماعى وسياسى ، لأن التأثير - لو وجد - سيكون تأثيرا معاكسا . ومن المفيد والهام الى أقصى حد أن ندرك أن الفلسفة الطبيعية النيوتينية تتبع أحد تقاليد الفكر المسيحى ، وان كان تصور التحول الفكرى على أنه شىء يتم بصورة آلية ، وأن المفكر يتبع فكرة ما لمجرد أنها موجودة فى انتظار من يتبناها ، يدل على اتباع فرضية منهجية تعتقد أن الأفكار النيوتينية بمقدورها أن توجد مستقلة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة أو بمعزل عنها . وأنها موجودة كذلك .

أن رجال الكنيسة الذين اتبعوا النيوتينية ، لم يتحدثوا باسمهم فقط ، وباسم الأوصياء على محاضرات بويل ، ولكنهم تحدثوا أيضا باسم طائفة « الخلاصيين » من أتباع الكنيسة ، فمنذ بدايات حركة الإصلاح الدينى ، شغل رجال الكنيسة بالبحث عن منهج بروتستانتى ليبرالى وشامل بمقدوره التحدث عن المشكلات الأخلاقية فى عصرهم . ولقد أمكن صد التهديد الموجه للسلطة السياسية والدينية للكنيسة من قبل الراديكاليين ، بعد رجوع النظام الملكى (عهد الاستعادة) . وشيئا فشيئا كاد يختفى تأثيرهم السياسى ، وإن كان رجال الكنيسة لم يقنعوا بذلك ، فى الحقبة السابقة لسنتى ١٦٨٨ و ١٦٨٩ ، تأسفوا لانعدام الأخلاق فى عصرهم ، وسعوا لكسب رضا جماهير الكنيسة بتأييد فكرة السعى المستنير وراء تحقيق الصالح الذاتى ، تمشيا مع ارادة العناية الالهية ، وكما أكدت قوانين الطبيعة .

وكان « الدين الطبيعى » المتأثر بعقيدة « الخلاصيين » قد ارتقى من الناحية العقائدية على عهد الملك جيمس الثانى . وبغته ، تعرضت مصالح الكنيسة مرة أخرى للتهديد من النظام الملكى ذاته ، هذه المرة . واتجه نفر من صغار رجال الكنيسة الى النبوءات سعيًا وراء الهداية والسلوان . والتزم أغلبيتهم باتباع موقف هامشى ، بينما اضطلع بدور الثورة – من أجل انتقاد الكنيسة – الأمراء والحكام والأعيان .

ومن تأثير الثورة ، التى بدت فى نظر رجال الكنيسة حادثا يدعو الى الارتياح – أخلاقيا – استولى « الخلاصيون » على الكنيسة ، غير أن النظرة السياسية اليهم كانت متضاربة . فلقد اطمأنت الكنيسة الى وضعها بالرغم من استناد نفوذها السياسى وسلطتها التهذيبية على تحالف عشوائى مع السلطات العلمانية أو المدنية . وبعد أن انتصرت حكومة الثورة القائمة على فكرة التعاقد وضرورات الصالح الذاتى ، تأزم موقف الخلاصيين . وتعكس محاضرات بويل محتهم ، بكل دقة . اذ بدا الدين الطبيعى الذى جاء به من « سبقوهم من مفكرى » عهد الاستعادة ، هو الحل الأوحى . ورثى أن باستطاعة المسيحية الليبرالية المستندة الى منجزات العلم ، الجليلة البينة ، والتى لا يستطيع الطعن فيها ، أن تحقق الولاء للدين ضد المزايم التى يرددها أنصار هوبز والمفكرون الأحرار . وعنى الولاء للدين فى نظر صغار رجال الدين الولاء للكنيسة . واستنادا الى هذا الولاء ، قد يرتقى السلوك الاجتماعى والاقتصادى الخاضع للعناية الالهية ، ويسود الاستقرار ، ويتوافر الرخاء ، وتتحقق أحلام الكنيسة بحلول القيامة الألفية (*) .

(*) millennium ، فترة زمنية تقدر بالف سنة ، يتم فيها تقييد حركة الشيطان ، ويعود بعدها المسيح للحكم على الأرض . والله اعلم .

وعنى ذلك عند بعض النيوتنيين من أمثال ويستون الاهتداء الى « السماء الجديدة » و « الأرض الجديدة » بمعناها الحرفي ، كما ورد فى الأسفار المقدسة . وعنى هذا الحلم فى نظر آخرين ككلارك ، تحقق نظام مستقر متناغم ، تسوده العناية الالهية ، حيث لا تعرض ضرورات السوق أية تناقضات تتعارض وما يمليه الدين الطبيعي . واستعان النيوتنيون بعلم أستاذهم (نيوتن) لدعم أهدافهم . واتخذت الفلسفة الطبيعية لنيوتن كدعامة للايديولوجية الاجتماعية التى وضعتها الكنيسة بعد الثورة . .

وبعد ١٦٨٨ - ١٦٨٩ ، استندت صياغة الايديولوجية الاجتماعية المعتدلة للكنيسة على نظرة جديدة لنور الدين فى نطاق النظام المدنى للدولة . فلقد نظر الآن الى دور الدين على أنه سعى لتحقيق الطمأنينة الى سلامة مجرى الأحداث فى مجتمع منتظم على خير وجه . وزعم جون هاريس : أن الفضائل التى يبثها الدين « ستؤدى طبيعيا وبالضرورة الى تحقيق صالح البشرية وسعادتها، والى الدعم المتبادل للمجتمع ، والتجارة ، والى استتباب السلام والسكينة لجميع الحكومات والطوائف » . فالدين يزود بالسبل المناسبة لتحقيق غاية الصالح الذاتى . ولن يحدث أى ارتياب فى الغايات ، الا اذا استهلكت الوسائل المتبعة لتحقيقها قيم الاخلاق المسيحية . .

ويعبر بنتلى عن هذه النظرة الجديدة لمكانة الدين فى الدولة عندما يسأل محاوره فى معرض هجومه على هوبز : « لماذا اذن تحاول تقويض هذا الأساس ؟ ولماذا تعمل على افساد اللحمة (يضم اللام الثانية) التى تساعد على التئام المجتمع ، وأن ترد كل شئ مرة أخرى الى الحالة المضطربة والمهوشة التى تتوهمها عن أصل الطبيعة ؟ فليس باستطاعة أى مجتمع ، أو بمقدوره البقاء على أى أساس آخر غير الدين » . فالدين يتشابه والاسمنت فى أحداث التلاحم داخل المجتمع ، وفى أحداث جذب متبادل بين مختلف القوى التى تهدد استقرار المجتمع .

وترتب على الدور الذى نسب الآن صراحة الى الدين ضرورة اعادة توجه تعاليم الكنيسة تجاه المجالات العامة للنشاط الانسانى ، والابتعاد عن الخصوصيات التى تكفى بالدعوة الى الصلاح الشخصى والعبادات . فممارسة الفضيلة الاجتماعية تشيب الفرد ثوابا عظيما ، وتحقق أعظم نفع للمجتمع بوجه عام . ويعترف صمويل كلارك لمستمعيه بأن هذا الجزء الاجتماعى جلى بين « حتى ان أعدى أعداء جميع الأديان ، الذين يزعمون أنه لا يزيد عن اجراء دنيوى أو سياسى من صنع الدولة ، يعترفون - حتى ضمن هذا الزعم بالذات ، بالكثير مما يتعلق به » .

وحتى يتسنى للمفكرين الدينيين إعادة توجيه أهداف الدين، واقصائها عن « الأخريات » والتعبء الشخصى أو الاتصال بالخالق ، أو لمسايرة « سياسة الدولة » ، أو لممارسة الفضائل العامة والاجتماعية ، كان عليهم أن ينسبوا للنتائج المستمدة من إعادة توجيه البشر على هذا النحو أعظم قيمة ممكنة . وعرض بنتلى فى مستهل محاضراته القيم التى قصد بها الوظيفة الاجتماعية للدين : « فالدين ذاته يمنحنا أعظم غبطة ، ويحقق لنا اسمى ميزة ، حتى فى هذه الحياة أيضا ، دون مبالاة بالبعث فى الحياة الآخرة . فكل سبيل لتحقيق السلام ، وكل وسائله تؤدي الى الشعور بالانشرح » .

وعرض رجال الكنيسة السلام كهدف يحصل عليه المجتمع عندما يتمسك بأهداب الدين . وحتى يكتسب عرضهم المصادقية ، ذكروا اسم المسيح كقمة للثقات الذين يرفعون اتجاهاتهم ، وقالوا انه أوصانا باتباع الحكمة فى مسلكنا حتى يتواءم هو والجانب العقلانى من طبيعتنا . فاذا نظرنا الى جميع قوانينه فى ذاتها سنراها مجردة من أى توقع يحقق الصالح العرضى أو الوقتى لمن يتبعون هذه القوانين . فهل هناك ما هو أكثر نفعا لصالح الانسان أو صالحه أو مكانته أو سلامه فى هذا العالم من الاحسان والوداعة والأمانة والاجتهاد فى التضرع اليه . وما يعنيه قول بنتلى فائق الأهمية : لقد جاء المسيح بالمسيحية للبشر اعتمادا على تجرده من الانانية ، حتى يتأكدوا من أن صالحهم الوقتى سيكون حصيلة سعيهم لتحقيق ذاتهم .

فالدين يغفر ويشجع على اتباع نظام اجتماعى واقتصادى قوامه الاعتراف بحقوق الملكية الشخصية واحترام الذات . ويطالب الدين فى المقابل أن يسعى الأشخاص لتحقيق صالحهم اعتمادا على العقل ، وأن يحرصوا على الفضائل الاجتماعية للعدالة والأمانة . وكما لاحظ افلين ١٦٨٨ : ان المتدينين لا ينفرون من الثراء ، ولكنهم يشجبون فقط « تفاهات الثراء » ويقر كلارك القول بأن المخربين والمفسدين « يعرضون أنفسهم للاكتساح من قبل النزوات العشوائية والتعسفية ، التى كان باستطاعتهم التنبؤ بعواقبها ويقعون ضحية للأهواء الطائشة والشهوات والتفاهات والكبرياء والصالح الشخصى والمتع الحسية الآنية . وهذه النواحي هى التى تدفعهم الى تعبئة ارادتهم وذواتهم بأفعالها المنافية للعقل لمواجهة طبيعة الأشياء ومعقوليتها . نعم يحاول الغارقون فى المتع الدنيوية « تدمير هذا النظام الذى أقيم الكون على أساسه » .

ولما كان رجال الدين لم يقصدوا قط شيئا بالتحديد عندما تحدثوا عن أصحاب العقليات الدنيوية ، لذا كان بمقدور المؤرخ أن يتمثل معهم فى

التعميم ، عندما يعرف « طابع » الحساسية الدينية . فلقد تحول الاحتجاج الذى بدأ فى بواكير تسعينات القرن السابع عشر ضد الطبقات المتخمة بالمال الى فيض من النقد والسخرية فى عهد انجلترا الأرسطية (*) . وانصب أغلب هذا النقد الاجتماعى - وبخاصة عند الساخرين المحافظين من أمثال سويفت وبولنجبروك وجاى - على الكشف عن العروض الساذجة للشراء والعادات المبتذلة التى شاعت عند طبقة الأثرياء الجدد التى لم يستند وجودها على عراقاة الأصل ، وغالبا لم يستند أيضا على المكتسبات « الحميدة » التى رضى عنها افلين كمعيار للمكانة الارستقراطية . والواقع أن هذه الطبقة الجديدة قد نسبت لنفسها نفس مكانة صفار عليا القوم الاجتماعية ، بل ومكانة الارستقراطية - الى حد كبير - بعد أن استحدثت التوسع التجارى والمالى فى انجلترا ١٦٨١ فئة اجتماعية جديدة ، كل مؤهلاتها القدرة على الاستثمار والحرص الدائب على الكسب . وأحدثت سرعة تحولهم الاجتماعى ، بالإضافة الى ما صاحب ذلك من ضعف التعاليم الدينية وسيطرة الكنيسة بعد حركة الاصلاح الدينى ، نظاما اجتماعيا جديدا . ولم تعد السلطة الاجتماعية والسياسية تتبع بالضرورة انتماء الشخص الى احدى المراتب العليا فى الكنيسة ، ولم تعد المشاعر الدينية التى تبرر أحقية النجاح الدنيوى حقيقة ملموسة .

وهدد المخادعون معدومو المبادئ نظام المجتمع ، ومكانة الدين فى هذا النظام . وكثيرا ما انتفعوا على حساب أهل الفضل ، كما ذكر كلارك بأسف . فلقد خلقوا موقفا لم يقتصر أمره « على حرمان (الفضلاء) من الاستمتاع بالخيرات العامة التى ستعود عليهم بطبيعة الأحوال وبانتظام كثرة لتستعهم بالفضيلة ، ولكن فى كثير من الأحيان ، كانت سببا فى تعريضهم لأفدح النكبات الدنيوية ربما لمجرد اتصافهم بهذه الفضائل » . وهكذا كان النظام الاجتماعى الرقيق الذى تصوره النيوتونيون يتعرض بلا انقطاع لتشويه نفر من اللاعقلانيين الذين دأبوا على السعى نحو تحقيق صالحهم الذاتى بلا شفقة ولا هوادة .

وسعى المتدينون لخلق نموذج لكيفية عمل نظام للمجتمع يمكن الاطمئنان الى تطبيقه . فلقد اعتقدوا فى وجوب شرح هذا النموذج على الملأ لأن :

« فساد الحالة الراهنة التى تكتنف الطبيعة البشرية الآن ، تحتم عدم ترك البشر بوجه عام للخضوع لما تمليه عليهم عقولهم ، ولاستعمال ملكاتهم الطبيعية ، لمواجهة المعتقدات المجردة لعقلهم . ولكن يتحتم تهذيبهم

(*) Augustan - يقصد به انجلترا بعد اعتناقها للمذهب البروتستانتى .

وتعليمهم بوجه خاص كيفية قيامهم بواجبهم . ويجب أن تغرس في عقولهم ودوافعهم هذه الأفعال ، في الأغلب وبصورة قوية ، وأن تبث فيهم اعتمادا على سلطة لها وزنها . ويجب أن تقدم لهم العديد من المساعدات ، حتى يحافظوا بطريقة فعالة على ممارسة أعظم واجبات الدين وأبينها .

واتجه رجال الكنيسة لدراسة الطبيعة الفزيائية في محاولة لاصلاح فساد البشر ، ولحثهم - غالبا وبطريقة قوية - اعتمادا على سلطة لها وزنها . وقبل أن نناقش الدروس الهامة التي استخلصوها من الطبيعة ، وكيفية تطبيق هذه الدروس على المجتمع ، يجب أن نتوقف لبحث مسألة لماذا اتجه العديد من رجال الكنيسة في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر الى الدراسة العلمية . وهي محاولة ساهمت بطريقة حاسمة في تقدم العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة على نحو يدعو الى التقدير .

ولقد زودنا صمويل كلارك باجابة جزئية . ولعل كلارك كان واحدا من قلائل من رجال الكنيسة في انجلترا فهموا الفزياء النيوتينية فهما صحيحا ، وأقام فكره الفلسفي والأخلاقي برمته على تصورات فزيائية مدعمة بمنجزات نيوتن العلمية . وكما قيل ، فان المفكرين الدينيين الانجليز في أواخر القرن السابع عشر قد اتجهوا الى الاشادة بالدين في الحالات التي اكتشفوا فيها نهوض الدين بدور اجتماعي . فالدين يؤدي مهمة تزويد المجتمع بالنظام ، وكبح جماح الشرارة والتفتير ، وتوطيد الاستقرار داخل المجتمع عندما يساعد على لم شمله والتشامه . ويرافق التوكيد الجديد للدور الاجتماعي للدين الاهمية التي نسبت للعناية الالهية في الكون وشئون البشر . فالله يوجه ما يجري في العالمين : « فبفضل حكمته وعدالته وخيريته التي تجلت في تنظيم العالم وحكمه لعالم الأخلاق الذي يعتمد بالضرورة على ترابط هيكل وحدته الكلية وصدوره » . وأكد كلارك - بكل ثقة - الدور الفصاى للعناية الالهية في الجانب الطبيعي للعالم ، وجانبه السياسي .

على أن كلارك قد كشف عن اهتمامه (ولا بد أن يكون هذا الاهتمام قد اتخذ شكلا استفزازيا ومتعبا) عندما قال ان ما تفعله العناية الالهية يتكشف لأعيننا ، لأننا لا نرى غير آثارها في أحوالنا ، بيد أن دور الله واضح ومتميز في النظام الطبيعي . انه واضح مثل المنطق الذي استعان به كلارك في شرح أوصافه وآثاره . وكتب كلارك يقول :

« لربما بدا للوهلة الأولى من الغريب أن يتوافر لكل شيء في ذاته الكثير مما هو واضح جلى من دلائل لا تنكر للبراعة الدقيقة والحكمة

اللامتناهية لخالقها العظيم ، التي تتمثل فى نظام الطبيعة فى عالم الماديات والجمادات ، وفى الجانب اللاعقلانى للخلقة ، ابتداء من ألمع النجوم فى قبة السماء الى أصغر حصة على وجه الأرض . فلا وجود لنتفة من المادة لا تعرض أمثلة للبراعة المذهلة ودقة التناسب والصنعة بقدر يتجاوز كل فطنة الانسان (ولا أقول قدرته على محاكاته) مما يصعب بحثه كل شئ باستيفاء أو فهم . ومع هذا ففى ادارته للعالم العقلانى والأخلاقى ، الذى خلقت باقى الأشياء من أجله ، والذى يرجع سر بقائها الى كونها فى خدمة هذا العالم ، لا وجود لدلائل واضحة بما فيه الكفاية فى عصور كثيرة لا لحكمته ، ولا لعدالة الله وخيرته ، ولا لما يثبت تدخل العناية الإلهية على الإطلاق ، لا قناع الكافة بوضوح وبصفة عامة ، بأن العالم خاضع للعناية الإلهية المباشرة وللإطلاع الإلهى على كل ما يجرى ، ولحكم الله .

ولن تظهر دلائل فاعلية الله فى النظام الأخلاقى والسياسى الا بعد مجيء حقبة حافلة ببعض الثورات الكبرى ، ومنجزاتها ، التى تثبت اعتماد الانسان على الله جلّيا واضحا حتى لا بعد الناس ايمانا بالدين ، عندما يتكشف المخطط الإلهى فى التاريخ ، ونعرف السماء والأرض فى صورتيهما الجديدتين . وحتى يحين ذلك اليوم ، يجب أن يقنع الناس بالايمان بدور العناية الإلهية فى عالم السياسة . ولكن عندما يسعى البشر لتفسير المعنى المتضمن وراء مخطط العناية الإلهية لمعرفة طبيعة المجتمع ، فإن الايمان وحده لن يعد كافيا . فاذا أمكن فهم مخطط الله فى العالم الطبيعى ، واستطاعت الطبيعة أن ترشدنا ، أو تقلم لنا نموذجا نعرفنا ما يجرى فى العالم الأخلاقى . فى هذه الحالة ، سيتسنى التعرف عند دراسة الطبيعة الفزيائية الى بديل لما فى هذا « العصر المزدول » من فساد وشر . وفى أواخر القرن السابع عشر ، استطاع العلم التزويد بدليل أوضح مما قدمه المجتمع ، للدلالة على فاعلية العناية الإلهية . وأقبل رجال الكنيسة على « دراسة الفلسفة الطبيعية بأعداد كبيرة متزايدة » .

وقدم كلارك كبديل لهذا « العصر المزدول » فى محاضرات بويل النتائج المستخلصة من دراسته للطبيعة . فلقد استعان كلارك بمبادئ الحركة وقوانينها ، التى تعبر عن دور الله ، والتى تضم بنيان الفلسفة الطبيعية لنيوتن ، لتفسير طبيعة النظام الاجتماعى .

وربما يظهر للوهلة الأولى تصور مثل تصور « الخواء » وتصور « المكان المطلق » و « الزمان المطلق » و « المسادة والحركة » بعيد الاتصال بنموذج المجتمع الذى يتطلع اليه رجال الكنيسة . غير أن فلسفة الطبيعة ذاتها الكامنة وراء محاولات نيوتن الرياضية والتجريبية ، والتى تبناها بدورهم المعقبون عليه قد انبعثت من وسط فكرى واجتماعى

قد أضفى حتى على الطبيعة الفزيائية أهمية أيديولوجية • فلقد تولى تفسير معنى القول بأن « المادة ميتة » أو « خالية من الحياة » بطريقة صارمة ، أفلاطونيو كيمبردج من أمثال هنري مور ورالف كادورث • ولقد قاموا بالمحاولة للتعبير عن رأيهم في مواجهة الماديين والملحددين في منتصف القرن السابع عشر ، الذين أكدوا وجود مبدأ للحياة في المادة ، ومن ثم استخلصوا قابلية الروح للفناء • ولقد أضفى التكامل بين هذه المعاني الفلسفية الظاهرة الأهداف الاجتماعية والسياسية والراديكالية لطوائف بالذات مثل طائفة المنادين بإزالة الفروق (*) • وليس من شك أن نيوتن قد استخلص الكثير من فلسفته الطبيعية من أفلاطونيو كيمبردج • ولا أرغب حالياً في التعرض لتعقيدات هذه المشاحنات السياسية والأيدولوجية في منتصف القرن • وتتعين الإشارة فقط الى أن الفلسفة الطبيعية لنيوتن حتى في صورتها الأصلية التي ظهرت في منتصف القرن عنده وعند من عقبوا عليه لم تنفصل البتة عن سياقها الاجتماعي •

والتصور القائل بأن المادة ميتة وخالية من الحياة وممتدة ، ولا يخترقها شيء تصور أساسي في الفلسفة الطبيعية النيوتينية • فالمادة لا تتحرك ، سواء اتخذت شكل الكوكب ، أو في حالتها الذرية ، إلا إذا دفعتها قوة لا مادية من الخارج • ومصدر الحركة هو الله • فهو الأصل والمصدر الثابت للحركة ، القائمة في الكون • وعبر نيوتن عن تصوره للمادة في أوضح صورة في المبحث الواحد والثلاثين من كتاب البصريات (**) (١٧١٧ - ١٧١٨) : « ان قوة القصور الذاتي (***) هي مبدأ سلبي يساعد على استمرار الحركة أو السكون • ويتلقى الحركة على نحو يتناسب والقوة الضاغطة عليه ، ويقاوم بقدر يتساوى وقدر مقاومتها • وليس بالمقدور حدوث أية حركة في العالم اعتمادا على هذا المبدأ وحده » •

وتحدث قوانين الحركة (الجاذبية الكونية مثلا) تأثيرها الفعال على المادة من بعد • ويلزم وجود الخلاء لانجاز هذه العملية • وللفضاء الذي يحدث من خلاله اجتذاب المادة وحركتها كينونة في ذاته ، تعمل من خلالها قوة الله في الكون • والواقع أن قانون الجاذبية الكونية هو ارادة الله ، كما يعبر عنها في الكون • ويكشف « نظامها الرائع » عن ارادة العناية الالهية الكائن عاقل قادر على كل شيء •

وبعد الثورة ، قال أنصارها : لقد كانت الارادة الالهية ذاتها وراء الأحداث التي وقعت في ١٦٨٨ و ١٦٨٩ • وتمشيا مع هذا اللاهوت المؤمن

Levellers.

opticks

Vis inertiae.

(*) .

(**)

(***)

بالعناية الالهية ، شدد المعقبون النيوتينيون على الاشادة بدور الله في الكون . فعندما بدأت الخليقة رص الله ذرات الكون فى نظام ، وشكل الله العماء البدائى فى صورة الاطار الراهن للأشياء ، ويرجع استمرار بقاء هذا الاطار الى التدخل المستمر لله . ويقول لنا كلارك : « وتبعاً لذلك ، فلا وجود لما يسميه الناس عادة بمسار الطبيعة أو قوة الطبيعة . وإذا توخينا الدقة فى الكلام علينا القول ان مسار الطبيعة هو هو ارادة الله التى تحدث آثاراً معينة على نحو مستمر ومنتظم وثابت ومطرد . فأى مسار أو حالة من حالات الفعل تتصف فى كل لحظة بالعشوائية الكاملة ، سيكون من اليسير تغييرها فى أى وقت ، مثلما سيسهل الحفاظ عليها » . فالله بوصفه كينونة بحتة وروحانية وقوة هائلة حاضرة فى كل مكان ، وكاملة وقادرة على كل شئ ، يمارس سلطته كاملة على المادة ، انه المصدر النهائى لكل حركة فى الكون . وباستطاعته تفويض الانسان لممارسة هذه القدرة .

وفى المذهب النيوتينى ، أثبتت القدرة الممنوحة للانسان لتنظيم المادة ، وتحريكها ، أو تعديل اتجاه الطبيعة ، فى نهاية الأمر ، التعاليم الاجتماعية « للخلاصيين » . فالمادة غفل وغبية (أى لا عقل لها) وللانسان السيطرة النهائية – بفضل عقله – على الأشياء فى العالم . واعتقد بنتلى أنه من السخف تخيل : « ان بمقدور الذرات ابتكار الفنون والآداب والعلوم ، وتكوين المجتمعات والحكومات ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات ، وابتكار وسائل لتحقيق السلام ، وتخطيط استراتيجيات الحرب » ، أو « التعامل فى المسائل العامة والخاصة ، وفى البحر والبر ، فى دور البرلمان ومخادع الحكام » . ويساعد التعريف النيوتينى للعلاقة بين الانسان والمادة على اجازة السعى وراء الغايات المادية ، وتسخير الأشياء فى هذا العالم لصالحنا ، وبالتساوم والبيع والشراء والاشتغال بالأمور الدنيوية ، بعد معرفة أن هذه الأنشطة من الحقوق التى منحها الله . وتعد قدرة الانسان على كسب الممتلكات المادية امتداداً لحقه فى تغيير مسار الطبيعة ذاته ، والتحكم فى المادة « الغفل والغبية » . ولكن الانسان عندما يتعامل هو والأشياء المادية ، عليه أن يبت فيها نظاماً شبيهاً بالنظام الذى فرضه الله على الطبيعة . وكما لا يتوقف الله عن الارتقاء بخير الكون ، فان على البشر أيضاً أن ينشغلوا بخير الكونى . فالانسان ملزم بالطاعة من يتسيدون عليه والخضوع لهم فى جميع الأشياء العادلة والحقة للحفاظ على المجتمع .

وفى عملية التحكم فى المادة ، خصصت للبشر مواقف معينة . فمن الضرورى للحفاظ على النظام الاجتماعى ، أن يلتزم الفرد بالواجبات التى يفرضها عليه هذا المركز بالذات ، أو مقومات الحياة ، أيا كانت ، أى حيث وضعته العناية الالهية فى الحاضر ، وأن يواظب على عمله ،

ويرضى عنه ، دون شعور بالضيق والتبرم من كون الآخرين قد وضعتهم
العناية الالهية فى مواقع أفضل ومختلفة فى العالم ، أو جعلته فى حالة
توجس شديد وغير معقول يدفعه الى العمل على تغيير موقعه فى المستقبل ،
مما يشجعه على اهمال واجبه الراهن . » فالبنيان الاجتماعى قد صدق الله
على قيامه ، ومحاولة تبديله تدل على الانحراف . »

وحدثت مثل هذه المحاولة التبديلية ابان فترة الخواء (*) عندما سمح
لناس ذوى نفوس طموحة ومضطربة ممن شعروا بعدم الرضا وعدم الارتياح
عن خصوصياتهم وانفرادهم بالحياة، وفقا لمبادئ أبيقور بالاشتغال فى مهام
الدولة . ويلمح بنتلى بذلك الى الطوائف المنشقة الذين حصلوا بطرق
خفية على سلطات الأريستقراط « بالخصوصية » والانفراد ، والبلاط
وما حل به من وهن فى النظام الاجتماعى والسياسى . ويصف بنتلى أفعالهم
بالنزعات الأبيقورية والشهوانية (**) التى لمحها فى مجتمع ما بعد ١٦٨٨ .

وبالمثل لم يكف صمويل كلارك عن ذكر الفساد والفوضى التى عمت
العالم المحيط به : « لقد بلغت حالة البشر فى هذه الدولة الراهنة حدا جعل
النظام الطبيعى للأشياء فى العالم فى حالة انحراف واضح ، مما حال الى
حد كبير دون احتلال الفضيلة والخير موضعهما الصحيح ، والنهوض بدورهما
فى توطيد السعادة التى تتناسب هى ومسلكتهم وممارستهم . ودفع
التشاؤم الناجم عن هذا التبصر بمسلك البشر فى العالم عند أولئك الذين
يتجاهلون العناية الالهية والتحكم فى شئونهم كلارك ، كما دفع معاصرين له
من رجال الكنيسة الى الربط بين انحراف القيم الاجتماعية وفساد الطبيعة .
ولقد حفنت عظاته دوما بتشبيه المجتمع بالطبيعة :

« عندما تتخلى الشمس عن مبدأ المساواة الذى تتبعه الآن فى مسارها،
كما يبين من حرصها على نشر دفئها الرقيق ونورها الوضاء ، ورعاية كل
شيء بما يناسبه ومنحه القوة فى كل بقعة فى النظام الشمسى ، وتتجه عكس
ذلك الى الاحتراق واتباع مسار معوج بعيد عن الانتظام ، فتمد بعض الأجرام
بحرارة لا تخضع لأى كبح ، وتترك أجراما أخرى للفناء من هول البرودة
والظلمة ، فان ما يحدث فى هذه الحالة بالنسبة للعالم الطبيعى يتماثل مع
حالة الظلم والظغيان والاجحاف والشر بالنسبة للجانب الأخلاقى والعقلانى
للخليقة . »

فلقد اعتقد كلارك ان تدهور القيم الأخلاقية وفقدان الاستقرار
الاجتماعى ، بالتبعية ، قد تمثل قبل ذلك فى التدهور الفزيائى للطبيعة .

Interregnum.
aitheistical.

(*)
(**)

فاذا أمكن الحيلولة ، دون حدوث انهيار للطبيعة ، لابد آتئذ من توقف انهيار القيم الأخلاقية . فمبادئ النظام والعقل تتطلب التعبير عن نفسها . وعندما يحدث ذلك يتأكد وجود نظام كامن فى الطبيعة ، ينطبق على النظام الأخلاقى والاجتماعى . ومن هذا يتضح كيف استعان رجال الكنيسة بالمذهب النيوتينى كنموذج كامن فى الطبيعة ، وطبقوا مبادئه على المجتمع الذى يحيون فى ظله .

فالمبدأ المنظم للطبيعة هو الجاذبية ، أى التجاذب الكونى والمتبادل لجميع الأجسام . ويمثل هذا المبدأ « أمر الله » كما يتجسم فى قوانين الجاذبية التى تولد النظام والتناغم فى الكون . وتقوم الجاذبية بدورها فى المادة المحيطة بالخلاء . وبفضل هذا الفراغ ، تيسر للذرات التحرك فى المكان والتشكل عن طريق الجاذبية فى مادة الكون وصورته . وتعد قوة الجاذبية المتبادلة برهاناً حاسماً لاثبات وجود الله ، ولعل دليل التجاذب المتبادل فى الكون هو أنصح دليل لاثبات دور العناية الإلهية فى الطبيعة . وقد استند كلارك فى حكمه على دور العناية الإلهية على هذه الحجة : « ان مبدأ الجاذبية بالذات هو أعظم المبادئ قاطبة ، لأنه مصدر جميع الحركات الكبرى المنتظمة للجسمادات فى العالم ، أو يكاد يكون كذلك . ولا يرد هذا المبدأ الى أسطح الأجسام (فاعتماداً عليه وحده يتعامل كل جسم مع الأجسام الأخرى) لأنها بحكم صلة محتواها لا يمكن أن تكون حصيلة أية حركة ضاغطة على الماء ، ويتحتم بالضرورة أن يكون مبعثها (بصفة مباشرة أو لا مباشرة) شيئاً يخترق الجواهر الصلدة ذاتها لجميع الأجسام ، ويثبت فيها بلا انقطاع قوة أو طاقة بعيدة الاختلاف عن تلك القوى التى تحدث تأثيراً فعالاً فى المادة . وهذا برهان واضح لا يثبت فقط وجود علة عاقلة سامية وراء خلق العالم ، وإنما يثبت فوق ذلك اعتماد العالم فى كل آن على كائن أسمى ما للحفاظ على أطاره . . » ان هذه القدرة الحافظة والحاكمة ، سواء أكانت مباشرة فى صورة قوة الفعل عند نفس العلة السامية التى خلقت العالم يعنى الله « الذى بدون له لن يتمكن كائن كالعصفور من التحليق فى الجو دون أن يسقط على الأرض ، والذى بفضلله وجد عدد لجميع شعرات رؤوسنا ، أو تمثلت هذه القدرة فى شكل معدات ثانوية خصها الله بتوجيه أجزاء معينة أو التحكم فيها ، ففى كلا الحالين ، بوسعنا الحصول على فكرة سامية للغاية عن معنى العناية الإلهية » .

وقد تمت المبادئ الفيزيائية التى فسرهما نيوتن رياضياً فى كتاب «المبادئ الرياضية» (*) لرجال الكنيسة ما بدا لهم برهاناً لا ينكر لاثبات

وجود العناية الالهية • ومثل مبدأ الجاذبية الكونية وسيلة يستطيع بفضلها الحيلولة دون حدوث انهيار للطبيعة ، والعمل كأساس « للحفاظ على الأفلاك العديدة فى الكون وحمايتها من التشتت والتناثر » • وهذا حل بديل يمكن تقديمه لمواجهة مخاوف « افلين » من امكان انفجار العالم ، وتفتته الى شذرات ، ما لم يجر الاصلاح الدينى • ولم يهدف المعقبون النيوتينيون اطلاقا لتفسير مبدأ يستطيع الارتكان عليه لتأكيد استقرار النظام الطبيعى ، لأن مذهبهم لم يظهر الى عالم الوجود الا بعد أن استند الى المبادئ الفيزيائية التى شرحت فى كتاب « المبادئ » • وكانوا يدركون ان الأحداث فى العالم الطبيعى معلقة فى نهاية الأمر تعليقاً مباشراً على الأحداث فى عالم السياسة ، وكانوا يهدفون الى انشاء نموذج فيزيائى وأخلاقي وأيديولوجية اجتماعية تستند الى علم نيوتن ، وربما اتخذ هذا النموذج كركيزة لتحقيق حركة الاصلاح •

ولقد بين كلارك بجلاء غاية المذهب الذى أنشأه على أساس التجاذب الكونى والمتبادل لجميع الأجسام : « ان جميع الجمادات وجميع الكائنات اللاعقلانية ، بحكم ضرورة وجودها ، تخضع دائماً لقوانين خلقها ، وتنزع بانتظام لبلوغ الغايات التى خصصت لها • وكم سيبدو مريعاً اذن أن تسيء الكائنات العاقلة الى هذه الميزة السامية للحرية التى رفعت مكانتها فوق باقى خلائق الله ، ان هى وصفت وحدها بالجزء البعيد عن العقل والنظام فى الكون •

لقد أدى عصيان الكائنات العقلانية التى وهبها الله القدرة على تحريك المادة ، ومن ثم - أمكن تعريف الحرية بأنها القدرة على الفعل - أدى الى اتجاهها للعمل ضد ارادة الله، والى حجب رؤيانا لأفعال الله النابعة من عنايته فى النظام العقلانى • غير أن كلارك اعتمد على نمط العناية الالهية «والجود» فى العالم الطبيعى الذى تكشف بعد دراسة الفزياء النيوتينية ، وعاد الى « عالم السياسة » ، وطالب ببث نظام مقارن يستند الى خضوع الكائنات العاقلة لارادة العناية الالهية • فيجب أن تتأثر أنظمة الحكم المدنية ، بالطابع العقلى للعالم الطبيعى : « اذ يبين جلياً من ممارسة ما يتسم به الكون من عدالة وانصاف وجود وسيلة تتماثل فى مباشرتها وكفايتها فى النهوض بالصالح العام هى وعدالة البشر فى المجتمع ، وهى وأية حركة فيزيائية أو عملية هندسية عندما تحدث نتيجة طبيعية أو تترك أثراً طبيعياً » •

وقام مفسرو نيوتن اعتماداً على بيورتينياتهم التى كانت أمراً شائعاً بين المعتدلين من رجال الكنيسة بوضع قائمة بمظاهر الضلال والزندقة فى عصرهم : « اذ باستطاعتنا ادراك ما يحيط بنا من قاذورات من شتى الأنواع وتصنيفها الى جانب الالحاد وتآليه الطبيعة والشك والكفر بالله والاباحية

والزندقة وغلبة الجنوح الى ازدراء الله والأديان كلها ، والتمومس بكل صوره
 فى سبيل النفع الشخصى والميزات الشخصية ، • وتعتبر هذه الصورة
 المقاتمة «لهاريس» تعبيرا بارعا عن المشاعر التى انتشرت فى دوائر الكنيسة
 بعد ثورة ١٦٨٨ • فلقد أصبحت « النزعة الفردية التملكية » التى اكتشفها
 المؤرخون المحدثون فى كتابات لوك وهوبز جانبا غالبا على السلوك الاجتماعى
 فى انجلترا فى عصرها المجيد • غير أن المعتدلين من رجال الكنيسة عندما
 انتقدوا هذا المسلك لم يقصدوا فقط شجب السعى وراء الصالح الذاتى •
 فلقد قدم النيوتينيون - - مختلفين عن منافسيهم من رجال الكنيسة - تبريرا
 لأسلوب معين يستطيع اتباعه فى سعى الفرد لتحقيق صالحه الذاتى ،
 واكتفوا بادانة من يفرقون بين الصالح الفردى والصالح العام ، ومن يرون
 عيوب الآخرين ، ويدفعهم الانخداع بأنفسهم الى ابتكار البدع والتقاليع
 والتفنن فى البحث عن المرفهات • فلقد أقلقت أتباع نيوتن المساعى المضطربة
 عن الصالح الذاتى • ففى المجتمع يتوجب على البشر التحلى بالقوة والقدرة
 على توجيه المادة ، على غرار القوة التى تمارسها المشيئة الالهية عند
 تسييرها للطبيعة • وبوصفهم المتفردين الآخرين الموهوبين بالقدرة على
 تحريك المادة ، لابد أن يفرضوا النظام ، وأن يضعوا اطارا ينظم ممارساتهم
 لحقوقهم وامتيازاتهم •

فلا بد أن يكتسب الانسان فى مسلكه فى الأمور الدنيوية نفس «العقل»
 الذى يكتنف كل شئ ، الذى يتجلى فى تحريك الله للكون الفزيائى •
 فكما لا تتصف قوة الله المطلقة بالتعسف على الاطلاق ، بفضل عقله المتميز،
 فيتمين أن تخضع أيضا سيطرة البشر على المادة وقدرتهم على تشكيل
 الجمادات لما يناسب احتياجات عقولهم ، بعد تهذيبها وصقلها • فالآثار
 المتناغمة لعقل الله فى الكون أمور طبيعية ومألوفة ، وتفضى فاعلية العقلاء
 من البشر ، كما تتمثل فى « الحقيقة والعدالة والجود » بالطبع وبالضرورة
 الى خير البشرية وسعادتها ، والى حدوث عون متبادل بين المجتمع والتجارة ،
 وتفضى الى «السكينة والسلام وراحة البال لجميع الحكومات والطوائف» •

وبزغ من بين حجج المعقبين النيوتينيين تعريف جديد للفضائل
 الاجتماعية • فلقد تأكد حق الفرد فى السعى لتحقيق صالحه الذاتى •
 فثمة تماثل بين حفاظ الفرد على مصالحه والحفاظ الذاتى الكامن فى
 النظام الطبيعى • وتحقق هذه الناحية دوما صالح الكل ، لأن هناك تكاملا
 وتناغما فى الطبيعة • وبالمثل فلا بد أن يفسح الصالح الشخصى الطريق
 أمام الضرورة العامة • وعلينا أن ندرك ان الانصياع الذى نصادفه فى نظام
 الجمادات نموذج يجب أن يقتدى به ما يمليه الصالح الذاتى ، الذى يجب
 أن يساير احتياجات المجتمع • ان اشتهاه القوة أمر طبيعى ، ولكن اساءة
 استعمالها ليست كذلك • وهكذا تغدو الفضيلة الاجتماعية أمرا طبيعيا

للإنسان • ويحول المسلك المضاد للمجتمع الإنسان إلى شخص منحرف
« وغير طبيعي » ، ومن ثم بدا وقوع الإنسان في الخطيئة - أساسا - في
نظر الأيدولوجية الاجتماعية النيوتينية ، شيئا يتنافى مع الطبيعة •

لقد وضعت سيطرة الإنسان على المادة ، من ناحية علاقته بالمجتمع ،
في موقف مماثل لعلاقة الله بالكون • فكما ينظم الخير الإلهي مسار الطبيعة ،
ويرتقى بالصالح الكلي للكون ، لذا لا بد أن يشارك الإنسان أيضا في الجود
الاجتماعي الكلي • إذ تيسر له قدرته على تنظيم مسار الأشياء بناء المجتمع
على نحو ييسر قيامه بتحقيق التناغم الكلي •

ودفعت الرغبة في تحقيق التناغم الاجتماعي ، التي اشترك فيها جميع
المعقبين على نيوتن ، وأيضا وبحق ، الفريق المعتدل بأسره من رجال
الكنيسة ، دفعتهم إلى إخضاع حتى المشاعر الدينية لاحتياجات المجتمع •
وذكر كلارك - مدفوعا بحماسه للتناغم الاجتماعي - وجوب انطلاق الفضيلة
الاجتماعية « اعتمادا على التأمل الدائم والمعتاد للخالق ، وما يتمتع به من
كمال لا متناه وقوة لا متناهية ، وحكمته الكاملة في حكم العالم » • إذ تؤدي
دراسة النظام الفزيائي إلى الفضيلة الاجتماعية ، وإلى الإخضاع المناسب
لجميع شهواتنا وأهوائنا لحكم العقل الرصين والمتواضع • وهذه هي أكثر
الوسائل مباشرة لتحقيق السلام الوطيد والرضاء الراسخ للعقل ، باعتباره
الركيزة الأولى ، والمبدأ الأول ، وأعظم مقوم ضروري للسعادة الشاملة
الحقة • وتهتدى المشاعر الدينية إلى أنفع تعبيراتها الاجتماعية اعتمادا على
الدراسة المنهجية للطبيعية أو تأملها • وبالمثل لا بد أن تخضع جميع المشاعر
الأساسية الأخرى للعقل • وفي العالم الرصين للمعقبين النيوتينيين ، نرى
العلم والفلسفة الطبيعية يزدهران إلى جانب التقوى والاعتدال ، ويقع
الجانب اللاعقلاني في الإنسان لكي يتواءم هو واحتياجات المجتمع المتناغم •

إن هذا المذهب الذي تحقق فيه خضوع سعي الإنسان للمجتمع ،
المنبعث من دوافع دينية أساسا ، والذي لا تستجاب فيه الاحتياجات
الإنسانية إلا إذا تواءم أشباعها مع احتياجات المجتمع ، قد تلقى التصديق
النهائي عليه من الله وعنايته • فالله يترأس العالم الحديث ، ويؤدي رعايا
هذا العالم دورهم لأنه يوائم مصالحهم الذاتية • إنهم يخضعون قدراتهم
لاحتياجات الكل ، ويثابون على ذلك ، بالتناغم الاجتماعي ، وبإدراك أن
مسلكهم كان «طبيعيا» • ويرجع مغزى ذلك إلى مبدأ كامن في نظام الكون ،
لأن الإنسان عندما يتبع العقل في مسلكه ، فإنه يكمل النظام الطبيعي ،
ويزداد ما ينجم عن ذلك من رضاء عن النفس ، بدراسة الطبيعة أو العلم ،
لأنها تؤكد للبشر أن النموذج الذي جاءت به الطبيعة مازال يتمتع بسلامته
وصحته ••

غير أن رجال الكنيسة أدركوا غلبة الفوضى الاجتماعية والارتباك السياسي في مجتمعهم . ولما كانوا يعتقدون في وجود تماثل بين « عالم السياسة » وعالم الطبيعة ، فانهم كثيرا ما خشوا من أن يؤدي انتصار الفوضى في عالمهم الى حدوث دمار وشيك في النظام الطبيعي . وسعى النيوتينيون أساسا لتقديم رؤية للمجتمع قد تدعم الاستقرار والتناغم ، وتحقق السعي المصطبغ بالصبغة المسيحية لقدرات الانسان وواجباته في النظام الاجتماعي . غير أنه رثي لضمان تحقيق هذه الرؤية وجوب نهر أصحاب العقليات الدنيوية الذين يسعون وراء القوة والارتقاء بطريقة جائرة ، والذين ربما قوضوا دعائم كل حكومة وسلطان . فلربما تسنى لهؤلاء المنحليين والملحدون - بعد انكارهم لنور العناية الالهية ودفاعهم عن الأفكار الهوبزية والابيقورية - أن ينشئوا مجتمعا يستبعد منه الدين كقوة سياسية أو اجتماعية . وقد يضعفون من مكانة الكنيسة . واذا فعلوا ذلك ، فانهم سيدفعون المجتمع الى حتفه . ولم يتوقف النيوتينيون عن الاعراب عن مخاوفهم من مخططات الدنيويين ، الذين سينشئون - وفقا لتخيلهم - مجتمعا دنيويا وحكومة تتبع اتجاهها دنيويا صرفا .

ان ما لم يدركه المعتدلون من رجال الكنيسة البتة هو أن تعاليمهم الاجتماعية المستندة الى النظام الصارم للكون النيوتيني ، قد قدمت تبريرا قويا للنظام ذاته الذي أقلقهم . ففي مجتمع السوق الذي ازدهر في انجلترا في القرن الثامن عشر ، باذن من مخطط العناية الالهية ، استطاع حتى أولئك المخادعون المجردون من المبادئ تثبيت أقدامهم في نهاية الأمر ، بالرغم من عدم ادراكهم لما جد من مخطط عظيم . .

المراجع

- M. Boas, *The Scientific Renaissance 1450-1630*, (1962).
- I. B. Cohen, *Revolution in Science* (1985).
- E. J. Dijkstermun, *The Mechanization of the World Picture* (1961).
- C. C. Gillispie, *The Edge of Objectivity : An Essay in the History of Scientific Ideas* (1960).
- A. R. Hall, *The Revolution in Science 1500-1750*, (1981).
- M. Hunter, *Science and Society in Restoration England*, 1981.
- A. Koyré, *From the Closed World to the Infinite Universe* (1957).
- B.J. Shapiro, *Probability and Certainty in Seventeenth Century England : A Study of the Relationship between Natural Science, Religion, History, law, and Literature* (1983).
- R. E. Schofield, *Mechanism and Materialism : British Natural Philosophy in an Age of Reason* (1970).
- R. E. Sullivan, *John Toland and the Deist Controversy : A Study in Adaptations* (1982).
- R. S. Westfall, *Never at Rest : A Biography of Isaac Newton* (1980).
- R. S. Westfall, *Science and Religion in Seventeenth Century England* (1958).

القرن الثامن عشر

يطلق عادة على الحياة التي سبقت اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩ اسم النظام القديم . وبدأت هذه الحقبة في نظر بعض من عاشوا فيما بعد حقبة هدوء قبل السنوات العاصفة للثورة . ومع هذا فقد تمتع المجتمع الأوربي في ابان القرن الثامن عشر بالحياة الى حد كبير . وليس من شك أن هذه الحقبة لم تتصف بالركود ، ولم تخل من الأحداث اطلاقاً . ففيها بذرت بذور نوع جديد من المجتمع والحياة الفكرية والاقتصادية .

واضطرت جميع حكومات أوربا لمواجهة مشكلات الواقع المتصلة بالقانون والنظام . اذ كانت الأغلبية العظمى من الأهالي من القرويين الذين يقتاتون على ما يزرع في الأرض ، التي كانت تنشب أحداث عديدة من التمرد والعصيان من جراء تنازع القرويين على حقوق امتلاكها واستئجارها واقامة الأسوار عليها . وتحدث ايزابيل دي مادارياجا عن أضخم هذه الانتفاضات وأخطرها . انها تمرد القرويين والقوزاق في روسيا في عهد الملكة كاترين الكبرى . وثارت في المدن بعد اتساعها مشكلات مختلفة تتعلق بالقانون والنظام . وكثيراً ما لجأت في شتى الأنحاء الطبقات الحاكمة الى توقيع عقوبات شديدة الصرامة على السلوك الاجرامي . ويتحدث جون ماكمانرز عن الاعدام العلني في فرنسا ، كاجراء متطرف لردع الجريمة ، وتكشف عن موافقة المجتمع على الخضوع لحكم النخبة القائمة .

وشهد اقتصاد القرن الثامن عشر في أوربا أسس الثورة الصناعية ، والتوسع في التجارة . ويكشف جنيفر تان عن الصعوبات التي واجهت الصناع الأول للمحركات البخارية لاستحداث أسواق لمنتجاتهم . وينظر روبرت دارنتون في الجانب الاقتصادي من عصر التنوير ، ويتحدث عن كيف تم نشر الانسكلوبيديا الكبرى ، وكيف أمكن بيع مجلداتها التي حفلت بالاصلاحات الدينية والاقتصادية والسياسية في سائر أنحاء أوربا .

ومن بين ملامح مدخلات فكر التنوير ، كما تمثل في الانسكلوبيديا وكتابات « الفلاسفة » الآخرين ، النقد اللفظ للمسيحية والكنائس الوطيدة في أوروبا . وبمجرد بدء الثورة الفرنسية ، أثبتت بعض سياساتها القليلة انها أكثر اثارة للجدل والانقسام من هجومها على الكنيسة . ويتحدث ميكائيل كنيدي عن أثر الدستور المدني للاكليروس ١٧٩٠ ، وما أثاره من جدل وانقسام في الرأي ساعدا على وضع أسس محاولة تجريد فرنسا من المسيحية إبان حكم الذعر . ويكشف كلاوس إبستين بدوره عن كيف أدى التنوير والهجوم الثوري على الدين الى بزوغ النظرات السياسية والاجتماعية المحافظة في ألمانيا . والحق أنه يصح النظر الى ظهور الاتجاهات المحافظة في أوروبا على أنها نتيجة لقرن كامل من التحولات الجديدة في الضغوط الاجتماعية والسياسية التي دفعت الطبقات الحاكمة في نهاية الامر الى ادراك أن موقفهم من المواقف التي تتطلب حججا جديدة ومبررات ذاتية جديدة .



دیدرو (۱۷۱۳ - ۱۷۸۴) و جان تلامبرت (۱۷۱۷ - ۱۷۸۳)

تمرد القوزاق وحرب الفلاحين فى روسيا

ايزابيل دى مادارياجا

قبل ثورة ١٩١٧ ، كان أخطر تحد تعرضت له الدولة الروسية هو التمرد الذى حدث فى القرن الثامن عشر ، وفام به القوزاق والفلاحون ، وقاده املين بوجاتشوف بين ١٧٧٣ و ١٧٧٥ . وتمثل هذا التمرد هو والكثير من أحداث التمرد والعصيان والمشاغبات المحلية فى شتى أنحاء أوربا فى القرن الثامن عشر ، فيما تضمنه من محاولات لاسترداد الامتيازات التقليدية والعادات الاجتماعية التى كانت قد فُقدت من جراء سياسات النزوع نحو العصرية والعقلانية فى ظل نظام ملكى مركزى قوى ، والتف حول بوجاتشوف ألوان شتى من الساخطين . ومن الناحية العسكرية ، كانت أهم فئة بين هؤلاء الساخطين هم فئة القوزاق الذين كانوا - بوجه عام - من الجنود الفرسان من غير المنتمين الى الجيش النظامى ممن اضطلعوا بمهمة الدفاع عن بعض حدود الامبراطورية الروسية فى مقابل حصولهم على بعض الامتيازات . ولقد كانوا يرغبون العودة الى أسلوب فى الحياة أقل انضباطاً ، ويرغبون أيضاً استعادة الحصول على الأرض . والتف الفلاحون أيضاً فى أعداد كبيرة حول بوجاتشوف سعياً وراء المزيد من الحرية الشخصية ، وللإستيلاء على مساحات كبيرة من الأرض وللإعفاء من الخضوع للأعباء التى يفرضها عليهم الملاك ، وبالإضافة الى ذلك ، كان هناك « قدامى المؤمنين » من الناقمين على التغيرات التى جرت منذ أكثر من قرن لممارسات الكنيسة الروسية ، وكذلك الرقيق الأبيض من الكادحين فى مسابك المعادن التى انشئت أبان حكم بطرس الأكبر .

وتطلعت جميع هذه الفئات لظهور قيصر « بالمعنى الحقيقى » ظنوا انه قد يرفع بكرمه وشهامته الضيم عنهم ، واقتنعوا بسهولة بعدم توافر هذه الشروط فى الامبراطورة كاترين المولودة فى المانيا ، والتى اعتلت عرش روسيا ١٧٦٢ بعد اغتيال زوجها بطرس الثالث ، ومن ثم فانها

لا تصلح لحكمهم • وأعلن بوجاتشوف نفسه قيصرًا « بالمعنى الحقيقي »
يتجاوب مع تطعنات السواد الأعظم من الأميين القوزاق والفلاحين • ولكن
السؤال هو : لماذا اتبع كثيرون هذا الشخص الذي ، وأبعد الناس عن
الصلاحية للحكم ، ليس بالاستطاعة اعطاء جواب شاف عن هذا السؤال •
وليس من شك أن بعض الناس قد اعترفوا به كقيصر بالمعنى الحقيقي ،
لأنه قد تجاوب بوسائله الفجة مع نطعاتهم • فلقد اتخذ ما اعتقد أنه المظهر
الحقيقي للقيصر ، وألف بلاطاً ، وأصدر التعليمات لتحقيق اهتماماتهم ،
وعلى هذا النحو ، اتخذ زعيم التمرد وأعوانه الرئيسيون المظهر الخارجي
للسلطان السياسي الشرعي ، ومثلوا الدور الذي كان من المنتظر نهوضهم
به • وأحرز بوجاتشوف نجاحاً عسكرياً مبدئياً ، أكد مزاعمه •

وأثناء المراحل الأولى من التمرد لم تكن كاترين قادرة على الاستعانة
بجيشها النظامي لانشغالها في الحرب ضد الإمبراطورية التركية ، أو
«الباب العالي» • وبعد أن أنهت هذا الصراع بالانتصار ، أطلقت جيشها
ضد القوزاق والفلاحين • وهزم بوجاتشوف في نهاية المطاف ، وإن كان
هذا لم يتحقق إلا بعد حرب شرسة ضروس دامت عدة أسابيع • وكان من
المهم في نظر كاترين وحكومتها عدم الاكتفاء بهزيمة بوجاتشوف ، وإنما كان
عليها أن تثبت أيضاً أن القوات المسلحة التي تتبع السلطات الروسية أقوى
من القوات التشريعية المناوئة للسلطة ، التي جمعها القيصر القوزاق
الزائف •

يجب أن ينظر إلى التمرد الكبير الذي وقع بين ١٧٧٠ و ١٧٧٣ على
ضوء خلفية التوتر المتزايد في معقل القوزاق ، اثر امتداد السلطة المنظمة
للدولة الروسية ، وما عرف عنها من تزمّت ، وانعكاسه عليهم • وأشعل
قتيل التمرد ظهور زعيم قدير هو المنشق دون قوزاق املين بوجاتشوف
بعد خمس سنوات من الحرب والطاعون وارتفاع الأسعار وما تكبدته نفقات
الخدمات الشاقة وحشد الجيش من تكاليف باهظة • وكان فعوى الكثير من
سخط القوزاق قد عرف أمره مما جاء في تعليمات مبعوثيهم وأحاديثهم في
اللجنة التشريعية ، وأبان فترات الاضطراب المستمر في أواخر ستينات
القرن الثامن عشر وسبعيناته • وعانت جميع معاقل القوزاق من تصادم
القيادات العسكرية العليا والسواد الأعظم من الجنود ، ومن الصدام بين
الأغنياء والفقراء ، وبين من ارتضوا بيع أنفسهم للخروج من الخدمة ومن
أرغموا على الخدمة ، وبين اكراه الحكومة الروسية والطموحات الفردية
لزعماء القوزاق • وفي ١٧٨٨ ، وبعد أن أعلن القوزاق (*) العصيان •

استدعى بيتر كالينشفسكى القوات الروسية لحماية كبار الضباط القوزاق (*) . وما لبث أن قام هو نفسه بالتهديد بطلب الحماية من الحكومة التركية (الباب العالى) اذا لم تفلح الحكومة الروسية فى معالجة ما يسود « المعقل » من ظلم واجحاف .

وفى نهر الدون ، أدى طموح « الألمان » يفريموف أحد رؤساء القوزاق الى اثارة مشاعر الغضب « بالمعقل » الى حد الغليان . ولكنه منذ اندلاع الحرب ، كان يتآمر هو والمغول (**) فى الامبراطورية العثمانية ، ويسعى لزيادة سلطانه على المعقل على حساب الحكومة . وعندما حاولت السلطات القبض عليه فى نوفمبر ١٧٧٢ ، قام القوزاق بحركة عصيان ، وقتلوا العديد من الضباط النظاميين ، وقبض على يفريموف فى نهاية المطاف ، وحوكم بتهمة الخيانة والعمالة لصالح المغول ، ثم حكم عليه بالنفى الى ليفونيا ، وعاد السلام الى « المعقل » .

وبلغ الاخلال بالنظام مرحلة أخطر فى معقل آخر حيث أحدث التوتر بين كبار الضباط (***) وباقى الجنود انشقاقا شطر الجماعة الى شقين : شق « المنصاعين » وشق « الرافضين » . وفى ١٧٦٩ ، أعلنت عدة مئات من الشق الأخير العصيان ، ورفضوا الخدمة فى مواقع خارجية قسوة ، وسحقت قوات الحكومة تحت قيادة الجنرال تراونبرج العصيان ، ووقعت الأحكام القاسية المعهودة . وعندما لم يهتد المبعوثون الى العاصمة بطرسبورج الى أية نتيجة فى التماسهم رفع الأحكام ، اندلعت أحداث اضطراب أخرى فى يناير ١٧٧٣ ، وقتل فيها الجنرال تراونبرج ، ثم أرسلت قوات اضافية تحت قيادة الجنرال فريمان لاستعادة النظام . وبعد أن وصلت القوات فى يونيو ١٧٧٣ ، أعاد فريمان النظام الى المعقل ، ودعم رقابة الحكومة على مواقع الحامية ، وأوفد بعثة خاصة لمحاكمة زعماء زمرة المتمردين ١٧٧٣ . وصدرت مرة أخرى أحكام عديدة بالجلد والأشغال الشاقة . الخ . وأمر ٢٤٦١ من القوزاق العاديين المشتركين فى التمرد بدفع غرامة جماعية مقدارها عشرون ألف روبيل . ونفقت الأحكام فى معقل يائتسك نفسه فى يوليو ١٧٧٣ ، وترتب على ذلك تحول المعقل الى برميل البارود لا يعوزه أكثر من شرارة بسيطة لكى يشتعل .

Starchina.

(*)

Kuban

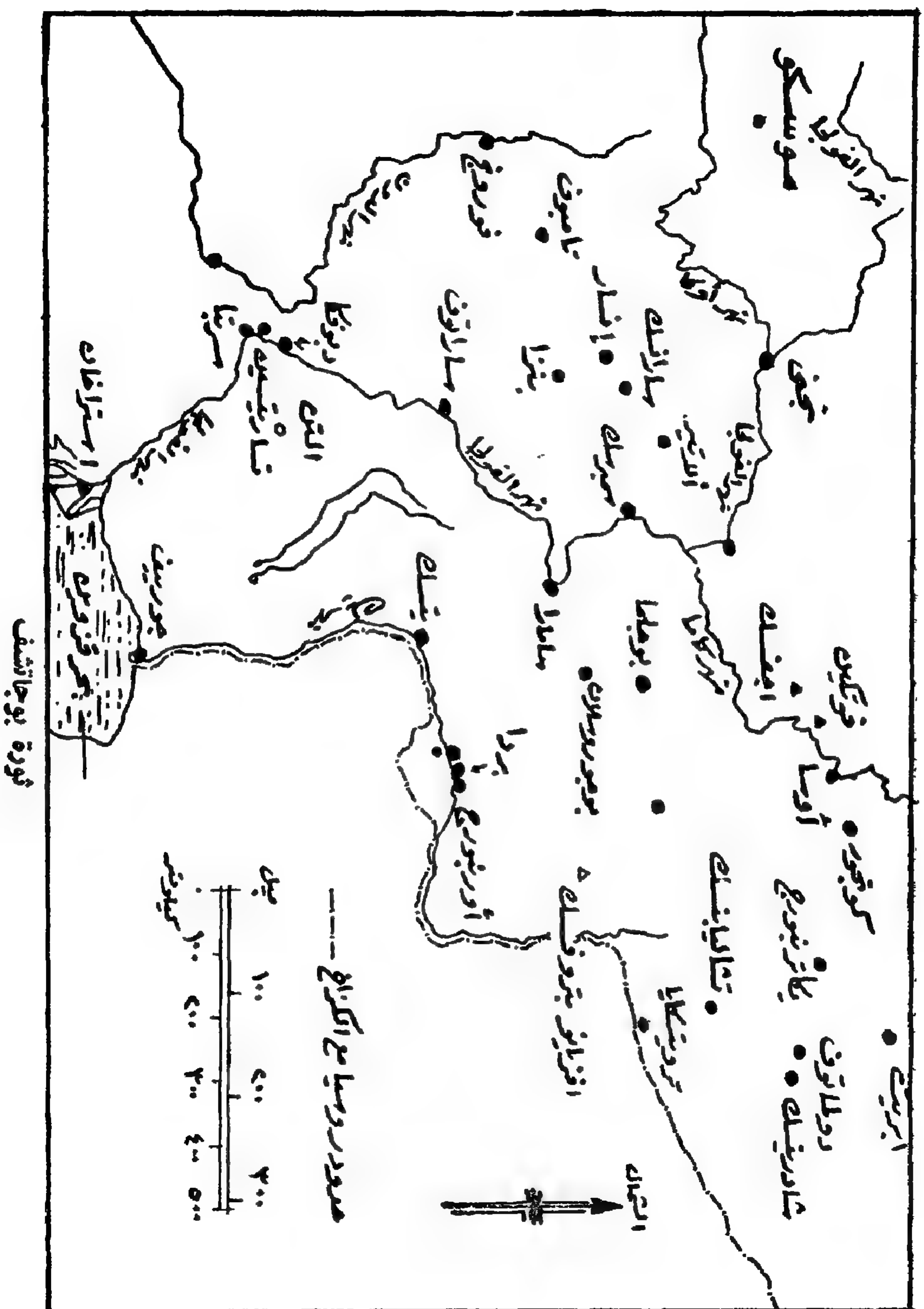
(**) فى

Yaik.

(***) فى

فى مثل هذا الموقف ، كان من المحتوم أن تلقى الشائعات بوجود قيصر آخر ما زال على قيد الحياة التربة الصالحة لاضفاء الشرعية على مزاعم الساخطين . فلقد علق الروس آمالهم طيلة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى الهروب من الاضطهاد على وجود أو اكتشاف قيصر حقيقى انتزع منه العرش من أثر مؤامرات البويار (النبلاء) . وأدى عدم استقرار الخلافة على العرش فى القرن الثامن عشر الى ظهور حفنة من الأدعياء ممن انتحلوا شخصية بطرس الثانى (١٧٢٧ - ١٧٣٠) أو شخصية الفتى ايفان السادس أو حتى الكسى بتروفتش ابن بطرس الأكبر . ولكن الى أى حد اعتقد أتباعهم فى صحة ما يدعون ، وإلى أى حد وثق أتباعهم فى زعمهم ؟ والظاهر انهم جميعا عاشوا فى عالم يجمع آنيا بين الايمان واللايمان ، يعنى أنهم كانوا يعتمدون على الايمان لتبرير أفعالهم عندما يخشون ارتكاب خطيئة ضد القيصر المعين من قبل الله ، لأنهم لا يتوقعون حدوث تحسن فى أوضاعهم الا عن طريق هذا القيصر . ويجنحون فى ذات الوقت الى اللاييمان عندما يواجهون الحقيقة القاسية عند القبض عليهم ومعاقتهم عقابا وحشيا . ونادرا ما طالب عامة الناس بأى برهان يثبت هوية « المدعى » اكتفاء بتفتيش جسمه بحثا عن علامة تثبت انتماءه الى أسرة القيصر . وساعد تركز الشائعات دائما على شخصيات لم تحكم قط ، أو حكمت لفترة قصيرة فحسب ، أو ماتت صغيرة فى السن مما جعلها غير معروفة ومحاطة بأسرار خفية، ومبشرة بآمال كبيرة بقدوم عهد أفضل، ساعدت على وضع ظاهرة(*) الادعائين فى عالم الفولكلور والأساطير والبالاد والشعر البطولى ، الذى يلجأ اليه دوما خيال الأذلاء والمضطهدين . وجدير بالملاحظة أن أحدا لم يزعم أبدا أنه بطرس الأكبر ، أو أن بطرس الأكبر لم يمت .

وأدت فترة الحكم القصيرة لبطرس الثالث الى تفضيله للقيام بهذا الدور عند « الادعائين » ، وانتشرت فور وفاته الشائعات باستمرار وجوده على قيد الحياة فى بطرسبورج . وفى ١٧٦٣ ، اتهم أحد الجنود بأنه صرح بأن بطرس مازال على قيد الحياة . وعندما سئل كيف عرف ذلك ؟ أجاب : ألا تعرفون ان أسقف روستوف أرسينى ماستييفتش قد خلع من منصبه لأنه دفن بطرس الثالث بنوع الخطأ ؟ وهذا مثل كلاسيكى يبين كيفية تحول الأحداث السياسية الى أساطير . وفى ذات السنة ، انتشرت شائعة فى أورنبرج بالتجاء بطرس الثالث الى معقل القوزاق فى ياييك . وتكاثر المدعون أو الأدعياء (فقد ظهر عشرة من هذا الصنف ما بين ١٧٦٤ و ١٧٧٢) وكان من بينهم بوجومولوف ، وهو من العبيد الهاربين ، ولعله أهم من جسد آمال القوزاق ، وأعلن بمساعدتهم فى مارس ١٧٧٢ أن اسمه هو



« بطرس الثالث » ، وقبض عليه في ديسمبر ، ومات في طريقه الى سيبيريا . غير أن الشائعات التي أطاحت به انتشرت على نطاق واسع ، بأن الحكومة قد أمرت بإصدار نشرة توزع في معقل دون قوزاق وفي الفولجا بالنقاء القبض على القيصر المزعوم ، ومعاقبته . وترتب على ذلك ازدياد الاعتقاد بأن بطرس الثالث مازال حيا يرزق ، ويعيش وسسط القوزاق .

ولم تمض سوى أسابيع قليلة بعد تنفيذ الأحكام في يايك القوزاق في يوليو ١٧٧٣ ، حتى ظهر على المسرح « بطرس ثالث » جديد أكثر جسارة واتصافا بالمهابة . فلقد ولد املين بوجاتشوف حوالي ١٧٤٢ ، وينحدر من أسرة أحد جنود القوزاق ، واشترك في حرب السنوات السبع ، ومرة أخرى في الحرب ضد الأتراك (الباب العالي) ١٧٦٨ ، حيث رقى الى أصغر رتب الضباط القوزاق . وفي ١٧٧١ ، فر من الخدمة العسكرية ، وظل يهيم على وجهه الى أن بلغ تاجانروج في الجنوب ، موطن بعض أقربائه ، ثم انتقل الى معقل القوزاق على نهر تيريك . وبعد تطواف من مستعمرة المؤمنين القدامى الى مستعمرة المؤمنين الجدد ، استغل أمرا من أوامر العفو العديدة التي أصدرتها الحكومة الروسية للفارين العائدين ، وعاود الظهور في معقل نهر الدون ، بعد أن انتحل شخصية مواطن بولاندي . وبعد أن حصل على جواز سفر في أغسطس ١٧٧٢ ، استأنف تجواله مرة أخرى ، فأقام بين « المؤمنين القداماء » ، وغالبا ما كان يتخفى في شخصية أحد التجار الأثرياء . وفي نوفمبر عاد الى ياييتسك ، وأقام مرة أخرى وسط « المؤمنين القداماء » . ولم يكن قد مضى على حركة العصيان في المعقل أكثر من خمسة شهور ، وكانت الأحكام مازالت سارية المفعول .

وفي هذه المرحلة ، تقدم بوجاتشوف كأحد التجار الأثرياء (ممن يملكون ما ينوف عن المائتي ألف روبل في الخارج بالاضافة الى سلع تتجاوز السبعين ألف روبل) ، وعرض نقل الساخطين القوزاق الى خارج روسيا الى « كوبان » في القرم - وهي من المناطق التي يحتلها المغول ، وعرض مبلغ اثني عشرة ألف روبل منحة لكل قوزاق ينضم اليه . وأكد لمستمعيه ترحيب « الباشا » التركي بهم . ولأول مرة في ياييتسك ، ادعى بوجاتشوف أنه بطرس الثالث . أما الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة فمازالت في طي الكتمان ، نظرا لتضارب الأدلة التي قدمها بوجاتشوف ذاته وأنصاره التواقون لتبرئة ساحتهم . وطبقا للرواية التي ردها بوجاتشوف ، فانه أبلغ مضيفه انه الامبراطور بطرس الثالث ، الذي نجا بمعجزة من الموت ، ثم تجول بعد ذلك في مصر والقسطنطينية وبولاندة .

ومما لا شك فيه أن بوجاتشوف اكتشف أن الروح السائلة بين قوزاق يايبك مشجعة . أما ما بقى غير مؤكد فهو ما كان يخطط لتنفيذه في هذه المرحلة . ولا ريب أنه عاش طويلا في عالم الفانتازيا ، وعندما كان مازال بالخدمة العسكرية ، كان يفخر بأن أباه الروحي بطرس الأكبر هو الذى منحه سيفه الأثير . ولربما يكون التقرير المتضمن القول بأن بوجومولوف هو بطرس الثالث ، وبأنه قد تم القبض عليه هو الذى نبهه الى ذريعة الزعم بأنه « القيصر » بشحمه ولحمه . ومن جهة أخرى ، فلعل الفكرة قد راودته عندما كان مقيما بين قوزاق يايبك . ويشيع افتراض قيام بوجاتشوف باختراع الفكرة في المؤلفات التاريخية السوفيتية ، اعتمادا على تدعيمها لبعض فرضياتها الأساسية ، ومؤداها أن بوجاتشوف كان يعي بقيامه بتخطيط تمرد يعم الأمة كلها ضد العبودية ، وصمم على انتحال شخصية بطرس الثالث كحيلة استراتيجية لتحقيق غايته . غير أن الدليل على صحة مثل هذه الخطة بعيد المنال وواه نوعا . اذ تذكر روايات أتباعه أن بوجاتشوف كان يخطط لقيادتهم الى ما وراء الحدود والى تركيا . ولعلمهم نزعوا الى تزيف أدلتهم للتخفيف من جرمهم في نظر الحكومة الروسية . بيد أن الرحيل الى بلاد أخرى كان أكثر توافقا هو والتقاليد القوزاقية من الهجوم بالمواجهة على الدولة الروسية . وتثبت كلمات بوجاتشوف أنه كان معنيا أساسا بالآزمة التى تعرض لها أسلوب القوزاق فى الحياة بتأثير ضغوط الدولة الروسية ، وليس من أثر أوجاع وتأوهات الفلاحين فى جملتهم .

ولم يبق بوجاتشوف أكثر من أسبوع بعد زيارته الأولى لمعقل يايبك . وعندما عاد الى نهر الدون ، سرعان ما قبض عليه بتهمة الفرار من الجندية، ونقل الى كازان فى مشارف يناير ١٧٧٣ ، واعترف عند استجوابه بأنه حرض القوزاق فى يايبك على الفرار ، ولكنه لم يذكر أى شئ عن ادعائه بأنه بطرس الثالث ، ونجح فى الهروب فى مايو ١٧٧٣ ، وعاد يهيم على وجهه مرة أخرى حتى أغسطس ١٧٧٣ ، وبعدها عاود الظهور مرة أخرى فى يايتسك . وهناك أطلع مضيفيه فى الحمام على « علامات الانتماء الى الأسرة المالكة » وكانت ندوبا على القفا وعلى صدره - وهى علامات معكوسة غريبة عن الأوصاف التى تنسب للملك الالهى الشرعى . ومنذ ذلك الحين ، بدأ الاعتقاد يسود فى المعقل بأن التاجر بوجاتشوف هو فى الواقع بطرس الثالث . وكان المعقل ما زال يتوجع ويتحسر من وطأة الأحكام الموقعة على العصاة فى يوليو ١٧٧٣ . وشرح زوار بوجاتشوف من القوزاق مطالبهم الى « بطرس الثالث المزعم » وتتلخص فى كون الجهات الروسية المسئولة طالبت باقامة منشآت جديدة وتشكيلات جديدة ، بينما طالب القوزاق ، أن تستمر الخدمة التى ألفوها فى سابق عهدهم ، يعنى كما كان

الحال فى عهد بطرس الأول أو الأكبر ، وتبعاً للوائح التى كانت متبعة .
واشترك بوجاتشوف ونفر من الأجرىاء من القوقاز وحفنة من المغول بأعداد
البرنامج الذى سیرتكن اليه للحصول على الاعتراف به كبطرس الثالث فى
معقل ياييك ، ووعد بتأمين العيش تبعاً للأسلوب الحر القديم ، الذى
يستطاع اجماله : « فى اتاحة حرية العمل فى مسابك ياييك وحرية استعمال
الأرض والمرافق واعفاء الملح والمراعى من الضريبة ، ومنح كل من ينتمى الى
القوزاق اثنى عشر روبل سنوياً ، وكيلة من الغلال » .

لقد كان هؤلاء القوزاق يعلمون علم اليقين أن المدعو بطرس الثالث
ما هو فى الحقيقة الا القوقازى الفار بوجاتشوف . ولا بد من الاعتراف
بأنهم قد أثبتوا بهذا الاعتراف أنهم كانوا من رواد تخطيط التمرد ، وأنهم
كانوا على دراية بضرورة تغليفها بثوب الشرعية لو أريد انتشارها . وأغلب
الظن أنهم وهم فى مثل هذا الحال من التبرم والاهتياج قد رحبوا بوصول
رجل مقدم على استعلاء لتمثيل الدور . واتسعت دائرة العارفين بحقيقة
بوجاتشوف ، وسره ، فضمت قوقازيين لديهم أهداف قوقازية بسيطة
وشخصيات مثل القائد السابق ليايك ومتزعم جناح العصاة أوليانوف ،
الذى كان يأمل فى استيلاء بوجاتشوف على الدولة ، وبذلك يتقلد إحدى
الوظائف المرموقة . وربما كان من الصحيح أيضاً أن ادعاء بوجاتشوف
« القيصرية » لم يلق اعتراضاً يذكر ، لأنه كان من بسطاء القوزاق ،
وبالاستطاعة التعرف عليه بسهولة كأب لشعبه ، وليس بالشخص الذى
نفصله عن أقرانه فجوة ثقافية واسعة . ولعل جمع القوزاق للألفة والاحترام
فى معاملتهم له لم تكن - كما يحتمل - جانباً من المؤامرة ، ولكنها تمثل
الجمع بين العيش فى العالم الحقيقى والعالم الزائف فى ذات الوقت .

وحدد لاندلاع الانتفاضة افتتاح موسم صيد أسماك الشتاء . وفى
الوقت نفسه ، عثر أنصار بوجاتشوف على زى مناسب عبارة عن قفطان
يقوتى اللون وقلنسوة من المخمل ، واختاروا له سكرتيراً هو اينان
بوشيتالين ، لأنه كان أمياً . غير أن الأحوال فى الخارج هى التى أدت الى
تسريع الأحداث . اذ سمع قومندان حامية ياييتسك شائعات عن وجود أحد
الأدعياء ، وارسال دوريات للقبض عليه ، فصمم المتآمرون على العمل فوراً .
وكتب أول بيان لبوجاتشوف على عجل . وفى صباح ٧ سبتمبر قرىء فى
مزرعة إحدى عائلات القوزاق على بعد مائة فرست (الفرست ٦٦ ميلاً)
من ياييتسك فى حضور جمع مؤلف من ستين الى مائة شخص من القوزاق ،
وانضمت اليهم فئات أخرى من المغول وغيرهم . وجاء فى البيان ما يأتى :
باسم الامبراطور بيتر فيدورفيتش ، قد صدر عفو عام عن جميع رعايا
بوجاتشوف ممن ارتكبوا جرائم ضده ، ثم طرح برنامج القوزاق أمامهم :
« معنى حرية الملاحة فى الأنهار من منابحها الى مصابها ، وحرية زراعة

الأرض ، وأن يكون دفع الضرائب بالمال والرصاص والبارود ، وامتدادات من الغلال » .

ثم انتقل بوجاتشوف ثوا الى يايتسك . وفى اليوم التالى ، عندما توقف عند القلعة ، كانت قواته تضم ثلاثمائة مقاتل يحملون بيارق تمرد ١٧٧٢ عالية على حرايبهم ، ومنقوش عليها صليب المؤمنين القدامى . وكان لقومندان يايتسك ما ينوف عن الألف جماعة (الجماعة تتألف من عشرة رجال) ، ولكنه كان يعرف علم امكان الوثوق فى القوزاق ، وبخاصة بعد أن انضم كثيرون منهم الى بوجاتشوف . وقبض على آخرين ، وشنقوا من قبل المتمردين حتى يصبحوا عبرة للآخرين . غير أن هجوم العصاة على الحصن رد على أعقابهم فى ١٩ سبتمبر . وأدرك بوجاتشوف أنه فى مقدوره التصدى لنيران مدافع القوات النظامية ، وتراجع فى محاذاة نهر يايبك ، وأزال من الوجود أثناء التراجع التحصينات الصغيرة . وكان القوزاق والجنود فى كل مكان يتوجهون الى المتمردين ، أو يطلق عليهم الرصاص . وشنق بعض القوزاق ضباط الجيش ، وبعض القسس . وكان من بين الضباط القوزاق الذين استسلموا لبوجاتشوف المساعد السابق لرئيس اللجنة التشريعية بادوروف .

ويعكس اختيار الهدف التالى الأولويات الضرورية للقوزاق فى حركة التمرد فى هذه المرحلة . وكان بمقدور بوجاتشوف التحرك نحو خط « سمارا » والداخل . وأثر بدلا من ذلك التقدم الى أورينبورج ، المركز الإدارى العسكرى الذى كان يسيطر على يايبك منذ انشائها ١٧٣٥ ، ووصل الى المدينة فى ٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، يرافقه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل وحوالى من ٢٠ الى ٣٠ مدفعا . ولكن لم تتوافر له القوة الكافية للاستيلاء على المدينة بالهجوم الخاطف ، ومن ثم قرر فرض الحصار على أورينبورج ، واتخذ بردا مركزا لقيادته (على بعد ٥ فرست) .

وفى ذات الوقت ، وصلت آخر الأمر أنباء ظهور بطرس الثالث الجديد فى يايبك الى بطرسبورج فى ١٥ أكتوبر ١٧٧٣ ، وبدأ الموقف بعيدا عن موقع الأحداث كأنه فتنة محلية صغيرة ، واستمرارا لتمرّد ١٧٧٢ . اذ كانت الحكومة على دراية حسنة بأن الادارة الحكومية فى أورينبورج ، والتي تضم معظم الباشكيريا تعاني من هزال المقيمين فى هذه المدينة ، وضآلة حمايتها . أما الادارة الحكومية الكبيرة التي كانت تقيم بجوار كازان ، فلم تكن تضم أكثر من ثمانين موظفا يشرفون على منطقة عدد سكانها مليونان ونصف المليون . غير أن كاترين بذلت قصارى جهدها لشن هجوم ضد

الأتراك ، ولم يكن بالاستطاعة الاستغناء عن القوات المدربة ، ومن ثم اضطرت الى تجهيز حملة تآديبية صغيرة تحت قيادة الجنرال كار من كازان بالإضافة الى فصائل أخرى من سيمبرسك وسيبيريا . ولكن قوة كار هزمت في وقت مبكر من نوفمبر ، وتوجه القائد بنفسه الى العاصمة للإبلاغ عما حدث . وبعد أسبوع هزمت قوات بوجاتشوف فصيلة الحكومة القادمة من سمبريسك (وشنق الكولونيل) . وبعد أن تحمس بوجاتشوف لما حققه من انتصار ، وشعر بالانتشاء ، سمح للطاير الثالث المؤلف من ألفين واربعمائة مقاتل واثنين وعشرين مدفعا بالانزلاق الى أورنبيرج، وبذلك مكن حاكمها الحازم رايندورب من التركيز على فرض حصار استمر ستة شهور . وفي ياتيسك أيضا ، تحصن القائد في القلعة ، واستعد للدفاع عنها تاركا باقى المدينة للمتمردين .

وفتحت هزيمة التجربة الامبريالية التآديبية الباب امام امتداد التمرد، فوصل الى بشكيريا حيث فرض زاروبين تشيكا - وهو من أقدر معاوني بوجاتشوف - الحصار على أوقا في نهاية نوفمبر ، بينما احتل أحد أتباعه الآخرين (ايليا ارابوف) سامارا لفترة قصيرة (وهناك دقت أجراس الكنيسة تحية له ، وأقيمت شعائر الصلاة على شرف بطرس الثالث) في نهاية ديسمبر ١٧٧٣ .

وفي ذات الوقت ، ساعد النجاح الذى حققه التمرد المبدئى على تصعيد مشكلات التنظيم وامتدادات المؤن ، وهى مشكلات لم يعد بمقدور الحفنة الصغيرة من الأصفياء من التفوا حول الزعامة فى أول أطوارها ، النهوض بها ، ومن هنا تشكل فى مركز قيادة بوجاتشوف فى برذا الجهاز الحكومى للمتمردين الذى أطلق عليه اسم «كلية الحرب» . واستعيرت هذه التسمية من المؤسسة الحكومية المركزية ، باعتبار كلية الحرب من الأسماء المألوفة عند القوزاق . وفضلا عن ذلك ، فقد دعم انشاء مثل هذه الكلية الايهام بحدوث تمرد تحت قيادة «القيصر» ، الذى كان قادرا فى ذات الوقت على اقامة فاصل بينه وبين أتباعه ، استلزمه التنظيم المحكم للتمرد ، وان كان قد جنح الى الانتقاص من عنصر المساواة ، الذى كان من مقومات هذا التمرد فى أطواره الباكرة .

والمستول الرئيسى فى الكلية تمشيا مع التقليد الروسى من الأعضاء الأثرياء واسمه أندريا فيتوشنوف . وعين ايفان بوشيتالين الذى كان يكتب بيانات بوجاتشوف سكرتيرا للمجلس . وبذلك أعيد اللقب المسكوفى الذى كان قد اختفى من الوجود منذ اصلاحات بطرس الاكبر . وجندت «كلية الحرب» المتمردة أيضا عددا من الكتاب الملمين بالقراءة والكتابة ، وتولى أحد القلائل ممن ينحدرون من أصول النبلاء مسئولية الاتصال بالمتمردين .

وكلف شفانفيتش بالاضطلاع بمهام المراسلات والاتصالات باللغة الالمانية والفرنسية . وتولى اثنان من زعماء المغول : ايدربايميكوف وابنه كتابة هذه المراسلات ، وحرروا بيانات بالنعربية والفارسية والتركية والمغولية . وجمعت وظائف « الكلية » بين الناحية المدنية والناحية العسكرية . فكانت تشرف على شئون المتطوعين الذين كانوا يتوافدون للانضمام الى بوجاتشوف ، وهم مسلحون عادة بأدوات الفلاحة ، أو الرماح . وتتولى أيضا أمر تنظيمهم فى تشكيلات عسكرية على غرار ما يجرى فى صفوف القوزاق . وبمجرد قبول المتطوع فى القوة ، يعترف به كواحد من « القوزاق » للفرقة بينه وبين « الجنود » النظاميين الذين كانوا يحاربون فى صف الامبراطورة كاترين . ومنذ اللحظة التى استقر فيها بوجاتشوف فى مقر قيادته فى بردا خارج أورينبورج واجهت حركة التمرد مشكلة التجنيد ، اذ قدمت أعداد غفيرة من المتمردين للعمل على مقربة من بردا حول أوفيا(*) . وما لبثت الحاجة الى مد نطاق العمليات ، أو الاعداد للدفاع ضد قوات الحكومة ، أن دفعت زعماء التمرد الى استعادة أحد أسلحة الترسانة القيصرية ، يعنى « التجنيد الاجبارى » ، فصدرت الأوامر الى الأهالى المحليين للتزويد بمجندين « بمعدل واحد من كل ثلاثة بيوت » ، بل وأحيانا بمعدل واحد من كل بيت . وفى يناير ١٧٧٤ أمر أحد المتمردين بجمع أنفار لخدمة اللورد بيتر فيودورفيتش ضد رغباتهم ، « والقضاء على من يرفضون الاذعان ومصادرة أملاكهم » ونظر الى القسم بالولاء لبطرس الثالث ، على أنه اعتراف رسمى بالولاء . وبذلك أرغم جميع من مثلوا أمام المدعى العام ، أو أسروا بحلفان ذلك اليمين . ولم يكن أمام أحد فرصة الاختيار ، لأن العقوبة كانت توقع على الفور ، وجرت العادة أن يتم الموت بطريقة موحمة عقابا للرافضين .

وكان على « كلية الحرب » المتمردة مواجهة مشكلات الامداد والتموين والذخيرة ، وتزويد الخيول بالعليقة . وجرت هذه الناحية بعض المشكلات مع الأهالى فى المناطق التى تسيطر عليها قوات بوجاتشوف ، أو فى المواقع التى لم يكن لديه أنصار كثيرون فيها من الموظفين ، وانتخب آخرون بدلا منهم . وفى أول موجة من موجات التمرد ، قتل بعض الأعيان المحليين وزوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم ، بالاضافة الى المسئولين المحليين ، وخدم الكنيسة . . . الخ ، بطريقة وحشية ، مريعة فى بعض الأحيان . وحاولت « الكلية الحربية » المتمردة ممارسة بعض الانضباط فى هذا المضمار باللجوء الى اصدار المنشورات(**) ، وترك الحكم فى هذه المسألة لقرار مركز

(*) وتقدموا الى ما بعد Yakaterinburg و Chelyabinsk.
(**) Ukazy.

القيادة • ولعل هذا المثل أيضا كان مثلا آخر من أمثلة المنازعات التي ثارت ، وكان لا مفر من حدوثها ، بين القوزاق والبشكير - من ناحية - وبينهم وبين الأهالي المدنيين - من ناحية أخرى •

واستمرت الدعوة « للأيهام بأن بوجاتشوف هو القيصر » في معسكر المتمردين بالالتجاء الى وسيلة صورت التوتر السيكلوجي داخل القيادة • فلقد أنشأ بوجاتشوف بلاطا ، اقتدى فيه أيضا ببلاط كاترين وتسمى بعض أعوانه الحميمين بأسماء وألقاب كبار العاملين ببلاط كاترين • فأسمى شيجانوف - وهو من أقرب أعوان بوجاتشوف ، ومن الزعماء المخلصين أسمى نفسه بالكونت بانين • وتسمى زعيم آخر باسم الكونت أولون وتسمى زاروبين شيكا - أجراهم - بالفيلد مارشال الكونت شيرنيشيف (وهو الاسم الخاص برئيس كلية الحرب في بطرسبرج) • وفي فبراير ١٧٧٤ ، تزوج بوجاتشوف بابنة أحد القوزاق في ياييك ، بعد أن هجر زوجته وأولاده وتركهم في نهر الدون • وعملت هذه الزوجة كأنها « جلالة الامبراطورة » ، وعينت بعض النسوة من القوزاق كوصيفات شرف لها • ولكن زواج بوجاتشوف أضعف من مركزه ، لأن الجميع كانوا يعرفون أن بطرس الثالث كان متزوجا من كاترين التي اغتصبت عرشه ! • وانضم العوام الى قوته لاعادته الى العرش ، الذي اغتصبت منه زوجته • ولا ننسى أنه من المستبعد أن يقدم قيصر حقيقى على الزواج من ابنة أحد العوام القوزاق • وهكذا أدت النوازع الشخصية الأنانية الى تمزيق قناع الوهم •

ومرة أخرى ولائبات الأصالة ، ونفى شبهة الزيف - وان كان هذا العمل قد عكس التصور الأول للمصدر الشرعى للسلطة ، الذى بمقدور عالم القوزاق ادراكه - أصدر بطرس الثالث منشورات ، روى فى كتابتها بقدر الامكان الأسلوب الرسمى للكتابة فى روسيا فى القرن الثامن عشر ، بل وطبعت هذه المنشورات - باعتبار المنشورات المطبوعة وحدها هى المعتمدة قانونيا فى روسيا ، وضمنت مجموعة متنوعة من الأختام • ومن بين الأختام الطريفة اللافتة ، ختم استعمله بوجاتشوف فى أغسطس ١٧٧٤ ، ويحمل الكلمات الآتية : « بطرس الثالث برعاية الله - امبراطور التاج » • وتعلو هذه الكلمات صورة شخص يرتدى باروكة وله شارب • ولعل هذه الصورة تشبه صورة بطرس الاكبر كما تصورتها مخيلاتهم • واستعمل زعماء آخرون أختاما تحمل شعارات العائلات النبيلة ، والمصانع ، بل ومصانع تقطير الخمر •

ومن العسير للغاية تقدير مدى السلطان الذى كان يتمتع به بوجاتشوف فى الدائرة المحيطة به من أولئك الذين يعرفون شخصيته الحقيقية • وكان

يعامل بالاحترام في العلن . وفي الجلسات الخاصة ، كان الزعماء يجلسون لتناول الغذاء سويا ، وحاول من صعدوا الى القمة في البداية منع الآخرين من الاقتراب من بوجاتشوف ، والتأثير عليه ، وصرح يوما ما لاحد أقرانه : « ان طريقى ليس مفروشا بالورد ، ولكنه طريق محصور للغاية » . فلم يكن دائما قادرا على حماية من يرغب في حمايتهم ، وغالبا ما كان يرى نفسه في مواجهة الأمر الواقع (*) . وعلى الرغم من احتمال قيام الزعماء بإدخال بعض الضبط والربط في معسكر المتمردين ، الا أنهم ظلوا وفقا لما ذكر المعاصرون حفنة من الغوغاء المنحلين . وكانت الصلوات تقام يوميا من أجل الامبراطور « بطرس الثالث » وزوجته كاترين الى أن تزوج بوجاتشوف « يوستينا » . غير أن المعسكر كان حافلا بزوجات الضباط وبناتهم ، ممن أسروا ووزعوا كغنائم على المتمردين . وكانت أحكام الاعدام تنفذ في كل لحظة ، وكانت الأخاديد المحيطة مشحونة بالجثث بلا دفن ، وموائد الشراب منتشرة في كل مكان .

ومن اليوم الأول للانتفاضة في سبتمبر ١٧٧١ ، وجه بوجاتشوف نداءات الى الشعوب غير الروسية في المنطقة الشاسعة التي تقع بين نهر الفولجا ونهر ياييك وغرب سيبيريا . وكان من بين أوائل أعوانه في سبتمبر ١٧٧٣ ، عشرون من المغول وعشرون من الكالموك ، من مجموع المعاوين وعددهم ثمانون . وقد وجه بيانه الأول لهم أيضا وخصهم بالذكر . وتضمن هذا البيان العفو عن جميع من حاربوا وبذلوا جهدا ضد الدولة الروسية في حروب الباشكير في أربعينيات القرن الثامن عشر ، وصدرت بيانات عديدة في أكتوبر ١٧٧٣ تعد الباشكير باتباع أسلوبهم التقليدي في الحياة المتمردة وإباحة تملكهم للأرض والمياه والأخشاب ، والإيمان بما يروقههم ، وإبلاغ ما يناسبهم من قوانين وغذاء وزى ومرتبات وبارود وصيد . كما أمنهم على « ابدانهم » ، بمعنى عدم استرقاقهم ، والتمتع بحق « التشبه بوحوش الاستبس والانطلاق في الحياة الرعوية والبدوية » . ولكن بخلاف النداءات الموجهة الى الأتباع الروس ، فإننا نلاحظ أن بيانات بوجاتشوف لم تكن موجهة ضد فرائس الظلم الاجتماعي في بشكيريا لحثهم على الانقضاء على رؤسائهم ، ولكنها تخاطب زعماء القبائل البشكير ، وتحرضهم على نقض أصفاد اضطهاد الدولة الروسية .

وما أن جاء أكتوبر ١٧٧٣ ، حتى انضم الى بوجاتشوف ما لا يقل عن الألف من الباشكير تحت زعامة كينزيا أرسلانوف ، الذي استمر مرافقا له حتى النهاية . وبغية انقض الباشكير على أحد الرموز المقوتة للوجود الروسي في بلادهم : المسابك . ففي نهاية السنة سقط بين أيدي المتمردين أربعة وأربعون من المسابك والمناجم ، التي كانت تمون بوجاتشوف بكميات كبيرة

من قطع غيار المدافع والذخائر ، وبالقدرة على صنع أشياء كثيرة . غير أن المتروونات الصناعية لم تنتقل دائما وعلى الفور الى المتمردين . فلم تشر بيانات بوجاتشوف الى الفلاحين المكلفين أو أرقاء المصانع أية اشارات خاصة . ولجأ المتمردون أحيانا الى الفلاحين المكلفين لتشغيل المصانع ، ودافع العبيد العاملون فى المصانع فى بعض الأحيان عن مصانعهم ضد محاولات الباشكير تدميرها ، بعد أن شعروا بتوثق صلتهم بحياة المصانع .

وما أن جاءت بداية يناير ١٧٧٤ حتى رأينا قوة مختلطة مؤلفة من نحو ألفى رجل من المغول وعبيد المصانع والجنود الفلاحين والفلاحين المكلفين يقودها قائد شاب من الباشكير يدعى سالافات يوليايف ويرافقه كوزنيتسوف تشن هجوما على مسابك النحاس فى جبل الأورال . ونجحت بعض البلاد فى الدفاع عن نفسها ، أما بلدة شليابنسك فقد احتلت لفترة وجيزة ، وتحرك المتمردون صوب دير دلمانوف ، وكان مشهورا بسوء سمعته عندما كانت الكنيسة تملك عبيدا . وكان الدير محاطا بأسوار عالية مثبتا عليها ستة عشر مدفعا من مختلف الأعيرة . واشترك الرهبان وموظفو الكنيسة فى الدفاع عنه بمساندة بعض القرويين الذين لا يعتمد عليهم . غير أن الدير قد تحرر عندما هبت قوات الحكومة لنجدته فى ١٤ مارس ، وهزمت الجيش المتمرد فى أحد أحياء المدينة .

ثم ظهرت بوادر حقة تدل على بدء تحرك الحكومة ، بعد أن استشارت أنباء دحر فصيلة كار فى أكتوبر ١٧٧٣ ، والأخبار المتلقاة من محافظة أورنبوج الملكة كاترين فى نوفمبر ، ونبهتها الى خطورة الموقف . وفى ٢٩ نوفمبر ١٧٧٣ ، عين الجنرال بيبيكوف المارشال السابق فى اللجنة التشريعية لآخماد الانتفاضة ، مع منحه سلطات كاملة للتعامل مع المسئولين العسكريين والعاملين المدنيين فى الكنيسة « تمشيا مع القوانين العسكرية والمدنية القائمة » . وطلب من بيبيكوف أيضا تشكيل مجلس تحقيق لمعرفة سبب التمرد ، وما جرى فيه ، وأصبح هذا المجلس يعرف فيما بعد باسم « المجلس السرى لكازان » .

وبعد أن اتخذ بيبيكوف كازان مركزا لقيادته ، اثر وصوله فى ٢٦ ديسمبر اتخذ خطوات فورية لاعادة توطيد سلطة الحكومة ولاستعادة الروح المعنوية ، وشجع النبلاء على تشكيل عدد من وحدات المتطوعين ، وتسليح ما تحت امرتهم من فلاحين . واقتدت الامبراطورة بهذه الخطوة ، وبوصفها من «ملاك كازان» أمرت بفرض ضريبة على فلاحى القصر ، وأوفدت ضابطا لقيادتهم . وشاركت جميع الرتب فى الكنيسة بنور فعال فى توزيع بيانات الحكومة ، وانفضح أمر بوجاتشوف ، وزيفه . وما أن وافت نهاية يناير ،

حتى رأينا الجانب الأكبر من القوات التي وضعت تحت تصرف بيبيكوف
تصل وتحتل مواقعها ، وأرسلت فصائل مختلفة لتفرقة المتمردين الذين
يعملون بين كازان وأوفا .

وفي الوقت نفسه ، انفك الحصار المفروض على مدينة أوفا منذ
منتصف نوفمبر ١٧٧٣ ، وشارك ما يقرب من جميع أهل المنطقة من غير
الروس في الانتفاضة . غير أن القويقود أو المدنيين وقائد القوات النظامية
نجحوا في السيطرة على أعصابهم ، ولجأوا الى تنظيم دفاع فعال . وفي
٢٣ يناير ١٧٧٤ ، شن زاروبين شيكا على رأس اثني عشر ألف من المقاتلين
هجومًا قويا ، ولكنه رد على أعقابه . ولجأ المتمردون بعد ذلك الى الحصار ،
ثم تراخت العمليات العسكرية خلال شهرى فبراير ومارس ١٧٧٤ ، بينما
قام زاروبين شيكا بالتباحث مرارا هو والمدافعون عن أوفا ، وطالبهم
بالاستسلام . وفي ذات الوقت ، تقدمت قوات الحكومة تحت قيادة ابن
العقيد ميخائيل - وهو من المحاربين القدامى في حرب السنوات السبع -
وشب القتال بين قادة المتمردين . وفي ٢٣ - ٢٤ مارس هزم زاروبين شيكا
على رأس جيش مؤلف من (بين سبعة آلاف وعشرة آلاف رجل) في معركة
شرسة جرت بينهم وبين الجنود المحترفين لابن ميخائيل ، ورفع الحصار عن
أوفا وقبض القوزاق على زاروبين وليانوف وسلموا الى ابن ميخائيل .

بقيت بعد ذلك أورنبورج تحت الحصار زهاء ستة شهور ، وكانت
قيادة ياتيسك مازالت متحصنة في قلعتها . واحتد النقص في الموقعين في
المؤن والعليقة والوقود خلال أشهر الشتاء . وتركزت قوات كبيرة في
المنطقة الواقعة بين بوجوسلان وبوجولمان تحت قيادة جوليتسن لتحرير
هذين الموقعين تمهيدا للزحف الى بوجاتشوف نفسه . وصمم قائد التمرد
على التوقف في تاتيشيفو التي تحكم الطريق المؤدية الى أورنبورج والطريق
الى ياتيسك ، وحشد لهذه المهمة حوالى تسعة آلاف رجل وستة وثلاثين
مدفعا . ولم يتوافر لجوليتسن أكثر من ستة آلاف وخمسمائة جندي وبين
اثنين وعشرين وخمسة وعشرين مدفعا . وجرت الموقعة الحاسمة في ٢٢
مارس . وبعد مباراة ثنائية بالسلاح الأبيض ، اندفع الجنود النظاميون
التابعون لجوليتسن، وأجهزوا على مقاومة المتمردين، وأثبتت قوات المتمردين
عجزها مرة أخرى عن الصمود أمام وحدات صغيرة من الجنود المدربين .
وتكبد الطرفان خسائر فادحة . فقد فقد جوليتسن مائة وأربعين ، وجرح
ما هو أكثر من خمسمائة من قواته . وقتل من بين المتمردين ١٣١ وجرح
قاربة ١١٨٠ ممن سقطوا صرعى أثناء مطاردتهم ، وأسر حوالى أربعة آلاف
أسير . وهرب بوجاتشوف وقليل من الزعماء الآخرين الى بردا .

وتسببت هزيمة تاتيشيفو في خلق أزمة بين المتمردين . فقد اتخذت
الصدارة في قواته بعض القوات الشديدة المراس من القوزاق في يايك -
من المقربين من بوجاتشوف - وحلوا محل الفلاحين والجنود في واجبات
الحراسة في بردا . وفي نفس الوقت ، أسرع آخرون إلى نقل أمتعتهم
استعدادا للرحيل مما أثار شكوك الكافة من غير القوزاق . وبعد اقتراب
قوى الحكومة ، اتضح أن الهروب من المعركة لن ييسر لغير من يملكون
خيولا . بيد أن القوزاق عندما تخلوا عن الفلاحين المسلحين تسليحا هزيلا ،
فانهم كشفوا بوعي ، أو بلا وعي عن اختقارهم لمن يحرقون الأرض : « فقد
أنكروا اتصافهم بصفة المحارب ، ووصفوههم بالمواشي » . وفي ذات الوقت نزع
كثيرون من القوزاق إلى التفكير في طريقة النجاة ، ودبرت مؤامرة للقبض
على بوجاتشوف ، وتسليمه في الوقت المناسب ، وازداد التوتر داخل
بردا . وفي ٢٣ مارس ، غادر بوجاتشوف مقر قيادته برفقة ألفين من الرجال
وعشرة مدافع . وفي اليوم نفسه ، دخل الحرس الأمامي لقوات جوليتسن
بردا ، التي تفجرت فيها عمليات السلب والنهب والذعر والافراط في
الشراب ووقعت فلول قوات بوجاتشوف الهاربة في الأسر . وكان من بين
الأسرى معظم زعماء « كلية الحرب » والأمن العام بوشيتالين ، وانفك الحصار
عن أورينبورج . ففي ١٦ إبريل ، حررت حامية ياتيسك بعد أن كان
المحاصرون على وشك الموت جوعا . وبعد أسبوعين ، تطهرت قلعة جوريف
عند مصب نهر اليايك وبحر قزوين من المتمردين . ولم يظل المهندس
الذي وضع خطة النصر حيا لكي يرى ثمرة عمله . إذ مرض بيبكوف الذي
قاد المعركة بالحمى ومات في ١٧ إبريل ، وشعرت كاترين باللوعة لموته ،
وانتقلت قيادته العسكرية إلى العقيد الأمير شيرباتوف .

وقامت البعثة السرية التي عينها بيبكوف في الوقت نفسه بالتحرك
لمعرفة دوافع التمرد : كيف استطاع بوجاتشوف تسمية نفسه « بطرس
الثالث » ؟ وهل هناك أصابع أجنبية وراء ذلك ؟ : فرنسية أم تركية ؟
وما هو مدى مشاركة النبلاء المتعاضين و « المؤمنين القدامى » ؟ وكانت
البعثة السرية - أو بيبكوف بمفرده - مفوضا - بإصدار أحكام بالموت ،
وتنفيذها ، وإن كان المتبع في حالة النبلاء وكبار علية القوم ، حالة
أوراق اتهامهم إلى الامبراطورة للتصديق عليها . وفي الأسابيع الأولى
لممارسة البعثة السرية لمهامها ، كانت تراعى الحرص عند تطبيق حق
إصدار الحكم بالموت . فشئق أحد العبيد لاتهامه بقتل عشيقته ، وشئق
عدد قليل من الجنود المغول لاشتراكهم في التمرد ، وحكم على آخرين
بعقوبات شتى كالسجن لمدة متفاوتة ، وأطلق سراح العديد من الأشخاص
ممن كانوا متورطين جزئيا ، بعد أن أقسموا يمين الولاء للامبراطورة ،
واتبعت البعثة السرية الأساليب المعهودة في انتزاع الاعترافات كالجلد

مثلا ، رغم تدخل كاترين للاقلال من الالتجاء للتعذيب . وكتبت كاترين الى بيبكوف في ١٥ يناير ١٧٧٤ : « لست أشك أنك ستلتزم بقواعدي ، وان كانت القسوة ضرورية أحيانا . وأرجو أن تأمر البعثة السرية بالحرص عند اصدار قرارها بتوقيع العقوبة . . . وفي رأيي أن الجندي « س » والجندي « ص » قد جلدوا رغم براءتهما . وأيضا هل هناك حاجة للجلد أثناء اجراء التحقيق ؟ فلقد شاهدت بنفسى عدم اقدام البعثة السرية - زهاء اثنتى عشرة سنة - على جلد شخص واحد أثناء استجوابه . وكانت كل قضية تصنف وفقا لحالتها تصنيفا صحيحا . ورغم ذلك ، فقد اهتدينا الى معرفة ما هو أكثر مما أردنا معرفته » . هكذا كتبت مرة أخرى في ١٥ مارس . غير أن كاترين صدقت على أحكام الاعداء ، وبخاصة على الضباط الذين أهملوا في أداء واجبهم ، وان كانت قد تركت أمر التنفيذ لحصافة بيبكوف . وتعرض بعضهم للمعاناة والتعذيب (ربما لست مرات أثناء حكم كاترين) ، ولانزال رتبته الى رتبة « نقر » في الحامية .

وبعد أن تحققت هزيمة قوات الحكومة لجماعات المتمردين المختلفة ، ازداد عدد الأسرى الى حد كبير ، حتى عجزت كازان عن استيعابهم . وفي حالات كثيرة ، خفف قادة وحدات الاغاثة العقوبة في الموقع الذي حدثت فيه المحاكمة ، ولم يحولوا غير زعماء العصابات الى كازان ، ومنحوا الباقين شهادات بالعفو . وبعد موت بيبكوف ، ألقت البعثة السرية نفسها بلا سيد ، ولديها ١٦٩ أسيرا في كازان ، وما ينوف عن الأربعة آلاف في أورنبورج ، وغيرهم كثيرون في مختلف المراكز . وبعد أن اقتنعت كاترين بقصم ظهر التمرد ، عينت في ١٦ ابريل الجنرال ششرباتوف للحلول مكان بيبكوف ، بغير أن يتمتع بسلطاته الواسعة . ووافقت على القرار الذي اتخذه بيبكوف بإنشاء فرع للبعثة السرية في أورنبورج . ووضعت البعثتان السريتان حينذاك تحت سلطة محافظي المدينتين .

ولكن الحكومة تسرعت في الاطمئنان الى انتصارها . اذ ظل بوجاتشوف مطلق السراح . وبعد أن فقد الأمل في العمل كعميل لكوبان ، أو حتى لفارس ، تقدم متبوعا بحوالي خمسة آلاف من الباشكير المسلحين تسليحا واهنا بالاضافة الى شردمة من فلول عبيد المصانع والقوزاق ، من مسبك لآخر ، في تشكيل دائري واسع ، مخترقا بشكيريا . وكان بعض الباشكير قد نزعوا بالفعل الى عقد مصالحة مع الحكومة ، وتقديم المساعدات لدوريات الجنود النظاميين . غير أن آخرين من أمثال سالفات يوليائيف واصلوا الكفاح لصالح بوجاتشوف أو ربما لصالح فلولهم . . . الله أعلم . أما المقدم ميخائيلسون الذي كان يقود فصيلة الحكومة في المنطقة فقد أقدم على مطاردة بوجاتشوف من مسبك لآخر . غير أن ذوبان الجليد قد صعب مواصلة عمليات الطرفين الى حد كبير . وبعد مطاردة دامت ما يقرب من أربعين يوما ، شعرت قوات ابن ميخائيل بالانهك ، فاضطر للانسحاب الى

أوفنا ابتغاء للراحة ، وتعويض الخسائر . وانتشر الذعر في سائر أنحاء بشكيريا ، وحتى مدينة أوفنا فانها فقدت الاطمئنان الى سلامتها . فلا أحد يعرف أين يوجد بوجاتشوف ؟ وأين سيضرب ضربته التالية ؟ فبعد أن مر مرورا عابرا بأوفنا ، اتجه الى الشمال ، وظهر أمام قلعة أوسا في ١٨ يونيو ١٧٧٤ . وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام ، استسلمت القلعة لبطرس الثالث الذى كان يتلقى التحية العسكرية الامبراطورية . وجاءت الخطوة التالية ، وهى عبور كاما للوصول الى كازان . والتفت عبيد المصانع والفلاحون من معسكر التجنيد فى برم للانضمام الى المتمردين الى جانب الكثير من الباشكير ، وتوقف لاشعال الحرائق فى ايجيفسك وفوتكين ، حيث قوبل بالترحاب رغم محاولات المدافعين من الفلاحين وعمال المسابك من العبيد مصحوبا بدق الأجراس ووسط التلويح بالرايات التى تحمل صور الأيقونات . ونقدم جيش المتمردين بلا حول ولا قوة صوب مدينة كازان التى كانت خالية من أية قوة دفاعية .

وكانت مدينة كازان تضم أحد عشر ألف نسمة ، أغلبهم من المغول . وكانت مبنية أساسا من الخشب . اذ كانت حتى قلعتها مبنية من الخشب . وكان الجنرال فون براندت المحافظ المريض على بينة بالأخطار المحدقة به من كل جانب وكتب فى ٢٤ يونيو رسالة عاجلة الى القائد الأعلى فى المنطقة الأمير ششرباتوف يطالب بتعزيزات ، وأوفد رسلا الى جميع الاتجاهات ، ولا سيما الى ابن ميخائيل . واستقر ششرباتوف فى مكانه - يعنى فى أورينبورج - حتى ٥ يوليو ، غير أن ابن ميخائيل قام بالضغط محاولا عبور كاما ، واعتراض سبيل بوجاتشوف . وكان يأمل فى الوصول الى كازان فى ٨ يوليو أو ٩ يوليو ، ولكن الحاجة الى خوض غمار عدد من الانهار حال دون تقدمه . فلم يعبر كاما الا فى ٣ يوليو ، بعد أن سبقه بوجاتشوف فى العبور . وظهر مصحوبا بعشرين ألف من رجاله أمام المدينة . وفى ١٢ يوليو ، فاجأ هجوم المتمردين المتشعب فى ثلاثة اتجاهات الدفاعات المرتجلة للمدينة ، واكتسحها ، وهربت قوات الحكومة ، وتقهقرت ثانية الى القلعة ، وتحصنت فيها ، وتبع ذلك أحداث سباب ونهب استمرت من الساعة السادسة مساء الى منتصف الليل ، وتبعها لما ذكره أحد المعاصرين: « فقد قتل من يرتدون زيا ألمانيا ، وحليقو الذقون » ، وقبض على النساء المرتديات « زيا ألمانيا » واقتدن الى معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراح جميع سجناء الحكومة ، وكان من بينهم الزوجة الأولى لبوجاتشوف (أى زوجته الحقيقية) ، وأبناؤه الذين اقتيدوا الى معسكره ، وشعر « القيصر الزائف » ببعض الاضطراب . وقدمت زوجته اليه على أنها املين بوجاتشوف برفقة أبنائها . وآووا برفقة النسوة اللاتى يتألف منهن حريم بوجاتشوف الى الجناح المخصص لهن . وأشعلت النيران فى تسع نقاط

مختلفة ، وتناثرت الأنقاض في جميع أنحاء المدينة • واستمر النهب والسلب والشراب والاعتصاف الى أن فرق شملهم الدخان المتصاعد من النيران • ودمرت الحرائق ٢٠٦٣ بيتا من مجموع البيوت (٢٨٧٣ بيتا) •

وفي مساء ١١ يوليو ، كان ابن ميخائيل على بعد ٦ فيرسيت من كازان • وبعد أن أراح خيوله زهاء ثلاث ساعات ، استأنف السير في الساعة الواحدة صباحا في ١٢ يوليو في مسيرة ارغامية الى المدينة ، حيث كانت ألسنة اللهب تتصاعد ، ويمكن رؤيتها من بعيد ، وسمع ابن ميخائيل في قرية تساييتسين بأن بوجاتشوف في انتظاره برفقة اثني عشر ألف رجل • وشن ابن ميخائيل بقواته المنهكة التي لا تزيد عن ثمانمائة رجل هجوما عنيفا ضد مركز التمرد ، الذي تشتت وساده الاضطراب ، بعد قتال دام خمس ساعات • غير أن قوات ابن ميخائيل قد تضعضعت مما صعب مطارقتها للمتمردين •

وفي ٣ يوليو ١٧٧٤ ، دخل ابن ميخائيل كازان ، وبدأ على الفور في حصر المشاركين في عملية السلب • غير أنه لم يكن قد انتهى من تصفية حساباته هو وبوجاتشوف ، الذي عاود الهجوم بعدد أصغر في اليوم التالي ، وهزمت قوات الحكومة مرة أخرى ، ولم يتهيب بوجاتشوف الموقف ، وأعاد الكرة ، اعتمادا على قطع يقارب خمسة عشر ألف رجل ، لا يصح أن يوصف بالجيش • واتجه ابن ميخائيل لمقابلته في نفس البقعة التي التقيا فيها للمرة الأولى خارج المدينة • وأصبحت قوات بوجاتشوف تحارب بشجاعة اليائسين ، ولكن لم تمض أكثر من أربع ساعات حتى خارت قوى رجاله وخسروا ألفي شخص بين قتل وجريح ، وأسر حوالي عشرة آلاف من كلا الجيشين ، كانوا محتجزين في معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراحهم الآن •

فأين يتوجه بوجاتشوف بعد ذلك ؟ ان التقدم الى نيجيني نوفجورود قد ينقل التمرد الى قلب روسيا والى قلعة العبيد • وشرع قائد موسكو (الأمير فولكونسكى) في الدفاع عن المدينة والأراضي الزراعية المحيطة بها • والتقى الأعيان وأهل المدينة في عدد من المدن الصغيرة ، وصمموا على حشد قوات محلية لمواجهة التحدي • غير أن هذا اللقاء لم يتم قط ، بعد أن تحرك بوجاتشوف نحو الجنوب • فهل كان ينوى حقا الزحف الى موسكو ؟ كثيرا ما دار الحديث حول هذه الناحية بين أصدقائه الحميمين ، ويقال انه قد جاء على لسان بوجاتشوف ما يأتي : « لو تمكنت من الاستيلاء على أورنبورج وياتيسك • فأننى سأتوجه بعد ذلك بنفس الخيول الى كازان • وبعد استيلائي عليها ، سأتوجه الى موسكو وبطرسبورج ، وأودع الامبراطورة في أحد الأديرة ، وسأعامل مع النبلاء بنفس عملتهم • وهي

خطة لا تبدو عليها أية مظاهر الحطة الحسنة التدبير . بيد أن التقدم نحو موسكو كان عنصرا سيكلوجيا ضروريا في عملية اصفاء الشرعية على دور بوجاتشوف كبطرس الثالث ، الذي أرغمه الأشرار (*) على التجوال في بلاد غربية سنوات عديدة ، وهو يعود الآن لاستعادة عرشه . على العموم ، عندما واجهت بوجاتشوف الهزيمة المحتملة ، فعل ما كنا نتوقعه : أوى الى الأرض التي يعرفها خير معرفة : أرض دون قوزاق .

وأدى التصميم على الاتجاه صوب الجنوب الى حدوث تغيير في النواحي التي ركز بوجاتشوف الكلام عليها في بياناته ، بحيث جعلها تناسب طبيعة المنطقة التي سيجري عليها تحركاته . فلقد قطعت اتصالاته ببشكاريا (بالرغم من استمرار التمرد هناك) وانقطعت الى حد ما معاونة عمال المصانع له ، ودخل الآن منطقة يقطنها عدد أكبر من صغار الملاك ، الذين لا يملك أى فرد منهم أكثر من عشرين عبدا ، وان وجدت أيضا بعض اقطاعيات كبيرة . وبالمقارنة بالمقاييس المعاصرة ، فإن الفلاحين كانوا أيسر حالا نسبيا . غير أن اقتصاد هذه المنطقة كان اقتصاد اعاشة أساسا ، أى لا يعتمد الا في أضيق نطاق على الصادرات الزراعية والتسويق داخل البلاد . ويغلب على هذه المنطقة طابع الزراعة بالأكراه (**) ، وبالرغم من أن بعض الاقطاعيات كانت تدفع ضريبة سنوية (***) . وكانت المدن أيضا - أساسا - من المستوطنات الزراعية المنهكة ، التي تتعامل مع الريف تجاريا ، لأن سكان المدن يزرعون المحاصيل التي يقاتون منها . ولما كانت المنطقة قليلة الكثافة السكانية ، لذا أصبحت ملجأ وملذا للكثير من المغامرين والفلاحين الهاربين «والمؤمنين القدماء» ، وتضم أيضا من ١٪ الى ٢٪ من صغار الروس والقبائل الوطنية التي لا تعتنق الديانة المسيحية .

واتجهت المنشورات التي أصدرها بوجاتشوف حينذاك ، وانتقلت من قرية لأخرى بوساطة مبعوثيه الى تحريض الرقيق بالانتفاضة ضد أسيادهم ، والقضاء على نظام الرق كلية - والاستيلاء على الأرض ، ووعد « بطرس الثالث » الجديد المؤمنين الجدد بالحرية ومنحهم الصليب القديم وحق اقامة الصلوات ، واطلاق شعورهم وذقونهم ، وبالتمتع بامتيازات القوزاق دوما ، يعنى الاعفاء من ضريبة الدخل « والبديلة » ومختلف الضرائب والاتاوات التي يفرضها عليهم الملاك الأشرار والقضاة الفاسدون . وشجع الفلاحين على القبض على النبلاء السابقين ممن سبق لهم اضطهاد الفلاحين ، ودعا الى قتلهم وشنقهم ومعاملتهم نفس المعاملة غير المسيحية التي

Dvoryane.

(*)

Barshina

(***)

Obrok.

(***)

عاملوا بها الفلاحين . وهب العبيد استجابة لندائه ، وانتشرت أخبار انتفاضتهم من قرية لأخرى ، بعد تأثرهم بمنشورات بوجاتشوف أو بمقابلتهم له . وأحيانا كانت تظهر مجموعات صغيرة من القوزاق فى إحدى القرى ، وتشجع الفلاحين على الانتفاضة ضد الملاك . وفى مواضع أخرى ، كان الفلاحون يهبون من تلقاء أنفسهم ، أو بعد تأثرهم بالشائعات ، وبتلقائية تفوق سرعة البرق . وأحيانا كانت جماعات الفلاحين تحوم بعيدا وتزداد قوة وجنوحا نحو التدمير أثناء طوافها ، وتزداد بأسا يشجعها على اختراع قصص بطولية عن المعارك التى خاضتها ضد قوات الحكومة . وفى الحالات التى حدثت فيها الانتفاضة فى موقع قريب من القوات الأساسية لبوجاتشوف كان الفلاحون يصحبون معهم الى مركز قيادته أشخاصا من عليا القوم أو كبار الموظفين كى يحاكمهم « الامبراطور » بنفسه . وفى مواضع أخرى ، كانت تجرى أعمال وحشية للتنكيل بالملاك والأعيان رجالا ونساء وأطفالا . ولم ينس المشاغبون الانتقام من القسس والخولية والمقاولين . ومما يثير الاهتمام أن ملاك الاقطاعيات الصغيرة كانوا الأكثر تعرضا للاغتيال ، باعتبارهم أقرب الناس الى التعاقد مع الفلاحين .

وفى ذات الوقت ، كانت قوات بوجاتشوف تتقدم من مدينة لأخرى تاركة آثار الدمار . وفى ٢٣ يوليو ، وصل الى آلتير ، وقوبل بالترحاب والتعهد له بالولاء ، وأقيمت على شرفه القداسات والمواكب الكنسية . وهنا انتهز الفرصة وزود صفوفه بالمتطوعين والمجندين من بين اللاتقين للخدمة . وتكررت نفس العملية فى ٢٦ يوليو فى سارانسك ، حيث تناول بوجاتشوف طعام الغذاء فى دار أرملة فويغودا ، ثم شنقها ! وساعدت بدعوة المنطقة ، وانحياز الأهالى الى كلا الجانبين فى هذه الحرب الاجتماعية على زيادة العنف والوحشية . وقبل التمرد ، لم تكن المنازعات المسلحة بين الخصوم والمتنافسين مجهولة . وكانت سلطة الادارة المدنية على الأعيان واهية ، وشعر الرائد « ملين » ، الذى كان مستولا عن بعض فصائل الحكومة بالانزعاج عندما سمع بعض البلاغات « التى رفض تصديقها » ، عن نزوع بعض النبلاء الى الانتفاع من حالة الفوضى، وقيام كل واحد منهم بتدمير اقطاعية الآخر ، أو شنقهم لأعدائهم . ومن ناحية أخرى ، فإن مشهد النبلاء وهم يشنقون - بالجملة - بعد قطع رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم ، قد أثار القوى النظامية وشجعها على المعاملة بالمثل ، فارتكبت عمليات وحشية فظة .

وفى أول أغسطس ، أعلنت جماعة من القوزاق فى سوق المدينة نبأ قرب وصول بطرس الثالث ، وهددت بذبح الجميع كبارا وصغارا بالسيف ، اذا لم يلق الترحاب المناسب بتقديم الخبز والملح . ولقى بوجاتشوف الترحيب المناسب ونهب خزانة المدينة ، وجند مائتين من الرجال بالاكراه .

ولما أدرك جدية قوات الحكومة فى تعقبه ، توقف هو وقواته المؤلفة من تشكيلة متعددة الألوان فى ساراتوف على نهر الفولجا . وليس بالاستطاعة الاتفاق حول عدد القوات التى التفت حوله . اذ تقدرها البيانات المعاصرة بعدد يتراوح بين الثمانمائة وعدة آلاف ، ولكن تسميتها بالقوة المقاتلة كان من قبيل المبالغة . اذ كان قوام محاربيها الأشداء من مجدفى نهر الفولجا ، وبعض العبيد الهاربين ، ممن يعوزهم التدريب الصحيح . واختفى من الوجود الفلاحون الذين تجمعوا للتطوع فى أغلب الأحيان . وتناقص أفراد القوة الأساسية من قوزاق يايك الى حد كبير عن عددهم الأصىلى الذى كان يتراوح بين ثلثمائة وربعمائة ، ولم يعد الجميع يدينون بالولاء « لبطرس الثالث » .

ومن ناحية أخرى ، فإن « المدن » التى كان بوجاتشوف قد احتلها مؤخرا ، كانت مدنا بالاسم فقط . أما مدينة ساراتوف فمسألة أخرى ، لأنها كانت من أهم المراكز الحضارية على الفولجا الأدنى ، وعاصمة ادارية للمستعمرين الأجانب . وكانت تضم فى ضواحيها بعض المصانع الصغيرة (للقبعات والجوارب والجبال) . ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة آلاف من الكوبتسكى . غير أن المدينة عانت الأهوال بعد أن شب فيها حريق خطير فى مايو ١٧٧٤ ، وتسبب فى تبيد معظم نفائسها ، وإهمال تحصيناتها ، بالرغم من أن حاميتها كانت تتألف من ٧٨٠ رجلا .

وتسبب اختلاف الرأى بين المدافعين (وكان بينهم شاعر عظيم دفعته الظروف للتورط فى القيام بدور مشين) بطريقة مباشرة فى سقوط المدينة فى ١٦ أغسطس . وعسكر بوجاتشوف خارج المدينة زهاء ثلاثة أيام ، وأقسم جميع الحاضرين يمين الولاء لبطرس الثالث ، وأقيمت القداسات بالكنيسة على شرف الامبراطور ، ووريثه بول وزوجته يوستينيا ، وشنق أربعة وعشرون من الملاك، وواحد وعشرون من موظفى المستشارية، وتواصلت مذابح الرجال والنساء من جميع المراتب ، وحطمت مخازن الدولة التى كانت مشحونة بالغلل والمشروبات الروحية والنقود . وحتى بعد أن بارح المضيف الرئيسى لبوجاتشوف ، فقد استمرت تسع عصابات مسلحة ، تجوب المدينة تنهب وتقتل وتدمر .

وبعد أن هروا بوجاتشوف الى تسارتيسن (**) ، فإنه لم يكف عن محاولة الحصول على تأييد دون قوزاق . غير أن الحكومة كانت منذ بدء التمرد متيقظة لهذا الخطر بالذات ، واتخذت خطوات لدرئه . وفى أكتوبر ١٧٧٣ ،

Derzhavin.

Tsart'syn.

(*)

(**)

صدرت الأوامر بمراقبة جميع علامات التذمر داخل المعقل ، ومصادرة المنشورات التي يصدرها بوجاتشوف ، وحرقتها ، وأصدرت مستشارية الحرب منشورات مضادة تحذر فيها من الأفاق بوجاتشوف ، غير أن الخطر لم تشتد حدته إلا بعد أن وصل بوجاتشوف إلى المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا ونهر الدون . وأصدر بوجاتشوف بيانا في ١٣ أغسطس ١٧٧٤ موجهًا على الأخص لقوزاق نهر الدون ، ويتضمن إشادة ببطرس الثالث الذي اعترفت روسيا عن بكرة أبيها به امبراطورا عليها . ووعد القوزاق « بالحرية والصليب وبرؤوس الأسلاف العظام وذقونهم وإن كان قد استدرك وذكر أن القوزاق قد أصيبوا بالغفلة الآن ، وضلوا السبيل ووقعوا في أحابيل الجنس الملعون للنبل ، الذين لم يقنعوا بالاستجابة لرغبة روسيا تسليم المعقل الوطني للقوزاق إلى الفلاحين ، وبذلك يتم القضاء على شعب القوزاق » . وهكذا نادى بوجاتشوف مرة أخرى بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا) التي ستأوي المؤمنين القلماء من القوزاق . ولكن كلماته ضاعت في أدراج الرياح ، بعد أن صدر منشور يعد كل من يقبض على بوجاتشوف بمكافأة مالية قدرها عشرون ألف روبل ، واستمر معظم أبناء دون قوزاق يدينون بالولاء للدولة . ولعل ما حال دون انضمامهم إلى المتمردين عاملان : العامل الأول هو توقيع معاهدة صلح(*) أنهت الحرب مع الأتراك في ١٤ يوليو ١٧٧٤ ، مما ساعد على توفير قوات قد تستعمل لردع التمرد ، والعامل الثاني - الاحجام - عن الانضمام إلى الجانب الذي بات خذلانه أمرا مؤكدا ، وهكذا فرغم وجود قلة من المتذبذبين أحيانا ممن انضموا إلى بوجاتشوف، إلا أن أهل دون قوزاق قد استعين بهم ضد قوات المتمردين . ولكن ينبغي ألا ننسى أن أهل دون قوزاق لم تغب عن فطنتهم قط حقيقة بوجاتشوف ، وكانوا يعرفون تماما أنه ليس بطرس الثالث .

وأصدر بوجاتشوف منشورات أخرى . وربما كان مازال يأمل في إثارة أقرانه من القوزاق . وهذا جانب يكشف الكثير عن الغايات العامة للحركة : « لقد تم القضاء على القانون المسيحي النابع من التقليد العريق لأبائنا المقدسين ، وصدر بدلا منه قانون جديد حافل بالنوايا الشريرة ، وأقحمت العادات الألمانية في روسيا كخلق الذقون . وهي عادة مقرزة للغاية ، وغير ذلك من انتهاكات حرمة الإيمان المسيحي والصليب المسيحي . وكرر في هذا المنشور أيضا حكاية سلب عرشه لأنه أدخل الحرية لروسيا (**) لا سيما بعد الاعتراف به حاكما في كازان وأورنبورج وبين الملوك والباشكير .

Kuchuk Kainardzhi.

(*)

Uchinit, Vo v sey Rossii vol most.

(**)

وأخيرا وفي ٢١ أغسطس ، ظهر بوجاتشوف في تسارتيسن . وكان القومندان قد اتخذ بعض الخطوات للدفاع عن المدينة ، واستدعى ألوية دون قوزاق . وكان يتوقع وصول التعزيزات من الجيش الثاني في الجنوب . وعسكر بوجاتشوف في تسارتيسن ، ثم تقدم للتباحث مع جماعة من دون قوزاق هرعوا لمقابلته واعترفوا به علنا ، وابتداء من هذه اللحظة ، انتشر الشك بين دون قوزاق ، والمقربين من بوجاتشوف ، وظهر التصديق في ايمانهم بهذا الافاق . وبدأ في الانهيار عالم الايمان المعلق ، الذي عاشه الكثيرون بعد أن استمعوا بأذانهم واتخذ البحث عن السلامة الصدارة في تفكيرهم .

وبعد تراشق بالنيران ، دام خمس ساعات بينه وبين حامية تسارتيسن انسحب بوجاتشوف بمحاذاة النهر نحو الجنوب ، وتوقف للنهب من مستعمرة هيرينهوت(*) الألمانية في سارييتا . وفي اليوم التالي ، صادر قومندان تسارتيسن قافلة من القوارب المحملة بالنفائس والنبلاء وغيرهم من السجناء . وفي ذات اليوم ، وصل الى المدينة العقيد ابن ميخائيل ، الذي كان يطارد بوجاتشوف بأقصى سرعته . ولم يتوقف الا لاخلاء المرضى وراحة الحيول ، وصحب معه بعض قوقازيي الدون في الحامية ، ثم أقلع مرة أخرى في ٢٣ أغسطس . وبعد ذلك بيومين ، حدثت المواجهة الأخيرة . وكان لدى بوجاتشوف نحو عشرة آلاف رجل ، وان كان أكثر من نصفهم من الفلاحين غير المسلحين . وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وتولى قيادة القسم الأوسط ، واخترق ابن ميخائيل صفوف جيش بوجاتشوف ، بالرغم من شدة النيران ، وتحولت الهزيمة الى هزيمة منكرة . وحاول بوجاتشوف يرافقه ثلاثون تقريبا من أتباعه عبور نهر الفولجا ، وصحب زوجته معه ، وكانت زوجته الحقيقية هذه المرة .

فاين يذهب بوجاتشوف بعد ذلك ؟ وبعد أن انضم اليه نحو مائتين من قوزاق ياييك ، وصحبته كينزيا ارسلانوف وقلة من المقربين الحميين ، تخلى عن الفكرة التي راودته قبل المعركة الأخيرة ، بالتوجه الى فارس عبر تركستان حيث يوجد أصدقاء من الحانات ، ورأى عوضا عن ذلك اما التوجه الى أحد المواقع الحصينة(**) أو سيبيريا ، أو الى ما وراء بحر قزوين لاثارة المغول . ورفض قوزاق ياييك التوجه الى جميع هذه الأراضي الأجنبية (واعتبروا المنطقة التي اقترحها ذاتها من البلاد الأجنبية أيضا !) ، وأصرروا على العودة الى ياييك ، وبوجه خاص لأنها تضم بيوتهم وعائلاتهم . وتمشيا مع الدليل الذي قدمه ايفان تفورجوف الذي انضم الى التمرد عند بدايته

Herrenhut.

(*)

šaparožhian Sech.

(**)

فى أكتوبر ١٧٧٣ ، فانه اكتشف قبل الهجوم على ساراتوف ان بوجاتشوف
أفاق ومخادع • وقرر الاشتراك مع أحد قوزاقى يايبك من المتآمرين
الأصليين فى تدبير مؤامرة لانقاذ أنفسهم بالقبض على بوجاتشوف، وتسليمه
للسلطات ، وانضم الى المؤامرة نفر من القوزاق الآخرين ، الذين أقنعوا
بوجاتشوف بالموافقة على الانتقال الى الاستبس فى كالموك وبحيرة التون •
وأثناء مسيرتهم استولى القوزاق ، على خيول الآخرين ، الذين لا ينتمون
الى القوزاق فى الجماعة ، وبذلك أرغموا على التراجع الى المؤخرة ، وسمح
لكنزيا ارسلانوف بمتابعة السير معهم حتى لا تستثار شكوك بوجاتشوف،
وواصلت زوجته وابنته (تروفيموت) السير برفقة الهاربين •
وبعد أن تجاوزوا أوزين ، قبض المتآمرون على بوجاتشوف ، وجردوه من
سلاحه • وحاول يائسا الفكاك ، ولكنه قيد بالسلاسل بعد أن فشلت
مقاومته : « كيف تتجراون على رفع أيديكم على امبراطوركم ؟ انكم لن
تحققوا شيئا من وراء ذلك ؟ واذا لم أتمكن من معاقبتكم ، فان لدى ولى عهد
هو بول بتروفتش ، وهو كفيل بذلك » • هكذا صاح « بطرس الثالث » ،
ولكن عملية الاحتيال كانت قد شارفت على الانتهاء • فلقد صمم القوزاق،
بعد أن سمعوا بوجود قاض عادل فى ياتسيك على تسليم أسيرهم اليه •
وهكذا انتهى فى ١٥ سبتمبر ١٧٧٤ التمرد على نهر اليايبك ، حيث بدأ •

حاشية - ألف الشاعر الروسى الكبير بوشكين رواية طريفة حول هذا
الحادث التاريخى الشهير بعنوان « حصار المدينة » • كما يدور موضوع
الأوبرا الشهيرة « بريس جودونوف » لموسورسكى حول نفس موضوع
انتحال شخصية الوارث الشرعى لعرش روسيا (ا • ح • م) •

المراجع

- J. Alexander, *Autocratic Politics in a National Crisis : The Imperial Russian Government and Pugachev's Revolt 1775-1779*, (1969).
- J. Alexander, *Emperor of the Cossacks : Pugachev and the Frontier Jacquerie of 1773-1775* (1973).
- P. Anderson, *Lineages of the Absolutist State* (1974).
- P. Avrich, *Russian Rebels (1600-1800)* 1973.
- R. P. Bartlett, *Human Capital : The Settlement of Foreigners in Russia (1762-1864)* 1979.
- P. Dukes, *The Making of Russian Absolutism (1613-1801)* 1982.
- P. Dukes, *Russia and Catherine the Great : Volume I* 1978.
- J. G. Garrard (ed), *The Eighteenth Century in Russia* 1973.
- L. Gordon, *Cossac Rebellion : Social Turmoil in the Sixteenth Century Ukraine* 1983.
- I. M. Little, *The Service City : State and Townsmen in Russia, 1609-1800*, 1979.
- W. M. Pinter and D. K. Rowney (eds) *Russian Officialdom : The Bureaucratization of Russian Society from the Seventeenth to the Twentieth Century*. 1980.
- D. L. Ransel ; *The Politics of Catherinian Russia : The Panion Party* 1975.

الموت كوسيلة للردع : الاعدام العلني في فرنسا

جون ماكمانرز

لم تحدث الا قلة من ظواهر المجتمع في ظل « النظام القديم » صدمة للقراء المحدثين مماثلة للصدمة التي أحدثتها العقوبات التي كان توقع في حالات السلوك الاجرامي . ولقد وقعت أحداث كثيرة في اجميع البلدان ، وكان بينها مئات الجرائم التي انتهت بتوقيع عقوبة الاعدام ، ولم يكن التعذيب من الظواهر غير الشائعة . ولو اريد فهم لماذا سادت مثل هذه الممارسات ، يتعين على المؤرخين سبر غور التوجهات القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية التي أقرت هذه السياسات الاجرامية ، وشجعت على اتباعها .

وساعد البحث والتنقيب على ايضاح جملة نقاط . اذ ظهر وجود مخططات وتدابير فعلية وراء عمليات التعذيب والاعدام . وفضلا عن ذلك ، وبخاصة في حالات الاعدام ، ابتداء من اعلان الحكم حتى لحظة تنفيذه ، بل وحتى عند عرض جثة المدان ، كانت تجري طقوس علنية ، ساعدت على التعريف بالعواقب الجسيمة للسلوك الاجرامي ، وترسيخ اهمية فلسفة النظام العام . واثبت الدور البارز للقسيس في مراسم تنفيذ الاعدام اقرار الكنيسة لهذا الاجراء ، والصلة الوثيقة بين النظام العام والنظام الكنسي . وعندما دعى جمهور كبير من غير الصفوة لمشاهدة أحداث تنفيذ الاعدام ، فان السلطات أثبتت بالدليل رضاء الجماهير الواسعة عن القرار القانوني .

وفي منتصف القرن الثامن عشرة اتجه الكتاب المتصلون ببرنامج الإصلاح في عصر التنوير الى التساؤل والاحتجاج على عمليات التعذيب وتنفيذ الاعدام . بيد أن المصلحين انفسهم قد أحجموا - بوجه عام - عن

نقلا عن كتاب Death and the Enlightenment : Changing Attitudes to Death among Christian and Unbelievers in Eighteenth France.

تأليف John Manners (١٩٨١) .

المطالبة بانتهاء أحكام الاعدام • والأرجح هو نزوعهم الى اتباع اتجاه نفى
يحد من أنماط الجرائم التي يظن أن الاعدام هو اسبب حرم لها • ومن
سخریات القدر ، ان نظرتهم العاقلة بوجوب اقتصار عقوبه اعدام على
جرائم مثل الخيانة ، قد زودت فيما بعد بأحد المبررات التي ارتكن اليها
عند اصدار آلاف أحكام الاعدام السياسية التي نفذت أثناء الثورة
الفرنسية •

قال بيير باستوريه - وهو أحد المحامين المصلحين عند تأمله للعدد
الكبير من الجرائم التي تحدث اصدار حكم بالاعدام : « الويل لای مجتمع
يضم أناسا يشهدون اخرين وهم يموتون ، دون أن تقشعر أبدانهم (*) » •
وقيل هذا الكلام ١٧٩٠ قبل تحول التحمس للثورة الى شعور بالاحباط ،
وعندما كان الرعب مجرد سحابة صيف ، لا تزيد مساحتها عن مساحة
كف اليد في آفاق المستقبل • ووفقا لما قاله باستوريه ، فان تشريعات
النظام القديم « قد اشتملت على ما لا يقل عن ١١٥ جريمة أساسية » ، وان
كان هناك شعور سوداوي مغلف بمسحة وطنية يمكن أن يستخلص من
النظرة القائلة بأن مجموع عدد الفرنسيين كان نصف عدد الانجليز ، وأن
الشعب الهمجي شديد المراس ، الذي يقطن الجزر (الانجليز) كان
يمقت الموت ، حتى على أرضه • ففي فرنسا ، في القرن الثامن عشر ،
كانت الخيانة والقتل ، والشروع في القتل ، وقتل الأطفال ، والاجهاض
والسرقة والتهريب ، مع استعمال السلاح ، جرائم تعرض بمقترفها لعقوبة
الاعدام • والأمر بالمثل فيما يتعلق بأفعال مثل المبارزة وتزييف النقود
والشهادة الزور وتزوير الأوراق الرسمية ، وسرقة ممتلكات يتجاوز ثمنها
ثلثمائة جنيه ، واقتحام البيوت ، وبخاصة في الليل ، والافلاس والنصب
والاحتيال. واختطاف احدى الوريثات والاعتصاب والزواج بأكثر من واحدة ،
ان كان قد تم عن طريق التزوير ، والمعاشره الجنسية لاحدى الراهبات ،
أو اعتداء أحد الخدم على سيده جنسيا ، وبعض الأنواع الداعرة من
الزنا ، ومخالفة قوانين الرقابة على الصحف ، والمروق الديني والشذوذ
الجنسي ، وسفاح القربى ، وامتهان وظائف القسس عند البروتستانت •
وكانت أحكام الاعدام تنفذ بها علنا ، مع مراعاة الملازمة بين التوجع في
الموت ، وفداحة الجرم المرتكب • وسن برلمان باريس طقوسا فظيعة في
وحشيتها ، تتبع في حالة من يرتكب جريمة الاعتداء على شخص الملك •
وقد أعيد احياء هذه الطقوس في كل دقائقها البشعة عند الاقتصاص من
دامينس بطريقة الموت البطيء ١٧٥٧ ، لأنه رفع يده في وجه لويس الخامس
عشر ، وفضلا عن ذلك ، فقد حرم اقرباء الخائن من استعمال اسم العائلة ،
وتعرضوا للنفي ، ونسف بيوتهم وتحويلها الى أنقاض • وكانت عقوبة

(*) Malheur à la société renfermant les hommes qui en voient mourir d'autres sans frémir. "Pierre Pa toret".

معظم الجرائم الكبرى الشنق . أما جرائم العنف فتعاقب بتمزيق الجاني أربا بوساطة العجلة ، ويعاقب بالحرق مرتكب جريمة دس السم ، والشنود الجنسي والوحشية ، وبعض حالات المروق الديني . وفي بعض الأحيان ، كانت العقوبات تتخذ مظهرا تراكميا . ففي ١٧٨٧ ، عوقب قاتل أقرب الأقربين اليه بقطع يده ، وتمزيق جسمه بوساطة العجلة ، ثم ألقى به في النيران . وكانت هناك طقوس تخص عمليات التعذيب التي قد تجرى للتحضير لتنفيذ حكم الاعدام . وتتخذ شكل «الاستجواب التحضيري» (*) لانتزاع الاعتراف بالذنب . أما الاستجواب التمهيدي (**) ، فيرمى الى الحصول على أسماء شركاء الجريمة . وصنفت هذه الطرق الوحشية للاقناع أو التحريض في درجتين متفاوتتين في الشدة ، الدرجة العادية والدرجة فوق العادية (***) وطبقا لما تصوره ديدرو (الفيلسوف والأديب الفرنسي) فان عدد الحالات التي صدر فيها حكم الاعدام قد بلغت ثلثمائة حالة في نهاية النظام القديم . وبالمقارنة لا يعد هذا العدد كبيرا ، كما اعترف ديدرو نفسه ، بطريقة فجأة ، لأن هناك كثيرين لا قوا حتفهم اثر اصطدامهم بعربة أو تعرضهم لريح عاتية ، أو معاشرتهم لمومس جنسيا ، وكانت مصابة بمرض خبيث ، أو معالجتهم من قبل طبيب جاهل - وربما أيضا من قبل طبيب نطاسي . وحتى لو كان ذلك كذلك ، فان هذه الاحصائيات تمثل عددا بشير التقزز وقدرنا من الأوجاع يكفي لازعاج ضمائرنا ، وشعورنا بتأنيبها ، عندما نحاول تكوين فكرة نمطية عنها ، تضاف الى تاريخ الأفكار .

لقد كان النظام التشريعي الفرنسي قاسيا ، ولكنه لم يستخف بأرواح البشر . فمن الناحية النظرية ، لم يكن بالاستطاعة التصديق على حكم الاعدام الا اذا كان الدليل قاطعا . فاذا بلغ الدليل حد اليقين ، ولكنه لم يصل الى حد الثبوت الكامل ، فان من حق القاضي في هذه الحالة توقيع عقوبة أخف ، ووفقا لما ذكره سربيون (****) ، في تعقيبه الذي نشر ١٧٦٧ ، فان اليقين المعنوي لا يكفي في حالة القضايا الجنائية ، لأن « اليقين المادي » مطلوب « يعنى شهادة من رأوا الجريمة أثناء ارتكابها » (*****) . والأمثلة التي ذكرها عن نوع الأدلة المطلوبة واضحة الدلالة . بيد أنه من الناحية العملية ، فان الألفاظ الطنانة التي تحتم وجود الدليل القاطع ،

La question préalable. (x)

La question préparatoire. (xx)

extraordinaire, ordinaire. (xxx)

Serpillon. (xxxx)

Celle qui dépend des témoins qui ont vu commettre le crime. (xxxxx)

يجب أن ينظر إليها في سياق الوسائل المعيارية والاجرائية التي ابتكرت لتدمنه الوسائل البوليسيه ، التي تفتقر الى اللقاة ، وليس على أنها قد وضعت لحماية المتهم . فالاستجواب يتم سرا ، ولا يعرف المتهم أى شىء عن التهمة الى أن يواجه بالشهود . ولما كان هؤلاء الشهود قد حددوا اتجاههم بالفعل ، لذا فمن المتعذر على المتهم اقناعهم بالمخاطرة وتعريض أنفسهم للأحداى التي تصدر ضد من يغيرون شهادتهم . ويدور دفاع المحامين فى عالم بعيد عن الحقيقة من المراوغات التي يتعذر حيالها مواجهة الحجج المؤيدة للاتهام مواجهة صحيحة . ولقد قيل الكثير من الكلام الذى ارتكن الى سخرية فولتير الوحشية من شنرات الأدلة والقرائن التي تجمع لتكوين دليل صحيح . وربما كان هذا الكلام مجرد لغو غوغائى قانونى ، أكثر من كونه وصفا منصفا للطريقة التي يعمل بها القضاة ، وان كان يوضح أسلوب اتخاذ القرارات فى نهاية المطاف وكيفية خضوعه « لأمزجة » القضاة المتأثرذ بانحيازاتهم لطبقاتهم وأوساطهم الاجتماعية ، دون أن يرجع ذلك الى أى ابتعاد واع عن النزاهة .

وتتمتع البرلمانات والمجالس السيادية الأخرى ، التي لها حق البت النهائي والكلمة الأخيرة فى القضايا التي يترتب عليها صدور أحكام بالاعدام بقدر عظيم من الحصافة عند تقرير مدى الألم والخزى الذى يتعين أن يشعر به المجرم عند اعدامه . ورئى أن الشنق (وقطع الرأس بالمقصلة فى حالة النبلاء) هو أرحم السبل . أما التعساء الذين حكم باعدامهم باستعمال العجلة ، أو بإطلاق الرصاص عليهم فبالاستطاعة تجنبهم الشعور الكامل بالألم (خصوصا اذا أثبتوا وجود شركاء لهم) اعتمادا على حق القاضى فى تحديد الشروط الواجب اتخاذها عند تنفيذ الأحكام . وتثبت هذه الشروط فى ذيل الحكم (ولا يطلع عليها أحد غير منفذ الحكم) . فقد يصدر القضاة أوامر مسبقة بالشنق ، وتنفيذه بعد دقائق معدودة ، أو ربما ساعات ، أو يصدرون تعليمات بالضرب عندا محلدا من الضربات . واعتبرت هذه الامتيازات الجائرة جانبا خطيرا من واجبات القاضى . وبقدر ما كان معروفا فى علم الاجرام (الكريمنولوجى) فى القرن الثامن عشر ، فان المقصود من هذا الاجراء هو أن تكون العقوبة مناسبة للمجرم . ولم ينظر للتعذيب . . . المشروع على أنه اجراء تعسفى ، ناهيك باتصافه بالسادية . ولقد وضع المحامون قواعد لتنظيم طريقة تطبيق هذا الاجراء . فالاتهام يجب أن يكون متعلقا بجريمة عقوبتها هى الاعدام ، ويجب أن تكون الأسانيد كاملة ، حتى يكون الاعتراف المنتزع من المتهم اضافة الى الأدلة الثابتة ، وليس جزءا منها . ويجب أن يكون الالتجاء الى الاستجواب مؤيدا بقرار من دار القضاء العالى ، حتى لو كان المشتبه فيه لم يتقدم بأى التماس اليه . ويتعين أن يكون الاعتراف بالذنب ملزما (يعنى ثابتا ثبوتا مطلقا مستندا

الى قرائن قوية) (*) . فمثلا لا يعد اتهام شخص يحتضر كافيا ، واذا كان المشتبه فيه يتمتع بسمعة طيبة ، فان شهادة شخص واحد ضده لا تعد كافية . واذا كانت سمعته سيئة ، فان شهادة شخص واحد ضده تكفى . ولكن يلزم في هذه الحالة أن يكون هذا الشاهد الأوحد شاهدا عيانا فعليا ، ومن أصحاب السمعة الأخلاقية الطيبة (فمثلا لا تعد شهادة شخصين شاهدا المتهم وهو يغادر مسرح الجريمة ملوحا بسيف مخرج بالدماء دليلا كافيا ، ما لم توجد أدلة على حدوث تهديد سابق أو تشاجر) . ولا يعرض الفتية الأصغر من أربع عشرة سنة للتعذيب ، ويسمح لمن تجاوزوا سن السبعين ببعض التخفيف لصرامة التعذيب . ويجب حضور الأطباء عملية تنفيذ الحكم حتى يشهدوا اللحظة التي بدأت فيها المراسم البشعة تبتعد عن هدفها الحقيقي ، وأيضا لكي يقدموا ما يخفف النزيف . ولقد حددت مقادير الألم التي ستوقع على الوجه الآتي : في حالة الاستجواب العادي يوضع أربعة خوازيق بين ألواح الخشب الضاغطة على القدمين . وفي حالة الاستجواب غير العادي ، تضاف أربعة خوازيق أخرى . أما في حالة التعذيب المائي ، فتسكب ستة مكاييل من الماء خلال قمع لضمان تقاطر المياه بلا زيادة ولا نقصان . ودارت مشاورات حول الاجراءات الوقائية للحيلولة دون اصابة الضحية بالكساح المستديم ، ولكنها لم تسفر عن الاهتمام الى أنسب صياغة منظمة لها . وحددت كل صغيرة وكبيرة في مواصفات الأصفاة الحديدية ، ومدى احكام حبل المشنقة ، وارتفاع الحمار الخشبي الذي تثبت عليه ألواح التعذيب . ولكن المدهش هو صدور تعليمات من برلمان باريس ١٦٩٧ تنص على استعمال ماء دافئ في مياه التعذيب ، وأن يودع المتهم زنزانة دافئة نوعا .

وتبعاً لقواعد الاجراءات القانونية ، فان الظروف المخففة لا ينظر اليها، الا بعد أن يكون القرار بالحكم بالاعدام قد صدر بالفعل . ومن الميسور اصدار عفو عن الجاني عندما يكون صغير السن أو مسننا ، أو قدمت شهادة باصابته بالحبل ، أو اذا ادعى أنه أقدم على جريمته دفاعا عن النفس ، أو تحت ضغط شديد . ويصدر في هذه الحالة قرار بالعفو (**) معتمد من دار القضاء العالي التي صدقت على الحكم الذي أصدرته المحكمة السيادية . ومن المستطاع اصدار عفو عام عن ارتكبو الجريمة تحت تأثير الهوى ، وان وجب صدور الأمر في هذه الحالة من وزارة العدل (***) باعتبار هذا الاجراء يحتاج الى تصديق أعلى سلطة لأنه لا يتبع العدالة والانصاف بقدر اعتماده على التسامح . وعند الحكم في الجرائم الخطيرة أو جرائم العنف، كانت

Des preuves presque complètes et de violentes présomptions. (x)

Lettre de grace.

(**)

Grande Chancellerie.

(***)

المحاكم تنظر مكرهة في الإلتماسات الخاصة بتخفيف الأحكام تفرعا بعجز المتهم ، سواء أكان فتى أو صغير السن ، أو لنقص عقله . ولقد سمحت إحدى المحاكم الاقطاعية في النسون ١٧١٨ لفتى في الثامنة عشرة بالافلات من الشنق بعد ارتكابه جريمة قتل نظرا « لصغر سنه الى حد كبير ، ولأنه كان مخمورا عند ارتكابه الجريمة » ، واستبدل حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة . وأدانت محكمة الشاتلييه (محكمة القانون) في باريس ١٧٧٨ اثنين ممن تجاوزوا سن الثمانين ، وحكمت بتمزيق أبدانهم تحت العجلة لارتكابهما جريمة القتل . وأدان البرلمان في آخر أيامه صبيين ، أحدهما في الخامسة عشرة ، والثاني في السادسة عشرة ، ووقع عليهما نفس العقوبة ، وأمر بحرق فتاة في السادسة عشرة لأنها دسست السم لأمها ، وكانت حالات الحبل واللامسؤولية بالنسبة للشباب تطبق على نطاق ضيق بدءا بسن السابعة ، ويترك الحكم على من تقع أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة لحصافة المحكمة التي لم تستبعد الحكم مدى الحياة في حالة ارتكاب جرائم العنف . أما فيما يتعلق بالجنون ، فلم يحدث قبل العقد الأخير من اندلاع الثورة الفرنسية ، أن نظر الى هذه الحالة بمنظار الجذ ، أو اعترف بأن الجنون مسألة طبية . فقلما راعت وزارة العدل الحالة العقلية لمن أدانتهم من الأشخاص ، اللهم الا اذا واجهتها حالة مثل حالة بيير شارنتون الذي قتل عشيقته ، لأنها ألتهته عن أداء واجباته الدينية : « فضل التضحية بحياتها على فقدان روحه أمام الله » . وفي ٢١٤ حالة من حالات اشعال الحرائق التي نظرت أمام برلمان باريس بين ١٧٥٠ و ١٧٨٩ ، طلبت بيانات عن مدى تمتع المتهم بكامل قواه العقلية(*) في ١٧ حالة فقط . نعم لقد أفلت خمسة من الجناة في هذه الحالات من الموت بفضل التقرير الطبي ، وسجنوا مدى الحياة(**) ولم يلتفت الى دفع الجنون في حالات ارتكاب جريمة الخيانة أو قتل الأقربين ، واعتبرت ضرورة الردع ذات قيمة أعظم من باقى الاعتبارات . .

ولعل أولوية مشكلة السلام العام هي أفضل مفتاح لتفسير سياسة الحكم بالادانة أو العفو في مختلف البرلمانات ، التي قد يتصرف قضاتها باندفاع هستيرى أو يتبعون سياسة ملاينة ربما أضعفت سلطان الأحكام الملكية . فقد تجر جريمة ارتكابهها خادم أو كمين ينصب في أحد الطرق العليا ، أو عملية « سحر أسود » تجر في ذيلها أوخم العواقب للأخلاق ، الى حلوث جرائم تخريب واحراق . غير أنه رغم صرامة الأحكام الملكية ، فاننا نرى من بين أربع وأربعين حالة مبارزة عرضت على برلمان باريس

Information de démence.

(*)

(**) في سجن Salperiere أو Bicêtre

(١٧٠٠ - ١٧٢٥) أطلق سراح اثني عشر ، وأفرج عن ٢٦ لعدم توافر الأدلة ، وحكم بالادانة على ستة فقط ، ألزم أحدهم بدفع المصاريف، وشنق شبيهه للثاني ، ونفى الثالث لمدة تسع سنوات ، وسجن آخر تسع سنوات . ولم ينفذ حكم الاعدام في أحد منهم . ولم تعتبر حالات الغش والتدليس - عمليا - جرائم كبرى ، بالرغم من اعتبارها كذلك بعد ١٦٧٣ . وكان الكتاب والناشرون الذين يتفادون الرقابة ، يخشون من فقدان حرياتهم ، ولكن نادرا ما خشوا تعرض أرواحهم لأي خطر (بالرغم من ظهور تعليمات بعد الاجراءات المرعبة التي اتخذت بعد محاولة دامينس بتوقيع عقوبة الاعدام لطبع أو بيع كتب ضد الدين وسلام المولة) . وفي حالات القتل ، كانت شهادات العفو تصدر عادة في حالات مثل اعدام أحد الملاك على التصدي للصوص الليل أو حالات دفاع المرأة عن عرضها ، أو اذا أرغم شاب على المبارزة ، أو وجهت اهانة لأحد الجنود ، أو اذا قتل زوج زوجته اثر ضبطها مضاجعة عشيقها في الفراش (وان وجب أن تقع مثل هذه الأحداث في بيت الأسرة ، وليس في أي مكان آخر) غير أنه حتى اذا تبين أن شهادة العفو قد تم اعدادها ، فان هذا لا يؤثر على صدور قرار الحكم بالاعدام ، لأنه من غير المباح لأحد المساس بسلامة المجتمع ، لأن فرنسا مملكة (من المحظور فيها اطلاقا ارتكاب أي عمل من أعمال العنف) .

وتركزت حجج المحامين على وجوب الحفاظ على النظام . وكانت لديهم أيضا حجة ثانوية ، أو كانت لديهم - بالأحرى - صورة متدرجة من الحجة الأولى أو امتداد لها . وتحدث أحدهم(*) عن الحاجة لتطهير المجتمع ، وانتقامه من أية فضائح ترتكب في حقه ، أو أحداث مدمرة تلحق به . وكتب قانوني آخر ١٧٧٣ عن «الانتقام» المحظور على البشر ، وان كان من حق الملك ومسئوليته بحكم التفويض الالهي له بالسيادة . وبعد ذلك بأربع سنوات ، تحدث قانوني آخر عن ضرورة توقيع العقوبة ، والانتقام لاية جريمة ، اذا رضيت الكافة عن فرضها على المجرم . ورئي أنه ليس كافيا أن يستبصر القاضي بما يمليه عقله وفكره عند اجراء عملية احتساب الرادع . فلا بد أن يشعر أيضا بأنه يعمل في خدمة الثار الالهي ، ويناضل من أجل ما لحق بالنظام الاجتماعي من انتهاك . فلا يكفي أن يظهر الآثم بمظهر الشخص المرعب ، وأن يتخذ عبرة للمعتدين ، ولكن يجب أيضا أن يرى وهو يصلح خطاه في مشهد علني اثباتا لجلال القانون وللحاكم الذي أهانه . وهناك جملة لمحة قالها أحد المشرعين في معرض دفاعه عن علنية اجراءات المحاكمة وتنفيذ الأحكام : « لا بد للمتهمين أن يدينوا

أنفسهم ، . و «الاستجواب التحضيري» ، لا يعنى نظريا التعذيب لاثبات الذنب وانتزاع الاعتراف به . فالمفروض أن هذا الاثبات قد حدث بالفعل عند التيقن معنويا من الجرم . والأصح هو اعتبار الغرض من هذا الاستجواب انتزاع اعتراف شكلى تتطلبه عملية التعويض عن الخسارة . ولقد شجع أحد الأشخاص المدانين قبل تنفيذ حكم الاعدام عليه بإعلان شهادة الموت(*) . فهذه الشهادة شئ والاعترافات المدونة عند الاستجواب شئ آخر . ولا تعد هذه الشهادة وصية أخيرة ، أو شهادة بالمعنى المألوف . فبعد توقيع الموت المدنى(**) عليه فإنه ، لم يعد قادرا على التصرف فيما يملك . والأصح هو اعتبار هذه الشهادة مجرد اعتراف شكلى بالذنب تبرئة للذمة (***) . وقد يتخذ هذا الاعتراف الشكل الآتى : سيلتقى قاضى المحكمة برفقة أحد الكتبة والجلاد بالسجين قبل نقله الى ساحة الاعدام ، أو فى إحدى المراحل الأخرى ، ثم يستجوبونه بعد أن يقسم اليمين . وإذا تطوع بالاعتراف يسجل اعترافه رسميا ، ويختتم هذا الاعتراف بصيغة يعترف فيها المدان بعدالة الحكم ، ويطلب المغفرة من الله . وإذا رفض اعطاء مثل هذه الشهادة ، تتاح له فرصة أخرى للاعتراف ، عندما يصل الى المشنقة ، ويصرح للكتاب أن يسجل الشهادة آنئذ فى غير حضور القاضى . وغالبا ما يتضمن الحكم بالاعدام نصح المجرم بالاعتذار الكامل (****) ، عندما يكون فى طريقه الى تنفيذ الاعدام ، وقبل أن يصل الى بوابات الكاتدرائية ، أو إحدى الكنائس الرئيسية فى المدن ، وهو بين السجناء من ركاب عربة النقل التى تقلهم الى مكان تنفيذ الاعدام ، وظهره ناحية الطريق العام ، ولا يزيد ما يرتديه عن قميص قصير ، والحبل يحيط برقبتة ، وهو يمسك بشمعة فى يده ، ويحمل لافتة مدونا عليها طبيعة الجريمة التى اقترفها ، باستطاعته أن يركع ويطلب الصفح من « الله والملك والعدالة » . وربما اتبع نفس هذا الاجراء فى حالة أية جريمة من جرائم العنف ، حتى اذا لم تستحق حكم الاعدام . وأحيانا ، قد تضاف الى هذه المراسم اجراءات مظهرية أبقى تدفع تكاليفها المقاطعة التى ينتمى اليها المجرم ، كاقامة قداس على روح القتيل ، أو وضع لافتة تخلد ذكرى الضحية ، ويدون عليها حكم المحكمة .

ويطلب المدان فى التماس العفو الغفران من الله بآدى ذى بلاء ، وهكذا لا يكون قد اكتفى بالتكفير عن ذنبه علنا ، ولكنه يكمل بهذا الاجراء عملية المصالحة بينه وبين خالقه ، التى بدأها - افتراضا - عندما اعترف

Testament de mort. il faut encore que le accusés se jugent (x) condamnent.

eux-mêmes en quelque sorté — la mort civile.

Par acquit de conscience.

Amende honorable.

(x x)

(x x x)

(x x x x)

للقس في زنانيته . واذا أصر على انكار ذنبه ، ورفض كتابة التماس العفو ، كان على المعترف له الذي يصحبه في العربة أن يشجعه على ذلك . ولقد أذاع المصلحون الرد الشجاع الذي أجاب به أحد الخبازين (١٧٧٠) بعد اتهامه خطأ بقتل أمه السكير : « هل أنت على استعداد أمام الله لتحمل وزر الاكثوبة التي ترغب منى الاعتراف بها على باب هذه الكنيسة ؟ » وبطبيعة الحال ، لم يكن الدين مرتبطا فقط بالتماسات العفو ، ولكنه كان معنيا أيضا بعملية تنفيذ الاعدام بكل دقائقها ، والتي ينظر اليها على أنها صورة مسبقة مريضة للموت مصير كل حي ، والذي سنلقاه جميعا بلا استثناء ، وعلى قدم المساواة عندما تحين المنيّة . انها صورة تذكرنا بنهاية كل آثم ، وبضرورة الاعتراف ، ورد الحق لأصحابه ، والتكفير عن الذنب ، والأمل والاطمئنان لغفران من يندم ندما حقيقيا . ومن المنظور الديني ، ليست الشخصية المحورية في هذه الدراما هي شخصية الجلاد ، ولكنها شخصية كاهن الاعتراف . وفي فرنسا ، جرت العادة على عدم إقامة صلاة مقدسة على روح المدان ، ويكتفى باقامتها لمن يعرب عن الندم . ويقتصر دور الكاهن على الناحية التعليمية والحث على التقبل الروحي لمغزى العشاء الرباني ويوقف العفو اذا كانت أسماء الشركاء في الذنب لم يكن لها دور ملح ، وان كان القسس الكابوشين(*) قد أخطأوا في حق معنى الغفران في هذه الناحية . وكان كاهن الاعتراف (وفي حالة دامينس وكالاس خصص اثنان لهذه الغاية ، وان كانت العادة قد جرت على تخصيص كاهن واحد فقط) يصحب الضحية الى المشنقة ، ويلزمه حتى النهاية ، ويقدم له الصليب لتقبيله ، عندما تشتد وطأة التعذيب . وقد شددت كتب الاعتراف على الاشادة بامتداد رحمة الله الى ما لا نهاية . فبمقدور أي ندم مخلص حتى عند لفظ الأنفاس الأخيرة أن يحقق المصالحة لأشد الآثمين غواية وافسادا . على أن بعض رجال الدين قد دهشوا لهذا الرأي ، ورأوا أنه من غير المعقول عمليا ، عندما تشتد مرارة الأوجاع التي تحقيق بالمتهم عند تنفيذ العقوبة ، أن يتجه انسان بعقله نحو خالقه ، ومن ثم انضموا الى المطالبين بانهاء استعمال « العجلة » في تنفيذ أحكام الاعدام ، والخطب المشتعل . وكثيرا ما يطالب رجال الدين بالمواءمة بين الممارسة العملية ، والمنطق الصارم لنظرة العقيدة المسيحية الى الغفران . فمهما كانت جريمة الآثم التي اقترفها التائب مقززة ، فيجب أن لا تقتصر على منحه التسامح ، وانما علينا أن نباركه بشعائر (***) كتلك التي نقيمها للمحتضرين . ولقد

Sainte - Omer.

(*)

Capuchine (**) ، وتعني اصحاب القلنسوات وكانت احدى طوائف الفرنسيسكان

١٥٢٨ ترتديها .

Viaticum.

(***)

بينت المنشورات الأسقفية الخاصة بالطقوس في القرن الثامن عشر لماذا كانوا يرفضون إقامة قداسات في مثل هذه الحالات ؟ ويرجع ذلك الى القاعدة القانونية التي تنص على تنفيذ حكم الاعدام في نفس اليوم الذي صدر فيه الحكم ، حتى يحدث أثره الرادع « حتى يتسنى لجسد يسوع الطاهر (*) الاتحاد بجسد سرعان ما سيتعرض لأقصى درجات التحقير » . واتصفت حجة عدم إقامة الطقوس المقدسة بوهنها ، ومن ثم اختفت بعد صدور منشور ١٧٨٨ . فقد حدد حينذاك التأخير لمدة شهر للسماح بالوفت الكافي لاعادة نظر الملك الى القضية ، واحتمال اصدار أمر بالعفو . غير أن القاعدة ظلت بلا تغيير . ورأينا ثلاثة دفاتر تحتوى على قائمة مقدمة للجهة المختصة للاكليروس ١٧٩٩ تتضمن شكايات من تلك البشاعة التي تتعارض والمسيحية .

ولم يسع المجتمع الديوى ، سواء مثله نقاد الكنيسة ، أو نقاد قانون العقوبات لحرمان الاكليروس من حقهم السوداوى لاحتكار اللحظات الأخيرة من حياة المجرم وهو يتأهب للشنق مع استثناء مفكر واحد(**) ، طالب القسس ، بناء على أسباب دينية فحسب بالتغيب عن مثل هذه المشاهد الفظة ، وقال ان المتفرجين يصبون جام لعناتهم على المجرمين، وكانهم شركاء للقضاة . بينما يصب المجرم المحتضر لعناته على الله لأنه تخلى عنه (!) وفى واقع الأمر ، فقد كان هناك رد فعل أكثر شيوعا تمثل فى الاعجاب بكهنة الاعتراف الدينى الذين يضطلعون بمثل هذه الواجبات المقيتة . فمثلا يروى أحد الأدباء (***) حكاية عن كاهن يرافق شخصية كالحة نصف مائتة من آثار تعذيب الاستجواب التحضيرى الى المشنقة : لقد رأيت يحتضن الشخصية التعسة بعد أن التهمته الحمى اثر اصابته بالعدوى التى نقلتها اليه الحشرات التى تحفل بها زنزانته . وقلت لنفسى : « باركك الله أيها الدين . فهذا دليل على انتصارك ! » وفى بعض المدن ، توطد هذا الدين بحضور أحد المئتمنين الى جماعة اخوان المتوجعين (****) وجماعات التائسن (*****) الذين التزموا بحضور الحنازات ومراسم دفن الموتى . وأقام أسقف ليموج مزادا فيما بين الحاضرين ليلة تنفيذ حكم الاعدام للتسابق على الشرف الجهمي لحمع مخلفات الجشة بعد الشنق أو بعد تمزيقها اربا بالعجلة ، ولفها فى الكفن . وفى اليوم التالى لهذه الليلة الليلاء ، كانوا يتقدمون حاملين للشموع الى موقع تنفيذ الاعدام . وهم يرتدون ثيابهم القرمزية اللون ،

“le corps adorable de Jesus Christ”.

Boucher d'Argis.

Restif de la Bretonne.

Pénitents de la Croix.

Conférences des Agonisant.

(*)

(**)

(***)

(****)

(*****)

وقلنسواتهم وزناهم الأسود . ويحملون بأيديهم مسابيح طويلة من الحبات السوداء المحاطة بتاج من الأشواك . ويثولي سسند السسجين اثنان من الشماسين يرتديان أوشحتهما السوداء، ثم ينشدون أحد الأناشيد الدينية ويرتلون أدعية أخرى ليسوع والقديسين . وعندما ينتهى كل شيء ، يحملون الجثة المكفنة الى احدى الكنائس(*) . وهناك يهجدون طوال الليل ، ثم يدفنون الجثة فى مقبرة الكنيسة . وهى مقبرة مخصصة للمجرمين وحدهم ، منذ عهد الطاعون الكبير (١٦٣٢) . وتعد هذه الاجراءات الكنسية شهادة على ما يأمله المسيحي ، وعلى التضامن بين جميع المؤمنين فى الدراما الكبيرة للخطيئة والخلص . ولكي يكتمل العرض ، قد يقوم أحد الاخوان الصالحين باصدار تعليمات الى خلفائه بدفنه بجوار المنبوذين ، الذين رافقهم فى آخر رحلات عذابهم . . . وهناك كتاب شهير صدر فى عهد التنوير ضد بشاعات قانون العقوبات وافتقاره الى المنطق(**) (١٧٦٤) . وأحدث تأثيرا عارما فى فرنسا بعد ترجمته الى الفرنسية ١٧٦٦ ، كما أحدثت مقالات سيرفان وفولتير اللذين أذاعا معتقدات كتاب بيكاريا على نطاق واسع آثارا مماثلة ، وحلت نفس الأثر بعد انتشار الكتابات الرائقة للمحلفين الذين شجبوا قانون العقوبات . بيد أن المصلح الايطالى والمحامين الفرنسيين قد قبلوا نفس المبدأ النفعى الأساسى . فقد اعتقد بيكاريا أن الحجة المستندة الى فكرة الردع تفى بالغرض ، وقبل الموت كمصير مناسب لمن يهدرون الأمن الداخلى أو الخارجى للدولة . ولكنه رأى فيما يتعلق بالجرائم الأخرى، أن أشد الروادع فاعلية هو العبودية الدائمة . فالاعدام القاسى يثير الشعور بالتعاطف على الضحية ، ثم ينسى كل شيء بعد ذلك . أما منظر المستعبد المقيد بالأصفاد ، فيمثل درسا حافلا بالعبر . والواقع أن بيكاريا قد سائر مبادئ المذهب النفعى الى أبعد الحدود المنطقية ، فلم يتضمن مذهبه أى اعتراف بقيمة «الاقرار بالذنب» (***) ، وكل ما يقال عن غاية الانتقام أو التكفير . اذ اعتقد أن أهم ما يجب أن يراعى هو ما يحدثه المجرم من دمار فى المجتمع . ولم يكثر بما يصيب الشخص المتضرر أو يلحق كرامة المجرم من اساءة ، أو ما قد يحط من جلال الله . وعندما تجاهل بيكاريا هذه الاعتبارات ، فانه يكون قد تصور المجتمع - ضمنا - قائما على المساواة ، ودينويا فى طابعه ، وتجاهل المظاهر الغيبية القائمة التى قد تتراعى لنا عندما نتخيل ما يحدث فى مراسم الأعدام الرسمية . ولقد أثبت جان جاك روسو كيف يستطاع نقل هذه المظاهر الغيبية من دساتير البرلمانات الى المدينة الجديدة (التى كان يحلم بها) التى تسودها المساواة،

(*) كنيسة St Cessacteur

(**) كتاب Beccaria Trattato dei delitti e delle Pene. تأليف

Ameinde honorable.

(***)

والممثلة للإرادة العامة ، وحيث لا تستمد قوة الحياة والموت من أى تفويض الهى ، وإنما يتم التفويض من كل من ينعم بمميزات النظام الاجتماعى . « وبذلك لا أقع ضحية لأى سفاح، ولكنى سأموت راضيا عندما يحكم القضاء » . وفوق كل ذلك ، فإن السلوك الإجرامى يحمل فى ثناياه وصمة التمرد والخيانة . (وهناك امتداد أكثر اتساما بالروح الشريرة لهذه الفكرة سيجىء ذكره فى الفصل الذى يتحدث فيه روسو عن الدين المدنى) . ويرفض بيكاريا كل هذه الخواطر . فلا أحد قد تعاقد على التنازل للآخرين عن حق التسلط على روحه . فالموت عبارة عن شر يضاف الى باقى الشرور ، ولربما حقق اعدام شخص ما نفعا ضروريا ، ولكنه ليس مستمدا من أى نوع من الرضاء والقبول . انه اجراء من اجراءات الحرب . ولا يدافع بيكاريا فى مثل هذا الرأى عن المبدأ المسيحى الذى يؤمن بقدسية الحياة الانسانية . انه يطالب من يدعون الى ازهاق الحياة أن لا يخدعوا أنفسهم ، ويتناسون مغبة فعلتهم . وهناك اختبار بسيط بالاستطاعة اجراؤه لتقدير مدى الاخلاص فى هذا الشأن : « هل تقبل الاعتراف بالجلاد العام كمواطن خير يشارك فى الصالح العام ؟ أم أنك تقشعر من مجرد وجوده » ! .

وقبل المحامون الفرنسيون بالفعل مبادئ بيكاريا الشهيرة فى العقوبة التى تنص على وجوب اتصافها أولا - بالعلنية . ثانيا - تنفيذ بأقل مظهرات ممكنة . ثالثا - أن تنفذ فورا . رابعا - أن يكون هناك تناسب بينها وبين الجريمة . خامسا - أن تتحدد بمعرفة القانون . ويرجع الاختلاف الى البون الشاسع فى تعريف ما تعنيه الكلمات الآتية : « ضرورة » و « أدنى » « وتناسب » و « تحديد » . وكان مونتسكيو قد امتدح بالفعل اتباع شرط ما يقضى بأن لا يوقع حكم الاعدام فى المسائل التى تمس الدين والأخلاق (فى البلدان الميسورة الحال ، حيث لا تتفاوت كثيرا ثروات الأفراد) . حتى لا يحدث أى اعتداء على الممتلكات ، واتبع روسو معيارا مختلفا : من الخطأ الحكم باعدام شخص ما اذا أمكن ابقاؤه على قيد الحياة ودون تعريض أحد للخطر . ولو طبقت هذه الشروط لما كان من المستبعد أن تحدث تحولا فى تشريعات «العالم القديم» . وشجب فولتير الاجراءات القاسية بلا مبرر ، وسعى لإعادة النظر فى جميع أحكام الاعدام بحيث يترك أمرها لحكمة الحاكم نفسه . وفى ١٧٦٢ ، بدأ حملته ضد مظالم الاجراءات الجنائية الفرنسية ، وتحقق أول انتصاراته فى مارس ١٧٦٥ ، عندما نجح فى رد اعتبار ذكرى كالاس (*) . . .

(*) Jean Calas (١٦٩٨ - ١٧٦٥) ، اتهم زورا وبهتانا بأنه تسبب فى مصرع ابنه لاعتناقه البروتستانتية . وكان باللية اعدامه ١٧٦٢ . لولا تدخل فولتير لدى مجلس مدينة تولوز ، واقتناعهم برأيه .

« الحد الأدنى المناسب للحال » لقد كان من السهل الاصرار على القول بوجود حالات تستوجب اصدار أحكام بالاعدام ، ولكن ما أصعب الدفاع عن بعض الاجراءات الفظة كالتمزيق بوساطة العجلة أو الاحراق • وازدادت الاحتجاجات الحاحا بفضل الدعوة الى اتباع العقل (*) في الأدب ، الذي أمد الاقنانيين في مباحثهم باكلشييات أكثروا من ترديدتها مثل الاحتجاج على السلوك الوحشي ، ففي ١٧٧٠ ، كان فولتير على استعداد للبقاء على الوسائل الموجهة في الاعدام ، عندما تتبع في حالات مثل جنائية قتل الأقربين والخيانة واشعال الحرائق • وبعد سبع سنوات ، اكتفى بالمطالبة بالاعدام • وقال بوشيه أرجيز (١٧٨١) ساخرا مما يقال عن وجوب مراعاة التدرج في الحالات التي تستحق التعذيب عند توقيع عقوبة الاعدام • لا شيء يمكن أن يضاف الى عقوبة الاعدام • وقارن بريسو وسائل تنفيذ الاعدام المتحضرة بالوسائل التي كانت تتبع في مصر قديما عندما كان المجرم يخضع باستعمال البخور ، والعقوبة الحديثة بفرمه باستعمال العجلة الوحشية ، أي الاختراع الوافد من شمال أوروبا ، ونقل بطريق مصطنع الى الجنوب الأكثر ارتقاء وتحضرا • وأعتقد أن علينا أن نراعى بقدر الامكان تيسير ميتة الشخص المدان ، وان وجب علينا أيضا جعل الاعدام يبدو أمرا مغرعا في نظر المشاهدين (**) تمشيا مع ما قاله «مارا» بعد تبنيه نفس المبدأ • وبدأت هذه الدعاية الانسانية الطابع تحدث أثرها • فقبل الثورة ، ألغى التعذيب ، وألغى تبعا لذلك « الاستجواب التحضيري » (١٧٨١) والاستجواب الاستهلاكي ١٧٨٨ (ومما يدلنا على طابع العصر تخلي القضاة عن الاستجواب التحضيري ، قبل أن يرخص به في منشور ١٧٨١ ، ولكنهم لم يتنازلوا عنه تماما بعد ذلك) •

ومن بين الوسائل العملية لتطبيق المبدأ النفعي عند بيكاريا النظر الى كل جريمة كبرى على حدة - يعنى الى رذائلها ان صح القول - لتقرير هل يعد الحكم بالاعدام رادعا فعلا حقا • واتبع ميرليه هذا الاتجاه في نظريته الى حالات الفرار من الجيش • وميرليه ضابط محترف محنك • وقد ذكر ذلك في مبحث نشر ١٧٧٠ ، وانتهاز فرصة ازدياد اهتمام عامة الناس بالموضوع بعد ظهور أوبرا لسيدان (***) ، لاقت نجاحا ١٧٦٩ ، وقام هرمييه بتأليف دراما نثرية تدور حول الموضوع نفسه ووصف ميرليه كيف يفرض الجيش عقوباته : فعندما يلجأ الهاربون الى العدو يشنقون •

Sensibilité.

(*)

Rendez affreux l'appareil du supplice mais que la mort soit (**) douce.

Monsigny Sedaine (*** مؤلف نص أوبرا كوميك فرنسية ، وضع موسيقاما

Le Deserteur.

(١٧٦٩) واسمها

أما الهاربون العاديون فيقتلون رميا بالرصاص بوساطة فصيلة الإعدام المؤلفة من أقرانهم الجنود . بيد أن الجريمة في الحاليتين واحدة . ولقد تظلم بعض الهاربين من الوسيلة التي اتبعت في تجنيدهم كالتعرض للضغوط ، وتقديم الرشاوى لهم حتى يوقعوا على طلبات التطوع ، وكان أغلبهم من الفلاحين الذين لا يؤمنون بشرف الانضمام لصفوف المقاتلين . وكان صغار الجنود هم الذين يفرون دائما ، أى من لم يعرفوا طرق التظلم أو يتمرسوا على الضبط والربط ، والذين ربما حققوا نفعا أكبر إذا أعتقوا وتركوا أحرارا . ويقترح ميرليه عدم إعفاء الفارين من الخدمة بعد انتهاء عقوبتهم ، وأن يرسلوا الى بعض الاصلاحيات بعد اطلاق سراحهم ، حيث يقسمون الولاء مرة أخرى ، لبدء عهد جديد في الخدمة العسكرية . وبعد ذلك بست سنوات ، طرح الأب جوير (*) مبرراته لما يعود به الصفح من نفع اجتماعي في معرض تأييده للافراج عن فتيات متهومات بؤاد أطفالهن ، وأيد استحقاق هؤلاء الفتيات للموت ، ولكن القضاء عليهن يعنى تدمير حياة أشخاص مكتملات النمو تكبد المجتمع نفقات رعايتهن ونضجهن ، وبمقدورهن خدمة هذا المجتمع للتكفير عن جريمة قتلهن أطفال لم يكتمل نضجهم . وقال جوير : ان ما يتماثل مع هذه الحالة في التبريد والفظاظة الحكم باعدام المهربين ، لأن حياة الرجال أثمن من حياة أفعالهم النكراء . غير أن المبدأ الرائع للنفعية له مخاطره ، فقد لا يحقق دوما نتائج انسانية ، فكما قال مؤلف سويسرى في كتابه عن شريعة السعادة : « ان ما تلحقه الأمراض الحبيثة من ضرر للدولة في سنة واحدة يفوق الضرر الذى يلحقها من وراء الجرائم الجسيمة التي تقع في قرن بأكمله » ، ولما كان ذلك كذلك ، فقد نصح بإرسال الشخصيات اللاأخلاقية التي تتسبب في تفشى هذه الأمراض الى المشنقة .

ومن بين الوسائل الأخرى لتطبيق مبادئ المذهب النفعي ، والربط بينها وبين التأثير المتصاعد لأتباع مسلك عقلاني فحص تأثير طقوس الشنق على المجتمع بصفة عامة . فلربما كان هناك نفر من الناس فسدت عقولهم ، وانجذبوا الى الاهتمام غير السليم بالعنف بعد تأثرهم بالوسائل القمعية الوحشية التي يتبعها المجتمع ذاته . ان هذا هو رأى لاندرودمين أوبيك . فلقد حامت زوبعة شريرة من الغرائز الوحشية حول الجلادين العموميين ، مست أحوالهم الخاصة وأحوال أسرهم . فالطلبة الذين يدرسون علم التشريح قد تجردوا من المشاعر الانسانية من أثر تمعنهم في التحديق في جثث المجرمين ، وما يظهر عليها من امارات الشر والذعر التي تظنى على مظهر السكينة الذي يصحب الموت . وتزداد الفظاظة عند السواد الأعظم

عن الناس من تأثير مشاهدة المقصلة وهي تقصف الرقاب ، وسماع
صوتها • ويقول لاندرو ان هذا يفسر سر ما تلقاه شرطتنا من عون من
عامة الناس • ولو أننا جعلنا القانون الجنائي واضحا وبسطنا صياغته ،
وراعينا الاعتدال في عقوباته ، لما كان من المستبعد تعاون الكافة معنا في
فرض احترامه • وعندما بدأت أول مذابح الثورة ، تناول أحد كتاب
النشرات القانونية فكرة لاندرو بالتعقيب وقال : « لقد رأينا الجماهير
وهي تسبح في بحار من الدماء البشرية ، فمن أين اكتسبت فكرة هذا
الحق المزعوم بالذبح ، اللهم الا اذا كان هذا الحق هو نفسه الذي ينسب
للمجتمع » ؟

لقد كان بيرو مؤلف هذه النشرات يرمى بأرائه الى الالفاء التام
لعقوبة الاعداء ، لاعتقاده أنه من الخطأ بناء على أية ذريعة قتل أحد رفاق
الانتماء الى الجنس البشرى • ولم تتوافر لاي كاتب قبله الشجاعة التي
تدفعه الى مثل هذا الحد من التطرف المنطقي • وقد عبر عن هذا المعنى
من قبيل الزهو ، ولعله أصاب في رأيه اذا أمكنا استثناء لاندرو أو
« مين أوبيك » (*) ، واعتقد حتى أبعد أصحاب النظريات الانسانية
تطرفا ان هناك جرائم شائعة للغاية تثبت عدم انتماء مقترفيها الى الآدميين •
فهم وجوش « ماتت ضمائرهم تماما » ، وبلاستطاعة الخلاص منهم ، واتبعت
الفكرة الأساسية للإصلاح المنهج ذاته على وجه التقريب ، الذي نهجه
بيكاريا ، يعنى اقرار استمرار اتباع نظام الحكم بالاعداء ، وان وجب
عدم تنفيذه الا في الحالات النادرة ، ويمكن الاستعاضة عنه بالسجن مدى
الحياة ، وخطرت ببال بعض الفرنسيين قبل أن ينشر بيكاريا مؤلفه فكرة
انقاذ الأفيال من المقصلة ، ودفعهم للعمل المنتج الذي يعود بالنفع
على الاقتصاد • ودافع بعض الفرنسيين (**) عن فكرة انشاء ثكنات للمحكوم
عليهم بالأشغال الشاقة ، والأشرار الذين أعفوا من حكم الاعداء ، والذين
يحملون وصمات في وجوههم تحول دون عودتهم للحياة الطبيعية في
المجتمع ، فالأصلح هو أن نساعدهم على استثمار جهدهم في اصلاح
الطرق أو العمل في المناجم • ووضع بيكاريا بعض اللمسات على هذا
المشروع الاقتصادي لكي يتخذ مظهرا محترما ، وتحمس له ولآثاره
الانسانية ، وحسب أثره الرادع على طريقة المحامين • وتبنى فولتير
الفكرة بحماسة ، واستند الى جميع المبررات ، وبخاصة الاقتصادية :

Maine-au-Picq.

(*)

(**) من امثال Lacretelle, Servan Faiguel de Villeneuve.

« ان الرجل المشنوق لن يصلح لآى شىء » (*) . وابتداء من ١٧٧٧ ، عند فولتير الى المطالبة بانهاء الحكم باعدام القتلة . فبالقدور الانتفاع بجهودهم ، كما أثبتت انجلترا عندما أرسلت المحكوم عليهم بالشنق الى المستعمرات ، وكما فعلت روسيا عندما أرسلت مجرميها الى سيبيريا . أما « ديئرو » ، وهو من المساندين الواقعيين للحكم بالاعدام ، فقد اقترح اعفاء الجميع من هذا الحكم ، والاستعانة بهم فى المشروعات العامة ، باستثناء السفاحين الميثوس من اصلاحيهم « لأن قتل شخص لا يعد مبررا لقتل شخص آخر » وأجرى حسابا دقيقا لقيمة الكائن البشرى فى تلك الأيام ، التى اشتهرت بسمو أخلاقها : « اننا عندما نحكم بالاعدام على انسان فى الثلاثين من عمره ، فاننا لا نتمعن فيما أقدمنا على فعله . فاذا أجرينا حسابا لما حدث سيتضح لنا أن هذا الرجل هو الوحيد الذى سيبقى على قيد الحياة من بين عشرين شخصا ، ان شرائعنا الجنائية لا تعرف أى شىء عن قيمة حياة أبناء الثلاثين من عمرهم » ، وقبل المصلحون الفرنسيون - بوجه عام - فكرة الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة ، ومن ثم رأينا نفرا منهم (**) يحثون على اتباع هذا الرأى (وأضاف « موهو » فكرة شريرة) ، هى اجراء التجارب الجراحية على المجرمين الذين قد يفضلون تشريحهم - وهم أحياء - مع احتمال الافراج عنهم ، على السجن مدى الحياة ، وأوصى « لاندرو دى مين أوبيك » بالسجن بدلا من الاعدام ، واشترط ، بدافع غلبة مشاعر الشفقة المسيحية ، المعاملة الرحيمة والافراج عند بلوغ سن السبعين . ولاحظ بسذاجة ان هؤلاء الشيوخ البطركة عندما يخرجون من السجن سيكونون أفضل من يقدم نصائح مخصصة للشباب (!) ولت المحامى فازلان (***) (١٦٧٠) انتباه الجمعية الوطنية « الى جحافل العمال أصحاب النوايا الطيبة الذين سيتوافرون فى حالة الغاء الحكم بالاعدام » ، وبذلك يتيسر تحويل أشنع الاساءات الصارخة للنظام الاستبدادى الى مفاخر شرائعنا الجديدة . وربما بدا من الغريب أن يقنع مفكرو القرن الثامن عشر أنفسهم - بكل سهولة - بالقيمة الاحتمالية للعمالة عند نزلاء السجون . غير أن نظام العبيد المتبع فى المستعمرات قد عاد بالكثير من النفع ، وبذلك ارتقى مذهب العمل فى مواجهة التبرع بالصدقة ، واعتبر علماء علم السكان تضاعف الأيدى العاملة فى الدولة مقياسا للحكومة الناجحة . فكلما ازدادت فاعلية الوسائل التهذيبية المتبعة فى المعسكرات الحربية والمدارس والمصانع والاصلاحيات ، ازداد الأمل - كما يبدو - فى احتمالات اعادة التنظيم العقلانى للمجتمع

Un homme pendu n'est bon à rien.

(*)

Pas'oret, Mirabeau, Boucher d'Agris, Moheau, Brissot.

(**) من امثال

Waelin.

(***)

وبغض النظر عن تأييد الحكم بالاعلام ، أو الاعتراض عليه ، فقد حدث اتفاق على جعل مصير المجرم من المشاهد التي تعرض على الكافة . ويرجع ذلك الى النظرة التي اشترك فيها الرجعيون والمصلحون معا ، التي ترى العقوبة بمثابة رادع . فما دمنا قد سلمنا بحرية البشر في أفعالهم ، فلا بد اذن من تقييد نظرة الردع بشروط أخلاقية ، لأن اللوم سينصب على دوافع السلوك الاجرامى ، وليس على نتائجه . ولما كان بناء النظام يتصف بالهشاشة ، ولذا فهناك مبرر قوى لاعطاء الأولوية للنتائج ، ولقمع العواقب الخطيرة . وقد شجع المصلحون هذا الاتجاه اعتمادا على تيسار فكرى شائع كان يرتاب فى الحرية الانسانية . فلدينا مثلا ديدرو ، الذى اهتم فى مذهبه اهتماما أساسيا بالعوامل الوراثية التي رآها متشابكة الى حد التعقيد هي والمشكلات المتعلقة بحرية الارادة . وهناك أيضا هلفسيوس الذى تركز اهتمامه على التأثير التكييفى للتربية والتعليم والوسط الاجتماعى ، أما لامترية (*) فقد تصور مصير البشر على غرار تصوره لمصير الخضروات ، أى اعتبره حصيلة بذرة وتربة ، وحسب . ومن ثم بدا له اللص والقاتل الشهير كارتوش « قد خلق لكى يكون كارتوشا » ، وما كان بوسعهم أن يغفرو شخصا آخر ، وهناك مفكرون من أمثال فولتير وآخرين كهولباخ (**) ، الذى قبل بفتور انهاء المسئولية الأخلاقية بصفة مطلقة . ويقدر قبول هؤلاء المفكرين لآى نوع من الحتمية ، كان من الضروري أن تجيء تصوراتهم للعقوبة كشيء مصطنع . وقد طرح دالمبير (***) القضية بوضوح فقال : « لو كان الناس أحرارا ، فإن العقوبة ستجمع بين ضرورتها واتصافها بالانصاف ، ولو كانوا غير أحرار ستكون العقوبة ضرورية فحسب » . وفى نهاية المطاف ، وربما فى حالة عدم الادانة الأخلاقية ، لابد من الالتجاء الى استئصال شيء ما ، لأن الحاجة استدعو الى استبعاد بعض الأفراد الناشزين من المجتمع، وإذا كان البشر قد أصبحوا على ما هم عليه من تأثير محتمات خفية ، سيحق لنا آنئذ أن نقول لهم عندما لا نرضى عن مسلكهم بأن العقوبة أمر مقدر لهم . وإذا قلنا أنهم نتاج لعوامل تكييفية قابلة للتعامل معها – وهذا هو الاحتمال الأكبر – سيتعين حينذاك ضبط دوافع العقوبة ، لانتاج النموذج الاجتماعى الأنفع لاحتياجات حياتنا المشتركة . وهكذا نعود مرة أخرى الى حساب الألم

(*) Julien Offroy de La Mettrie (١٧٠٩ – ١٧٥١) عالم

الفزياء والفيلسوف المادى مؤلف كتاب Histoire Naturelle de l'âme (١٧٤٥) :

(**) Paul Thiry, Baron d'Holbach (١٧٢٢ – ١٧٨٩) من أقطاب المذهب

المادى فى عصر التنوير بفرنسا .

(***) Jean le Rond d'Alembert (١٧١٧ – ١٧٨٣) من فلاسفة التنوير وأحد

من اشتركوا فى تأليف الموسوعة الشهيرة .

كما فعل محامو « العهد القديم » ممن اعتقدوا أنهم يتعاملون مع أشخاص يتمتعون بحرية العمل ، وان كنا سنعود بعد ازدياد اتصافنا بالانسانية ، وازدياد مخيلتنا تنورا . وسواء كان الانسان حرا ، أو خاضعا سيكولوجيا للحتمية فان هناك حججا يمكن أن تساق لتبرير مسلك حشود الدماء ، في ميدان دى جريف ، كما يبين عنده التحديق في صندوق الدنيا في اليوتوبيا التي ألغت الرق وحقت المساواة (*) وأعطت المشتغلات بالتريكو حق تقرير المصير بالمقصلة ...

ولقد أشار كتاب « التراجم » الى التباين بين معارضة روبسبير لحكم الاعداء قبل الثورة ، ودفاعه عن « الرعب » ، وان كان لا وجود لأى تعارض بين موقفيه . فقد رأينا كيف اعترف بيكاريا بالموت كعقوبة مناسبة لمن يهددون أمن الدولة ، واتبعه في هذا الرأي جميع العتقيين(**) الفرنسيين ، وتماثلوا هم والمخلفون في النظام القديم الذين اعتقدوا أن العقوبة مسألة رادعة أساسا ، ومن ثم فمن البديهي - على ما يبدو - القول بوجوب حرمان المتمردين من كل أمل في النجاة بمساعدة أقرانهم من المتآمرين . فالخيانة لن تنجح أبدا ، ويرجع ذلك لأسباب كامنة في معناها ، ولأن الخونة لن يظلوا على قيد الحياة ليروا نتيجة ما فعلوا وجنوا . وقال سيرفان في هذا الشأن : « ان المشنقة هي سلاحنا الأخير لتخليصنا من المجرمين الأعداء الذين لن نستطيع ابقاءهم أحياء وسطنا ، دون تعريض أنفسنا للخطر . ولربما رضى فولتير عن استعمال المشنقة لو أنه أدرك عدم وجود وسيلة أخرى لانقاذ أرواح الأغلبية الساحقة ، وما أشبه هذه الحالة يقتل مسعور . ولقد أباح بريسو وباستوريه الحكم بالاعداء في حالات ارتكاب جريمة الخيانة : « كالتآمر سرا ، والانتفاضات الصاخبة التي تهدد أمن الوطن ، لو ألغى اعدام مثيرى الشغب » ، ولقد قيل هذا الكلام في مشارف عصر جديد ، وكان « العتقيون » من أوائل من تطلعوا لاحداث الاصلاح على نطاق واسع ، وعندما كتبوا عن الخيانة لم يكن ما جال بخاطرهم الأقوال الماثورة في تاريخ الرومان(***) التي كان لها الصدارة في دراستهم العليا ، أو حتى شيئا أقل من ذلك ، أى الترجمة الخبيثة لديدرو لهذا القول الماثور ، والتي جاء فيها « أن القانون الأسمى هو القانون الذى

(*) ألفها Le Peletier

إشارة الى بعض النسوة اللاتي كن يشتركن إثنين الثورة الفرنسية في اعدام قوائم اعداء الثورة ، ولعلنا نذكر مدام ديبارج في قصة مدينتين لبيكنز .

(**) Abolitionist.

(***) Salus populi suprema lex. (القانون الأسمى هو الذى يحق

صالح الشعب)

يُحقق مصلحة من يحكمون الشعب ، ، ان ما كانوا يحمونه ليس بلادهم كما هي كذلك ، ولكنها بلادهم كما ينبغي أن تكون ، وهذا ما زاد من بغضهم للتأمر . وذهب مارا (أحد زعماء الثورة الفرنسية) في سبيل الدعوة ليوتوبيته ، وحلمه بإنشاء أمة حرة تسودها المساواة الى حد المطالبة باستبقاء بشاعات المشنقة التي تنسب اليها ظلمات تشريعات « النظام القديم » وطالب بالحكم بالاعدام على من يشرع في اشعال النيران بالسفن أو الترسانات ودور المحفوظات والأبنية العامة (*) ، ان هذه الأقوال البليغة القائمة ، التي لم يدرك أحد حينذاك دلالتها قد استطاعت بعد ذلك العثور على من تنطبق عليه هذه الكلمات . ولقد كان هذا الشخص هو الملك بالذات . ولقد انتقلت فكرة قداسة شخص الملوك والتي استند اليها في تبرير حالات التعذيب التي أوردتها دامينس الى الثورة في التصور الدستوري « للانتهاكية » (**) . وتزعم مارا المطالبة باعادة تعريفها على ضوء المحاكمات وأحكام الاعدام : « كيف يتعين أن يحاكم الملك السابق ؟ أما الرد فهو ضرورة مراعاة احاطة هذه المحاكمة بمظاهر الأبهة ، مع معاملته بعنف ، والابتعاد عن الأفكار الزائفة الطنانة التي تدعو الى التسامح والكرم ، والتي يعبر عنها بعبارات ترضى الغرور القومي وتخدعه » ! « وأنه من المؤسف أن نرى كيف اعتمد على الجانب القاتم من فكر بيكاريا وبريسو عن فكرة المثل الأعلى للعبودية ، بدلا من الحكم بالاعدام فيما دار من حوار حول خيانة لويس في عبارات مغلقة بالكراهية في خطب أصحاب السراويل الفضفاضة (***) عن الطفاسة المعروضين في أقفاص ، حتى تكون عبرة لشعوب أوروبا .

وتزايد كشف كتاب عصر التنوير عن درايتهم بالحاجة الى اصلاح الاجتماعى للخلاص من أسباب الجريمة ، ووجه بيكاريا اللوم الى المغالاة في فرض الضرائب وخضوع الأسرة الزائد عن الحد لسيطرة الأب ، وانحياز القوانين . ونسب العنف في المجتمع لجميع هذه الأسباب ، وقال هولباخ : ان الحكومة التي تساعد شعبها على تحقيق السعادة والرخاء لن تحتاج لابتكار عقوبات قاسية للمجرمين . وقال فولتير : « على الأغنياء الذين يسنون القوانين دراسة ما يتعين قيامهم به لمساعدة الفقراء قبل سوقهم للجلاد » . فاذا فطنوا الى حاجة الساقطات الى عمل شريف والى مؤسسات ، مثلا ، فان هذا سيحول دون ازهاقهم لأرواح ما ينجبن من أطفال ، وأشار بوشيه دارجيه الى ما هناك من ابتعاد عن الانصاف

«que l'appareil de on supplice soit effrayant, et qu'i en soit (★)
témoin lui-même.

Inviolibility.

Sansculotte.

(***)

(****)

في وصف سرقات الخدم من المنازل بالجنايات الجسيمة ، لأن مثل هذه المخالفات غالبا ما ترجع الى التباين بين ما ينعم به الأسياد من ترف والأجور الهزيلة التي يتقاضاها من يعملون في خدمتهم ، وطالب عارا بإجراء اصلاح يحقق المساواة للمجتمع ، ويظهره من أوصابه ، يعنى باستحداث نظام يحقق المشاركة في احتلال الأراضي ، ويسر التعليم للجميع ، ويعنى بالمسنين . آئنذ سيتسنى للمشرع الاستشهاد بروائع مآثورات العهد الكلاسيكي القديم ، وتطبق القوانين التي تشيب الفضيلة بدلا من قمع الرذيلة . وكتب بريسو : « لم يولد الانسان عدوا للمجتمع . ان الظروف هي التي دفعتة ، من جراء الفقر والشعور بالاحباط » نعم عليكم بتحقيق المساواة بين البشر في الثراء والتزام الاعتدال عند فرض الضرائب ، وتعليم الناس الأخلاق ، وتبسيط القوانين بحيث يتسنى تجميعها في مجلد صغير الحجم ورخيص ، يمكن بيعه للكافة كما تباع ، العظات الدينية . وسترون أثر ذلك على السواد الأعظم من المواطنين ، الذين سيرتفع شأنهم ، وسيلتزمون بالقانون . واقتربت بعض صفحات كتاب بريسو في تحويل مسائل الاجرام الى مسائل تتبع علم الاجتماع ، وعلى الأخص عندما اكتشف حاجة كثير من المجرمين الى إعادة تعليمهم أو العون الطبي ، وقال لامترية : ان بعض الجرائم الفظة لا يستبعد أن ترد لخلل عقلي (وكان يقصد بذلك المثل الخاص بالمرأة التي قتلت أبناءها والتهمتهم !) ولا يجب أن يتحول القضاة الى محامين ، بل أطباء ممارسين ذوي خبرة (أى مثل لامترية بالذات) ويعد لامترية في هذه الناحية ، وفي النواحي الأخرى أيضا ، اكرم المصلحين الانسانيين ، لأنه رأى جميع المجرمين أشخاصا يعانون من اضطراب عقلي : « الحق أن جميع المجرمين مخبولون » وتتوجب معاملتهم بناء على هذه الصفة من قبل من يتمتعون بالصحة العقلية ، وبصرف النظر عن جميع هذه الآراء ، فان الردع قد بدا لجميع هؤلاء الكتاب هو الغاية الأولى من العقوبة ، واستمر الحكم بالاعدام في نظرهم جميعا - ما عدا لاندرو - سلاحا لا غنى عنه للتعامل مع حالات التآمر ضد الدولة .

قالى أى حد تأثرت سياسة أحكام القضاة في البرلمانات والمحاكم بمعتقدات المصلحين في عصر التنوير ؟ وتمشيا وما ذكره أحد الشهود والمتبصرين من شهود العيان (*) ، فان المحاكم ازدادت نزوعا الى الرحمة في العقد الأخير قبل ١٧٨٩ . ولعله أصاب في هذا الرأي ، وان كان من

(*) Pierre-Louis Roederer (١٧٥٤ - ١٨٣٥) السياسى والاقتصادى والمؤرخ والاديب . يقال عنه انه رسم أروع صورة أدبية لهروب العائلة الملكية الفرنسية من باريس ، وما تبع ذلك من قبض عليهم وأعادتهم الى مقر دارهم .

«الضعب تأييد هذا الانطباع بالاحصاءات الحقيقية المتقنة . فليس بالمقدور تحليل سياسات القضاة بمعزل عن باقي المؤثرات ، لأن السلوك الاجرامى كان يتطور ، ويعرض مشكلات وأخطارا جديدة . ففي آخر سنوات النظام القديم ، قلم للمحاكمة عند أكبر من المعتدين على القانون ، وتضاعف عدد من دخلوا السجن ، كما يبين من المتوسطات التى تضمنها سجل سجن آكس فى بواكير السبعينيات عن عدهم (١٧٥٠) فى نورمانديا ولانجدوك . وفى نطاق السلطة القضائية لبرلمانات ليل وفالنسين والفلاندرز ، هناك دليل واضح على حدوث تحول من غلبة جرائم العنف فى بدايات القرن الى جرائم الاعتداء على الملكية فيما بعد . وهناك ما يثبت أيضا ارتفاع حرقه السرقة وزيادة تنظيمها وتنوع أساليبها . فخلقد ارتقى المجتمع ، وانضباطه ، بفضل تقدم أعمال الشرطة ، وازدياد الوعى بقيمة الملكية . وفى المقابل ، ارتقت الفئات الاجرامية وازدادت كفاية . ولربما حدثت ضغوط ساعدت على الابتعاد عن الأمانة بعد حدوث تفاوت بين العدد المتزايد للسكان وموارد بعض البقاع ، ومن المؤكد أن التشرذم قد ازداد ، وتفاقم القلق عند الطبقات المالكة . وفى مواجهة تصاعد الروح الاجرامية وظهور أنواع مستحدثة منها ، اضطر برلمان تولوز الى النزوع الى اتباع الأساليب الصارمة ، بينما جنحت برلمانات شمال فرنسا نحو اللين والترفق . وحكم برلمان الفلاندرز بالاعدام على تسعة وثلاثين من مائة وستين شخصا من المدانين بين ١٧٢١ و ١٧٣٠ . ولكن فى الحقبة الواقعة بين ١٧٨١ و ١٧٩٠ ، لم يوقع حكم الاعدام على أكثر من ستة وعشرين شخصا من بين خمسمائة . و زاد برلمان باريس من أحكام الاعدام بين ١٧٦٠ و ١٧٦٢ ، ولكنه نزع بعد ذلك من تأثير تقدم الوعى الاجتماعى فى أغلبه . فظن الى خفض هذه الأعداد بقدر كبير (قلم يتجاوز من صدر حكم باعدامهم ١٧٨٧ سبعة أشخاص) . ومن جهة أخرى ، فقد زج برلمان باريس بعدد كبير من مرتكبي الجرائم الى السجن . هنا بوسعنا أن نفترض وجود نية لمحاولة تطوير الأشغال الشاقة ، بدلا من توقيع حكم الاعدام . وان كان تنفيذ الأشغال الشاقة قد اتصف بالجهامة ، حتى بدا أقرب الى وسيلة بديلة للحكم بالاعدام . فما لم يتمتع الشخص بينيان متين ، فانه لن يعمر طويلا اذا حكم عليه بالسجن مدى الحياة . فمن بين أربعة آلاف من الجناة فى قاعدة مارسيليا ١٧٤٨ ، صدرت أحكام على مائتين تقريبا قبل ١٧٢٠ ، وعلى ما ينوف على ألفين وخمسمائة ، قيدت أقدامهم بالأصفاد الحديدية فى السنوات الثمانى الأخيرة (ولم يكونوا جميعا ممن يمضون السجن مدى الحياة ، ولكن أغلبهم كان من المحكوم عليهم بالسجن مدة طويلة . ولا يعنى انتهاء مدة السجن الافراج الفورى عن

السجين) وليس من شك أن منظر نزلاء اللومان (*) وهم يجرون بسلاسلهم وسط التلال والوديان ، وقصص « الأحياء الأموات » الذين ينتظرهم الموت كل لحظة تحت شمس البحر المتوسط ، كان من الروادع التي لا تتجاوب مع ما قاله بيكاريا وأتباعه ، وتوحى بعلم وجود أي شيء دنس في بالهم . ففي الحق لم يكن « النظام القديم » قد بلغ درجة من الاقتناع الفكري تؤهله لتحمل انشاء نظام للعقوبات يجمع بين المظهر الانساني والفاعلية ، أو للاقدام على مثل هذه الخطوة . ولعل الأمور كانت ستتجه اتجاهها آخر لو أن استراليا وقع بين أيدي الفرنسيين ، ودعا كل من بريسو ولافايت لانشاء شبكة من خطوط السكك الحديدية . فلقد كانت فرنسا عامرة بالسجون ، وكان بعضها أشبه باللوحات الخيالية المخيفة التي رسمها مصور ايطالي شهير (**) فهناك الزنازن السفلية في قلعة كان حيث تصاب الأقدام الغارقة في المياه حتى الكاحل والمقيدة بالأصفاد بالغنغرينا ، ولا ننسى الأقفاص الحديدية في برلمان باريس التي يعجز أي شخص عن الوقوف فيها منتصب القوام . وربما أمضى سنوات طويلة دون أن يرى الشمس ولو مرة واحدة ، أو دون أن يشاهد نارا أو قسا يعترف له . أما الإصلاحات (***) حيث تودع النساء مقترفات بعض الجرائم والأطفال المشبوهون ، لانقاذهم وانقاذهم من مصير أسوأ قد يحل بهم لو أنهم استمروا في العيش وسط عائلاتهم ، فكانت أشجع حالا . ومن ظواهر هذه الحقبة الأمر « بالقبض العشوائي » (****) الذي يلقي بموجبه بالشخص وسط الأفاقين الميثوس من اصلاحهم والفاسقين . وثمة سجون أخرى اتخذت مظهر الاطلال الرمزية . فهي مزودة بأبواب مفاصلها مكسورة ونوافذها خالية من القضبان . ويديرها سجانون سفلة معدومو الكفاية ، ولكن اذا تجاوزنا عن اللومان الذي اقتضت الضرورات التقنية تسخير نزلائه لبعض الأشغال الشاقة ، فأننا نستطيع القول بأن « النظام القديم » لم يعرف نظاما للسجون يسعى لتحقيق أية غاية غير الاحتجاز لفترة زمنية ما ، ولم تتوافر له أية دراية بالوسائل التي يمكن استعمالها كبديل للمشقة .

لقد رأينا نوع الحياة وقيمها عند مصلحي عصر التنوير في فرنسا . فإلى أي حد حاولت تشريعات الثورة وضع معتقداتها موضع التنفيذ ؟ لعل كراسات ١٧٨٩ تزودنا بانطباع يبين لنا إلى أي حد انتشرت هذه المعتقدات ، بين الطبقات المثقفة على أقل تقدير ، فلقد طالبت بعض

Galériens.

(*)

(**) Jean Baptiste Piranesi (١٧٢٠ - ١٧٧٨)

Maisons de force.

(***)

Lettre de cachet.

(****)

الكراسات بانتهاء العقوبات القاسية « التي تدفع البشر الى التقزز » ،
وبالاقلال من الجرائم الكبرى ، والمساواة بين النبلاء والعوام أمام المشنقة ،
ولم تطالب أية كراسة واحدة بإلغاء الحكم بالاعدام ، والاقلال من الالتجاء
اليه بقدر المستطاع . وتجاوز قانون ١٧٩١ ما جاء « بالكراسات » ، وبدأ
وكأنه انعكاس معقول للحد الأدنى من القاسم المشترك عند المتحمسين
للاصلاح . فلقد اقترح اتباع وسيلة واحدة في تنفيذ حكم الاعدام تطبق
على جميع الطبقات والفئات ، وهي أقل الطرائق قسوة التي عرفها العلم .
(ولم يخترع «طبيب الذكر» الدكتور جيلوتين آلة التهلكة التي اشتهرت
باسمه . ولكنه أشرف على التجارب الشاقة لدحض الظن بأن الرؤوس بعد
بترها تشعر بأي ألم) . ورئى أن اتباع اجراءات أقرب الى الانصاف
ستوفر اطمئنانا أكبر للأبرياء ، وان كان الأمل في المسامحة والغفران
ميثوسا منه ، وهذه مفارقة ! ولم تعد العقوبة تمتد بحيث تشمل أسرة
المدان وتطبق في ناحية التجريد من الممتلكات أو التشهير والحرمان من
الحقوق المدنية . ولم يعد الحكم بالاعدام يصدر في جرائم الاعتداء على
الملكية ، أو الأخلاق أو الدين . وظل الحكم بالاعدام ساريا في جرائم
القتل والعنف . واستمرت عمليات تنفيذ الأحكام تجري علنا ، ويشاهدها
المتفرجون . وفوق كل ذلك ، فقد تماثل النظامان القديم والجديد في
اصرارهما على الاشادة بضرورة حماية الدولة ، التي ازدادت قدسيتهما الآن ،
بعد افتراض رضا الشعب عنها . واستبقى الحكم بالاعدام في حالات
الخيانة والاعتداء على حياة الرأس الحاكمة ، وأيضا في محاولات الاعتداء
على أعضاء الجمعية التشريعية ، ونزوع أى وزير من الوزراء الى نشر
قانون لم يجر التصويت عليه ، وجباية الضرائب بطريق غير مشروع ،
والاتجار بأصوات الناخبين للبرلمان ، وسمح القانون بعدم اغلاق باب
الرعب ...

المراجع

- D. Bien, *The Calas Affair : Persecution, Toleration and Heresy in Eighteenth-Century Toulouse* (1960).
- J. A. Cary, *Judicial Reform in France before the Revolution of 1789* (1981).
- D. D. Cooper, *The Lesson of the Scaffold : The Public Execution Controversy in Victorian England* (1974).
- W. R. Cornish et al, *Crime and Law in Nineteenth Century Britain* (1978).
- R. Forster and O Ranum eds, *Deviants and the Abandoned in French Society* (1978).
- D. Hay ed., *Albion's Fatal Tree : Crime and Society in Eighteenth-Century England* (1975).
- M. Ignatiff, *A Just Measure of Pain : The Penitentiary in the Industrial Revolution (1750-1850)* 1978.
- J. H. Langbrien, *Torture and the Law of Proof : Europe and England in the « Ancien Regime »* (1977).
- P. B. Munscy, *Gentlemen and Poachers : The English Game Laws*
- L. Radzinowiz, *A History of English Criminal Law and Its Administration from 1750 (4 vol) 1671-1831*. 1968.
- R. Smith, *Trial by Medicine : Insanity and Responsibility in Victorian Trials* (1981).
- E. P. Thompson, *Whigs and Hunters : The Origin of the Black Act* 1976.
- G. Wright, *Between the Guillotine and Liberty : Two Centuries of the Crime Problem in France* 1983.
- H. Zehr, *Crime and the Development of Modern Society : Patterns of Criminality in Nineteenth-Century Germany and France* (1976).

وسائل التسويق في السوق الدولية المحركات البخارية - قضية بولتون ووات

جنيفر تان

يحتمل ان تكون المحركات البخارية أهم اختراع ظهر في الحقبة
الباكرة من الثورة الصناعية . فلقد أنتجت فصلا للطاقة القابلة للتحويل
من موضع لآخر ، مما ساعد على انشاء المصانع في مواقع قريبة من المصادر
اللازمة للصناعة والعمالة ، بدلا من نقلها مسافات طويلة . وتيسر أيضا
استعمال المحرك البخاري لخدمة مهام شاقة ، متعددة ومتنوعة .

بيد ان اختراع المحرك البخاري وصنعه لا يمثل الا جانبا واحدا من
العملية التي أصبحت نسميها عملية التصنيع . اذ كان من الضروري
اكتشاف سوق لهذا الاختراع الجديد ، او خلقها ، فلابد من اكتشاف
مشتريين له ، ولابد ان تباع المحركات وفقا لشروط توفر الحماية لمصلحة
المخترع والمصالح الاقتصادية ، وعندما حاولت الشركة التي ألفها جيمس
وات وماثيو بولتون تسويق منتجاتهما في الأسواق الخارجية بنفس
الطريقة المتبعة في إنجلترا ، تمثل الخطر الأعظم في احتمال تقليد المهندسين
الأجانب للمحركات ، واقدامهم على انتاجها بمعرفتهم ، ولذا سعت الشركة
لضمان الحفاظ على حقوق امتيازها في شتى أنحاء أوروبا . وبينما سعى
وات وبولتون لتأمين حقوقهما على هذا الوجه ، قاما أيضا في ذات الوقت
بالبحث عن زبائن مشهورين ، أو يحتلون مراكز مرموقة ، حتى يساعد
شراؤهم للمحركات على اقناع الآخرين بالافتداء بهم .

واكتشف وات وبولتون - مثلما اكتشفت شركات كثيرة تعمل في
المنتجات الثقيلة بعد ذلك بقرنين - عدم قدرة المحركات البخارية على بيع

نقلا عن كتاب Marketing Methods in the International Steam Engine
Market : The Case of Boulton and Watt.

تأليف Jennifer Tana في مجلة Journal of Economic History.

الجزء ٢٨ (١٩٧٨) ص ٢٦٢ - ٢٨٩ .

نفسها بنفسها • ومن باب الإغراء بالشراء ، أوفد الشريكان خبراء ميكانيكيين لإنشاء محطات في الخارج لخدمة المحركات ، وصيانتها • واقتضت الضرورة الارتقاء بتقنية أخرى هي عملية حزم ورزم المحركات ، واستلزم هذا الاجراء ، الى جانب بيع المحرك ، التعريف بطريقة صنعه ، وعقد اتفاقية لتشغيله وخدمته لمدة زمنية معينة • وحاولا أيضا بيع مصانع كاملة للخارج ، وعلى الأخص طواحين الحبوب ، وآلات صك النقود والميداليات •

وخلقت تقنياتها المتنوعة سوقا عبر البحار اعتبرها وات وبولتون عظمة الأهمية ، غير أن القارىء قد يصاب بالدهول عندما يعرف مدى القصور النسبي لهذه السوق ، والندرة الملحوظة للمهندسين المبرزين الذين كانت هناك حاجة ماسة اليهم لترتيب المحركات البخارية وتشغيلها ، ويتعين مراعاة العاملين معا عند ادراك مدى ضآلة التوسع في التقدم في بداية الثورة الصناعية ، وبطئه الزمنى نسبيا •

سجل جيمس وات امتياز اختراعه المحسن للمحرك البخارى ١٧٦٩ • ولكن وكما هو معروف ، فانه قد افترق الى رأس المال ، وباقي التسهيلات التى تساعد على استغلال هذا الامتياز • ولم يبدأ التقدم التقنى والاستغلال التجارى لمحركه يحقق غايته الا عندما اشترك معه فى المشروع ماتيو بولتون (١٧٧٥) ، بعد نجاحه فى الحصول على قرار من البرلمان بمد الامتياز حتى ١٨٠٠ • وكانت المحركات الأولى جميعا من المضخات الترددية التى تحرك عمليات الضخ وآلات وأدوات النفخ فيما بعد • غير أن وات اخترع محركا دوارا ، وحصل على امتياز اختراعه ١٧٨٢ بناء على اصرار بولتون حتى يتسنى له تصنيعه انتاج محركات المصانع •

واستمر زهاء عشرين سنة من انشاء شركتيهما صنع بعض أجزاء من المحركات الأصغر فى مصنع بولتون فى سوهو ، الذى أنشئ فى ستينيات القرن الثامن عشر ، لانتاج لعب أطفال من الصلب ، وغيرها من المصنوعات المعدنية • أما عمليات السباكة والحلادة الأكبر ، فكانت تتم بناء على تعاقدات فرعية فى مصانع الحديد فى الميدلاند أو فى أماكن نائية فى العراق ، ولم يتمكن بولتون ووات من صنع محركات كاملة الا بعد ان افتتحا مسبكاً للمحركات (١٧٩٥ - ١٧٩٦) وعلى الرغم من أن نظام العقود الفرعية كان له بعض النفع ، لأنه سمح للشريكين بالعمل اعتمادا على رأس مال صغير ، الا أنه قد جد بشدة من كفاية الناتج • فلم يتسنى الا لقلاتل من السباكين والحلادين بلوغ المستوى الاسمى من الانتاج الذى يطالب به بولتون ووات • أما من كانوا قادرين على ذلك ، فكانوا منشغلين

بأعمال أخرى تدور عليهم وربحا أوفر من الربح الذين يحصلون عليه مقابل صناعة أجزاء من المحركات . وهكذا فلم يكن من المستبعد أن يؤدي أي ارتفاع بسيط في الطلب إلى الانتظار مدة زمنية طويلة ، وإلى تأخر الانتاج ثمانية عشر شهرا ، وفي السنوات العشر الأولى لإنشاء المصنع تم تجميع ثمانية عشر محركا ، من بينها ٢١ محركا لكورنول وأربعة لخارج إنجلترا . وتم إنشاء ١٨٧ محركا بين ١٧٨٦ و ١٧٩٥ ، من بينها ١٢ لزبائن أو عملاء من خارج إنجلترا ، وتزايد الطلب الخارجي ابتداء من العقد الأخير في القرن الثامن عشر . وفي ١٨٢٥ ، بلغ عدد الطلبات ١١٠ محركات ، ألغى منها ثمانية طلبات .

وقبل ١٨٠٠ ، كان بولتون ووات يحصلان على أرباحهما المحلية من استحقاقاتهما مقابل بيع حق تشغيل المحرك ، ومن التوريد بالرسومات ، وبيع قطع الغيار ومن المصاريف الإضافية التي كانوا يفرضونها على القطع التي يسمحون للمتعاقدين الفرعيين بصنعها . وفي السوق الخارجية ، كانت الزيادات في الشحن تضاف إلى مجموع أثمان السلع والخدمات بعد إضافة الاستحقاقات البريطانية . وفي معظم الحالات ، كانوا يحتاجون إلى ضامن من لندن ، وابتداء من حوالي ١٨٨٠ ، كانت معظم الطلبات الآتية من خارج إنجلترا لمحركات بولتون ووات تقدم ويدفع ثمنها لمكاتب بعض التجار في لندن وليفربول وبريستول ، وعندما انتهى امتياز وات (وكانت المحركات تنتج آنشد بالكامل بمعرفة بولتون ووات) ، لم يحدث هبوط في الأسعار داخل أسواق إنجلترا ، كما كان متوقعا ، وتزايد ، بصفة استثنائية إقبال المصانع الكبرى ، أو المصانع التي سبق لها شراء محركات وات قبل ١٨٠٠ ، والتي كانت تسعى لإحلال محركات جديدة محل القديمة أو الإضافة إليها إلى جانب المبيعات الأخرى غير الحكومية . واستمرت الأسعار خارج إنجلترا مرتفعة أيضا ، أي في نفس مستواها في سنوات ما قبل ١٨٠٠ . وفي ١٨٢٥ اتخذت صناعة محركات وات ومحركات الضغط العالي أسعارا تنافسية لمواجهة انتاج فرنسا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة . وابتداء من هذا التاريخ ، انخفض طلب محركات وات .

وعندما ألف بولتون ووات شركتهما ، كان بولتون قد وطد مركزه بالفعل في تجارة اللعب ببرمنجهام زهاء أكثر من عشر سنوات ، وأبان هذه الحقبة ، استطاع إنشاء شبكة تسويقية قوامها بعض العملاء الذين يتقاضون أجرا نظير العمل طول الوقت ، وبعض العملاء المستغلين الذين يحاسبون بالقطعة ، وكانت سلج بولتون تباع في مختلف أنحاء أوروبا . ويزوده الوكلاء بمعلومات تفصيلية عن أحوال السوق ، والاتجاهات التي

يحتمل أن تنال الحظوة ، والتعيرات في « الموضة » ، وما تلقاه سلعة من منافسة من المصانع البريطانية ، ومن مصانع اللعب خارج إنجلترا ، وتمائل بولتون هو وودجود (*) في ناحية ادراك أهمية الاعلان وسبل اجتذاب الزبائن ودفعهم الى ايثار منتجاته . واستفيدة في العناية بتأثير مختلف السلع على أفراد الأسرة المالكة والنبلاء باعتبارهم القدوة التي اعتاد المجتمع الاقتداء بها . وفي عالم صناعات السلع الاستهلاكية في القرن الثامن عشر ، كانت المصانع تنتعش وترتقي أو تستمر في البقاء أو تنهار تبعا لاسلوبها التسويقي . وكما بين ماكنندريك وروبينسون ، فان وودجود وروبينسون قد أدركا الى حد كبير تعقيدات أساليب تسويق السلع ، ورفعوا من مستوى أساليب البيع بالتبعية ، ومن ناحية أخرى ، لم تتوافر لواث أية خبرة بالتسويق لا داخل إنجلترا ولا خارجها ، ولكن بينما ساهم بولتون اسهاما هاما في تكنولوجيا صناعة اللعب ، فانه أثبت مهارته كمهندس انتاج ، عندما وضع مخطط مصانع سوهو بل وأبدى اهتمامه بالمحرك البخاري ، قبل أن يتباحث هو ووات في فكرة الاشتراك معه ، الا أنه لم يكن يملك أية خبرة في الصناعة وتسويق السلع المصنوعة .

وكانت استراتيجية التسويق خارج إنجلترا في بواكير عهدها ، « لبولتون ووات » من الأفكار الملهمة لبولتون ، وأثبتت بعض هذه الاستراتيجيات المنقولة عن تجارب تسويق اللعب عدم مناسبتها ، اذ كانت فرصة خلق طلب للطاقة البخارية أقل من فرصة طلب السلع الشائعة (كاللعب) . وعلى الرغم من كل ذلك ، فان انتشار سلع بولتون ووات في الدوائر الحكومية وعند النبلاء وعلية القوم داخل إنجلترا وخارجها ، قد أوحى باستهواء منتجاتهما لقطاع كبير من الزبائن ممن يتأثرون بناحية الثمن مهما ارتفع ، ويضعون له أولوية متأخرة في مشترياتهم ، فضلا عن ذلك ، فقد أدرك بولتون أن فئة الزبائن المشار اليها آنفا ستكون أكثر تقبلا للطلبات التي تراعى فيها ناحية حماية الاقتصاد القومي ، والتجاوب معها .

(١)

أنشئت شركة بولتون ووات الاستثمارية بامشيالز بريطاني . ولقد صيغت حقوق « وات » بمنتهى الدقة ، وبإشراف السلطات القانونية

(*) Josiah-Wedgewood (١٧٢٠ - ١٧٩٥) خراف بريطاني مشهور وصاحب مصانع ، زالت ثلث أفضل أنواع الخزف في العالم حتى الآن .

الانجليزية . وبذلك اتخذت السيطرة في سياسة الشركة الداخلية ، مسألة حماية منتجاتها ؛ ولم تقدم أية مبررات لتعديل هذه السياسة في عمليات التسويق خارج إنجلترا ، وكانت المطالبة بشكل ما من حماية الامتياز هي الرد الثابت في معظم الحالات على استفسارات العملاء المتوقعين من خارج إنجلترا ، لشراء المحركات خلال الحقبة بين سبعينيات القرن الثامن عشر وثمانينياته .

وجرت أول مباحثات جادة لبيع المحركات في الخارج مع عملاء من فرنسا . وأصر الشريكان على الحصول على رأى الخبراء والاستشاريين (*) قبل التصديق على موافقتهم على الطلبات . واستعان بولتون بالتقنيات البرلمانية البريطانية المؤثرة والمجربة ، فقام بجس نبض المسئولين في الحكومة ، وأحد الكونتات الفرنسيين وصاحب أحد المصارف الباريسية وغيرهم . وساعت على تدعيم القضية بطبيعة الطلبات الفرنسية ، إذ كان أحد العملاء من المنتمين للطبقة الارستقراطية ، وكان الآخر مفتشا في المناجم . أما الطرف الثالث فكان شركة للانشاء مؤسسة حديثا لتزويد باريس بالمياه . وصدر القرار الاستشاري في ابريل ١٧٧٨ . غير أن تنفيذ الشروط تطلب اجراء تجربة لمحرك بولتون ووات على احدى المعدات المستعملة في رصد أحوال الجو ، اما في باريس أو في ضيعة الكونت في نورمانديا . وعندما ألغى طلب الكونت دي هورنفيل ، حصل مفتش المناجم جارى على تصريح باجراء التجربة في منجم الشمال (**) في بريتاني ، بدلا من اجرائها في الضيعة . ووفق على القرار في أكتوبر ١٧٧٨ ، ومنح جارى الحق الأوحد لبيع محركات وات وتركيبها ، بغير موافقة الشريك (بولتون) في مقابل خدماته للحصول على حماية حقوق محركات وات في فرنسا ، بعد الاتفاق على عدم تركيب أية محركات أخرى بغير موافقة الشريك . غير أن اتفاق شركة بولتون ووات وجارى تعرض للانتهاك قبل أن يحف مداده . . . عندما قبل الشريكان الانجليزيان طلبى توريد محركين كبيرين للأشغال المائية في باريس ، وقيل في تقرير هذا العمل انه سيساعد على الدعاية « للمحرك » .

وجاء الرد على القرار بالاستعداد لقبول أدنى عرض . وخلال السنوات الثلاث التالية ، ظهرت بعض امارات الاهتمام . ولكن بولتون ووات لم يتلقيا بعد ذلك أية طلبات من فرنسا ، وخشية احتمال حصول المهندسين الفرنسيين على طلبات لاحقة للمحرك البخارى ، استشار الشريكان

جينييه (*) ، وعملا على تأكيد القرار استنادا الى براءة الامتياز . وارسلت مذكرة الى «جينييه» في فرساي ، تحمل تقرير بولتون ووات لمطليبيهما اعتمادا على خبرتهما كمهندسين « لأنهما يتصوران أنهما أقدر على المساعدة في تحقيق ما تريده السلطات الفرنسية في مسعاها لتدعيم الصناعات والأشغال العامة » وجاء رد جينييه مشجعا في يوليو ١٧٨٣ ، وفيه يؤكد : أنه قد فوض « للتأكيد لكم بالحصول على أكبر قدر من الحماية في وزارتنا عندما تحتاجون اليها » (**) . ولكن بعد زيارة بولتون ووات لفرنسا ١٧٨٦ ، توقفت الاستجابة للمطالب مرة أخرى ولم يلتفت اليها .

ولم يحل سوء استجابة أسواق فرنسا ، دون قيام بولتون ووات بمحاولات أخرى للحصول على امتيازات في أسواق أخرى خارج انجلترا ، ولقد استحوذت فكرة وجوب الحصول على الحماية على أمخاخم حتى تصورهما الموظفون في سوهو (مقر الشركة) كسياسة لا تتزعزع . وعندما فعلوا ذلك كادوا يفقدون عميلا روسيا ذا مكانة مرموقة . وعندما أقدم فان ليندر من روتردام على محاولة للتعاقد مع بولتون ووات ١٧٨٣ ، استشار بولتون شريكه وات متناسيا روح الزمالة في المعاملات : « أعتقد أن أفضل رد يمكن الاجابة به هو أن تخطره أننا غير متلهفين على شرف الحصول على ميداليات ذهبية أو على ذيوخ صيتنا في الجمعيات الفلسفية . اننا لن نكتفى بمجرد الدردشة ، ولكننا سنقدم على تنفيذ شيء فعلي ، شريطة حصولنا على امتياز قاطع في طول البلاد وعرضها » ، وبدأت المفاوضات في ١٧٨٥ مع فان ليندر للحصول على امتياز باسم الجمعية البافارية لصالح بولتون ووات . ومنح الامتياز لمدة خمس عشرة سنة في يناير ١٧٨٦ .

وكان ما ساعد على منح الشريكين امتياز الحماية خارج انجلترا هو اتصالات بولتون الدولية التي وثقت صلته بعملاء المصنوعات المعدنية والتجار ، واللقاءات الاجتماعية التي جرت أثناء زيارته لأوروبا . وساعد على ذلك أيضا وجود معجبين « بوات » من أعضاء الجمعيات العلمية الدولية والعلماء والفلاسفة ممن لم تدفعهم الحدود الدولية الى التعصب ضد أي شخص غريب عنهم ، فمثلا قام ماجيلان ، الى جانب نهوضه بدور الوسيط بين بولتون ووات من جهة ، وهيرونفيل وجينييه من جهة أخرى في المباحثات الفرنسية بالدعاية لهما في البلدان الواطنة الخاضعة للحكم النمساوي . وحاول الحصول على طلب حكومي لتوريد محركات ، وسأل

Genet.

(*)

Je crois être autorisé à vous assurer que vous trouverez la protection la plus signalée dans notre Ministère lorsque vous en aurez besoin. (**)

الشريكين : « هل ما زلتما في حاجة الى امتياز احتكاري في هذا البلد ؟ » ، ولكن لا شيء قد تحقق من ناحية المطلب أو الامتياز . وبعد أربع سنوات ، بدأت المفاوضات للحصول على امتياز في اسبانيا . وكما حدث في فرنسا مع جاري ، فإن مانح الامتياز والعميل الأول دون باسكوال منسا اى مارش (*) قد كوفىء باعطائه امتياز احتكاري لبيع محركات بولتون ووات . ولكن بينما ساد الكثير من الاهتمام بمحركات ووات على المستوى الحكومى فى فرنسا ، فإننا نرى « منسا » يخشى من عدم الاكتراث فى اسبانيا : « لأنه فى الوقت الحاضر مازال لا يوجد أحد يعرف أهمية محركاتكما أو فائدتها » . وفى التو ، أرسل بولتون مذكرة الى ملك اسبانيا شرح فيها موضوعه طالبا منح الامتياز لمدة عشرين سنة ١٧٩٠ . وألزمت شروط توريد المخركات لاسبانيا بولتون ووات بتوريد المحركات بأسعار محددة متفق عليها ، وبتقديم النصيحة حول طريقة استعمال القوى البخارية ، والتزويد برسومات للتوربينات وتقديم عمال ميكانيكيين وشحن البضائع . ووافق الوكيل المعتمد على عدم صنع محركات أو شرائها من أى مورد آخر . ورثى أن يتحمل الوكيل ما تستطيع السوق الاسبانية تحمله ، ولكن قبل أن تتم الاتفاقية ، تلقى بولتون ووات طلبا مستقلا بتوريد محرك آلة نشر للخشب من اسبانيا . وثار جدل طويل لأن الحجم المطلوب يتجاوز بكثير الأحجام المنصوص عليها فى التعريف الاسبانية ، ولعدم التصديق على اتفاقية احتكار الوكالة لاستيراد المحركات ، ووافق بولتون ووات على هذا المحرك ، مثلما حدث فى حالة الأشغال المائية فى باريس .

ودارت المفاوضات أيضا فى النمسا مع صاحب الامتياز الاحتكاري لانشاء محركات بخارية فى الامبراطورية النمساوية (**) . وأشار بولتون ووات ببقاء الامتياز باسم كمبلين ، وبتوريدهما المحركات البخارية وفقا للتعريف الثابتة . وعلى الرغم من احتمال حصول بولتون ووات على بعض المميزات - وإن كان هذا لم يكن مؤكداً بأي حال - إلا أن الأرباح التى كان من المنتظر أن يحققها فون كمبلين كانت ضئيلة ، وكما حدث فى حالة الامتيازات التى اقترحت فى وقت أبكر فى بروسيا - وعلى ما يحتمل فى ايطاليا - فإن الاتفاق لم يتم .

وحاول بعض الرواد الأوائل للقوى البخارية فى الولايات المتحدة الحصول على شكل ما من حماية الدولة ، أو الحماية القومية لمصالحهم .

Mensa y March.

(★)

W. Von Kempelin.

(★★)

فلى ١٧٨٨ ، أجرى نيجيمس رامزاي مفاوضات هو وبولتون ووات قبيل تقنعه بطلب للحصول على امتياز فى الولايات المتحدة . وتمركزت الشروط موضع البحث على عبارة تنص على الاقتصاد على توريد بولتون ووات المحركات لرامزاي ، وأن يعمل على الحيلولة دون أقدام أى شخص آخر على صنع محركات فى الولايات المتحدة ، وجرت محاولة للوصول على امتياز فى الولايات المتحدة ، يشترك فيها بالاسم كل من بولتون ووات ورامزاي . على أن يدفع الطرف الأول ثلثى الثمن ، وتقسم الأرباح بالتساوى ، ويحصل رامزاي على الثلث الى جانب جميع الأرباح المكتسبة من محركات السفن البحرية . غير أن رامزاي اعتبر الشروط المقترحة مقيدة الى أبعد حد ، واعتقد أن الأسعار التى يطالب بها بولتون ووات مبالغ فيها . ولم يتحقق أى اتفاق .

ولم يتصف أى امتياز أو اتفاق بالارغام ، من الناحية العملية ، كما كانت الشروط الأمريكية للاتفاق غير قابلة للتنفيذ . وكان بالمقدور الحاجة بالقول بأن الحماية التى يطالب بها بولتون ووات بعيدة عن الواقع الى حد كبير ، ولن استطاع اكسابها الفاعلية الا فى جو تسوده الثقة المتبادلة ، وتعرضت هذه الحالة لصعوبات جمة داخل السوق الداخلية ناهيك عن امكان قبلها خارج انجلترا ، وكما لاحظ بولتون فيما يتعلق بالاتفاقية النمساوية المقترحة : « عندما يتخذ شخص ما شريكا ، فانه يظن أن تم مقدوره جره الى التهلكة ، ومن ثم فبالاستطاعة تشبيه مثل هذه الشركة بعملية الزواج ، من حيث تعرضها للخطر » .

ويكمن وراء المطالبة بالحماية فى الأسواق الأجنبية افتراض احتمال أن لا تكون المبيعات خارج البلاد مجزية . وعقب بولتون فيما يتعلق بصفقة المحركات البخارية الأسبانية بأنه يحتاج الى امتياز أو مكافأة تقدر بزيادة ألف جنيه على كل محرك . ولابد أن الشريكين كانا يأملان من وراء الامتياز الحصول على المزيد من الطلبات . غير أن هذا التصور قد اتضح أنه تفاؤل لا يستند الى أى أساس . فلم يتلق بولتون ووات الا القليل من الطلبات بعد الاتفاق الفرنسى . وسرعان ما قامت المصانع المحلية للمحركات بسرقة أسرار اختراعهما . ومع هذا فقد جدا فى السعى للحصول على الحماية فى الأسواق الأجنبية الأخرى حتى ١٧٩٠ . وفيما بعد تأكد عدم جدوى حماية محركهما فى الخارج ، بعد الصعوبات التى تعرضا لها فى سبيل حماية اختراعهما حتى فى انجلترا ، وهكذا سرعان ما وهن اهتمامهما بالامتياز الأجنبى .

ولقد حصل بولتون ووات علي شكل ما من الحماية (*) في ثلاثة بلدان خارج انجلترا (فرنسا واسبانيا والبلدان الواطنة) ، ودارت مباحثات حول الشروط في أربعة بلدان أخرى (بروسيا والبلدان الواطنة الخاضعة للنمسا والولايات المتحدة وإيطاليا فيما يحتمل) ولم تكن الحماية ، حتى عندما تحققت ، جامعة مانعة ، وشرعت المصانع في انتاج محركات عن طريق القرصنة في فرنسا دون أن يعترض أحد سبيلها . وإذا رئي أن الهدف الأول كان ضمان التسويق خارج انجلترا ، سيصبح القول آنئذ باخفاق السياسة المتبعة ، لأن عائلتها لم يزد عن طلبات قليلة اثناء فترة الامتياز . وحق قبول بولتون لطلب كبير من كل من فرنسا واسبانيا ، مع تخطي وكالات المبيعات التي حددتها سوهو في هذه البلدان أرباحا في المدى القصير ، ولكنه لم يحقق أى ربح للوكلاء يدفعهم الى السعي للتقدم بطلبات أخرى ، ويتساوى هذا الفعل هو والاعتراف بعدم توقع أن يحقق احتكار حقوق البيع أى تعزيز لمصالح بولتون ووات خارج انجلترا ، وأنه قد قدم كمجرد مكافأة على الامتياز . غير أن بولتون ووات لم يتكبدا أى نفقات لتحقيق الحماية خارج انجلترا ، ومن ثم فإنهما لم يخسرا أى شيء في محاولتهما الحصول على احتكارات ، ومن المؤكد أن سعيهما للحصول على الامتياز قد ساعد على نشر الدعاية لمحركات ووات ، وإذا نظر إليها على هذا الوجه سيكون من الميسور اعتبار مفاوضات الامتيازات شكلا ملهما من أعمال الدعاية والاعلان .

(٢)

زهاء عشر سنوات من المشاركة بين بولتون ووات ، كانت القوة الدافعة لوات وراء جانب كبير من السعى للبحث عن أسواق خارج انجلترا ، وزيادة المبيعات ، وإن وجب علينا أيضا أن لا ننسى دور ممثلي المصالح الأخرى لبولتون . فلقد كلف القائمون بالأعمال الكتابية والوكلاء للتجولون من شركته الخاصة بالمصنوعات المعدنية والبيت التجاري ، بالنهوض بمهام خاصة بتسويق المحركات دون تقاضي أى أتعاب من شركة محركات « وات وبولتون » . فقام على سبيل المثال أحد الوكلاء أثناء زيارته لروسيا ١٧٧٧ بتوزيع بعض النشرات الدعائية لمحرك بولتون ووات في البلاط الروسى . غير أنه أخطر « بعلم جدوى هذه الأشياء في هذا البلد . . بالنظر الى أن أحد الأهداف وراء محركك توفير العمالة . . والعمال (في روسيا) جميعا من العبيد ، ومن ثم تكون الميزة غير ذات موضوع » . وأعطيت لوكيل آخر كان يوشك على السفر الى ألمانيا والبلدان الواطنة

١٧٨٧ ، توجيهات مماثلة ، وقسم بعض المتصلين الآخرين بعالم التجارة والسياسة خدماتهم لبولتون اعتمادا على دوافع وطنية ، فمثلا تطوع اللورد ماكرتنى بالدعاية لمحركات بولتون في الصين ١٧٩٢ .

ومع هذا فقد استطاع بولتون ووات تحقيق أول مبيعات لهما خارج إنجلترا ١٧٨٦ ، ووجها جهودهما الى فرنسا ، باعتبارها سوقا واعدة بأفضل المغائم . وفي هذه المناسبة أيضا ، أدت المصالح التجارية الأخرى لبولتون دورا هاما ، فعلى سبيل المثال فإنه كلف من قبل الحكومة الفرنسية بالتوصية بإجراء تحسينات كبيرة في أحد مصانع اللعب الفرنسية (*) ، وبذلك تحقق له الاتصال والاقتراب من الوزراء المهمين . ووفقا لما ذكره ووات ، فإن الوزارة الفرنسية « قد أبدت استعدادها لتكليفنا بمهام تتواءم وما نهلف اليه هناك » . وبعد ذلك بقليل من الوقت بدأ بولتون محادثات مقنعة مع وليم ولكنسون لانشاء مصنع للمحركات في فرنسا ، من خلال تطوير إحدى منشآت المشغولات الحديدية ، واقترح جون باومجارتنر - وهو تاجر من معارف بولتون - أن ينشئ الشريكان وكالة للمحركات بمارسيليا ، سييسنى لها تحقيق الأرباح . . . الا أن الثورة الفرنسية اندلعت وعطلت المشروع ، وبعد بضع سنوات ، أعاد بولتون توجيه اهتمامه بروسيا . عن طريق أحد ممثلي بيته التجارى ، وكما حدث من قبل ، ولعل الدافع الذى شجعه على اجراء هذه الصفقة الثانية من المبيعات الروسية هو المبادرة المشجعة التى ظهرت فى طلب الحكومة الروسية آلات لصك النقود ، بالاضافة الى « أنهم عندما يسمعون عن أى شىء جديد ولطيف فإنهم يهللون له ، ويصرّون على الحصول عليه » ، وهنا - كما يبدو - ربما تماثلت اجراءات تسويق السلع الرأسمالية هي وأحوال سوق السلع الاستهلاكية ، التى يتمتع بولتون بخبرة كبيرة بها .

وكان ووكر العميل المسئول لبولتون للبحث عن توكيلات فى روسيا شديد الاعتقاد « بأن الافتقار الى الدراية بالمسائل الميكانيكية ، سيصعب النجاح فى أية بقعة من بقاع العالم فى تعريف أى مستفسر سعر المحرك البخارى وحجمه المناسب بالدقة المطلوبة ، حتى يتسنى له النهوض بمهمته المكلف بها » . وأدرك أن مهمته تتلخص فيما يأتى : « تحديد أساس عام دائم وثابت يعتمد عليه مستقبلا فى المعاملات ، بغض النظر عن التوكيلات العرضية التى تحدث عن طريق المصادفة ، وبذلك تنهى السبل السليمة التى لا تخطئ » ، والتى يتيسر اتباعها فى جميع الأوقات للحصول على التوكيلات التى تستحق القبول دون تكبد أى مصروفات لانجازها .

واقترح ووكر عوضا عن اقامة وكالة تضم عددا من العاملين على غرار المركز الرئيسى فى سوهو ، أن يعقد اتفاق مع أحد الانجليز المقيمين بالفعل فى سان بطرسبورج . واستبعد اختيار أحد من الجالية الانجليزية المشتغلة بالتجارة ، التى اعتبرها « غير مؤهلة بالمرّة لمثل هذه المهمة » واقترح الاتصال بمن عرفوا بميلهم للمغامرة وهواة التفرج على الأدوات الميكانيكية ، الذين ساعدتهم هذه الهواية على احراز تقدم سريع نحو اليسر والثراء ، ان الرجل الذى تحدثنا عنه هو تشارلز بيرد (*) المؤسس الاسكتلندى والمهندس المقيم فى سانت بطرسبورج والصدىء الحميم لاساتذة الميكانيكا من روس وأجانب ، والصدىء أيضا لكبار النبلاء ، والذى يعرف الاسلوب الصحيح لاقتحام أبواب المكاتب الحكومة الرئيسية فى معظم ادارات الحكومة . وعبر الطرفان عن اهتمامهما ، ولكن الاتفاق لم يتم . وبدلا من أن يتعاون بيرد ، فانه تحول « الى خصم شديد الاثارة للمتاعب » .

واذا قيما المبيعات الفعالة خارج انجلترا ، ومدى تقبل الأسواق لها ، سنرى أنها حققت فشلا ذريعا على المستوى الحكومى ، فلم يتم الحصول فى روسيا على أية طلبات جديدة ، ولم يساعد حتى وجود الشريكين بشخصهما فى عقد صفقات جديدة فى فرنسا . ومع هذا ، ولما كانت الزيارة قد تمت دون أن يتكبد بولتون ووات أية نفقات ، لأن الجولة الفرنسية ذاتها قد احتسبت نفقاتها على حساب المكافأة الممنوحة نظير الاستشارة ، لذا فباستطاعتنا القول بأن ما حققته الشركة من كسب من المحرك قد جاء عن طريق مثل هذه الأنشطة . وكما هو الحال فى الامتيازات ، يتعين عدم بخس قيمتها فى الدعاية والاعلان ، بالرغم من أن المبيعات خارج انجلترا كانت نتيجة لآليات المتراجع فى السوق أكثر من كونها من آليات التنافس والمزاحمة فيه .

(٣)

وحققت اتجاهها أعظم نجاحا للتسويق الخارجى للشركة التجارية التى يسرت بعض الخدمات الهندسية ، التى نهضت بعملية تشغيل آلات الجر . وكان من بين العوامل البالغة الدقة فى نظر العميل الأجنبى والبريطانى عند تقرير الأخذ بالتجديت الاهتداء الى عامل ميكانيكى ماهر ، مع تفضيل من تدربوا فى سوهو على تركيب المحرك ، وتدريب الأفراد على تشغيلها ، وربما اختيار كمستول مقيم فى مقر استعمالها .

وكان النقص فى العمال الميكانيكيين المهرة من الحقائق الملموسة فى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر . واستطاعت السمعة الطيبة التى تمتعت بها نخبة من الشركات التجارية القليلة مثل بولتون ووات وجون رينى وجوكس كولسون وكارون اجتذاب عدد كبير متفاوت من العمال المهرة من سوق العمالة . وفى بداية سنوات استثمار تسويق المحركات خارج إنجلترا ، وافق بولتون ووات بوجه عام - على امداد العملاء بالميكانيكيين . وبعد أن أدركا القيمة المحتملة للاعلان ، وبخاصة فى الحالات التى شهد فيها لصالحهما أحد أفراد الأسرة المالكة ، أو إحدى المؤسسات التى تملكها الحكومة المختصة بالطاقة البخارية ، حاولا إيفاد بعض رجالهما البارعين الى هؤلاء العملاء ، فأشار ووات - مثلاً - بإمكان انتقال ابنه من فرنسا للإشراف على تركيب أول محرك فى أسبانيا . وتولى أحد الوكلاء المحترمين الموثوق بهم من لندن عملية معاينة تركيب طاحونة بخارية للغلال فى نانت بفرنسا ، ورافق ميكانيكى ماهر آخر المحرك الذى اشتراه ملك نابلى الى إيطاليا . ووضع بولتون الذى كان معنياً بالنتائج الناجحة لأول صفقة روسية - كانت تضم آلة لصك النقود - الصدارة للاعتبارات الاجتماعية على المقدرة الهندسية ، ومن ثم أوفد الى روسيا ابن أخيه ، وكان يعمل تاجراً . وفى إحدى المرات ، ارتدى حلة من المخمل - بناء على تعليمات من بولتون - وتسليح بالهدايا الى وزير المالية ، ومهندس القصر وآخرين ، بذلك تسنى له التنقل بين الدوائر المناسبة ، بما فى ذلك الجالية البريطانية ، التى كانت تتمتع بالخطوة فى سان بطرسبرج .

« الظاهر أنه من القواعد (المسلم بها) عقد مقارنة بين مسلك أى وجيه من الوجهاء وما يتسم به من بشاشة ولطف وتحضر عند أول لقاء به ، وبين الجهل الموحش والوقاحة التى يتصف بها ما لا حصر له من ذوى الحسنة من سكرتيرين وخدم ، ممن يعرقلون أى تقسم ، ويجعلون من رابع المستحيلات خطو خطوة واحدة بعد غرفة الانتظار لآى شخص لا يرتدى بزة محلاة بالقصب ومرصعة بالنجوم والصلبان ، ولا يسمحون بدخول فناء الجهة المقصودة لمن لا يركب عربة تجرها أربعة خيول ، باعتبار هذه المظاهر المعيار الأوحى للفضل الإنسانى فى هذه العاصمة الشقية التى تقيس العظمة بعدد الخيول التى يخول للشخص سوقه ، أو بمكانته المظهرية فى المجتمع ، وبمقدار ما يستطيع الحصول عليه من مال ، ثم تبديده بعد ذلك بحماقة » .

واعترف بولتون ووات وعملاؤهما الأجانب بتفوق المكانة الاجتماعية للعامل الميكانيكى البريطانى فى الخارج على سمعته فى بلاده (إنجلترا) . وبالإضافة الى ذلك فانه ينعم بالأمان والحصانة من أوصاب الثورة الفرنسية

والحروب النابوليونية وما جرت في ذيلها من أخطار : « ان القادرين على تركيب (المحركات) نادرون ، حتى أصبحنا مرغمين على أن نكون خدما لهم بدلا من أن نكون أسيادا . » وعلينا أن نساير نزواتهم ورغباتهم مهما بدا فيها من جوانب مستهجنة . » وعندما بحث بولتون ووات : « هل سيتحمل الرجل الذي ينوون إيفاده الى أسبانيا (١٧٩١) مخاطر سوء المعاملة أثناء رحلته ، تلقيا تأكيدا بأن الأمر سيكون عكس ذلك ، لأنه سيتلقى رعاية كاملة . » ووصف وات أحد الميكانيكيين « بأنه خادم أمين » ولما وصل هذا الميكانيكي الى إيطاليا « عومل معاملة عظماء الرجال ، وكانوا يمتطرونه بالعلاوات لاغرائه على الاستمرار في البقاء هناك . »

وحاول بولتون ووات الحيلولة دون قيام العملاء الانجليز بتقديم عطاءات للميكانيكيين التابعين لهم ، فأدخلوا نظام التعاقد لمدة ثلاث سنوات لمعظم من يتولون تركيب المحركات البخارية . غير أن السوق خارج انجلترا كشفت بعض مشكلات ذات طابع خاص . اذ ظهر أنه من المتعذر تتبع خطوات الميكانيكيين الهاربين ، ناهيك بإمكان استعادتهم . وربما دفع تركيب أى محرك بخارى في مكان قصى الميكانيكي الى البقاء مدة أطول من ثلاث سنوات ، وكانت الأجور التي تقدم للميكانيكيين المصاحبين للمحركات البخارية في الخارج تفوق بوجه عام أجورهم في بريطانيا . وبالإضافة الى ذلك ، فقد جرت العادة على توقع اهداء الميكانيكي «هدية لطيفة» بعد اكتمال المهمة بنجاح ، وكان الأجر الأعلى هو الاغراء الأوحد للعمل في الخارج عند بعض الفنيين المتخصصين في الطواحين والميكانيكيين . وأدرك آخرون أن المدة التي يحصل فيها العامل على أجر مضمون بحكم العقد ستيسر له الاتفاق على جملة تعاقدات إجنبية تساعده اما على الاستقلال بعمله الفني في إصلاح المعدات ، أو على الاهتمام الى وظيفة دائمة مناسبة ، تبشر بتحقيق تطلعاته ، واستوطن أحد الميكانيكيين من صوهو إيطاليا ، وأنشأ عدة مصانع هناك ، وأشغالا أخرى ، قبل وفاته في ظروف غامضة قبل الغزو الفرنسي لإيطاليا بقليل ، وتولى آخر عملية تركيب محرك بخارى في البلدان الواطئة ١٧٩٣ ، ثم اختفى بعد ذلك . ولما أخفقت محاولات تتبع آثاره ، سلم وات باحتمال ذهابه لاسبانيا « لعل ما يؤيد هذا الرأي اعرابه الدائم عن الرغبة في العمل خارج انجلترا ، حتى يعيش بعيدا عن زوجته ، التي كانت تقدم أحيانا على بعض التصرفات العنيفة يحكم تعلقها الشديد به ! » . وذكر فيما بعد أنه شوهده في أمستردام يعمل في شركة يملكها أحد الأمريكان . وفي أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر ، نحل بالولايات المتحدة ، وعمل بمكتب نيقولاس . أ . روزفلت للأعمال الهندسية . وفي ١٨٥٠ كان بمقدور روزفلت الزعم « بأنه لا يفتقر الى الفنانين القادرين على تركيب المحركات طبقا لأفضل المخططات تصميميا

التي وضعها السيدان بولتون ووات ، لأننا لسنا مدينين لكما فقط بقدرتنا على استخدام امتيازكما وفق مشيئتنا ، ولكننا مدينون بالفضل أيضا للمهندسين الذين قاموا بتنفيذها ، وأغلب الظن أنهم أدخلوا تحسينات على هذه المخططات » .

وبعد أن تكررت أحداث عدم رجوع الميكانيكيين الى سوهو ، نزع بولتون ووات الى الارتياح في ارتفاع قبول الطلبات من العملاء خارج انجلترا ممن يحتاجون الى ميكانيكيين لمرافقة المحرك ، اللهم الا اذا ظهرت بشائر تدل على اقتراب التعاقد على صفقات أخرى . ففي ١٧٩٣ ، مثلا ، رفض طلب أجنبي كان مقدما من قبيل اختبار النوايا : « لصعوبة توقع ايفاد عامل لتركيبه ، وغير ذلك من المشاق ذات الأهمية البسيطة » ، وليس من شك أن هذا السبب بالذات كان وراء الموافقة على تلبية ثلاثة طلبات بتوريد محركات للمجر والنمسا بعد أن أقر شرط عدم المطالبة بإيفاد ميكانيكيين لمرافقة المحركات ، فكما أوضح بولتون لأحد العملاء الفيناويين : « يسعدنا أن نزودكم بالمحركات .. أما فيما يتعلق بالتعهد بإيفاد أشخاص لتعريف الآخرين كيفية تركيب محرك واحد فقط في مثل هذه البقعة القصية ، فانه سيكون من ناحيتنا ضربا من حماقة البالغة » .

وفيما بعد ، وكلما سمحت الظروف ، كان بولتون ووات يرشجان أحد الخبراء أو الميكانيكيين للعميل الأجنبي المميز في حالة تلقى أى مطلب جاد ، مع توقع احتمال استمرار بقاء الشخص في الخارج . وعندما قدم أحد العملاء خارج انجلترا طلبا لصفقة انجليزية تضم الى جانب المحرك مصنوعات من تشغيل دار أخرى للصناعة ، استطاع بولتون ووات أحيانا تحويل مسئولية العثور على الميكانيكي المناسب الى إحدى الشركات المشتغلة بتدريب العمال الميكانيكيين المهرة . فمثلا سافر صمويل جراي - وكان من العاملين الميكانيكيين السابقين للآلات عند « ريني » - الى البرازيل للإشراف على تركيب آلة صبك تقود وآلات أخرى هناك .

ومن حيث المبدأ ، فهناك احتمال تأثر موقف أى ميكانيكى للآلات ينوى السفر للخارج بالتشريعات التي تحرم خروج العمال المهرة والأدوات والمعدات . وعلى الرغم من أن التشريع لم يحظر تصدير المحركات البخارية - بصفة خاصة - الا أن هذا اللبس في تفسير التشريع قد زاد من عدم اطمئنان صناع الآلات لموقفهم ، فمثلا سعى بنجامين هانتسان للحصول على نصيحة بولتون ١٧٨٩ : « أرجوك أن تفيدني هل يباح تصدير المحركات البخارية ؟ أرجوك لأنني مطالب بتوريد أحد هذه المحركات » . وفي ١٧٩٢ ، عندما طلب منهما الرأي أجابا بأنهما يعتبران إيفاد أحد الميكانيكيين الى الخارج لتركيب آلة مصنوعة في انجلترا شيئا ، وإيفاد

ميكانيكى لتصنيع منتجات انجليزية فى الخارج شيئا آخر • ودار جدل بين الطرفين مؤداه أن أهمية الميكانيكى ترجع الى أنه اذا صدر أمر بتحريم مغادرة المشتغلين بتركيب الآلات فى انجلترا ، فان هذا سيكون مساويا لحظر تصدير المحركات البخارية من صنع بولتون ووات ، وما يستخلص من رأى بولتون ووات هو وجوب ترك الامر لهما لاختيار القرار الأصوب ، بعد مراجعة مزايا كل حالة من الحالات ، ومن ثم ففى ذات السنة اعتذر بولتون ووات عن ايفاد أحد الميكانيكيين الى أسبانيا لتركيب آلة ذات محرك لنشر الخشب (وقاما بدلا من ذلك باقناع أحد العاملين الميكانيكيين السابقين - وكان آنئذ فى ايطاليا - بتركيبها) ، وصدرا مطحنة غلال وبعض الآلات الى نانت بفرنسا ، كما أوفدا العمال الميكانيكيين اللازمين لتركيب هذه الآلات • • • • • وقدم العملاء الفرنسيون طلبا لتوريد ثلاثة محركات أثناء بلوغ الحرب الأمريكية للاستقلال ذروتها ، غير أن بولتون بعد تقديمه جملة التماسات وقيامه ببعض الضغوط الشخصية على أعضاء المجلس الخاص ، استطاع الحصول على جوازات سفر لتصدير السلع ، وحصل أيضا على تصريح برفع الحظر المفروض على السفن التى ستقوم بشحن هذه السلع • • • • • ولاحظ جون ولكنسون - وهو صاحب مصنع للحديد : « ان بمقدور المستر بولتون الاضطلاع بمهام فى مثل هذه الحالات تفوق المهام التى ينهض بها فارسان فى الايالة » (*) ، ورغم كل هذا فقد أمر مفتشو الجمارك ايقاف تصدير المحرك (**) • وفى حوارهما أثناء هذه المداولات تدخلت قوة خفية من الدوافع الوطنية فحجبت الصالح الشخصى • وفى مثل آخر ، اشترت شركة المياه فى باريس محركا واحدا ، بالإضافة الى قطع غيار لمحرك آخر ، وبعض أدوات التركيب من الصلب ، بدلا من شراء محركين كاملين • وتبين مدى دراية بولتون ووات من عدم شرعية هذا الاجراء من تصميمهما على وصف الأدوات « بقطع غيار للمحرك » ، وأثناء تفاوض بولتون من أجل التعاقد لتوريد آلة لصك النقود الى سان بطرسبورج فى روسيا ، صدر اليها نموذجا لهذه الآلة ، وزيادة فى الاحتياط والحذر ، التمس من ايفان سمرنوف التأكد من عدم وجود عقبات تحول دون اتمام عملية الشحن ، وحذره من عدم التوجه الى الجمارك بشخصه حتى لا يثير الشبهات • وعندما قبلت الطلبات بصفة نهائية ، تم الحصول على قرارات شخصية لتصدير آلات صك النقود الروسية والدانمركية ، بالرغم من وجود معارضة شديدة لذلك ، وليس من شك

Shire.

(*)

“by a proper dose of the golden power the eye sight had been cleared. (**)”

« لو أمكن قطر العين القطرات المناسبة ذات المفعول الصحيح ، سيتسنى لنا إزالة الغشاوة من العين » •

أنه من المتعذر وصف هذه الناحية من السياسة التسويقية لبولتون ووات بأنها خالية من التناقض ، فيما عدا عدم سماحهما اطلاقا بحيلولة التشريعات دون اقدامهما على تصدير النماذج والمحركات (وفنيين لتركيبها) بل وأقدموا في مناسبات خاصة على تصدير مصانع كاملة .

وبدت المفارقة أوضح في نظرة وات الى زوار سوهو من البلدان خارج انجلترا . وربما رجعت حيرتهم الى ادراكهم قيمة الجانب الترفيهي في تقنية المبيعات . وربما رجعت أيضا الى حساسيتهم المفرطة من الاشتباه في عمليات التجسس الصناعي . ومن المحتمل أن لا تكون النية قد توافرت لبعض الزوار لشراء محرك بولتون ووات . وبينما اتخذت عملية التجسس الصناعي داخل انجلترا بين الفينة والأخرى طابعا مثيرا للضحك والسخرية ، الا أن بعض المؤامرات المتعددة الألوان لجواسيس الصناعة من البلدان خارج انجلترا قد اقتربت من الهزليات ، كتذكر الجواسيس في شخصيات أخرى أو تسميهم بأسماء مختلفة ، وحذر جورج وأرنست وولف «بولتون ووات» ١٧٨٧ من دانمركي ذي ملامح شاحبة دائم النظر الى الأرض ، ويتمايل في مشيته ، ومن رفقائه بولاندي اتخذ اسما مستعارا (*) . وحتى بعد اقبال الورش الهندسية في سوهو ، فانه كان من المتعذر الحيلولة دون مشاهدة زوار البلدان الأجنبية محركات بولتون ووات أثناء تشغيلها في أماكن أخرى . وليس من شك أن الضرورة قد اقتضت تشجيع مثل هذه الأعمال . وحصل البارون شتاين على ما يريد من معلومات عن معمل للتخمين «بركلای وبركينز» بعد أن دفع رشوة لأحد الميكانيكيين . وبعد وقوع هذا الحادث ، التمس الشريكان النصيح من السير جوزيف بانكس ، الذي ألقى عظة جاء فيها : «عليكم أن لا تأتمنوا أجنبيا . فانا لا اعتقد أن أحدا منهم سيعجز عن محاولة سرقة المخترعات» .

أما الى أي حد أثبتت الجاسوسية الصناعية فاعليتها عند البلدان التي قادت النهضة الصناعية فمسألة تستأهل النقاش ، فلقد حاول باكلنج صنع محرك على غرار محرك بولتون ووات ، ولكنه لم يثبت فاعليته على النحو المرغوب . واضطر الى العودة الى انجلترا حتى يزداد استنارة . وتؤيد هذه الواقعة اصرار بولتون على ضرورة الاستعانة بالعمال الميكانيكيين الانجليز لاصلاح المحرك المصدر ، لاتساع الفجوة التقنية بين الصادرات الانجليزية وطريقة استعمال البلدان المستوردة لها . على أن الميكانيكيين أو المهندسين عندما اضطلعوا بدور الجواسيس فان النتيجة جاءت غالبا مثمرة . وعلى الرغم من استبعاد احتمال السماح لهؤلاء الأغراب بزيارة

دارى الشريكين ، وافتقارهم الى اتقان اللغة المعسولة أو الألقاب الحقيقية أو المنتحلة ، الا أن ملاحظاتهم كانت فى أغلب الظن أشد فاعلية ونفاذا ، وحاول أول عميلين لبولتون ووات الحصول على معلومات عن محركات ووات عن طريق القرصنة . واشترى الاثنان فى نهاية المطاف محركات من سو هو بتسهيلات وتخفيضات كثيرة فاقت ما حدث فى صفقات العملاء الذين جاءوا فيما بعد ، ولم يوفق الميكانيكيون فى تركيب هذه المحركات . ولا يرجع ذلك الى اشتعال الحرب بين بريطانيا وفرنسا . فلقد أصر العميلان على عدم حاجتهما الى مساعدة أى ميكانيكيين . وعندما ظهرت بوادر سفر بعضهم الى باريس برفقة آلات الأشغال المائية ، اعترض المهندس المسئول برييه متذعرا بأن هذا الاجراء سيسبب احراجا له فى فرنسا ، وأرسلت لوحات التصميم والأدوات برفقة الآلات عوضا عن ذلك ، وهكذا تيسر صنع محركات ووات فى فرنسا ، وكانت هذه النتيجة هى الغاية التى سعى اليها بلا شك برييه .

(٤)

وهناك مؤثر هام له تأثير أبعد لآليات اجتذاب الزبائن فى الأسواق خارج انجلترا . انه جانب اسداء النصيح فى مسائل هندسة الانتاج . واذا استثنينا بعض المرموقين مثل فان ليندن من البلدان الواطئة وروبرت فالتون فى الولايات المتحدة ، سنرى أن عملاء بولتون ووات خارج انجلترا كانوا أقل دراية بالمسائل الميكانيكية من أقرانهم البريطانيين . وحتى فى منشأة مثل مطحنة الغلال فى نانت حيث عهد بالمسئولية الى مهندس فرنسى قدير ، فان بولتون ووات كانا من الثقات التى يوثق برأيها فى الخدمات الهندسية الانتاجية ، وكثيرا ما أسديا النصيح فى مرحلة وضع التصميمات . وفضلا عن ذلك ، فان الاتصالات بين بولتون ووات وبين جون رينى (وهو من الموظفين السابقين) وأيضا مسبك م . بولتون وشركاه قد يسرت للشريكين التزويد بشحنة كاملة للعملاء خارج انجلترا بالمعدات الموصى عليها والمجهزة تجهيزا خاصا ، بالاضافة الى بعض المصانع الصغيرة والآلات من حين لآخر .

وكانت المشورة فى المسائل الهندسية الانتاجية لبولتون ووات مطلوبة بقدر كبير فى مسائل تشغيل القوى البخارية فى صناعتين : طحن الغلال والسباكة ، وكان لكل من بولتون ووات خبرة عملية فى احدى الصناعتين ، وساعدت التجربة المكتسبة من المطاحن التجريبية فى مصنع سو هو ، وفيما بعد من مطحنة البيون التى تدار بالبخر بلندن على اعتبار بولتون ووات من الثقات فى مسائل تكنولوجيا المطاحن والادارة ، وان كانت مطحنة البيون قد طرحت مشكلات فى الناحية التقنية والناحية

الادارية لم تصادف فى التجربة الأضيّق نطاقا التى تمت فى سو هو • وطالب ما يقارب ثلثى العملاء المتوقعين للمحركات البخارية فى صناعة المطاحن بمعلومات تفصيلية عن انتاجية محركات المطاحن وتصميمات المصانع ، ومخططات الأبنية ، وان كان لم يظهر فى أية حالة من الحالات تمتع المدير المسئول بما هو أكثر من الخبرة الهينة بطحن الغلال ! ويصح القول بأن مطحنة البيون قد حققت نتيجة اعلامية قوية ، وعمل بولتون ووات فى خمسة مشروعات من سبعة أجريت فى ميدان طحن الغلال باستعمال المحركات البخارية كمهندسين استشاريين للانتاج ، وفى حالتين (فى طاحونتى نانت بفرنسا وقادس بأسبانيا) تضمنت الاستشارة مسائل الحزم والرزم وطريقة ادارة المصنع وتشغيل الآلات المستوردة من رينى • وعندما بحثت فكرة انشاء مطحنة بخارية دانمركية ١٧٩٤ ، طلب من بولتون ووات النهوض بكل ما يتعلق بهذه المطحنة ماعدا مسئولية انشاء المبنى • وبعد ان التهمت النيران مطحنة البيون ودمرتها قدم ووات النصح للمسئولين فى نانت عن طريقة الوقاية من النيران •

وأثناء الحقبة التى شعر فيها الشريكان بالغبطة لما أنجزاه فى مطحنة البيون ، لم يقتصر الأمر على اسداء النصح للعملاء المتوقعين للآلات فى مسائل الانتاج والهندسة الميكانيكية للطواحين المدارة بالبخار ، فقد سعى هؤلاء العملاء للتعرف على أسعار المستحدثات فى طواحين الغلال • وقبل أن يشتهر بولتون ووات ، ويصابا بحالة انبهار ، بدت أسعارهما متواضعة ، وأرباحهما مشجعة • وفى ١٧٨٥ ، اشترك ووات فى مباحثات خاصة بمشروع لاستعمال القوة البخارية فى طحن الغلال فى ليون ، ووضع مخططا اشتمل على بيان تفصيلى بالتكاليف الثابتة والسنوية لطاحونة تضم ستة أزواج من حجر الرحى تعمل بلا انقطاع (يحتمل أن يكون مجموعها ثمانية أزواج) لطحن ٧٢٠ بوشيل من الدقيق يوميا ، ولم ترسل هذه المقايسة ، وقيل انها تحتوى على تفاصيل أكثر من اللازم ، وعدلت صورتها المختصرة فيما بعد لتخفيض تكاليف الفحم الى ٩٩٩ جنيتها انجليزيا ، وبذلك انخفضت التكاليف السنوية الى ٣٨٧ جنيتها وأربعة بنسات • وازدادت مزايا عملية الطحن بالقوة البخارية بعد أن بلغ ثمن الحمولة خمسة شلنات وخمسة بنسات •

وحوالى ١٧٨٩ أجريت مقايسة تفصيلية أخرى لتكاليف انشاء معدة لاطفاء الحرائق ، وتناظرها مطحنة لطحن الدقيق على أن تكون عمليات الانشاء والتشطيب والاقامة فى مقاطعة أندلسيا فى أسبانيا • وتجهز المطحنة بحيث تتمكن من طحن ١٢١٠ بوشيل يوميا • ولكي يتعرف الأسبان على مزايا المصنع الذى يدار بالبخار عقد بولتون ووات مقارنة بينه

وبين ما تتكبله المصانع المدارة بالبغال (*) من نفقات لانتاج مقدار مماثل من الطحين ، ولكن وبعد أن تزايد وضوح الخسارة المترتبة على مخاطرة بولتون ووات فى عالم الطحن فى لندن أصيبا بأحباط دفعهما الى عدم التحمس لتقديم النصيح والمشورة فى المسائل الخاصة بإنشاء المصانع .

وأثبتت دار سك النقود والميداليات التى أنشأها ماتيوي بولتون فى سوهو بعد سنوات قليلة من تشغيلها كفاءتها ودقتها فى سك النقود والميداليات التذكارية . ولمس هذه القدرة الملوك وأصحاب المقام الرفيع من الأرستقراط وأيضا أعضاء الحكومة والتجار فى البلدان الأجنبية . وأدركت قيمتها فى الدعاية . وبعد أن ذاع صيت بولتون كمخترع لآلة السك ، الى جانب تصميماته المبتكرة فى نظام الانتاج المتدفق فى المسابك ، أدى ذلك الى سعى الآخرين لطلب مشورته فى شئون هندسة الانتاج والهندسة الميكانيكية ، وقراءة انتهاء حياة بولتون ، خصص بعض وقته للاهتمام المتزايد بأعمال السباكة . وهكذا أثبتت الناحية الاستشارية الهندسية عنده فى جملتها انها أكثر واقعية من المشورة التى كان يقدمها بالاشتراك مع ووات فى مسائل الطحن . وكان يتجنب الانزلاق الى الحديث عن الجوانب المالية فى السباكة التى لم تكن ذات أولوية كبرى عند عملائه من الأجانب على أى نحو ، وكان العملاء المميزون المحتملون والعملاء الفعليون فى البلدان الأجنبية - من حكومات وملوك ونبلاء - يتحرون تحريات عامة ويقدمون الطلبات للحصول على ما يجرى فى عمليات السبك من بولتون مباشرة خلال مباحثاتهم لإنشاء مشروع متكامل للسباكة ، واضطلع ماتيوي وبولتون - ثم بعد ذلك ابنه - بمسئولية انتاج الآلات الهندسية والسبك على نفس النحو الذى اتبعه عندما اشترك مع ووات فى صناعة المحركات .

وساعدت قدرة بولتون على التخطيط وتحمل المسئولية لإنشاء مسابك كاملة فى نجاح التباحث لإنشاء محركات للسبك فى روسيا والدانمرك والبرازيل والهند :

« لا أزعج اننى مهندس ، ولكن خبرتى قد مكنتنى من تنظيم وتنسيق مسبك امبريالى عظيم . (ومن الضرورى) أن تنظم غرف دار السك على نحو يساعد على تدفق النقود الى الأمام من غرفة لأخرى الى أن تتم تعبئتها وتقديمها للتداول ، وأن لا يتجه خط الانتاج مرة الى الأمام وأخرى للوراء ، ولا بد أن أتقدم بالرجاء بعدم احداث أى تغيير فى أية غرفة من الغرف

التي يتوقع أن توضع فيها الآلات لتشغيلها . . . لأن هناك وحدة لا تنقسم
الى حد ما بين تصميم البناء والآلات . . .

وأردف قائلا : « لعل ارتيابي في الأولويات التي يضعها بعض
العملاء تدفعني الى تفضيل البناء المتواضع المريح المنظم والمزود بآلات حسنة
على البناء الذي يجمع بين الفخامة وعدم الصلاحية » .

وأدى استعداد بولتون ووات الواضح لاسداء النصيح للعملاء في
المسائل الهندسية الكبرى والمشكلات المالية الى اعتبارها من المصادر المباشرة
لرؤوس المال القابلة للتصدير ، وسعى كثيرون من المسئولين عن الادارة
الى اشراك الشريكين ماليا في المشروعات الصناعية خارج انجلترا ، من
خلال عروض الاسهام في السندات أو الاشتراك في المشروع ، فلقد طلب
من بولتون الاسهام المالي في مشروعات تصنيع الاسطوانات المعدنية
والشرايح المعدنية في روسيا ، وفي أحد المناجم بألمانيا ومطحنة بياريس ،
والمفات النحاسية وسك النقود في باريس والتنجيم في الولايات المتحدة
وفي مشروعات مختلفة في المقاطعة الكندية (نوبا سكوتيا) وشارك
الشريكان بأدوار منفصلة في مباحثات المشاركة ماليا في مشروعات
صناعية أجنبية (بولتون في مشروع الأخوين مانيرونز في باريس لانتاج
الملفات النحاسية وسك النقود - ووات في مشروع المطحنة البخارية في
ليون) غير أن جميع هذه المشروعات لم تحقق النجاح المنشود . وبوصفهما
شريكين فانهما اشتركا كحملة للاسهم في المشروعات المائية بباريس ،
بالرغم من أن هذه المشاركة لم تحدث الا بعد أن تزايد ادراكهما عدم
احتمال حصولهما على ثمن فوري لمحركاتهما ، ولم يبد قبول بولتون ووات
للاسهام في شركة الأعمال المائية في باريس في نظرهما عملا بعيدا عن
الوطنية ، أو لا يتواءم هو والاتجاه العدواني نحو المصالح البريطانية في
المصانع الأجنبية للمصنوعات المعدنية واللعب . كما أن بولتون بعد أن
تقيد بالارتباط في مشروع مغترب لصنع اللعب ، لم يبال بما ظهر من
تعارض بين استشاراته الهندسية في أعمال المسابك الفرنسية ،
وما يتقاضاه من عائد مالي : « أعتقد أنني منحت فرنسا اختراعي . . . وإلى
جانب ذلك ، سأقدم كل عون ميسور لي لهذا البلد (فرنسا) لصالح
المشروع » : لقد كان بولتون رجل أعمال في المقام الأول ، وانجليزيا
في المقام الثاني .

(٥)

ظلت أسعار المحركات البخارية لبولتون ووات ثابتة بدرجة ملحوظة
في السوق الانجليزية في الحقبة الواقعة بين منتصف عشرينات القرن

الثامن عشر وعشرينات القرن التاسع عشر ، واستوعب أصحاب المصانع التقلبات في أسعار العمولة الى حد كبير . وعلى الرغم من أن جداول الأسعار لم تنشر قط ، إلا أن الأرقام التي استشهد بها عند التعامل والعملاء المتوقعين قد كانت قريبة من الأسعار داخل انجلترا المتفق عليها التي وضعت بمعرفة الشركة . . ولم تكن هناك قوائم عامة بالأسعار للسوق الأجنبية ، وكانت اسبانيا هي البلد الوحيد التي قدمت قائمة بالتعريفات الجمركية ، وتمثل هذه القائمة ارتفاعاً ملحوظاً عن الأسعار الانجليزية ، التي سمحت لأصحاب المصانع بالحصول على ربح اضافي يتراوح بين ٢٠٪ و ٣٠٪ بالرغم من انكارها وتنصلها من فرض أى مكاسب أو تأمينات . ولم يحدث أى التزام دقيق بالقائمة حتى في اسبانيا ، وان كانت أغلبية الأسعار التي استشهد بها ، ودفعت للأسواق الخارجية بين ١٧٩٠ و ١٨١٠ قد سمحت لنفسها بنفس نسبة التعريفات الاسبانية ، على أن هذا التحميل بالزيادة لم يؤثر على مبيعات المحركات البخارية ، لأن أسعار المحركات لم تتخذ ذريعة للاخفاق في تلبية الطلبات أو رفض أى طلب .

ان النسبة العالية من مشروعات الأشغال العامة الى جانب العملاء المرموقين وأوائل من تبناوا المحرك لمشروعاتهم الخاصة والتي تمثل ٤٢٫٧٪ من العملاء الأجانب لبولتون ووات قد تفسر جزئياً أسباب تساهل المشترين في مسألة السعر ، وعندما اكتشف البائعون مجالا يسمح لهم بالمناورة ، تحولت أسعار المحركات البخارية الى مسألة مرتبطة بما يستطيع السوق تحمله . فمثلاً دفع ملك نابلي مبلغ ألف جنيه مقابل مكونات المحرك ، بالإضافة الى ألف جنيه أخرى مقابل الخدمات والرسومات والربح . عندما كان سعر المحرك ٧٧٨ جنيهاً ، واعتبر ووات ما حدث ربها ضخماً بدون وجه حق ، وحذر بولتون الذي كان حينذاك منشغلاً بالتفاوض مع الكونت الفرنسي « لعقد أفضل صفقة بالمقدور انجازها وقال له : عليك أن تراعى انك لا تباع الآن اختراعاً لأحد الملوك ولكنك تصنع محركاً لأحد التجار » . وكانت آلات السبك التي اشترتها الحكومة الدانمركية أغلى بمقدار ٥٠٪ من الأسعار المدرجة في قائمة بولتون ووات ، البريطانية ، وكان المسئولون الماليون في سوهو يتمتعون — كما يبدو — بقدر ما من من الحرية في تحديد أسعار العملاء الأجانب ! وعقب ووات (الابن) على ذلك بالقول بأنه اكتشف ان تقدير المسئول المالي لشركة خليج هدسون (١٨١١) كان باهظاً للغاية ، ولكنه تجاوز عن هذه المسألة ، وحصلوا على الصفقة . وعندما تقدمت الحكومة الهولندية ١٨٢٥ بطلب محركات بحرية (قوة ٧٠ حصاناً) حدد ووات الابن مبلغ تسعة آلاف جنيه ثمنها لها ، ولاحظ : « أنهم كانوا مستعدين تماماً لدفع هذا الثمن . . . بالرغم

من أنه يتجاوز بكثير السعر الذي تعاقدنا عليه مع مكتب البريد بمبلغ سبعين شلنا . وأردف قائلا ان فاوسيت من ليفربول قد تعاقد هو واحد العملاء على توريد محركين بحريين (قوة ٧٥ حصانا) بمبلغ ٨٨٠٠ جنيه ، وكان بولتون ووات يتوقعان تحقيق ربح يتراوح بين ٧١٪ و ١١١٪ من بيع المحركات في الخارج ، بالمقارنة بالربح الذي يحصلون عليه من المبيعات داخل انجلترا ، والذي يتراوح بين ٥٢٪ و ٨٧٪ . وجرت محاولات لتوحيد المصاريف الاضافية بالنسبة للعملاء من خارج انجلترا ١٨٢١ ، عندما اقترح وات (الابن) اضافة ٢١٪ للأسعار البريطانية ، ولكن وحتى ١٨٢٥ لم يطبق الاقتراح تطبيقا كاملا . وكانت السوق الهولندية استثناء في الأسعار ، اذ طلب من البيت التجارى القائم بالتفاوض لجعل الأسعار تقترب كثيرا من أسعار المحركات البخارية في انجلترا . غير أن هذا البيت التجارى قد عومل بصفة استثنائية في مقام آخر . اذ تخلى بولتون ووات عن مطلبهما المعتاد بضرورة وجود أحد الضامنين من لندن لاعتماد الطلبات .

والحالة الوحيدة التي يقر فيها الشريكان التنازل عن الحصول على أرباح طائلة من المحركات المباعة خارج انجلترا هي الحالة التي تجرى فيها الصفقة مع بلد يتوقع عقد صفقات مبيعات لاحقة فيها . فلقد تباحت جارى (أول عميل لبولتون ووات في فرنسا) من أجل وضع سعر محدد مع الاعفاء من دفع التأمين ، « لأن الواجب يقضى ايثار فرنسا في المعاملة باعتبارها كانت أول زبون للمحرك » ، وباختصار وكما لاحظ ويلكنسون : « ان جارى من الشخصيات العارفة بالأمر » . وهذه الميزة تزكيه لعقد أية صفقات أخرى . وكان أول محرك بخارى تم توريده للبلدان الواطئة بسعر التكلفة المحرك الذي بيع الى الجمعية الباتافية . غير أنه عندما جرى بعد ذلك بحث من قبل الهولانديين عن محرك (١٧٩١) طلب بولتون ووات مبلغ ٣٠٠ جنيه انجليزى ، وبررا ذلك بقولهما : « نعم لقد وردنا محركا واحدا بلا ربح لاقتناع أهل هولاندة » . ولكننا لن نستمر على هذا الحال . ان ما طالبنا به يمثل أدنى سعر يمكننا تقاضيه في مقابل مثل هذا المحرك . ومن جهة أخرى ، دفع عميل كندى مبلغ ألف ومائة جنيه (١٧٨٩) مقابل توريد محرك قوة ١٦ حصانا وهو سعر يزيد عن السعر المثبت في التعريفة الأسبانية في نفس التاريخ ، وسمح بربح ١٣٩٪ بالرغم من مزاعم الصانع : « بأنه لم يربح الا أدنى ربح » ، باعتبار هذه الصفقة هي الأولى مع هذا البلد .

يتعذر تقدير الوقت والجهد الذى بذله بولتون ووات في متابعة عملهما في الخارج . وأيضا يتعذر - باستثناء حالات قليلة - تقدير المبالغ التى أنفقاها للترفيه عن العملاء الأجانب وتقديم الهدايا ، وبلغ مجموع

النفقات التي تجشماها حوالى ألفى جنيهه أثناء اقامة ووكر فى سان بطرسبرج على سبيل المثال . ولا يضم هذا الرقم مرتبه أو مرتبات الميكانيكيين الأربعة الذين تولوا تركيب محركات معدات سك النقود . وبينما كان بولتون ووات يعلنان انتهاء مسئوليتهما بتسليم المحرك واستكمالهما فى سوهو ، ويطلب من العميل دفع القسط الأول من ثمن الشراء عند هذه المرحلة ، فانه غالبا ما اضطلع المصنع - عمليا - بمهمة المساعدة فى اجراءات التأمين والشحن ، بالرغم من عدم تكبد العميل هذه المصروفات وأجور ميكانيكي المحرك ، ولا يعرف دائما السعر الفعلى الذى دفعه العميل الأجنبى ، وان كان مقدار « الطريجة » فى المبيعات الأجنبية يمكن تقديرها اذا افترضنا أن التعريفه الأسبانية كانت تقترب من الالتزام بها . وعلى الرغم من تحميل بعض العملاء الأجانب ما هو أقل من التعريفه ، إلا أن الأغلبية كانت تحمل ما هو أكثر منها . ومن ثم فان الرقم النهائى لابد أن يجىء أقل من التقدير الحقيقى . وعلى هذا الأساس ، يصح القول بأن المبيعات الأجنبية خارج انجلترا وكان عددها ١٠٢ (مع استبعاد مبيعات جزر الهند الغربية) كانت ما بين ١٧٧٥ و ١٨٢٥ ، تعادل ما مقداره مبلغ ٦٣٤٤٦٧ جنيها من الطرائح (الأعمال المنجزة) .

وحدثت تقلبات سنوية ملحوظة فى الأرباح المتوقعة من مبيعات خارج انجلترا . ولم يتخط الربح الذى تحقق ١٧٧٩ ومقداره ٤٠٤٤ ر جنيها إلا بعد ذلك بعشر سنوات . ولم تتكرر هذه الحالة ثانية إلا ١٨٢٢ . وفى ديسمبر ١٨٠٠ ، حققت المبيعات الأجنبية ربحا يقدر بمبلغ ٨٥٠٩ جنيهات استرلينية ، وعلى نهاية ١٨١٥ ، تضاعف هذا الرقم على وجه التقريب ، مع تزايد الطلبات الآتية من خارج انجلترا للمحركات البحرية ابتداء من ١٨١٦ (وهى طلبات قدرت أرباحها بمبلغ ٢٤٧٤٨) أى نصف المجموع الكلى لأرباح المبيعات خارج انجلترا (٣٣٩٩٨) التى حصلت فى الحقبة ما بين ١٨١٦ و ١٨٢٥ ، والتى تصاعدت الى ما مجموعه ٦٥٦٣٨ (١٨٢٥) .

وكانت الطلبات الآتية من خارج انجلترا غير مؤكدة . فلم تؤيد التوقعات المبدئية لطلبين فرنسيين ١٧٧٩ . وعلى الرغم من وجود اهتمام فى فرنسا والمانيا وايطاليا والمجر وروسيا فى السنوات الخمس التالية ، إلا أنه لم يتم الحصول على أية طلبات أخرى من خارج انجلترا حتى ١٧٨٥ ، ولم يكن بينها أى طلبات مهمة ، الى أن جرت الصفقة الفرنسية والصفقة الأسبانية ١٧٨٩ . وما من شك أن المبيعات الأوربية قد تأثرت بالحروب الفرنسية (بين ١٧٩٣ و ١٨١٥) فلم يتلق الشريكان من فرنسا سوى استفسارين وطلبين ، وألقى طلب نمسوى ، وتوقف الاتصال

بايطاليا ابتداء من تاريخ الاتفاق على السلام بين نابلى وفرنسا ١٨٠١ ونهاية الحرب . وبلاستطاعة ملاحظة وجود نمط مماثل فى اسبانيا والبرتغال . وازدادت الطلبات الآتية من خارج انجلترا انتظاما وتوافقا ابتداء من ١٨١٦ . ولم يهبط هذا المستوى اطلاقا عن طلبين ، وارتفع من أربعة طلبات الى تسعة سنويا فى بعض المناسبات .

ولقد لوحظ اخفاق آليات « الدفعة » فى الأسواق خارج انجلترا . وليس من شك ان هذا هو ما خطر ببال مستر ر . بولتون عندما عقب فى سياق حديثه عن السوق الروسية ، فقال ان تبديد أى وقت آخر أو جهد آخر ، سيكون عملاً بعيداً عن الحكمة ، اذا راعينا أن بولتون ووات كان بمقدورهما الحصول على طلبات أكثر من جيرانهما الأثرياء بأعداد تفوق القدرة على تنفيذها ، ولربما صحت هذه الملاحظة على المدى القصير ، ولكن بعد التزويد بالخدمات الفنية الإضافية المتخصصة التى أثرت فى آليات الاجتذاب ، يصح القول بأن الزيادة التى حققها بولتون ووات من الأسواق خارج انجلترا قد بررت الجهود التى بذلت من أجل المبيعات ، وأثبتت صحة ما قاله ماتيو بولتون عن نيته تقديم خدماته لجميع ربوع العالم بتزويده بمحركات من أصناف مختلفة الأحجام ، وذكر هذا القول قبل شروعه فى انتاج المحرك بالاشتراك مع ووات .

المراجع

- I. T. Berend and G. Ranki, *The European Periphery and Industrialization 1780-1914* (1982).
- F. Braudel, *Capitalism and Material Life 1400-1800* (1944).
- F. Braudel, *The Structure of Every Life* (1982).
- P. Deane, *The First Industrial Revolution* (1979).
- E. L. Jones, *Agriculture and Economic Growth in England (1500-1615)*, 1968.
- D. Landes, *The Unbound Prometheus : Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* 1969.
- J. Lord, *Capital and Steam Power 1750-1800*, (1966).
- N. McKendrick, *The Birth of a Consumer Society*, (1982).
- P. Mathias, *The First Industrial Nation : An Economic History of Britain (1700-1914)*, 1969.
- A. Musson, and E. Robinson, *James Watt and the Steam Engine*, (1969).
- S. Pallard, *The Genesis of Modern Management*, (1965).
- S. Pollard, *Peaceful Conquest : The Industrialization of Europe*, (1981).
- R. E. Schofield, *The Lunar Society of Birmingham* (1965).

« حروب الموسوعة » في فرنسا ما قبل الثورة

روبرت دارنتون

ربما كان للكتب التي تصنع التاريخ تاريخ مهم هي نفسها . وهذا ما حدث في حالة « الانسكلوبيديا » أشهر ما نشر في عهد التنوير . وعندما أقدم ديديرو على تنفيذ هذا المشروع في خمسينات القرن الثامن عشر ، واجه الكثير من المعارضة من السلطات السياسية والدينية أبان حكم الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا . بيد أنه نجح في اخراج السفر العظيم المؤلف من عدة أجزاء . وانهى العمل فيه ١٧٧٢ . ويحتوى السفر على مقالات في الأدب والفلسفة والدين ، أبدعه يراع عظماء كتاب عصر التنوير ، الى جانب مقالات عن الحياة الاقتصادية المعاصرة ، ما برحت تعد مصدر الرئيسى لمعرفة باحوال الزراعة والصناعة والأساليب المتبعة فيهما في منتصف القرن الثامن عشر .

لعل هذا الجانب من القصة معروف الى حد ما . ولكن بعد ان انتهى تأليف الانسكلوبيديا (ولنستعمل من الآن فصاعدا كلمة موسوعة بدلا من انسكلوبيديا) وطبعها ، كيف أمكن توزيعها ؟ وما الذى تعرضت له بعد ظهور طبعتها الأولى ؟ ومن استفاد من هذه المخاطرة ؟ ومن اشترى المجموعة ، وأين يقطن المشترون ؟ ان الردود على هذه الأسئلة الخاصة بـ « التنوير » تدفع المؤرخ الى خوض أشوار عميقة من التاريخ الاجتماعى « للنظام القديم » . انها تكشف عن معاملات مالية امتدت الى نطاق واسع ، وعن محاولات للغش والابتزاز وتهريب الكتب خارج حدود فرنسا ، وعن جهود بذلت للتغلب على النقص فى الورق والحداد وآلات الطباعة ، وعن صراع شرس فى عالم المنافسة الفظة التى لا ترحم ، اذ يكمن وراء اشباع

The Encyclopédie Wars of Prerevolutionary France

American Historical Review

في Robert Darnton

بقلم

للجزء ٧٨ (١٩٧٢) من ١٢٢١ - ١٢٥٢ .

نور العقل الذى اشعته الموسوعة عاملان متضاربان ! الجرأة الفكرية ،
والممارسات العملية المشبوهة • غير أن المؤرخ عندما يتابع تاريخ نشر
الموسوعة ، فإنه يلاحظ تديرا مهما في توجهات الحكومة الفرنسية نحو
المشروع ، ويدرك أيضا صورة واضحة رائعة لنوعية الأشخاص الذين اقتنوا
الموسوعة ، ولا يستبعد أن يكون بينهم من قرأها •

نظر الى نشر الموسوعة فترة طويلة من الزمان على أنه نقطة تحول
في حركة التنوير • فعندما سمح لسفر ديدرو بالظهور في صورة مطبوعة ،
فان الدولة بغض النظر عن ابتعادها عن الكمال ، وعدم رضائها عن الفكر
الحر ، قد أتاحت الفرصة للفلاسفة لاختبار سلعتهم في ميدان الأفكار •
ولكن ماذا كانت عواقب هذا الاختراق للحواجز التقليدية للكلمة المطبوعة
في فرنسا ؟ عندما ركز العلماء الباحثون على المباشرة بين الموسوعيين
والسلطات الفرنسية ، فإنهم لم يذكروا أكثر من نصف القصة • أما النصف
الآخر فينخص المسائل الأساسية في التاريخ الاجتماعي للأفكار ، فكيف
كان الناشرون يخططون وينفذون عملية الطبع والنشر في القرن الثامن
عشر ؟ وكيف كان مدى الاقبال على أعمال مثل الموسوعة ؟ • ومن كان
المشترون ؟ هذا المقال يعنى بهذه المسائل • فنحن عندما نعيد رواية قصة
دورة الحياة لكتاب من الكتب ، فإننا نقصد بذلك الإشارة الى جانب من
الامكانيات في تاريخ النشر • وهو ميدان ظل دون أى التفات اليه رغم ما فيه
من جاذبية في مفترق طرق التساريخ الفكرى والاجتماعى والاقتصادى
والسياسى •

وعندما أخرج ديدرو وناشروه المجلد الأخير من الموسوعة ١٧٧٢ ،
فإنهم ظفروا بما هو أكثر من الانتصار المعنوى على نظام السيطرة على
النشر في فرنسا • ومن المحتمل أن تكون الطبعة الأولى قد ضمت مليوناً
ونصف المليون من الكتب التى حققت ربها هائلاً • غير أن الدولة منعت
تداول الكتاب علناً وصدرت معظم المجموعات (٤٢٢٥ مجموعة) الى عملاء
خارج فرنسا • والظاهر أيضاً أن الطبعة الثانية قد اعتمدت الى حد كبير
على اعداد غير فرنسى ، اذ كانت اعادة طبع على صفحات فوليو (١) للنص

(١) تشير مصطلحات فوليو وكوارتو وأوكتافو الى حجم صفحات الكتاب • وترجع
التسمية الى عدد الصفحات التى تطبع على فرخ ورق الطباعة الجاير • ففي حالة الفوليو
(١/٢ جاير) تطبع صفتان فى كل وجه ، وبذلك يصل عدد الصفحات المطبوعة الى أربع
صفحات • أما الأوكتافو فيضم ثمانى صفحات تطبع على كل وجه ، وبذلك يصل مجموع
الصفحات الى ١٦ صفحة • ويطوى الفرخ المطبوع ، ويؤلف ملزمة من الكتاب • وكلما
زاد عدد الصفحات المطبوعة على الفرخ صغر حجم الصفحة المطبوعة وصغرت حروف
الطباعة •

الأصلى ، وقام بطبعها فى جنيف اتحاد من الناشرين بالاشتراك مع شارل جوزيف بانكوك فى باريس . ولم يكتب البقاء لسجلات المبيعات ، ولكن ناشريها كانوا يأملون فى الأصل تسويق نصف مجموعاتهم (٢٢٠٠ نسخة) فى فرنسا ، وباعوا ١٣٣٠ مجموعة فى شتى أنحاء أوروبا كما ظهر عند تصفيتهم لحساباتهم النهائية فى يونيو ١٧٧٥ ، وبذلك يكون عدد النسخ التى بقيت فى فرنسا فى هذا التاريخ ٣٠٠٠ نسخة فقط من الطبعتين الأوليين ، على أكثر تقدير . وبذلك لا تكون الموسوعة قد غمرت البلاد رغم الاعتراف شبه القانونى بها .

بيد أن نشر الطبعتين التاليتين (طبعة ٣/٤ كوارتو و ٢ أوكتاو) للنص الأصلى له قصة جد مختلفة ، عن نشر الطبعتين الأوليين ، وبالمقدور روايتها بالتفصيل بفضل البحوث التى جرت فى سويسرا (*) وتبدأ القصة بالإدارى الفذ بانكوك المعروف « بأطلس تجارة الكتب » ، وأسلوبه المشهور فى عقد التحالفات وإثارة الخصومات فى عالم النشر والسياسة .

ففى ١٧٦٨ ، اشترى بانكوك من الناشرين الأصليين الأصول الزنك للموسوعة ، وحقوق نشرها . أما ماهية هذه الحقوق ، فمن المتعذر معرفتها على وجه الدقة . واستعمل بانكوك فى مراسلاته بعض المصطلحات (**) . ولكن الحكومة تنكرت للامتياز الذى سبق أن منحتة للموسوعة ١٧٥٩ ، ولم يوضح مسجلو الامتيازات فى المكتبة الوطنية بباريس حدوث أى استرداد لهذا الامتياز ، وبينوا أن بانكوك قد منح امتيازاً عاماً لمدة ١٢ سنة فى ٢٩ مارس ١٧٧٦ « لتجميع لوحات خاصة بالعلوم والفنون والحرف » ، مما يؤيد زعمه الحصول على نوع ما من حق النشر . وعلى العموم ، فلقد أكد بانكوك هذا الزعم بمغالة شديدة . فلم يكتف بإظهار العقد الذى اشترى بموجبه حقوق الناشرين الأصليين ، ولكنه أبرز أيضاً ترخيص الحكومة الفرنسية ، وباع حصته كاملة من امتيازها لحفنة من الشركاء ، لمدة محدودة ، إذ كان يعيد البيع والشراء ، لشركاء جدد ولإصدار طبعات جديدة .

وأول موسوعة يصدرها بانكوك هى الطبعة الثانية (وكانت إعادة طبع فى حجم الفوليو ١٧٧١ - ١٧٧٢) . وتعد هذه السنوات من السنوات العصبية فى تاريخ تجارة الكتب من تأثير الإجراءات القمعية التى اتخذتها حكومة الثالث (ميرابو - وتيراي وأجيلون) ، ومن ثم رأى بانكوك طباعتها

Société Typographique de Neuchâtel.

(*)

Recueil des planches sur les sciences, arts et metiers.

(**) استخدام مصطلحي droit و Privilège .

فى جنيف بمعرفة شركائه السويسريين ، ومن بينهم ناشر فولتير (الملك جبريل) كرامر . وكانت عملية الطباعة عاصفة حفلت بالمشاجرات مع الشركاء ، وبالصراع مع موسوعة « بروتستانتية » منافسة ، وتخللتها معركة خاسرة مع الحكومة الفرنسية التى صادرت ستة آلاف مجلد كان بانكوك قد طبعها فى باريس أصلا . وأما هل ساعده النجاح فى إصدار هذه الطبعة على أحداث « فرقة » فى السوق الفرنسية فأمر غير معروف ، إلا أن الصعوبات التى واجهته لم تشبط عزيمته . وكانت الابواب تفتح على مصراعها عندما يدخل بوابة دار الحكومة بفرساي « وكأنه أحد كبار الوزراء » أما رسائله فكانت مرصعة بعبارات الحماسة من كبار رجال الشرطة ، والمختصين بنشر الكتب والوزراء .

وفى ٣ يوليو ١٧٧٦ ، باع بانكوك نصف أرباحه من ملكيته لامتياز إصدار الموسوعة مقابل ١٤٣٠٠٠ لحدى دور النشر (*) ، التى تعد من أهم دور النشر الفرنسية خلال العشرين سنة السابقة للثورة . وبعد أن أضاع الوقت فى التخطيط لنشر إعادة طبع أخرى ، قرر هذا الاتحاد الجديد إصدار طبعة مزيطة منقحة ، ورثى أن يتولى إعادة كتابة النص نخبة من الفلاسفة الجهابذة من بينهم مارمونتيل وموريليه ولاهارب ودارنو وسانت لامبير وتوماس وتحت إشراف سويار ، ويساعده دالمبير وكوندورسيه ، ولم يضم بانكوك اليهم ديدرو « لأنه عنيد » (**) ويطلب مبلغا خرافيا ، وربما أشعرنا بالاحباط ، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على دالمبير بحكم قدرته على التأثير على الملك فرديريك الثانى ملك بروسيا . ولعله يقنعه بقبول الهدائه العمل الجديد . وبحث دالمبير أيضا فكرة كتابة تاريخ للموسوعة فى الطبعة الجديدة . غير أن هذا المقال مات قبل أن يرى النور ، مثل الكثير من الكلاسيكيات الأخرى التى لاقت نفس المصير كتاريخ الحركة البروتستانتية الفرنسية لراينال وتاريخ وزارة تيرجو لفولتير . فلم تتجاوز هذه الأعمال مرحلة المشروعات التى تلقت ضربة قاضية عند عرضها على بساط البحث على الكتاب والناشرين . وفى آخر الأمر أحبط مشروع إنتاج هذه الموسوعة رغم الخطط الهائلة التى أعدها مساندوها ، بعد أن ظهرت طبعة منافسة برخص ثمنها . انها الطبعة الكوارتو ، التى أصدرها جوزيف دوبلان من ليون ١٧٧٦ ، والذى قام بدور الخصم فى هذه الرواية ، ويعد واحدا من أجرياء القراصنة فى عصر « الأسلاب الرأسمالية » .

Barthelemy de Félice فى Yverdon

Société Typographique de Neuchâtel.

Une mauvaise tête.

(*) أصدرها

(**)

وخصص دوبلان دار نشره على غرار كثيرين من المشتغلين ببيع الكتب ونشرها في الاقاليم لنشر الكتب الرخيصة او المنقولة عن طبعات أخرى من افتاج دور النشر التي انتشرت خارج حدود فرنسا ، هربا من قيود « الامتياز » والرقابة على الفكر التي خنقت دور النشر المستحدثة داخل فرنسا . واشتم دوبلان رائحة الكسب من امكانية اصدار طبعة من الحجم الكبير للموسوعة ، وعلن افتتاح باب الاشتراك في الطبعة الكوارتو الرخيصة التي تتألف من خمسة أجزاء من الأجزاء التي ظهرت في النص الأصلي . ولجأ في سبيل حماية نفسه الى نسبة الطبعة لجان ليونارد بيليت ، وهو من أصحاب المطابع في جنيف ، وكافأ بثلاثة آلاف نسخة نظير قيامه بنور خيال المآته . وعندما اطمأن الى زيادة الاقبال على حجز نسخ من الموسوعة ، تعاقد دوبلان على الطباعة هو والعديد من المحلات في جنيف محتفظا بالأعمال المالية والادارية لنفسه ، وعول على امكانية نقل الكتب الى فرنسا اما بالتهريب - اذ كان يتمتع بنفوذ كبير عند نقابة بائعي الكتب في ليون ، بالرغم من قوة أعلامه في نقابة باريس - أو بالحصول على التزام السلطات الفرنسية للحياة ، ولكنه لم يعمل حسابا لبانكوك .

وكان أمام بانكوك احتمالان : اما أن يصرع دوبلان ، أو ينضم اليه واستهوى الحل الأول بانكوك ، لاقتناعه بإمكان الاستناد الى الحماية بطريقة فعالة تمكنه من سد قنوات التجارة في الكتب في السوق السوداء . غير ان نجاح « الاشتراك » في الحجز ، زاد من اغرائه . وكان بانكوك يعرف كل خطوة يخطوها دوبلان بفضل التقارير السرية التي كان يتلقاها من أحد باعة الكتب(*) . وكان رجولت يعرف أن الاشتراك يعنى البيع عن طريق المضاربة ، وأثبتت المعلومات المتلقاة « من شتى الأنحاء » ، بأن الطبعة الكوارتو من الموسوعة ستحقق أعظم ربح حث خلال القرن . ومن ثم طرح رجولت جانبا مشروع اصدار طبعة منقحة ، وتباحث هو ودوبلان في وسيلة أخرى ، فباع احتكاره للامتياز القانوني الذي يبيع له النشر مقابل وقف الاشتراكات . وفي ١٤ يناير ١٧٧٧ ، وقع الاثنان (بانكوك ودوبلان) ، ما أصبح يعرف فيما بعد « بمعاهدة ديجون » واتفق الاثنان على أن يتقاضى كل منهما نصف الربح في مشروع الكوارتو الذي قسماه فيما بعد على شركائهما (وانتهى الأمر بحصول الجمعية الطباعية(**) على خمس المشروع الكلي لصالحها) والتزم دوبلان بإدارة الانتاج والتوزيع والتمويل للطبعة تبعا لشروط حددت تفصيليا في العقد ، وتعهد بانكوك بالتزويد بنصف رأس المال ، وبثلاثة أخماس الزنك وبتغطية المشروع بحماية امتيازاه . ولم يكن البند الأخير ميزة هينة ، ففي أغسطس ١٧٧٧ ، كتب بانكوك

« سيحتمى مدير المكتبة (*) مشروعنا » ، بل ومنح بانكوك بصريحا بتوريد الكتب الى مخازنه فى باريس مباشرة ، متخطيا الجمارك ونقابة بائعى الكتب والرقابة . وفى ذات الوقت ، كتب توجيهها للمسئول عن رقابة الكتب المصدرة فى ليون بالتصريح بمرور الصناديق المشحونة من سويسرا ، وكأنه وزير من الوزراء ! . والواقع أن بانكوك قد أحكم تمثيل دوره حتى انخدع أصحاب المطابع السويسرية ، وأقدموا على تعبئة شحناتهم من كتب الموسوعة المحظورة ، وبدلا من أن تضطر السلطات المسئولة الى استخدام قوتها ، كما فعلت فى خمسينات القرن الثامن عشر ، فقد وزعت الموسوعة تحت اشراف المسئولين وحمايتهم . وساعدت هذه الحماية على التمويه ، وتوزيع الكتب التى أرادت الدولة مصادرتها .

ولم يخطر ببال بانكوك ودوبلان أن مثل هذه العملية التهريبية البسيطة ستجر فى ذيلها ابتزازا . فقد وجها كل عنايتهم للحصول على الحد الأقصى للربح ، وأثبتت الطبعة الكوارتو أنها عمل مربح الى درجة غير مألوفة . فلقد تدفقت الطلبات من كل حذب وصوب ، وجنى البائعون ثمارا لم يسمع عنها من قبل ، ودهش البائعون لما حدث من نهم لاقتناء الموسوعة ، فقبل ذلك ، كان الاقبال خامدا عند الزبائن الذين عجزوا عن شراء الطبقات الفوليو . وكتب أحد الزبائن من مستريخت (**): « لم يسبق ظهور كتاب انتشر مثل هذا الانتشار » وكتب رسبلاندى من تولوز « لقد ملأت الموسوعة شوارعنا » مرددا نفس الملحوظة التى ردها أحد باعة الكتب فى ليون « كأن مدينتنا قد أصبحت مرصوفة بالموسوعة » . وقال بانكوك مبتهجا : « تجاوز نجاح الطبعة الكوارتو كل توقع » . وعند فتح باب الاشتراك ، كان دوبلان يحلم أحلاما بعيدة المنال ، اذ كان يأمل فى بيع أربعين ألف نسخة . وامتلا باب الاشتراك حتى فاض بسرعة مذهلة . ومن ثم فتح دوبلان بابا آخر للاشتراك ، بلغ عدد ما حجز فيه ثمانين ألف مجموعة (تحتوى كل مجموعة على ٣٩ مجلدا) وهذا عدد غير عادى فى عصر كانت فيه طباعة المؤلفات المكونة من مجلد واحد لا تباع أكثر من ألف نسخة .

ويفسر ما حدث من تعاقب للاشتراكات سر اختفاء الطبعة الثانية الكوارتو ، وبذل كتاب الببليوجرافيا جهودا مضنية بحثا عن هذه الطبعة

Le Camus de Neveille.

(*)

(**) Dufour - وميسترخت Maestricht وهو اسم البلدة التى وقع فيها الاتفاق الشهير لتوقيع الاتحاد الدولى الأوروبى ، والذى ما زال يشغل بال الأوساط العالمية، ونجرى الاستفتاءات الشعبية للاطمئنان الى حسن تقبل مختلف الاقطار الاوربية له قبل وضعه موضع التنفيذ .

الثانية، ولكنهم لم يهتدوا الا للطبعة الاولى أو طبعة بيليه(*)، أو الطبعة الثالثة للموسوعة الكوارتو . والتزم دوبلان بطباعة النسخ المطلوبه للاشتراك الثانى، الى أن وصل عمال الطباعة الى الفرخ ١٠ من المجلد السادس ، وجرى ذلك باستخدام آلة طباعة طاقتها الانتاجية أربعة آلاف نسخة . وأصدر دوبلان توجيهات باعادة طبع ألفى نسخة من كل ما أتموا من طباعة ، على أن يواصلوا العمل بعد مراعاة زيادة طاقة الانتاج الى ستة آلاف نسخة . وهكذا لا يصح القول بوجود طبعة ثانية قائمة بذاتها . وتوافق فتح باب الاشتراك للمرة الثالثة هو والطبعة الثالثة المنفصلة ، بعد اعادة صف كل فرخ، وانتاج ألفى نسخة . ويتم المظهر العام لكل صفحة ، وطريقة توضيبها على ان هذه الطبعة هى بعينها الطبعة الثالثة الصادرة فى نويشاتل بمعرفة « الجمعية الطباعية » . وليس من شك أن هذه الطبعة كانت مجرد حيلة ابتكرها دوبلان لتضليل المشتركين الذين شعروا بالامتناع من الطبعة الرديئة التى أصدرها بيليه . والواقع أن الجمعية الطباعية لم تتول طبع أكثر من مجلد واحد فى طبعتها ، وأنتجت أربعة مجلدات من تلك التى ظهرت باسم بيليه . وفى كل حالة ، كان دوبلان يجرى تعاقد فرعا للطبع، ويتخفى وراء اسم الجمعية الطباعية الزائفة .

واستعان دوبلان بعمال طباعة من نويشاتل وجنيف وليون وتريفو وجرينوبل ، وشغل أكثر من أربعين مطبعة لاجراج حوالى ريمائة ألف مجلد : وتطلب انتاج مثل هذا القدر من الكتب ، وتوزيعها ، حشد أكبر عدد من عمال الطباعة لانجاز أضخم عملية طباعة فى العهد السابق للعصر الحديث . وتكبد النشر تكاليف باهظة . فقد احتكرت الموسوعة زهاء سنتين ونصف عمليات الطباعة فى جميع المنطقة المحيطة بليون ، واقتصر الأمر على طبعتها هى وحدها باستثناء بعض المؤلفات الكنسية . هكذا ذكر أحد العملاء ١٧٧٨ ، واستغرقت جمعية الطباعين خمسة شهور لطباعة ستة آلاف نسخة من أحد الأجزاء الضخمة التى تحتوى كل صفحة من صفحاتها على عمودين . واحتاج تمويل ثمانمائة نسخة من كل مجلد من المجلدات الى رأس مال ضخيم ساق بانكوك ودوبلان الى الالتجاء الى اتحاد البنوك الفرنسية والسويسرية . ولاحظ العميل ذاته فى ليون : ان كل من امتلك قليلا من المال ، واستطاع تخصيص جانب منه لشراء الكتب كل شهر أو كل سنة قد استثمره فى مشروع اخراج الموسوعة الكوارتو . واستهلكت الموسوعة مقدارا كبيرا من الورق مما أدى الى تعذر العثور أحد البائعين على فرخ واحد يبيعه « للجمعية » لمواصلة الطباعة مما دفع هذه الجمعية الى ايفاد مبعوثين لها فى شتى أنحاء فرنسا وغرب سويسرا بحثا عن كل رزمة ورق من القطع المربع مقاس ٥٠ فى ٦٤ المعنب . ولم يتمكن عمال الزنكوجراف من ملاحظة

المطابع وتزويدها بما يكفى من الحروف (وكانت أنسب حروف وامت الورق الكوارتو هي الحروف المسماة حروف الفلسفة) . وهكذا أخفق بعض العاملين بالطباعة فى جنيف فى بدء العمل وفقا للخطة الموضوعة . ١٧٧٧ ، واضطر العاملون بمطابع نويشاتل الى التوقف عن الطباعة فى أخرج اللحظات بعد استلامهم برميلا من المداد الردىء ، بينما قام صانع الأحبار - وهو من الباريسيين ويدعى لانجلوا - بنسب حظه لارتفاع التكاليف ، ولم يحصل على الأرباح التى كان سينفقها كأجور لعمال جنى محصول الزيتون الهزيل فى ميدى . واستغل « العريجية » الموقف بعد تلاحق الطلبات ، وطالبوا بزيادة أجورهم . وأحدثت الموسوعة حالة من الفوضى فى سوق الطباعة . ولم يقتصر الأمر على اضطراب المشتغلين بالطباعة الى السير مئات الأميال بحثا عن العمال ، ودفعهم شح الموارد الى شن الحملات للبحث عنها فى مختلف المحلات ، مع الاستعانة بجواسيس متخصصين فى الصناعة من أمثال أحد « الساعاتية » المعلمين فى جنيف (لويس مارسينيش) الذى كتب لجمعية الطباعين فى يوليو ١٧٧٧ :

« لقد أفسد بيليه وباسومبير بوعودهم المبالغ فيها الكثير من العمال ، واستنفدوا كل ماعثر عليه فى محلات الطباعة القريبة ، ولكنهما لم يرغبوا دفع ما هو أكثر من ١٥ فلورين و ١٥ سول من استحقاقاتنا عن كل فرخ ورق . ومن هنا صمم عدد لا بأس به من العمال على تركنا لأنهم يطالبون بمبلغ ١٧ فلورين عن كل فرخ . والرجل الذى سيتركنا هذا الأسبوع قاصدا نويشاتل واحد من هؤلاء ، واسمه كايزل . وهناك اثنان من المشتغلين بالطباعة وعدائى بالحضور للتباحث ، وفى نيتهم الرحيل أيضا . ولن أتردد عندما تسنح الفرصة فى موافاتك بأسماء الساخطين من محلات بيليه وباسومبير ونوفر » .

وباختصار ، لقد أحدثت الموسوعة الكوارتو ردود فعل حتى فى القطاعات الاقتصادية البعيدة عن الطباعة . فلقد استدعى الموقف شغل عالم بأسره من جامعى « الخرق » وزارعى الزيتون والمولدين والفلاسفة الذين تعاونوا لخلق عمل مكافئ للجهود المادية التى بذلت فيه ولرسالته الفكرية . فبوصفها شيئا ماديا ، فلقد اشترك فى انشاء الموسوعة استجابة لمطالباتها المادية وكأداة للفكر ألف من العلوم والفنون والحرف ، ولعلها مثلت عصر التنوير روحا وجسدا .

ولا يستبعد أن يكون ناشرو الموسوعة قد أمضوا وقتا طويلا ، وأجروا عمليات حسابية عديدة لتقدير التكاليف والأرباح لتحقيق مثل هذه الفكرة السامية . وقدرت جمعية الطباعين الايراد الكلى للمشروع بمليونين وربعمائة وخمسين ألفا واثنين وتسعين جنيها ، أما التكاليف فكانت مليوناً ومائة وسبعة

عشر ألفا وثلثمائة وأربعة وخمسين جنيها . وبذلك يكون الربح الصافي قد ناهز مبلغ مليون وثلثمائة وستة وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين جنيها . وبعبارة أخرى فقد حقق المشروع عائدا يقدر بمائة وعشرين في المائة من التكاليف الفعلية . فلا غرو اذا اعتبروا هذه العملية أروع عمل يمكن أن يجرى في عالم النشر ، أو اذا اشتعلت بسببها نيران مريضة من الحروب التجارية .

ولم يبق أمام دوبلان الذي قدم الطبعة الكوارتو كمغامرة شخصية ، وبعد أن اعترف - شرعيا - بمغامرته غير دفن ما اقتنى من ثروات . وظهر قراصنة آخرون سايروا الريح السائدة ، وتسابقوا في هذا المضمار . فأولا حملت الأنباء خبر ظهور طبعات مزيفة منافسة من جنيف وأفينيون . وبعد أن اطلع بانكوك على هذه الأنباء ، اعتقد أنها مجرد خدع ، واستشار رفاقه في طريقة الخروج من المأزق ، وأخطروهم أنه رتب الأمور للحيلولة دون دخول أي كتاب من هذه الطبعات الى فرنسا : « وهل يتحقق أي نجاح بغير نساء » ؟ ولقد أصاب القول . وجاء اعلانه كوسيلة لايقاف ناشري الكوارتو عند حدهم وارغامهم على دفع فدية ، وهدد باضطراره الى المضاربة وبيع الموسوعة بالخسارة ما لم يدفعوا مبلغا من المال من قبيل التعويض وحماية حقوق النشر . ويكمن الخطر في الحكم على هذه المباراة في تعذر التفرقة بين الهجوم المخادع والهجوم الحق ، حتى يتضح موقف من هاجمهم . وبعد أن اختفت من الأفق طبعات الكوارتو في جنيف وأفينيون ، أعلن « جرابيت » و « باريت » من ليون خططا لنشر موسوعة أخرى في حجم الكوارتو ، وأثبتا أنهما لم يقصدا أي استغلال بدليل طبعهم مجلدات قليلة . ورأى دوبلان وبانكوك ان الأحكم في هذه الحالة هو الاستسلام ، وقررا تعويض جرابيت وباريت بمبلغ ٢٧٠٠٠٠ جنيه لتسوية هذه الأزمة ، وهو مبلغ يتساوى تقريبا مع أجر العاملين معهم في الطباعة طيلة حياتهم ، وتلقيا في المقابل وعدا موثقا بالامتناع عن أية أعمال تزيفية أخرى ، ثم عرفا اعتزام اتحاد الناشرين في لوزان وبرن اخراج طبعة ربما كانت أصغر وأرخص من الموسوعة (الحجم الاوكتافو) يمكن أن تباع بحوالى مائتي جنيه ، وصمم دوبلان وبانكوك هذه المرة على الصمود والقتال .

وفي البداية كان ناشرا الطبعة الكوارتو يأملان في تعرض مغامرة الاوكتافو للخسارة ، وتندروا على ما سيحدث لقراء هذه « الطبعة المنمنمة » ، وتنبا بتعرضهم لفقدان الابصار ، وأعلن بانكوك : « ان هذه الطبعة الاوكتافو قد تحدث بعض الفزع ، ولكنها لن تضرنا . » فمن الحماقة طبع الموسوعة في مثل هذا القطع الصغير . وفضلا عن ذلك ، فاننا سنهتدي الى من يدافع عنا هنا . وأنا في انتظار عودة الحاكم (*) حتى أوضح له كل شيء .

وأعدكم بأغلظ الايمان بعدم دخول هذه الموسوعة الى فرنسا قط ، • وأجابت الجمعية الطباعية : « انك تحمل مفاتيح المملكة » • ولكن التقارير التي جاءت من بائعي الكتب في الاقاليم أفادت بأن اشتراكات الاوكتافو تباع على نحو منهل يتماثل وما حدث في حالة الكوارتو • ومن ثم بدأت جماعة الكوارتو في التشاور ، لا بغرض المصالحة ، وانما لتأخير تنفيذ الاوكتافو الى أن يكتمل « الكوارتو » ، ويعلن عن ظهور الطبعة الجديدة المنقحة ، وبذلك يقطعون الطريق أمام سوق الاوكتافو • وأدرك ناشرو لوزان وبرن هذه الخطة - وكانوا من المحنكين في النشر على طريقة القراصنة - بعد قليل من المفاوضات ، وصمموا على المضي قدما في طباعة الاوكتافو • وحاول دوبلان اكتساحهم بعملية هجوم بالمواجهة ، فنشر اعلانا يفيد احتمال إصدار جماعة الكوارتو طبعة جديدة بسعر أرخص من طبعة الاوكتافو في لوزان وبرن • وفي أول نوفمبر ١٧٧٧ ، هددت لوزان وبرن بالتأثر : اسحبوا تصريحكم في غضون خمسة عشر يوما، والا سنضطر لتخفيض السعر الخاص بالاوكتافو الى مستوى سعركما ، وسنقضي على طبعكما الكوارتو بإصدار طبعتنا بسعر أرخص :

« عليكم أن تقبلوا عرضنا ، وأن تخفضوا سعركم • فبهذه الطريقة سيذبح كل منا الآخر • ولكنكم كنتم البادئين ، (والبادي أظلم) • وقد قرضتم علينا هذه الضرورة ولا تظنوا أن هذا التهديد تهديد أجوف • فالبرامج جاهزة ، ولدينا نفس الحروف وآلات الطبع الضرورية تحت امرتنا في ايفردون » •

وأرغمت هذه المناورة دوبلان على التراجع ، ولكنها أسفرت أيضا عن اشتعال الحرب سافرة • فعلى الرغم من استمرار المفاوضات بلا توقف - وهذا أمر مألوف في حروب القرن الثامن عشر - فإن كل طرف قد استمر في حملته بلا هوادة ، محاولا تحطيم سوق الطرف الآخر •

واعتمدت جماعة الاوكتافو على استراتيجية التهريب ، وجمعوا الاشتراكات المطلوبة ، وارتكزوا على امكان الاتصال بزبائنهم من خلال السوق التحتية لتجارة الكتب في الخفاء (السوق السوداء) • ورسمت جماعة الكوارتو خططها على أساس اقامة تحصينات ضد هذه السوق ، فوعد بانكوك شركاءه : « أؤكد أنهم لن يحاولوا اقتحام فرنسا • ولقد وعدني الحاكم بذلك • ولعلكم تعرفون أيها السادة أن التسليح بالامتياز يساعدكم على عدم التنازل عن حقوقكم مثلما فعلت • فدوبلان مضطر الى الاتفاق معنا ، لأن لدينا عقودا وامتيازات ، وسيسعى فريق لوزان للقيام بنفس الشيء » • ان امتلاك الامتياز والحماية ، الذي كاد يقضي على الطبعة

الأولى من الموسوعة قد استغل كخط دفاع أساسى فى محاولة انقاذ الطبعة التالية . فلقد حدثت عدة ظروف غيرت الحال عما كانت عليه فى عهد لويس الخامس عشر ، وظهرت أوضاع جديدة فى عهد لويس السادس عشر ، دعت الحكومة الى اعتبار الموسوعة صفقة تجارية أكثر من كونها مسألة أيديولوجية . ويوحى هذا التوجه الجديد بتغلغل معتقدات التوير فى الحكومة ذاتها ، ولكنها لا تدل - حتما - على حدوث وهن فى الهمة . والواقع أن الصراع بين استراتيجيات التهريب والاستراتيجية البوليسية قد جاء بمثابة اختبار لقدرة الحكومة على السيطرة على الكلمة المطبوعة .

وفى منتصف ١٧٧٨ ، أوفدت جمعية المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل مبعوثا(*) فى جولة فى جنوب فرنسا ووسطها . وكلف المبعوث باديء ذى بدء بالتحقق من خطوط الامداد على الحدود الفرنسية السويسرية . وعرف عندما وصل الى سانت سولبيس (وهى آخر مدينة على الطرف السويسرى من الحدود) أن أدوات التهريب لميرون وشركائه قد تحفظت على خمسمائة قفص يتسع كل منها لحمولة قدرها خمسمائة رطل انجليزى) تحتوى المجلد الأول من الموسوعة الاوكتافو . ولقد أبلغه الاخوان ميرون ذلك بأنفسهم ، وهم يشعرون بما هو أكثر من الزهو بمهنتهم ، لا لأنهم أسلموا المجتمع ما هرب ، وإنما كتعويض وقتى لبيون من بونتارلييه أول خطوط التهريب الذين يرغبون فى الحلول محله . وعلى الطرف الآخر من الحدود فى بونتارلييه ، أبلغ بيون « فافارجار » أنه شاهد خمس شهادات للاعفاء من الجمارك - أى من الضريبة الجمركية التى تستعين بها النولة الفرنسية للتحكم فى الواردات من الكتب الأجنبية - حرزت بمعرفة كابيل عن طريق الغش . وكابيل هو نقيب باعة الكتب فى ديجون . ولما كان كابيل مطلوباً للمساءلة بعد مصادرة الكتب التى صندها ، فقد وعدت ديجون الآن بتخطي بيزانسون بوضفها المستودع الرئيسى لهذا الطريق التحتى ، كما أفصح فافارجار بلهجة المنتصرين عندما أخطر موظفيه بنقل « الاوكتافو » من برن الى سان سولبيس الى ديجون ، وأنها فى طريقها الآن الى باريس رأسا . وأخفت جمعية المشتغلين بالطباعة اسم كابيل آملة « أن يقدم لنا خدمة مماثلة مقابل مبلغ من المال » وروى باقى ما عنده من معلومات لبانكوك الذى نبه السلطات الفرنسية ، التى انتهى بها الأمر الى مصادرة الاقفاص ، ووضعت السلطات خطة أخرى لعملية مصادرة أخرى فى تولوز على سبيل المثال حيث ألحقت احدى المشاجرات الكبرى خسائر ضخمة بجماعة الاوكتافو . ولما جاء شهر أغسطس ، أوردت التقارير الميدانية لفافارجار بتخلي المشتركين عن الاوكتافو ، واندفاعهم نحو ميدي . وفى بواكير

١٧٧٩ ، تقسم ناشرو الاوكتافو بطلب للمصالحة مقابل دفع التعويض المناسب .

واستمرت المفاوضات طوال العام ، بينما أنهت جماعة الكوارتو تسوية أوضاعها في فرنسا ، وحاولت جماعة الاوكتافو تعويض خسائرها عن طريق تسويق الموسوعة وسط أوروبا ، وشرقها . وأخيرا في فبراير ١٧٨٠ ، باع بانكوك ترخيصه للنشر في فرنسا الى اتحاد لوزان - برن لقاء ٢٤٠٠٠ جنيه انجليزي ، واعتبرت هذه الصفقة عملية بخسة ، لأنها تعادل ٨٪ من سعر الانتاج الجارى تقريبا . وهذا يثبت الى أى حد استمرت قوة الطلب على الموسوعة ، في حسابات الناشرين ، على أقل تقدير ، الذين اكتشفوا جماهير جديدة من القراء لم تبلغ حالة التشبع . وفي آخر المطاف ، وبعد أن شعرت جماعة الاوكتافو بالامان ، زادت مطبوعاتها الى ستة آلاف نسخة . وهذا يفسر سر فقدان الطبعة الأخرى . وبذلك وقعت في التو في فخ آخر من فخاخ بانكوك . ولما كانوا عاجزين عن الدفع الفوري له ، لذا أقنعوه بقبول فدية نوعية ، يعنى ما قيمته أربعة وعشرون جنيها انجليزيا من الموسوعة الاوكتافو . وأغرق بانكوك السوق الفرنسية بالنسخ الاوكتافو ، بسعر مخفض ، ثم ربط الخسارة بمبيعات جماعة الاوكتافو مستقبلا ، بأن أشاع قرب اصداره موسوعة أخرى تجب جميع الموسوعات . ولن تكون هذه الموسوعة الجديدة مجرد طبعة منقحة - كان قد خطط لها بالاشتراك مع جمعية المشتغلين بالطباعة - ولكنها ستكون موسوعة منظمة بطريقة علمية . وكان عاكفا آنذ على ترتيبها بمعاونة اتحاد من لبيع . ولم تكن هذه الضربة هي الضربة القاضية في المعركة (تحت الحزام) . فبعد ذلك بأربع سنوات ، اجتمع الأعضاء القداماء في جمعية الاوكتافو . ومن الغريب أن ينضم اليهم حليف بانكوك السابق ، يعنى جمعية المشتغلين بالطباعة ، التى أعلنت عن خطة لسلب الموسوعة التى وعد بها . ولم تذهب هذه الخطة الى ما هو أبعد من مرحلة التخطيط . ومع هذا فيمكن القول بأن حرب الكوارتو والاوكتافو قد انتهت بهزيمة لوزان وبرن .

لم تتسبب معارك النشر في انقطاع تزود فرنسا بالموسوعات الرخيصة نسبيا . والأمر عكس ذلك . فقد أثبتت مدى شراسة كفاح الناشرين لاشباع حاجة السوق الفرنسية ، ومدى أهمية هذه السوق، وصورت أيضا الطابع العدواني للمستولين الاداريين عن النشر في عهد التنوير بالمقارنة بصناعة النشر ذات الاتجاه المحافظ التى كانت خاضعة للروح النقابية داخل فرنسا . وأخيرا فانها كشفت عن عدم كفاية النظرة العامة ، التى اعتقلت أن التنوير و « الرجيم » كانا محصورين في قتال حتى الموت ، لأن جماعة الكوارتو قد إحتطت السيطرة على السوق ، عندما تبنت النولة استراتيجية تجمع بين.

الحماية والامتياز ، وتمثل أساليب «النظام القديم» ، وتوحى بحدوث تحول في اتجاه الحكومة في منتصف سبعينات القرن الثامن عشر . فالكتاب الذى يصعب القول باستطاعته النجاة من الاضطهاد على عهد لويس الخامس عشر ، قد أصبح الأفضل مبيعا ابان حكم لويس السادس عشر ، بعد رضا الحكومة عنه .

ودارت آخر معارك الموسوعة داخل فرنسا . انها معركة أهلية بين دوبلان ورفاقه . ففي فبراير ١٧٧٩ ، تقابلوا فى ليون لتقييم موقفهم . وعلى نقيض كل التوقعات ، ذكر دوبلان أرقاما متشائمة عن حركة البيع ، وأوضح رأيه بالقول بأن أوائل المشتركين قد « أحسنوا التعامل معنا » . ولعل هذا النجاح هو الذى أغرى الرابطة بالتوسع ، وربما تعد الطبعة الثالثة للموسوعة كارثة . وقد استطاع انقاذها لو أمكن توزيع الألف مجموعة التى لم تباع ، على أن تتولى كل رابطة تسويقها فى الأماكن التى ارتفعت فيها المبيعات الى ذروتها ، وأيد بانكوك هذا الاقتراح ، لأن منطقة باريس كانت محجوزة له ، وكان بمقدوره توزيع حوالى نصف المجموعات الخمسمائة على « جمعية المشتغلين بالطباعة » . وبعد ذلك بستة شهور ، وفى تقرير اتسم بشدة الجهمامة ، حذر دوبلان من علم كفاية هذه المناورة ، لانقاذ الطبعة الثالثة . وأخبرهم أن مئات المجلدات ستصاب بالعطب بالمخازن ما لم تتخذ اجراءات حاسمة ، وأنه اكتشف لحسن الطالع تاجرا يدعى بيران . وهو من مجانين الموسوعات ، ومن ثم بات بمقدورهم اغراقه بالنسخ غير المباعة . على أن بيران طالب بشروط غير مألوفة كتخفيض يبلغ خمسين فى المائة . ولكن الحظ سيكون بجانبهم اذا نجحوا فى التخلص من فائض المخزون لديهم بأى سعر . وقد أبدى بيران استعدادة للحصول على عدد ضخم ، يقدر بربعمائة واثنين وعشرين مجموعة ، بالاضافة الى ١٦٠ مجموعة من نصيب بانكوك (ألف مجموعة) التى تقاسمها هو ودوبلان فى فبراير . وأقر بانكوك الاقتراح . ولكنه فور توقيع عقد بيران ، شرع فى الكشف عن ارتيابه . فلقد سمح أن دوبلان قد حاول توريط صديق مشترك فى مؤامرة سرية لاغراق سوق باريس بنسخه من الكوارتو . واكتشف ما يكتنف رسائل دوبلان من غموض يدعو الى القلق ، فيما يتعلق ببيران الذى وصف بأنه « عميل تجارى من ستراسبورج ، ولديه أعمال فى ليون - أو ربما فى باريس بمعنى أصح - وأنه شديد الثراء ، مما يعنى امكان التجاوب معه » . وفى سبتمبر ١٧٧٩ ، أسر بانكوك الى جمعية المشتغلين بالطباعة ! « انى جد مقتنع بأن هذا (البيران) لا يزيد عن مخلوق من صنع الخيال ، أو على أقصى تقدير انسان هش ، وألوبة . فهو بخيل ، واصطناعه الرقة لا يخفى على أحد » . فقد أصبح مقتنعا بأن دوبلان « شخصية شريرة » ، شره ويعبد المال الى درجة شعوره بالغضب من كل

ما يمس هذه الناحية » . وليست هناك أية حدود لضراوته ومطامعه . ونصح «جمعية المشتغلين بالطباعة» بإيفاد جاسوس الى دكان دوبلان ، وان كانوا لم يشعروا بأية حاجة الى التشجيع على القيام بذلك لأنهم كانوا قد أقدموا على هذه الخطوة منذ أمد بعيد . والواقع أن جميع أعضاء الرابطة كانوا يتبادلون التجسس . فخصص بانكوك رجلا لمراقبة دوبلان ، وتلقى مواطنو نويشاتل تقارير سرية عن بانكوك ، وخصصوا عميلا لهم في جنيف ، ونصب عميلهم في ليون فخا من الجواسيس المندسين في المصانع ، وتسنى لهم ايقاع دوبلان فيه في فبراير ١٧٨٠ .

وجدت شبكة ليون لاقتفاء أثر المراوغ بيران ، الذي اتضح أنه العوبة وعميل أجير للدوبلان . ثم أوقعته الشبكة في فخ أكبر ، بعد أن عثرت على نسخة من قائمة سرية بأسماء المشتركين ، وتتضمن أيضا مقادير المبيعات الفعلية للموسوعة . ولم تشر القائمة الى مبيعات بيران ، ولكنها احتوت - بدلا من ذلك - على عدد من الاشتراكات يزيد بمقدار ٩٧٨ عن العدد الذي أبلغ عنه دوبلان في آخر تسوية للحسابات في فبراير ١٧٨٠ . وكانت جمعية المشتغلين بالطباعة قد ارتابت في حدوث غش ، قبل هذا الاجتماع ، وتحققت من وقوعه ، بمجرد تقديم دوبلان لتقريره ، وكتبت الى بائعي الكتب الذين زيف عدد ما لديهم من مشتركين ، بعد مقارنة الاشتراكات المبلغ عنها ، بما جاء في القائمة السرية . وبذلك اكتشفت عدم توقف سيل الطلبات قط ، كما زعم دوبلان . وعلى العكس ، فقد بيعت الطبعة الثالثة عن بكرة أبيها بالسعر العادي ، باستثناء خمسمائة مجموعة استودعها «دوبلان» بانكوك . وهكذا اتضح اخفاء دوبلان حقيقة المبيعات حتى يستولى عليها بأكملها ، دون أن يدفع مقابل لخمسمائة نسخة من الموسوعة ، اشتراها وباعها للباقيين بنصف السعر اعتمادا على الوسيط الزائف : بيران .

وبدلا من أن يقنع دوبلان بهذه العملية المذهلة من الغش المزدوج ، التي تربح منها ما ينوف عن المائتي ألف جنيه ، تمادى في عمليات الغش ، حتى أصبحت العملية جمة التعقيد ، بحيث يتعذر تفسيرها بالكامل . وأتاح له دوره كمدير عام للمشروع فرصا عديدة للاختلاس ، لأن رابطة الكوارتو منحته مبالغ طائلة لتغطية نفقاته . ، ومن ثم تعاقد على الطباعة هو والمتقدم بادنى عطاء « ولهف » في جيبه الفارق بين ما منح (بضم الميم) وما دفع . وغش أيضا في تقدير أثمان الورق وتكاليف النقل ، بل واشترك في تقنية تنسيق « الماكيت » والترقيم التي صممها أحد المختصين في الطباعة من جنيف . وكشف في هذه النواحي عن مهارته في حيل الغش والتدليس . وهذه ناحية ربما بدت تافهة في نظر أي نصاب مبتدئ ، ولكنها ساعدت على تضخيم الجزء التاسع عشر ، الذي أضيفت اليه ست وتسعون

صفحة بلا أدنى حاجة ، وقدر ثمنها بسبعمائة وأربعة وأربعين جنيها ، وقدر بانكوك وجمعية المشتغلين بالطباعة ما نال دوبلان من ردود الفعل القوية والعمولة المحرمة بمقدار ١٢٧٠٠٠ جنيه . وان كان هذا مجرد تقدير تقريبي ، لا أظنه يتوافق مع عبقرية دوبلان . ولربما تجاوزت أرباحه ثلاثة ملايين من الجنيهات بفضل حساباته الغامضة - بقصد - والتي تخفت في ثنائياها اختلاساته ، التي اشتملت على بعض المصروفات النثرية والايرادات المشبوهة . ولعل دوبلان قد احترف الغش في كل صغيرة وكبيرة . فمثلا نسب ٤٩٤ اشتراكا لمصنع ليون : أودانبرون وجوسينييه بالسعر المخفض (الذي يمنح عادة لباعة الكتب) بمقدار ٢٩٤ جنيها يضاف اليها مجموعة مجانية لكل ١٢ اشتراكا ، مما جعل المجموع الكلي يصل الى ٥٣٥ اشتراكا . واكتشفت الشبكة المناهضة لدوبلان أن « أودانبرون وجوسينييه » ما هما الا جهات زائفة نسبت اليها هذه القصص للتمويه ، بينما قام دوبلان في الحقيقة ببيع هذه المجموعات (٥٣٥) بالسعر الكامل للاشتراك (٣٨٤ جنيها) وبذلك سلب الرابطة ما قيمته ٥٦٠٢٠٤ جنيها !

ولما كان مشروع الكوارتو قد أدير بأسلوب المؤامرات من البداية ، لذا فقد انتهى بالتفجر وكأنه احدى نهايات الدراما البورجوازية ، أو « صراع الديوك عند الانجليز » على حد قول جمعية المشتغلين بالطباعة . ولقد أخفت القوى المعادية لدوبلان شكوكها ، بينما كانت تجمع قدرا من المتفجرات يكفي لنسف دوبلان في اللقاء الأخير لاجتماع الحسابات الختامية في ليون (فبراير ١٧٨٠) . ولم تكن عملية مواجهة الموارد سهلة ، كما اعترفت جمعية المشتغلين بالطباعة لبانكوك : « لقد كنت حكيما عندما استشرتنا ، وطلبت موافقتنا على مدهنته وعدم اظهارنا لاي ضيق من مسلكه حتى ينكشف أمره ، غير أنه بعد أن تدخل الشيطان ، ازدادت صعوبة الموقف يوما بعد آخر » . فعندما تكشفت الحقائق ، فاجأت الرابطة دوبلان بوابل من الاتهامات التي أعدها فيما يقرب من السنة . وقدموا صورة صحيحة من الحسابات ، وكشفوا عن تسلسل مذهل لعمليات الاختلاس ، وأماطوا اللثام عن مسألة بيران ، وانتزعوا علامات التمويه التي أحاطت « بأودانبرون » و « جوسينييه » ، وعرضوا القائمة السرية للاشتراكات مصحوبة برسائل من باعة الكتب تشهد بوفرة احداث الغش في المبيعات . ولكن رغم كل ذلك ، فقد رفض دوبلان التداعي والاعتراف ، ومن ثم شنوا حملة على مكتبه ، بمراقبة مندوب من الشرطة والمدعى العام وأحد المحضرين ، وطالبوا بجرد أوراقه ، وأثاروا أسرته وأصدقاءه ضده ، وهددوا بتحطيم اسم الأسرة بالكشف عن المسألة برمتها للكافة . وأخيرا استسلم دوبلان ووافق على تعويض شركائه بمبلغ مائتي ألف جنيه ، اذا واروا كل شيء عن الأنظار ، ومازالت المسألة مستترة حتى اليوم .

فأى نوع من الرجال كان هذا النبيلان ؟ وللسؤال جاذبية خاصة تهم التاريخ الاقتصادى ، وتاريخ النفس الانسانية على السواء . لقد كان دوبلان من « شيوخ المنسرين » فى تجارة الكتب ، ومقامرا يغامر بالتعرض لأخطار فادحة فى سبيل الحصول على أرباح عالية ، واستطاع أن يجعل من « التنوير » موردا للاستغلال . فلقد صمم على المجازفة بكل شئ فى سبيل الموسوعة الكوارتو . فباع محله ورصيده من الكتب وبيته ومفروشاتة ، وانتقل للإقامة فى غرفة مفروشة حتى يتفرغ لمهمته الكبرى . ثم حاله الحظ فى أوراق لعبته ، فقد نجحت هذه المقامرة فى إثرائه ، الذى لم يتأثر حتى بعد أن أجرى تسوية المائتى ألف جنيه . وبمجرد أن أدرك ما أصابه من ثراء ، بدأ فى تخطيط خطوات حياته . فحصل أولا على زوجة جميلة من ليون أسرت لب بانكوك ، ثم حصل على صنعة فى الريف ، وأخيرا حصل على وظيفة رئيس الخدم الخاص بالملك (*) ، وهو ما يعنى انضمامه الى طبقة الاشراف . وكان يخدم الملك فى أوقات العمل الرسمية فى فرساي ، ويعيش برفقة زوجته حياة مترفة بغیضة فى باريس ، قبل أن ينتقلا منها للإقامة فى قصره .

فما هى العبرة المستقاة من هذه القصة ؟ انها دراما تذكرنا ببلزاك . قصة رجل أعمال بورجوازي شق طريقه الى القمة ، ثم استهلك ثروته فى المظاهر ، وفى حياة ارسقراطية ، بعيدا عن الناس . انها قصة أسطورية للثروة المقتناة من عمليات النشر ، وما يصحبها من أوهام ضائعة (**) . ويصح أن توصف أيضا بقصة الرأسمالية الفرنسية . وأعظم ما فيها من سخرية أن تكون الوسيلة التى اعتمد عليها دوبلان فى تسلقه الى قمة النظام البالى للطبقات فى فرنسا قبل أن يقضى عليه بسنوات قليلة ، هى موسوعة ديدرو . ولعل باستطاعتنا الاستناد الى قصة دوبلان كتحذير ضد الافراط فى الوثوق فى التحاليل الاجتماعية من النوع الذى سيجى ذكره . فحتى اذا أمكنك ادراج شخص ما ضمن فئة اجتماعية واقتصادية ما . فلربما يكون قلبه فى موضع آخر . نعم لقد اتضح أن الرأسمالى البورجوازي الكامل دوبلان من النبلاء الزائفين ، أو هل يصح القول بأن الطبعة الثالثة المنتحلة للموسوعة كانت هى جوهر البورجوازية الفرنسية ؟

وربما استطاع التاريخ « الجوانى » للحرب بين من أصدروا الموسوعة أن يكشف شيئا ما عن روح الرأسمالية وطبيعة رجال الأعمال فى بداية عهد فرنسا الحديثة . غير أن هذا التاريخ لن يجيب على التساؤل الأكبر حول ماهية ما دار من معارك . بطبيعة الحال ، لقد كانت رأسمالية الأسلاب

تشن من أجل الأسلاب . فقد أدرك بانكوك وغيره من القراصنة من أمثال
دوبلان والسويسريين ، ومن سار على هديهم من ممولين ومهربين وبائعين
متجولين ، أن باستطاعتهم اقتناء ثروة ضخمة ان هم تجاوزوا والمطالبة
الرهبية للسوق في فرنسا بطبعة شعبية لهذا العمل الجبار الذي ظهر في
عصر التنوير . وتوحى شراسة المنافسة لتحقيق هذا المطلب بشيوع
الاهتمام بمعتقدات التنوير وذيوعها على نطاق واسع في فرنسا بين الجماهير
العريضة ، ان لم يصح تسميتها بطبقة عامة الناس ، ولكن ما هو طابع هذه
الجماهير ؟ يتماثل هذا السؤال هو والكثير من مشكلات سوسيولوجية
الأدب في صعوبة اجابته ، وان كان بمقدورنا تحديد المظاهر الخارجية
لطبعة قراء الموسوعة . فأولا لابد أن نستعرض الحقائق الأساسية المتعلقة
بطبعات نص ديدرو . ولعل هذا العرض سيساعدنا على التعرف على
المستويات الاقتصادية لمختلف أنماط المستهلكين . وأخيرا فبمقدورنا أن
نحاول بيان التوزيع الجغرافي والاجتماعي للطبعات الكوارتو ، والتي كانت
الى أبعد حد الأكثر عددا في فرنسا ما قبل الثورة . واذا صرفنا النظر عن
الطبعات الايطالية التي نشرت (بالفرنسية) في لوكا ولجهورن والموسوعة
البروتستانتية المنقحة التي نشرت في ايفردون بوساطة بارتليمي دي فليس
والموسوعة المنهجية - العمل الذي أعيد ترتيبه بالكامل ويقع في اثنين
وعشرين مجلدا ولم يكتمل حتى ١٨٣٢ - فاننا سنرى أن نص ديدرو قد
مر بمراحل أربع أساسية :

١ - الطبعة الأولى (١٧٥١ - ١٧٥٢) وهي طبعة فوليو مكونة من
سبعة عشر مجلدا ، وتحتوى على متن و ١١ لوحة متبوعة بملحق(*) من خمسة
أجزاء ، وبعض الجداول التحليلية في جزئين . وطبع منها ٤٢٢٥ مجموعة ،
لم يبع منها أكثر من نصفها ، أو ربما ربعها في فرنسا . وكانت قيمة
الاشتراك ٨٩٠ جنيها وتراوح سعرها في السوق في سبعينات القرن
الثاني عشر بين ١٢٠٠ جنية و ١٥٠٠ جنية .

٢ - الطبعة المعادة في جنيف (١٧٧١ - ١٧٧٦) وصدر منها نفس
عدد مجلدات الطبعة الفوليو ، وطبع منها ٢٢٠ مجموعة . وكانت قيمة
الاشتراك ٧٩٤ جنيها ، ولكنها كانت تباع سنة ١٧٧٧ بمبلغ سبعمائة
جنية بعد منافسة الطبعات الكوارتو لها .

٣ - الطبعات الثلاث الكوارتو (١٧٧١ - ١٧٨١) وتناظر الاشتراكات
الثلاثة لدوبلان . وظهرت بمعرفة بيليه وجمعية المشتغلين بالطباعة في
نويشاتل ، كما ذكر آنفا . واشتملت الطبعات الكوارتو على ستة وثلاثين

مجلدا تحتوى على المتن ، وثلاثة أجزاء تضم اللوحات . وتشتمل هذه المجلدات فى جملتها على ٨٠١١ مجموعة . وقد بيعت بأكملها تقريبا بقيمة الاشتراك (٣٨٤ جنيها) . ثم خفضت قيمة الاشتراك للأفراد وبأعلى الكتب الى ٢٩٤ جنيها ، مع اهداء نسخة مجانية لكل ١٢ طالبا .

٤ - الطبعتان الأوكتافو (١٧٧٨ - ١٧٨٢) . ويعدان بالفعل طبعة واحدة مزيدة مقابل اشتراكين ، ونشرت فى لوزان وبرن . وتضم الطبعة الأوكتافو ٣٦ جزءا من المتون وثلاثة أجزاء من اللوحات . وقد ظهر منها ستة آلاف مجموعة بيع كل منها بمبلغ ٢٣١ جنيها .

وتستخلص من هذه الوقائع والأرقام احدى النتائج المدهشة وهى وجود أعداد من الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة الفرنسية تجاوز كل ما يخطر ببال البشر باستثناء الناشرين فى القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من تعذر اجراء حاسبة دقيقة لعدد ما بقى من نسخ اعتمادا على معرفة أعداد المشتركين التى وردت فى مستندات الناشرين ، الا أن هذا لن يحول دون اجراء مثل هذا التقدير على نحو بعيد عن الزلل . فقد وجد فى فرنسا ما بين أربعة عشر ألف مجموعة وستة عشر ألف مجموعة من الموسوعة قبل ١٧٨٩ ، ولن يتعذر تتبع آثار نصفها ، ومن ثم فبغير ادعاء معرفة كل من مجموعات الموسوعة قد قرئ ، أو على أى نحو استجاب القراء لها ، فان بوسعنا حقا أن نزعم انتشار التعلق بالموسوعة فى المجتمع الفرنسى على نطاق أوسع مما يعتقد بوجه عام .

وبعد أن تطورت طباعة الموسوعة من طبعة لأخرى ، تناقص حجم صفحاتها ، وقل عدد اللوحات ، وانحط مستوى الورق ، وانخفض سعرها . وبعد أن تناوبت دور النشر اخراج الموسوعة ، فانها مدت شباكها لاجتذاب جماهير جديدة ، مما أدى الى وصول الطباعات الجديدة الى قطاعات قصية من جماهير القراء . ويبين من تنوع أسعار الموسوعة ، على نحو دفع من يقتنونها الى المفاضلة بين مختلف الطباعات ، الحدود التقريبية لما حدث من اتساع فى نمط المبيعات . اذ كانت الطبعة الكوارتو تتكلف أكثر من ربع سعر أول طبعة فوليو ظهرت فى سبعينات القرن الثامن عشر ، بينما لم تتكلف الطبعة الأوكتافو ما هو أكثر من الخمس . ولكن ما هى الحدود الاجتماعية « لاستهلاك » الموسوعة ؟ . ربما بدا هذه السؤال غير مناسب لأن علم الاقتصاد لا يقدم تفسيراً لما يعنيه مصطلح « استهلاك الكتاب » ، لأن عملية شراء الكتاب شئ ، وعملية قراءته شئ آخر . ومع هذا فان بيع الكتاب اجراء مهم اذا نظر اليه من الناحية الثقافية والناحية الاقتصادية معا ، لأن هذه الظاهرة تزودنا ببعض دلائل عن مدى انتشار الأفكار خارج الوسط الفكرى ، الذى جرت العادة على تركيز التاريخ الحضارى أو الثقافى

عليه . ولما كان لم يسبق على الاطلاق اجراء دراسة لمبيعات أى كتاب فى القرن الثامن عشر ، لذا يعد تحليل مبيعات أهم سفر ظهر فى عصر التنوير مسألة فائقة الأهمية .

وبمقدورنا أن نقيم مدى اقتراب « الموسوعة » من الاحتكاك بالطبقات الدنيا ، اذا ترجمنا قيمتها الى خبز ، يعنى الى السلعة الرئيسية فى مائدة « النظام القديم » والعنصر الأساسى فى غذاء معظم الفرنسيين . وسنرى آنئذ أن أول موسوعة فوليو تعادل حوالى ٢٥٠٠ رغيف من الخبز . وتعادل الموسوعة الكوارتو ٩٦٠ رغيفا من خبز الشيلم على أساس ثمانية « سو » لكل أربعة أرطال فى خبز الشيلم فى باريس ما قبل الثورة . ولما كان العامل غير الماهر المتزوج ولديه ثلاثة أولاد يحتاج لشراء مالا يقل عن ثمانية أرغفة لتغذية أسرته ، وينفق فى أوقات اليسر نصف دخله على الخبز ، لذا تحتل الطبعة الرخيصة من الموسوعة الكوارتو ما ينوف عما يحتاجه اقتيات أسرة فى سنة على وجه التقريب . ويبدو بعيدا عن التصور احتمال شراء عامانا للموسوعة - بفرض تمكنه من قراءتها - فلعل هذه الصفقة أقرب شيها باحتمال شرائه لقصر من القصور ! وربما تكبدت أسرة العامل فى سبيل شراء نسخة من الفوليو أجر ٩٣ أسبوعا . وتعادل الطبعة الكوارتو أجر ٢٦ أسبوعا والاوكتافو أجر ١٥ ١/٢ أسبوعا . ومن ثم كان من المستبعد أن تقدم الشريحة العليا من الطبقة العاملة والحرفيين أى أولئك الذين اشتركوا فى طبع الموسوعة ، على تحمل تكاليف شرائها .

أما من اشتركوا فى تحريرها من صغار الكتاب (*) المدرجة أسماؤهم فى صفحة العناوين ، فقد كان باستطاعتهم شراء الطبقات الأرخص . وحدد ديدرو بالذات متوسط ٢٦٠٠ جنيه سنويا مقابل جهده لمدة ثلاثين سنة فى الموسوعة . ولعل الطبعة الكوارتو كانت ستكلفه ٧ ١/٢٪ من أتعابه والاوكتافو ٤ ١/٢٪ وهذا التقدير لا مغالاة فيه ، اذا راعينا اعتماده على مصادر دخل أخرى . وكان هناك كتاب كثيرون أغنى من ديدرو يتقاضون ما يكفى لسد الرمق من أولياء نعمتهم ومعاشهم . ومن نماذج ميسورى الحال الجديريين بالتنويه ساورين (**) وقد نسي أمره الآن وكان دخله يناهز ٨٦٠٠ جنيه سنويا من معاشه وأتعابه . وقد أدرج اسمه ضمن فئة الكوارتو باعتبار ثمنها يعادل ٢ ١/٢ دخله فى أسبوع . وعبر كاتب على قدر الحال (***) - وهو من الكتاب المغامرين الذين كانوا يقتاتون على فتات مائدة فولتير - عن شدة تحمسه لطبعة الاوكتافو فى رسالة الى جمعية المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل بقوله :

* Gens de lettres.

B. J. Saurin.

Durey de Morsan.

(*)

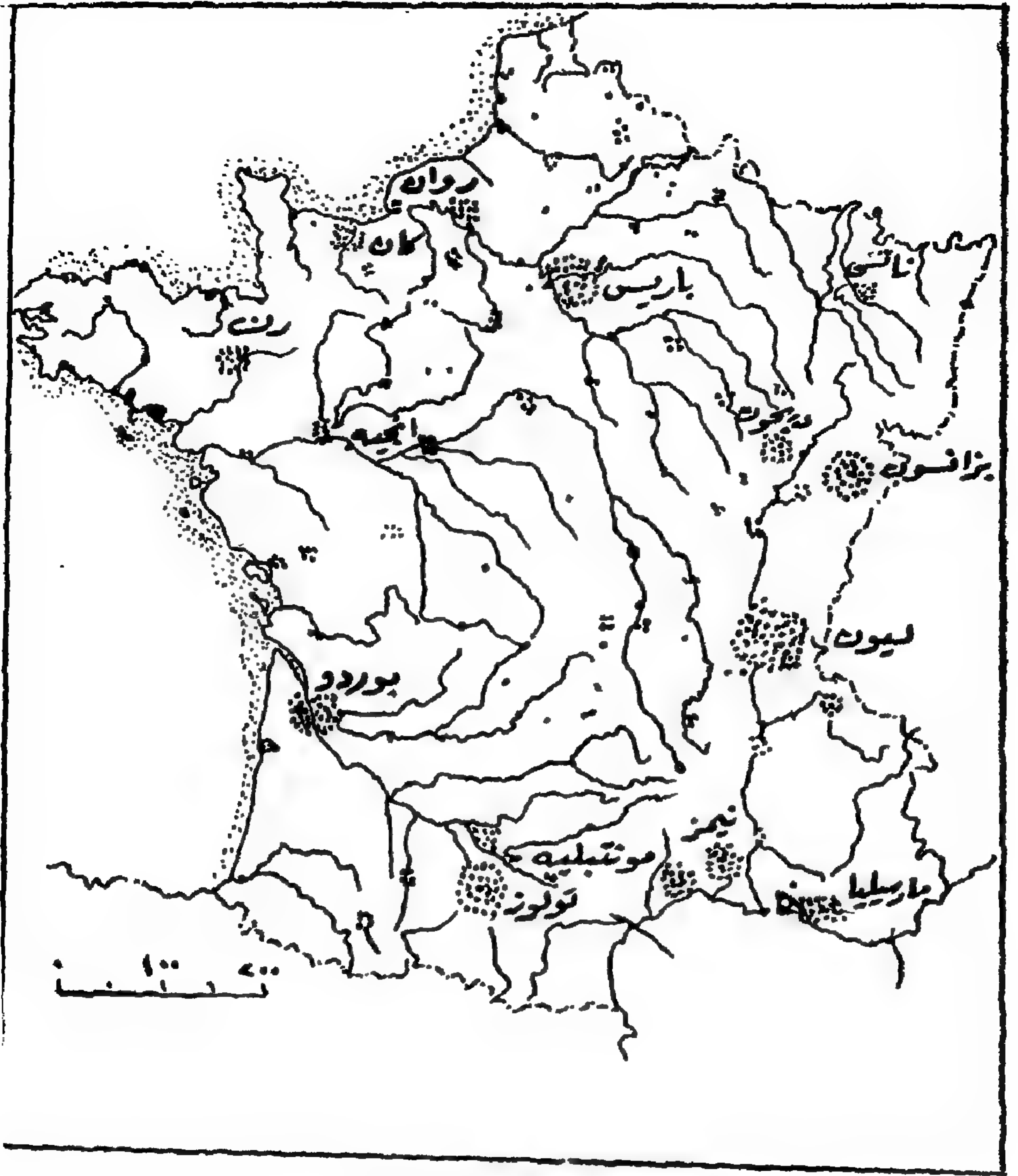
(**)

(***)

« ان عدد الأدباء المساكين يتجاوز كثيرا القراء الأثرياء . وكم أشعر بالغبطة لأن سعر هذا السفر - الذى ما زال مرتفع الثمن حتى الآن - مازال مناسبا لدخل الغلبة أمثالى . وكم أتمنى أن يفتح باب العلوم والفنون والحقائق النافعة على مصراعيه ليلا ونهارا لكل قادر على القراءة » .

ومن المتعذر ذكر أرقام دقيقة عن شتى الدخول المتفاوتة بين أبناء الطبقة المتوسطة فى الأقاليم . وان كانت التقديرات تثبت لنا مدى ارتفاع ثمن الموسوعة بالنسبة للأشخاص الذين تقل مرتباتهم عن دخل أى نبيل من النبلاء أو ثرى من الأثرياء ممن يرتفع دخلهم عن دخل عامة الناس . وعلى الرغم من أن القسس كانوا يتقاضون قرابة خمسمائة جنيه فقط ، وهو راتب لا يقيم الأود بعد ١٧٦٨ . الا أن دخلهم السنوى كثيرا ما ارتفع فبلغ ما يتراوح بين ألف وألفين من الجنيهات . ويحتل قضاة المحاكم الاقطاعية قمة السلم الوظيفى بين رجال القانون من البورجوازيين فى الأقاليم . وكثيرا ما كانوا يتقاضون ما بين ألفين وثلاثة آلاف جنيه سنويا . وبذلك تمثل الموسوعة الكوارتو ما يعادل أجر من ستة الى سبعة أسابيع من دخلهم . وكى يعيش البورجوازى فى مستوى النبلاء ، كان عليه أن يدبر أموره بحيث يحصل على ايراد يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه سنويا ، وبذلك يحتاج الى أجر خمسة أسابيع من دخله لشراء نسخة كوارتو من الموسوعة .

وهكذا يتضح ، اذا سائرنا علماء الاقتصاد فى دقة استخدامهم لمصطلحاتهم مدى ارتفاع ثمن الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الموسوعة ، مما جعلها صعبة المنال خارج دائرة رجال البلاط ونجوم الصالونات والبرلمانيين التقنيين ، الذين كانوا يؤلفون كوكبة الطليعة الثقافية (الأفان جارد) . وتعد الطبعات الأرخص من مواد الترف ، وان كان بمقدور كثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة - لو راعوا الكثير من التدبير - اقتناؤها، كما يحدث فى عالم الموسوعات اليوم . ولقد تجاوب ثمن الموسوعة الكوارتو والموسوعة الاوكتافو مع دخل نخبة متنوعة من صغار المرموقين من أهل المدن وأعيان الأقاليم ، وتجاوب بالمثل مضمونها معهم . ولكن هاتين الموسوعتين كانتا خارج حدود تطلعات من هم أدنى مرتبة من البورجوازيين . وكما لاحظ الناشرون - وهم خير من يعرف زبائنهم - فان الحجم الفوليو قد ناسب عنية القوم والمكتبات ، بينما اعتبر الحجم الكوارتو فى متناول الأدباء والشغوفين من القراء « ممن يتمتعون بالستر فحسب » . وأدرك الإداريون من العاملين بالموسوعة ان بمقدورهم زيادة هامش أرباحهم اذا زادوا من اتساع السوق . فلقد اكتشفوا منجما من الذهب لم يطره أحد من الأدباء ، وبدل تهافتهم على استغلاله على مدى تقدم الثقافة ، وانتشارها بين عامة القراء . ولكن أين كان يعيش هؤلاء القراء ، ومن هم ؟ .



توزيع الموسوعة في فرنسا

ان الخريطة (شكل ١) المنقولة عن قائمة دوبلان السرية للمشاركين تبين التوزيع الجغرافي لجميع نسخ الكوارتو على وجه التقريب ، يعنى ما يقرب من نصف الموسوعات التى كانت موجودة فى فرنسا قبل ثورتها . ومنها يبين أن الموسوعة ، قد وصلت الى كل شبر من أرض البلاد ، وتوافق توزيعها على خير وجه - بقدر ما نستطيع أن نعرف - هو وتوزيع السكان . وكانت الاشتراكات فى منطقة باريس والشمال الغربى شحيحة . ويرجع ذلك - فى أغلب الظن - الى اكتظاظ هذه الأسواق بطبعات أخرى . وإذا تجاوزنا مدينة ريم ، سنرى أن بريتاني تكاد تشبه صحراء قفراء فكريا ، وربما صبح هذا الحكم . ولكننا نشاهد منعنى أشبه بالهلال الخصيب لتوزيع الموسوعة عبر مبدى من ليون الى ميمس ومونبلييه وتولوز وبوردو . وحتى وسط فرنسا الكثيف السكان ، يبين وجود كثافة عالية نوعا للاشتراكات . ومن ثم يبين ضعف الدليل القائل بانقسام فرنسا الى جنوب متخلف ثقافيا وشمال متقدم ، ويفصل بينهما حد فاصل ، يجرى بين تلال سان ميشيل الى جنيف . والظاهر أن مبيعات الموسوعة كانت أفضل حالا فى المدن ، حيث توجد البرلمانات والاكاديميات ، ولكن مبيعاتها فى شتى الانحاء كانت لا بأس بها . ولعل هذه النتيجة يمكن استخلاصها من الخريطة . وبمجرد اعادة اصدار الموسوعة فى طبعة رخيصة نسبيا ، انتقلت كتابات ديدرو الى أنحاء قصية فى جميع الجهات الأصلية ، أكثر مما توقع (لوحة ١) .

ولم تحدد القائمة السرية لاشتراكات دوبلان جميع المشاركين . فهى لا تحتوى على غير أسماء باعة الكتب ، الذين كانوا يشترون عادة بضع عشرات أو يزيد من المجموعات ، ثم يقومون ببيعها «بالقطاع» بين الزبائن المحليين . ولكن هناك قائمة فريدة بالمشتريين من الأفراد لطبعة الكوارتو(*) ولقد ترجمت الى رسم بياني (لوحة رقم ٢) يضم بيزانسون واحدى الوحدات الادارية والقضائية والكنسية وأحد المراكز الحربية ، حيث ارتفعت المبيعات الى درجة كبرى . ويبين الرسم البياني مدى ارتفاع نسبة المشترين للموسوعة بين العاملين بالشئون القانونية من محامين وأعضاء البرلمان بيزانسون . ولقد بيع من الموسوعة نسخ عديدة فى القطاعين الأولين ، وبخاصة بين كبار قادة الجيش . وهذا أمر متوقع فى مدينة تضم حامية عسكرية . واشترى الاداريون فى الخاصة الملكية - ويكاد أغلبهم ينتمى لطبقة النبلاء - الموسوعة بأعداد كبيرة . وفعل الشيء نفسه البورجوازيون من المهنيين ، خصوصا الأطباء . وان كان هذا بقدر محدود . واقتنى أربع عشرة مجموعة من المجموعات المائة سبعة وثلاثون من التجار

والمشتغلون بالصناعة - وهي نسبة عالية بالمقارنة بإحصائيات دانييل روش للاكاديميين في الأقاليم ، وتحليل جاك بروسست للمساهمين في تحرير الموسوعة - واقتنى ما يقرب من نصف في المائة من أهل بيزانسون الموسوعة الكوارتو . وهي نسبة عالية لا تستبعد صحتها ، بعد الاطلاع على التحليل المذكور آنفا عن الحالة الاقتصادية للعملاء ، وتحليل تكاليف الموسوعة . ولم يتوقع البائعان الأساسيان في المدينة بيع أكثر من عشر نسخ أو يزيد من المجموعات ، وشعرا بالاندهاش لما صادفته الموسوعة من اقبال، خصوصا بعد أن تعرضت تجارتها للكساد بعد ١٧٧٧ وكتب أحدهم الى جمعية المشتغلين بالطباعة : « أرجو أن لا تعتقد اننى استطعت ترويج ما لدى من كتب كما أتمنى . وأقسم لك اننى بعد توزيع كتب التاريخ العالمى والتاريخ الكنسى (كنيسة الغال) وأحد الاناجيل والموسوعة وروسو . لم أحصل على أى كسب آخر فى السنتين الماضيتين » .

وربما لا يصح اعتبار نمط المبيعات فى بيزانسون ممثلا دقيقا لفرنسا فى جملتها ، وان كانت البيانات غير الاحصائية تبين وجود حماسة مماثلة للموسوعة فى مراكز أخرى . ففي تولوز ، فى الطرف الجنوبى من المملكة ، باع صاحب محل تجليد يدعى جاستون ١٨٢ نسخة من الموسوعة الكوارتو فى ثلاثة أسابيع ، وكان يتوقع تلقى ربعمائة نسخة من حجم الأوكتافو . وبوجه عام عندما تحدث باعة الكتب الفرنسيون عن الزبائن الذين اشتروا الكوارتو ، فانهم ذكروا المحامين وموظفى الخاصة الملكية والنبلاء المقيمين فى الاقاليم ، وبذلك اختلفوا عن أقرانهم فى شمال أوروبا ووسطها وشرقها ، الذين لم يشيروا الى غير رجال القصر والبلاط . وهكذا تشير جميع الدلائل الى الاتجاه نفسه . ففي فرنسا ما قبل الثورة استطاعت موسوعتها ، شق طريقها بين عالم الصفوة فى الاقاليم ، الذين تزعموا الثورة الفرنسية ، وواصلوا الهيمنة على أهالى الأقاليم ابان القرن التاسع عشر .

فلا أحد يستطيع ادعاء معرفة الرسالة التى حققتها الموسوعة ، والأثر الذى تركته فى عقول هؤلاء القراء . ولا بد أن يكون كثيرون قد اشتروا الموسوعة تأثرا بما زعمته عن نفسها ، أى كخلاصة للمعرفة بأسرها ، أكثر من كونها دعاية فلسفية . وكما عبر عن ذلك بانكوك : « سوف تغدو الموسوعة دوما الكتاب الأول فى كل مكتبة أو مكتب » . ولكن لم يخطر ببالهم احتمال تحول الموسوعة الى سفر استعراضى يودع رفوف المكتبات للزينة ، وليس للقراءة ! . فعلىنا ان لا ننسى أن بانكوك قد وصف بعض المشتركين فى ليون بأنهم كانوا عاجزين تماما عن القراءة . ولكن من الصعب الاعتقاد بعدم تجاوز بعض أصحاب الموسوعة ، قراءة بحثها التمهيدى ،

والذى تضمن مقلمة صافية عن خصائص عصر التنوير • ولا بد أن يكون جمهور أوسع قد قرأ الموسوعة أكثر من كونه قد اقتناها • وهذا احتمال متوقع فى عصر كان يبيع استعارة الكتب بلا قيد أو شرط • وكان هناك انتعاش للمكاتب الأدبية(*) ، ومن ثم يصح القول بأن المقومات الرئيسية لقصة سيرة هذا السفر هى الحماية التى وفرتها لها السلطات الفرنسية ، والصراع لاستقلالها بين عملاء الكتاب ، وانتشارها بين زبائن من المرموقين من متوسطى الحال فى شتى أنحاء البلاد ، ونقول أن هذا النجاح منقطع النظير لهذه القصة قد كشف عن انتشار التنوير وبلوغه مجالات تتجاوز صفوة رجال البلاط والعاصمة ، وانها انتشرت بين أقطاب « النظام القديم » كما يبين من رسالة جمعية المشتغلين بالطباعة الى أحد العملاء فى أغسطس ١٧٨٩ :

« لم يسبق أن حقق مشروع من هذا القبيل نجاحا أعظم ، أو تم تنفيذه بمثل هذه السرعة • ففى أقل من سنتين ونصف السنة ، وبعد أن تجدد الاشتراك مرتين قمنا بطباعة ثمانين ألف نسخة من هذه الموسوعة ، والتى لم يبق لدينا منها غير عدد قليل من نسخها • والظاهر أن الجماهير قد انتظرت بصبر نافذ أن يظهر ناشرون أقل شراهة من مخرجى الطبعة الأولى (وهذا قول مشكوك فيه) • اننا نفخر نحن وشركاؤنا أننا وفقنا الى ارضاء الجماهير فى هذا المضمار • وستلاحظ يا سيدى أن هذا العالم الذى يعتبر أفضل العوالم الممكنة لو افتقر الى التنوير (**) فان الخطأ لن يكون خطأنا » •

المراجع

- T. Besterman, Voltaire (1969).
- E. Cassirer, The Philosophy of the Enlightenment (1951).
- H. Chisick, The Limits of Reform in the Enlightenment. Attitudes toward the Education of the Lower Classes in the Eighteenth-Century France (1981).
- R. Darnton, The Business of Enlightenment : A Publishing History of the Encyclopedia 1775-1800 (1979).
- P. Gay, The Enlightenment : An Interpretation (2 Vol.) 1960-1969.
- N. Hampson, A Cultural History of the Enlightenment. (1969)
- M. C. Jacob, The Radical Enlightenment : Pantheisty, Free masons and Republicans (1981).
- J. Lough, The Contributors to the Encyclopedie (1973).
- F. Manuel, The Eighteenth Century Confronts the Gods 1959.
- A. M. Wilson, Diderot (1979).

الدستور المدني لرجال الدين فى الثورة الفرنسية

ميكائيل كندى

ابتداء من أواخر ربيع ١٧٨٩ ، تعرضت فرنسا لما يصح أن يوصف
بعهد الهزات الثورية السياسية والاجتماعية ، التى أسفرت عن قلب النظام
الملكى وإنشاء النظام الجمهورى . وعلى الرغم من أن الحكومة الثورية قد
أعادت إنشاء جميع المؤسسات الفرنسية ، فإنها أقدمت أيضا على أحداث
أعظم تغيير جنى لها فى نطاق الدين .

ولقد مرت السياسة الدينية للحكومة الثورية فى عدة أطوار ، وعلى
الرغم من تأييد القسس للكثير من أكبر منجزات الجمعية الوطنية ، إلا أن
هذه الجمعية صادرت معظم ممتلكات الكنيسة فى خريف ١٧٨٩ ،
وما لبثت أن قهعت الأديرة ، واتجه مختلف رجال الدين وعامة الناس
من المحافظين ، فيما بعد ، الى معارضة الثورة باسم الدين ، وحدثت
مصادمات محلية عديدة بين أنصار الكنيسة والحكومة . وفى يونيو
١٧٩٠ ، أقرت الجمعية الدستورية أخطر التشريعات الدينية للثورة :
الدستور المدنى لرجال الدين . وحول هذا القانون الكنيسة - فى واقع
الأمر - الى سلاح الدولة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تعيين الأساقفة
والقسس فى مناصبهم يتم عن طريق الانتخابات العامة ، وطلب من جميع
القساوسة أن يقسموا بالولاء للدستور المدنى لرجال الدين ، ورفض
أساقفة وقسس عديدون هذا القسم ، وأصبحوا يعرفون باسم « رجال
الدين المشاكسين » ، أما من أقسموا هذا اليمين ، فعرفوا بـ « رجال الدين
المستورين » ، وكما حدث انقسام بين رجال الدين ، جرى انقسام

The Jacobin Clubs in — Michael. L. Kennedy.

(★) نقلا عن

the French Revolution : The First Years.

(١٩٨٢)

معائل بين عامة الناس ، الى فريقين ، وانحاز الملك الى جانب القسس
المشاكسين .

وبينما أقرت الحكومة التشريعات الخاصة بهذه المسائل ، نشطت
أندية اليعقوبيين في الأقاليم ، واتخذت أنديتها صورة مطابقة للنادي
الرئيسي في باريس ، وتمثل الحد القاطع للثورة . وفي البداية ، لم يتخذ
اليعقوبيون (مثل باقي الجمعيات الثورية) ، موقفا عدوانيا صريحا من
الكنيسة ، ولكن اتجاههم تغير بعد ظهور المقاومة الكنسية والانتخابات
الكنسية ، وما اكتنفها من مشاجرات ، وما صاحبها من عنف محلي متفاقم .
وفي أواخر ١٧٩١ ، وعلى مشارف حكم الرعب ، تصدر اليعقوبيون حركة
المطالبة بتخلي الدولة عن المسيحية بعد أن التزموا زهاء سنتين الاعتدال في
مسائل الدين .

وتعرض هذه المختارات من كتاب ميكائيل كندى تحليلا ممتازا
للتفاعل بين سلطات باريس والثوريين اليعقوبيين في الأقاليم ، وكيف
تحولت الثورة بهرور الأيام تحولا متزايدا تجاه التطرف .

يصعب القول بشيوع الكفر والالحاد في صميم الأندية اليعقوبية ، فقد
لاحظنا استهلال كولمار الذي سجله بعبارة لاتينية « باسم المخلص يسوع
المسيح (*) » ، ونصا داف في مذكرات مختلف الطوائف ورسائلها
استعارات ومقتبسات من الكتاب المقدس . وربما ندد أعضاء « الأندية »
باستغراق الهيرارشية الكنسية في الدنيويات غير أنهم أجمعوا على الاعتراف
بدور الدين في خلق المواطن الصالح ، ووجوب الاستعانة به لخلق
فرنسا جديدة ، ومنذ البداية ، اتبعوا عادة طبع العظائم الدينية على
نفقتهم ، وكانوا يحيون ذكرى الانتصارات الثورية والمناسبات المأسوية
باقامة طقوس مسيحية ، وقال الاكليروس الكاثوليكي بدور مهم في هذه
الأندية ، وفي بعض أجزاء من فرنسا ، شارك الرعاة البروتستانت في
هذا المضمار أيضا . وساعد الاحترام الذي يلقاه رجال الكنيسة من
اليعقوبيين على استمرار انتخابهم لشغل بعض المناصب بما يتجاوز العدد
المتكافئ مع أعدادهم .

ومع هذا فقد أثمرت البذور التي بذرت داخل الأندية ثمرة وحشية
أدت الى الابتعاد عن المسيحية ابان عهد الرعب ، وبدأ عهد جديد من
الاضطراب الديني في فرنسا في نوفمبر ١٧٨٩ عندما صودرت أراضي

الكنيسة لتسديد الديون . واقرن بهذا القرار اعلان « الجمعية الوطنية » تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشعائر العامة ، ومرتببات الاكليروس وغوث الفقراء ، وأدى المشروع وما تضمنه من خفض لدخل رجال الدين الى ايفار صدورهم . وزاد من حالة التبرم القرار الصادر في ١٩ ديسمبر باعلان بيع ما قيمته ربعمائة مليون جنيه من الممتلكات المنتزعة من الكنيسة ، وأحدث الأثر نفسه قانون ١٣ فبراير ١٧٩٠ ، الذي جمع التنظيمات الكهنوتية ، وما لبثت الصيحات أن تصاعدت من اليمين محذرة من مشروع الجمعية القضاء على الكنيسة .

ووقع أحد أعضاء المجلس الكنسي (الدوم جيرل) في شباك هذا النقد ، وارتقى المنبر في ١٢ ابريل مدافعا عن سياسة الجمعية . ودفعه الأمل الساذج في ازالة التوتر الى دعوة زملائه الى اعلان « الدين الكاثوليكي والرسولي هو دين الأمة ، وسيظل كذلك ، ولن يصرح بدين آخر غيره » ، وطالب المحافظون على الفور ، بقبول الحركة ، ولكن اليساريين عندما أدركوا تهديد هذا الاتجاه للحرية الدينية ، التي منحت بمقتضى البند العاشر من اعلان حقوق الانسان ، نجحوا في تأجيل هذا الاعلان ، وفي تلك الليلة ، حدث اجتماع صاحب في نادى اليعقوبيين في باريس وفيه اعتذر جيرل - العضو في النادى - بطريقة خسيصة عن اندفاعه (رعونته) وفي اليوم التالى ، وبعد مشاحنة حادة ، أزاحت الجمعية المشكلة جانبا : باعرابها عن تمسكها بالكاثوليكية ، ولكنها رفضت مراعاة لحرية الضمير اتباع حركة جيرل . ومن قبيل الاحتجاج ، التقت أقلية مؤلفة من ٢٩٧ من أنصار الملك بالمبعوثين الكاثوليك (الذين أطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم السود) (*) في دير الكابوشين ، وحرروا بيانا ينبه الى تعرض الدين للخطر .

وتعد الأسابيع الستة التي أعقبت نشر احتجاج « الكابوشين » أسابيع مصيرية . فلأول مرة يتفق على رأى واحد في مشكلة ذات طابع قومى ، ونشرت اللجنة المناظرة لليعقوبيين في باريس نشرة خاصة عن حادث دوم جيرل كتبها البارون دى مينو (**) . بيد أن التراجع العاطفى ، للأندية لا يصح أن يرد الى تأثير المنشورات الصادرة من الجمعية الأصلية ، والأصح هو أنه كان دليلا على المشاعر الجياشة التي عانتها فرنسا من أهوال حكم «الطاغية لويس الرابع عشر» . ورثى أن من حق الروتستانت أن يتمتعوا بحرية العبادة ، ويسمح بقبولهم فى المدارس والكليات ، وبالمشاركة الكاملة فى الحياة المدنية ، كما يستأهل اليهود التسامح بالمثل .

وعندما استمع الحاضرون في النادي الوطني ببوردو الى قراءة احتجاج الأقلية في ٩ مايو ، تفجرت صيحاتهم الفورية (*) ، واقترح الحاضرون « طبع البحث المتهجم مصحوبا بالملاحظات الشائنة الموجهة ضد المبعوثين الذين وقعوا عليه » . وفي ١٠ مايو ، أحرق الأصل أمام المختل الرئيسي للمقهى ، وشنت دمي تمثل المبعوثين المذنبين الخمسة من بوردو ، وعلقت في أعمدة النور في شارع القبة الحمراء (**) ، وكتب على ظهر الدمى « خانوا الوطن » .

ونشر النادي الوطني بيانا عن هذه الأحداث ، وبذلك شجع الجمعيات الشقيقة ، على توجيه ضربات ضد عدم التسامح . وفي ١١ مايو ، رفضت جماعة أنصار دستور بوردو - في غضب - احتجاج « المواطنين الأردباء » ، وفي ٢٥ مايو ، أعدت خطابا تمحور حول شعار « الكنيسة في الدولة ، وليست الدولة في الكنيسة » . وفي الجلسة الافتتاحية في ١٥ مايو ، هاجم نادي بيرجيراك الوفود المعارضة « لمحاولتها تعكير صفو السلام » . وفي اليوم التالي ، تمكنت من اقناع موظفي البلدية بارسال خطاب لوم الى الجمعية الوطنية (***) ، وفي أول اجتماع معروف عقد في ٢٠ مايو ، تمسك أنصار دستور تول تمسكا وقورا بجميع القوانين . وفي النسخة المقدمة الى باريس اتهموا « السود » بالرغبة في « زج الامبراطورية الى الفوضى » ، وزعموا أن هذا الانحياز والملاحظ بدرجة كبيرة لدين من الأديان السماوية سيؤدي بالضرورة الى عدم التسامح ، وفي مدينة فوا (****) في ٢٨ مايو عقد الرئيس جلسة خاصة لاستبعاد أحد الأعضاء المبعوثين ويدعى فونت وقال للحاضرين : « لقد سمعتم بالجريمة الخطيرة التي ارتكبها هذا المبعوث ، ورأيتم توقيعه أسفل هذا التصريح ، وما ترتب على ذلك من تعصب ونفع شخصي » ، ولكن بالرغم من هذا الدليل الساطع ، فقد رأى أنصار الأندية صعوبة تصور ارتكاب هذا « الفونت » لمثل هذا الخروج عن القانون ، وأجروا عملية اقتراع عن احتمال تزوير ما نسب اليه ، أو احتمال أن يكون قد خسده فاقضم « الى المحرضين من الارستقراط » ، الذين يتمنون أن نفرق فرنسا في دماء أبنائها .

وخلال شهر يونيو ، صبت الأندية لعنائها على « السود » ، ونقشت مدينة مونبلييه أسماءهم « بحروف حمراء على سطح أسود »

(*) à la lanterne et au feu. (الى عمود النور حيث جرى شتى الخصوم) -

Chapeau — Rouge.

(***)

Tulle.

(****)

Foix.

(*****)

للتذكرة بعار ال ٢٩٧ الذين نقشت أسماؤهم باللون الأحمر على الصفحة السوداء ، وتمثلت هي ونادى مارفجول ، فتزلقت الى الجمعية المنتخبة ، ودعتهم الى التعهد بمعاودة المتمردين على القوانين الى الأبد . ودعت مدينة أخرى (*) الى « وجوب تطهير الأسماء والأشخاص الذين وقعوا أو تمسكوا بهذه الإهانات المشاغبة ، وتنصلهم من هذه الحماقات والسفالات » . وقامت مدينة آراس أيضا « بتأنيب المنافقين والحاشين في القسم » وأعلنت استحقاق الشعب المتدين الحر لفرمان ١٣ ابريل . أما مدينة أمبير فقد سلمت بابتعاد القانون تماما عن الاساءة للدين ، لأنه يمثل « أجمل مظهر من مظاهر الخشوع بالمقدور التعبير عنها » . وأعربت مدن أخرى عن مشاعر مماثلة في رسائلها الى الجمعية الوطنية ، وطالبت بأورة هذه المشاعر في اقدام المجتمع على استصدار قانون يرغم المحتجين على الاعتذار ، أو تحمل فقدانهم لحقوقهم كمواطنين عاملين .

وكان مازاد انزعاج الأندية الاضطرابات الدينية ، التي أثارها «السود» في الأقاليم ، ووقع حادث خطير في إحدى المدن (**) ، ففي هذه البلدة التي يبلغ تعداد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة ، انقسم غلاة الحاقدين الى أغلبية كاثوليكية وأقلية بروتستانتية (تمثل سـدس السكان) وسيطر الكاثوليك على بلدية المدينة على الرغم من عرقلة ضغوط الحرس الوطني لتطبيق القرارات الخاصة بمصادرة ممتلكات الكنيسة وحل التنظيمات الكهنوتية . وفي ١٠ مايو ، أي اليوم الذي حدد في نهاية المطاف لجرد الكنائس والأديرة وانتزاع ممتلكاتها ، اندلع القتال المسلح ، وقتل العديد من المواطنين ، وأمر آخرون ، وبعد هذه التطورات ، حث فريقا بورديو جميع أصحاب النوايا الطيبة على التطوع لأحـملة العسكرية التي ستشن ضد « مون أوبان » . وبعد ذلك بفترة وجيزة ، شن رجال الحرس الوطني حملة انقاذ ، ولم تنجح الدعوة الى الكف عن سفك الدماء ، الا بعد أن عرف الجنود غير النظاميين المهلهلين (***) باطلاق سراح الوطنيين في مون أوبان ، فعادوا الى قواعدهم طافرين .

واشتعلت مدينة نيم (تضم أربعين ألفا من الكاثوليك و١٣ ألفا من البروتستانت) بنيران الكراهية الدينية أيضا . وتجمعت في أحد المعسكرين زمرة من رجال الدين والأرسستقراط ، تساندتها قواتها المسلحة ، وتعمل مستقلة عن الحرس الوطني . وفي المعسكر الآخر ، جناح وطني مناهض للقسس ، يقوده جمعية أنصار الدستور ، التي أنشئت في

Charolles.

Montauban

rag-tag.

(*)

(**)

(***)

١١ ابريل . وفى ٢٠ ابريل ، وبعد أن شعر المناضلون الكاثوليك بوجود تهديد للدين والنظام الملكى ، قدموا التماسا الى الجمعية الوطنية بحمل توقيعات ٣١٧٢ من المواطنين ، ويدعو الى الاعتراف بالكاثوليكية دينسا للدولة ، وعدم اجراء أى تعديل فى الهيرارشية الكنسية ، ويسمح للملك بالقضاء نظرة على القرارات التى صدرت من الجمعية الوطنية منذ ١٩ سبتمبر .

وأغضب هذا الالتماس أندية « ميلدى » ، وعلى الفور أعد الأعضاء المائة والاثنان والستون لجمعية نيم بيانا مضادا ، وأصدرت أيضا مدن أخرى (*) بيانات تستنكر فيها ابتعاد المتعصبين عن الدين ، وتساءل : هل يصح القول بأن روح عدم التسامح « التى ألحقت ألعار والتعاسة بأبائنا ، مازالت قائمة فى القرن الثامن عشر ، أى فى عصر بزوغ الحرية ؟ » .

وسعى نادى نيم للتحالف فى وقت الشدة هو وشقيقته فى مارسيليا ومونبلييه ، ونشرت مارسيليا رسالة تتعهد فيها بالدفاع عن « نيم » حتى الموت ، وأوفدت اليها مبعوثين فى ١٠ مايو للتعهد بالمساعدة العسكرية - لو اقتضت الحاجة - لتوطيد سلطانها ، استنادا الى تصريح بلديتها بإقامة نظام كونفدارلى من وحدات الحرس الوطنى فى بروفانس ، غير أن هذه التدابير لم تحل دون نشوب العنف ، وفى ١٣ يونيو ، شن الأرسطقراط هجوما مسلحا على الوطنيين . وبعد يومين من القتال ، هزم الوطنيون أعداءهم بمساعدة متطوعين من المدن المجاورة ، ولكنهم شوهوا انتصارهم عندما أعدموا عدة أشخاص من « أعداء الثورة » ، وأرجفت الأحداث المأسوية فى نيم ، ونشرت الفرع فى مختلف أرجاء الشبكة ، ودعت مونبلييه الى عقد اجتماع غير عادى فى ١٤ يونيو ، وأوفدت مبعوثين الى قادة الحرس الوطنى ، وفتحت باب التبرع للمساعدة فى تمويل الحملة ، وأرسلت مارسيليا خمسين عربة محملة بالدقيق الى « نيم » لاطعام عائلات المواطنين الجائعين ، وأقامت فالينس قداسا تذكاريا فى ٢ يوليو . وفى ١٠ يوليو ، طبعت ستراسبورج أربعة آلاف نسخة فى بيان يروى ما حدث من قلاقل (كتب بالألمانية) كتحذير لمن تسول له نفسه اشعال نار التعصب فى الألزاس .

وقبل انتفاضة نيم بيوم واحد (١٢ يونيو) أقرت الجمعية الوطنية الدستور المدنى لرجال الدين ، وألغى هذا الاجراء الشهير ميثاق المصالحة

(*) مثل Marvelols Pontoise, Valence, Grenoble, Crest, Vienne, Montpellier.

(١٥١٦) مع البابوية ، وأعاد تنظيم الكنيسة الفرنسية ، ورثي أن يكون تعيين الأساقفة والقسس من الآن فصاعداً بالانتخاب ، وتدفع الدولة رواتبهم ، وتعرضت للقمع جميع المجالس الأسقفية بالمعاهد الدينية والكاتدرائيات ، وخفض عدد الأسقفيات من ١٣٩ أسقفية إلى ٨٣ ، كما استبعد ما لا حصر له من الأبرشيات الصغيرة .

ولقد سبق أن تمتعت الكاثوليكية الفرنسية بالاستقلال الوطني ، وكان مبعوثو الكنيسة يتفادون بكل دقة أى اختلال بالعقيدة . غير أن المعارضة بزغت على الفور . فقد رفض عدة مبعوثين للكنيسة الاقتراح في ١٢ يونيو ، وازداد تصليب المشاركين في المعركة ، عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة في الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة (*) التي تضمنت مبادئ الدستور المدني لرجال الدين ، وتحدثت حق الدولة في الانفراد بالرأى في مسألة تغيير تشكيل الكنيسة ، واعترضت على اشتراك البروتستانت في اختيار الأساقفة ، ورفضت رفضاً باتاً أن يكون تعيين القسس بالانتخاب ، وتساءلت لماذا لم يؤخذ رأى البابا ، الذي كان يعين الأساقفة زهاء قرنين من الزمان ؟ . فلقد التمس لويس السادس عشر موافقة البابا ليوس السادس ، عندما أقر مرسوم ٢٤ أغسطس ، ولكن هذا البابا بالذات قد شجب بالفعل السياسة الدينية للثورة في حديث إلى مجمع الكرادلة في ٢٩ مارس (وعقد هذا الاجتماع بصفة سرية) . وعلى الرغم من أحجامه عن التصريح بذلك علناً حتى ربيع ١٧٩١ ، إلا أنه أكد من جانبه قراره بالاعتراض .

وأعلن اليعقوبيون في الأقاليم عن تأييدهم الذي لا يتزعزع للدستور المدني لرجال الدين . والحق ، وكما يبين واضحاً من المذكرات المعبرة عن آراء مختلف الأندية ، فلم يحدث من قبل أن ثارت ثائرتهم بمثل هذه الشدة ، وبدأ تدخل الأندية في الخلاف في سبتمبر - أكتوبر ١٧٩٠ عندما نشر القانون في الدوائر الحكومية ، وأعلن بعض الأساقفة والشماسين عن شكائاتهم . وفي ستراسبورج ، وبعد أن كانت موضوعات النقاش تتركز فيما سبق على الاقتصاد والسياسة ، بغتة وأينسا الدين يتخذ الصدارة ، ويشد انتباههم ، وفي ٥ أكتوبر ، استهجن أحد الأعضاء قسا من القسس الكابوشين ، لأنه دعا إلى الفسق في كنيسة القديس بطرس العجوز ، وفي جلسة ٩ أكتوبر ، استدعى راهب كنيسة القديس بطرس العجوز للدلاء بأقواله عن أسباب عدم تلاوته لقرارات

(*) Expositions des principes sur la constitution civile du Clergé.

الجمعية الوطنية ، واستمعت الجمعية الى تقرير عن أحد القسوس في سان ليونار بالقرب من أوبرناي ألقى بيانا شديدا الحماسة ، وفي ١٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، تناول النادي مسألة تنظيم الاكليروس البروتستانتى ، ونوقشت في اليوم التالي مسألة رواتب رجال الكنيسة .

وكشف على التو السماح للقسوس الوطنيين بالانضمام عن أهميته الخاصة . وشاع نزوع الكهنة المشاكسين الى سيطرة اللسان في أحاديثهم ، وتزايدت الشكايات المرسلة الى لجنة التحريات (*) ، وبلغ عددها رقما خرافيا . ولامت بعض المدن (**) رسائل القسوس التي يشكون فيها من أساقفتهم (٢٢ أكتوبر و ١٢ نوفمبر) وأدانت تولوز وفردون افتقار الهيرارشية بوجه عام الى الولاء (نوفمبر ١٠ - ١٣) وإبان الحقبة نفسها ، أرسلت تولوز ستين مستندا يثبت تورط افكليروس الكاثدرائية في اثارة الفتن .

وفي ٣ نوفمبر ، نشرت مدينة اكس رسالة مهمة تعلن تحديد الجمعية الوطنية موعدا يقسم فيه رجال الكنيسة اليمين للدستور ، ويحرم المتنوعون من جميع وظائفهم الدينية ورواتبهم ومقار إقامتهم ، وتلقت تولوز وبوفيه (***) نسخا من هذه الرسالة ، والتزمتا بما جاء فيها التزاما حماسيا ، وانضمت رينيه أيضا ، وحررت التماسا حارا تبناه بعض الأعضاء (****) ، ممن أعربوا عن توددهم للجمعية الوطنية ، وتعهدهم باهدار دم المشاغبين من رجال الكنيسة : « لقد أدت المؤامرة الخطيرة الى ظهور تيار متعصب ، أشبه بالوحش الضاري في نهمة وتعطشه للدماء ، وما أشبهه بابن شائن للدين ، وهو يلوح بيديه بشعلة الانشقاق . ان كلمات الله على شفاههم فحسب ، بينما يكمن الغضب والياس في سخائم أفئدتهم » .

وعززت هذه الصيحات من قبضة المبعوثين الوطنيين بين الناخبين . واستشارت مشاعرهم المعالضية للكنيسة ، فأقرروا قرارا في ٢٧ نوفمبر زاد الهوة اتساعا بين الكنيسة والفقلة . وفيه يطالب جميع الأساقفة والقسوس والشماسين والاكليروس بممارسة وظائفهم العامة ، والتعهد بالولاء للدستور في حضرة المحلفين المسئولين الرسميين في دوائرهم ، أما من يرفض ذلك ، فيعتبر تلقائيا متغلبا عن وظيفته . ولا يستبعد حرمان

Comité de recherches.

(*)

(**) اميين و Béziers

Beauvaix

(***)

(****) تينسليه Quimper, , Guingamp

رافضى قسم الولاء ممن يحاولون ممارسة وظائفهم على الطريقة القديمة - وهو ما يعد انتهاكا للقانون - لا يستبعد حرمانهم من حقوقهم كمواطنين صميمين . أما اذا أقدموا على أى فعل تضليلى صريح ، فانهم سيكونون عرضة لتوجيه الاتهام الجنائى اليهم .

وفى ٢٧ ديسمبر ، وبعد أن وقع لويس السادس عشر هذا المرسوم . ظهر جريجوار على منصة الجمعية الوطنية ، وألقى خطابا دافع فيه عن الدستور المدنى لرجال الدين ، وأقسم يمين الولاء للدستور ، واعتدى به مائة وثمانية من المبعوثين فى الأسبوع التالى . وعلى الرغم من تعرضهم لتهديد الحشود فى مقصورات الجمعية الوطنية ، فان ٤٢ من ٤٤ من الأساقفة ، وآخرين من مراتب أدنى فى هيرارشية الاكليروس رفضوا الاشتراك فى القسم . وأثناء تطبيق القرار فى باريس فى ٩ يناير ، ثار الشغب (*) . وطبقا للمعلومات التى جمعتها الجهات الادارية ، والمشكوك فى صحتها ، فان عدد المؤيدين لم يتجاوز ٦٠٪ من رجال الدين فى العاصمة .

وتحدثت امين نيابة عن أغلبية أندية الأقاليم عندما عبرت عن اغتباطها بمرسوم ٢٧ نوفمبر، وحظى اقتراح تورز بالتأييد من «الشبكة» لالتماسها فى بواكير ديسمبر الاصرار على اعتماد الملك لويس السادس عشر للقرار على الفور ، وقبل أن يضع الملك ختمه بالموافقة اقترعت احدى المدن (**) فى ١٢ ديسمبر على ايفاد مبعوثين الى كل الابرشيات للتحقق من قيام رجال الكنيسة بالتعهد المطلوب ، وطالبت مدينة أخرى فى يناير أبنائها بحضور حفلات حلف اليمين ، « وهم مسلحون بالرماح والسيوف » ، وتماثلت مع باقى الجهات ، فائنت - تارة - على الاداريين المحليين ، ولعننت سنسفيل جدودهم - تارة أخرى - على الإجراءات التى اتخذوها لتطبيق الطقوس وحماية السلام .

وهبت الحملات الاستنكارية لمؤامرات الأساقفة الداعية لافساد مظاهر الابتهاج لحلف اليمين فى شتى أنحاء الشبكة فى شهر ديسمبر وبداية شهر يناير ، بل وذهبت مدينة أوتون بعيدا الى حد اتهامها قس كاتدرائيتها بدفع رشوة لرجال الدين لتشجيعهم على الرفض . وردت الجموع على الدعاية الأسقفية باطلاق منشورات فى الهواء تحمل عبارات التهجم على القسوس ، ومن يناصرونهم . ووزعت مئزر ألف نسخة من الدفوع التى أعدها أحد

المبعوثين (*) عن الدسائس الزائفة لأسقف تريف ، وطبعت « كان » خمس نسخ تضمنت تأييدا أعده من يدعى كولوبيه في سان ماسيلان ، وأذيع في ٣ ديسمبر . وانتشر المديح الأريب للقوانين الدينية في شتى نوادي وسط فرنسا . وأصدرت مدينة جرينوبل كتابا دحض فيه الاعتراضات الأخيرة لأعضاء كثيرين من الاكليروس (**) . وأعادت مدينة « يوم » وبيزانسون طبعه ، وكلفت ليموج أسستاز اللاهوت في كلية سانت ماريا تأليف بحث عن الدستور المدني ، وبلغ حدا كبيرا تقدير « أوش » وبوردو وكاستر للعظات التي وضعها القس بول بنوا بارت من بنادي تولوز ، مما دفعها الى اصدار أمر بإعداد ألفى نسخة منها .

وركزت منشورات الأندية في هذا العهد على المحنة الموحشة لصغار رجال الدين ، والتفاوت الكبير في الدخل والثروة في ظل « النظام القديم » ، وبورك القسس الطيبون . وبدلا من أن ينظر الى الأعضاء غير المتجاوبين في الهيرارشية على أنهم مدافعون عن العقيدة وصموا بالأنانية ، لعدم اهتمامهم بأي شيء سوى صالحهم الشخصي ، ولأنهم لا يأسفون لأي شيء غير فقدانهم للدخول الكبيرة التي ليس لهم حق فيها بوصفهم آخر القسس ، وتركز الالحاح على الزعم بعدم حدوث مساس بالعقيدة والقيم الأخلاقية والسلطة الروحية للكنيسة . وكما قال أحد المشايخين للأندية : « لقد التزمت الجمعية الوطنية بالروح الدينية الصحيحة ، فحصرت نشاطها فيما يملكه قيصر وأعطت الله كل ما ينتمى لله » .

وبدأت اجراءات قسم اليمين في القرار الرسمية من ٩ الى ١٦ يناير ، واستمرت عدة أسابيع ، ولم يتجاوب معها غير سبعة أساقفة من مجموعهم الاجمالي (١٣٩ أسقفا) . وقدرت أفضل الاحصائيات النسبة المبدئية بعدد يتراوح بين ٥٠٪ و ٦٠٪ من جميع أعضاء الاكليروس ، وقامت بعض الأندية بجدوة النتائج ، وأخطرت بها اليعقوبيين في باريس وأيضا الجمعية الوطنية . وأعلنت بعض المدان ، مزهوة ، بانصياع جميع القسس في مقاطعاتها للقرار ، أما بعض المدن الأخرى فنددت حظها لضالة عدد من أيدوا القرار . وأعلنت بروج عن استجابة مؤسستين كنسبتين منهما للقرار ، ونسب اقبال الأغلبية في المناطق الريفية لاقليم الشير الى النداء الذي وجهته المدينة اليهم .

François-Xavier Laurent.

(*)

Réfutation des principes contenus dans les dernières protestations de plusieurs membres du clergé.

(**)

Joseph-Vincent Dumolard

كتبه

والتزم قسس عديدون التحفظ في خضوعهم ، كما أن سلطات البلديات تحدوها الرغبة في السلام كثيرا ما أعربت عن استعدادها قبول قسم اليمين ، ولكن بشروط . بيد أن الأندية طالبت بالانصياع بكل دقة ، وتأفقت قول (*) من باريس لأنها لم تتخذ أي إجراء ضد قسين استهلا القسم بالكلمات الآتية : « بعد أن أكدت الجمعية الوطنية بقرارتها احترام الديانة المسيحية والحفاظ عليها فأنني أقسم . . » . فقد أدت مثل هذه المراوغة الى اشاعة الحيرة ، وعندما راوغ أحد القسس(**) على هذا النحو في ٢ فبراير فسر مسلكه بالقول بأن الدستور المدني يهدد السلطان الروحي للكنيسة ، فردت عليه بجماعة من نادى كويمبر بازدراء : « لعلك ترغب في تهذيبنا ! ليس أمامك غير طريق واحد : طاعة القانون ، الذي كان عيسى عليه السلام نفسه سيتبعه » .

واعتماد القسس اليعقوبيون القاء عظات وطنية أثناء القائهم للقسم . وما من شك في وجود مبادئ سامية ألهمت اتجاههم . وكان من بين المنتمين للنوادي سان سارديس ، وكان الأوحى بين ١٧ قسا في مدن أوبان الذي ارتضى القسم ، واشتهر منذ أمد بعيد بالتواضع ، وبأنه وهب الفقراء الجانب الأكبر من دخله . وزعم الأب كيرييه (***) بأن ما فعله كان « واجبا مقدسا ليس مستلهما من الطموح والصالح الذاتي أو الخوف ، ولكنه أقدم عليه طوعا ، وبإملاء من العقل » . غير أن الأوغاد يميلون الى الزعم بأن الكثير من القسس كانوا ينشدون اجتذاب الانتباه ، وياملون من وراء المسانيرة الحصول على المناصب التي خلت بعد أن استتعد رؤساؤها . وكما أشار أحد النقاد (****) : لا جدال أن الكسب المادي كان من بين عوامل تقييم القسس للدستور الكنسي الجديد ! ، .

ونشرت الأندية ووزعت وفرة من العظات التي ألقتها من أقسموا اليمين ، فجلبت لهم الشهرة على الفور ، وطبع في روان وكان بحث لأحد قسس الابرشية (*****) وتلى تلاوة حماسية في أماكن قصية كتولوز ، وطبعت جرينوبل حديثا لقس آخر (*****) ، وأخطر بيرجروك جميع البلديات عن تعاطفه على قس من سانت فوا ، وعلا صوت كلود دوبرتييه

Tulle	(*)
Loberhet	(**)
Quéré	(***)
Timothy Tackett	(****)
Le Verdier	(*****)
Meaux	(*****) قس
Congis	بالقرب من

أسقف أفرون ، وبلغ مكانة مرموقة عندما أرسل عدة تعقيبات على القسم الى جمعية أنصار الدستور في روديه .

وانبعثت أبعد العظات قبولاً للاستحسان من شفاء قس نويزي الى سسك (*) ، ونشرت في باريس وشارل فيل ومونبلييه وايروميتز . واستشهد تيموريه باباء الكنيسة وبالأسماء المسيحية الشهيرة من امثال صمويل وأرميا وجريجوري الأكبر والقديس أغسطين وفنلون كمصادر موفية ، وقال : « لو كانت هناك حقيقة كاثوليكية معترف بها عالميا من الكنيسة ، ومدونة في الأسفار المقدسة . ولو كان هناك شعار تتبناه جميع المذاهب ، وتردده جميع المنابر المسيحية ، فانه سيتمكن القول بأنه ليس بمقدور قسس الكنيسة التراجع عن ممارسة سلطة من التشريعات على الأرض دون أن يتهموا بالفتنة » . وبعد أن أضفى على قسمه صفة القداسة ، أعاد احياء الحجج التي استعان بها أنصار التشريع في الجمعية الوطنية في يونيو السابق : ان التقسيم الإداري الجديد لا يمثل ما هو أكثر من الرجوع الى الأيام الباكورة للمسيحية ، عندما كان هناك تعايش بين الأسقفيات وولايات الامبراطورية الرومانية ، وإبان هذه الحقبة البدائية ، انتخب المؤمنون الأساقفة والقسس . وترجع القيود المؤقتة التي فرضت على سلطات البابوات الى فسوقهم وجشعهم في حقب مغايرة ، فهل بمقدور أحد في قرن التنوير المناداة بإعادة احياء هذيان العائشين في تيه الجبال ؟

وبلما بشهر يناير ١٧٧١ ، سادت حالة أشبه بالحرب الدينية في الأقاليم الفرنسية ، ففي بروفانس ولانجدوك والالزاس ، حدثت مواجهات عنيفة بين أنصار الكنيسة الجديدة والكنيسة القديمة ، ولأول مرة انقلب نفر كبير من صغار الكهان والقسس على الثورة الفرنسية . وأصدر الأساقفة الذين لم يبارحوا فرنسا بيانات ملتهبة ، ومنعوا المحلفين من الاشراف على المقدسات . أما من هاجروا فانهم تركوا تعليمات « للقسس المشاكسين » بالتزام البقاء في أبرشياتهم - ان أمكن - وأن يؤدوا واجباتهم الدينية في العلن والسر وأن يعاملوا القسس الدستوريين كدخلاء .

ونزع المحلفون الى الاعتماد على اليعقوبيين لحمايتهم من الاضطهاد . وعامل نادي أنصار الدستور - من ناحيتهم - من أقسموا اليمين معاملة الملوك ، وأغدقوا عليهم المدايح والهدايا . وكانوا يحفونهم بمظاهر الجلال في الطرقات ، وينظرون اليهم بعين العطف عندما يرون قسس الأبرشية يتقربون منهم سعياً وراء بركاتهم ، ويركعون لتقبيل أطراف ثيابهم ،

ونادوا ما سمعتم كلمة تنضج بالمرارة . واذا اعترفنا بصحة هذه الرسالة (*) ، سنرى أن هونتارجيه كن يطالب بما هو أكثر من القسم . فلو جاء اليوم الذي يتعاقب فيه القسم هم والهراطقة ، ونقشت حقوق الانسان على جدران المعابد ، آنشد فقط سيعترف بهم كمواطنين حقا .

وتكاد جميع النوادي أن تكون قد تعرضت لفقدان أحد المواطنين والقسس الكاثوليك في بدايات ١٧٩١ ، كنتيجة للعصيان وحركات التطهير . ولكن على أية حال ، فيصح تشبيه الانشقاق الديني برصاصة أصابت ذراع الحركة اليقويية . فالجمعيات الأقسام التي أصيبت بالعرج (**) . بدأت تلتقي الآن بانتظام أكبر ، وتعقد جلسات علنية وتضم أعضاء جندا . وتفرغت بعض الدوائر الوطنية المتنافسة لعمليات الدفاع عن النفس . وارتفع معدل انشاء الأندية وبلغ رقما قياسيا ، وشارك اليقوييون في باريس (بهذا المعنى الجديد لرسالتهم) بإصدار منشور دوري في ٩ يناير طالبا من المنضمين اليهم استعمال جميع السبل ما عدا العنف لتهديد الكنسيين الذين يدعون الى « الحرب باسم اله السلام » . وطبعت فرساي ألفي نسخة من هذه الرسالة ، واستجابت جمعيات كثيرة بإرسال نشرات الى المواطنين تدعو الى تحقيق السلام والوثام وسط نيران التعصب . وتحدث تول في ٢ يناير أسقفها المنشق ، ودعته الى الاشتراك في مناظرة رسمية حول مزايا الدستور المدني لرجال الدين ، وتجسمت جمعيات الحراسة (***) في عدة تنظيمات ، واتخذت عدة أندية شعار « العين الساهرة » وأعلنت جمعية ليموكس قيام ثلاثين من أعضائها بالتجوال كل يوم أحد في الأقاليم للدعوة الى اتباع القانون ، وأنشأ الوطنيون في فنديه ، جمعية (****) متنقلة ، من مدينة أخرى لمحاربة التعصب .

وتولد عن الرقابة المزيد من الشكايات ، ففي الشهور الأولى (١٧٩١) قلما مر يوم بغير ظهور اتهامات جديدة بالتعصب ، وفي إحدى المناسبات ، قدمت تورز لمجلس مدينتها نشرات ملتهبة كانت منتشرة في حوض نهر الانداز واللوار ، وأخطرت مدينة بربست لجنة التحريات (*****) في الجمعية الوطنية بأن القسس المتمودين قد هددوا بشطب أسماء الشماسين غير

(*) نشرت في Patriote française في ٢٢ فبراير

(**) جمعيات Artonne, Angoulême, Rodez, Le Mans

Surveillance (***)

Société ambulante (****)

Comité des recherches (*****)

المتعاونين من سجلات المعمدين ، وأبلغت مدينة فانت عن حدوث ضغوط سرية في أحد الأديرة ، وشعرت مدينة أخرى (*) بازدياد لرجال الكنيسة الذين استثاروا الشعب واعتبروا « القسس المحلفين غير جديرين بالقدسية » وندبت مدينة أميين تمرد كليتها • وكشفت أوتون عن شروع نائبها الأسقفى (**) في جمع تبرعات مالية لمعارنة من امتنعوا عن حلف اليمين ، وشرى لانجروبورج بالفضب لاختفاء مقاطعتين من مقاطعاتها في اسكات غير المحلفين ، وشكت مونفور من « القسس المشاكسين » الذين استمروا في حرق البخور • وشجبت كليرمون فيران الرهبان الذين يرتدون رداءهم الرسمي من أثر الجهل أو ازدياد للقانون •

ومن الموضوعات المتكررة في رسائل النادي في بواكير ١٧٩١ ، التأثير المزيج للقسس غير المحلفين على النساء ، ففي ستراسبورج ، دفع تمرد النساء المجتمع الى اغلاق المعهد اللاهوتي ، واقتحم حشد من الأمهات والأطفال فندق المدينة (***) لمنع عمدتها من تطبيق قانون ٢٧ نوفمبر ، واضطر نادي بوج الى اتخاذ اجراءات ملحة لتهدئة مخاوف الريفيات • وفي سانت فوي ، تجمهرت شرذمة من المتعصبين دفاعا عن قس رفض تلاوة أوامر صادرة من الجمعية الوطنية ، وشعرت مدينة أخرى (****) بالازدياد لاشتغالها عجز نساها الطبيات عن الكتابة ، وان كن تعرفن كيفية صب الشوائب على الكاهن الدستوري • وشعرت لي مائس بالأسى ، لأن النسوة « كن تحرم من الاعتراف ، وتلقين تهديدات بالحرمان من رعاية الكنيسة ما لم تبعدن أزواجهن عن « مدرسة ابليس » ، يعني جماعتنا » •

وفي المدن التي امتنع فيها رجال الدين عن التعهد بأولاء للدستور ، عكفت الأندية بكل جد وعزم على الاطمئنان الى أداء شعائر العبادة دون مقاطعة • وتطوع محلفان بملء المحلات الشاغرة في كنائس البرشية بالمدينة الى أن يعين قسس جدد ، وعهدت تورز للكنسيين الموالين في مقاطعتها بمهمة تلقي الاعترافات والإشراف على المقسسسات في ثلاثين أبرشية خالية من القسس • غير ان هذه الاجراءات لم تزد عن اجراءات وقتية ، اذ كان الحل الدائم الأوحدم والمشروع - كما أدرك أنصار الأندبة - هو دعوة من يحق لهم الانتخاب بالمجالس الدينية الى جلسة لاختيار من

Aigues - Vives

(*)

Vicaires-généraux

(***)

Millau

(****)

Yessengeaux

مدينة

(*****)

يحلون محل القسس ، وحلّت التجاء الى الضغط لارغام الموظفين في المقاطعة والادارات على استدعاء الناخبين على الفور ، وتعالّت صيحات الاحتجاج عند حدوث أى تأخير .

وبدأت الانتخابات فى أواخر يناير ، وسارت فى طريقها زهاء أربعة شهور . وكما لاحظ أحد كتاب النشرات من أنصار الملكية : « لم يسبق قط ان بدأ تأثير الأندية ملحوظا الى هذا الحد » ، وبدى بالاقتراع على وظائف الأسقفية . وفى ليلة الادلاء بالأصوات ، اشتبكت الجمعيات فى كفاح مرير ضد القسس والشماسين السابقين(*) . ونشرت بورج دفوعا بليغة (**) لمؤازرة أسقف بوسيميه ، وذكر أن محله ليس شاغرا وعندما أعلن رئيس الجلسة (***) أن الكنيسة قد تعتبر كل من يدلى بصوته من الهراطقة ، هدد أوش بنشر أسماء جميع الخونة ، الذين غابوا عن عملية الانتخاب .

وخشى بيروجيه (****) من حيلولة المشكلات المالية دون استطاعة الناخبين السفر الى مقار الانتخابات ، ومن ثم وزعت قائمة بأسماء الأعضاء الذين أبدوا استعدادهم لتدبير أماكن ايواء مجانية ، وفتح برجرالك اعتمادا لدفع نفقات السفر ، واشترك هو وسان برييك فى كتابة التماس للجمعية الوطنية بتحمل جميع النفقات ، وكان من واجب الجمعية التشريعية الاتصاف بالحكمة والموافقة على هذا الطلب ، لأن عدد الحاضرين كان ضئيلا الى درجة مخيبة للآمال . ففى بورج لم يلب النداء سوى ١٩٨ ناخبا بالمقارنة بثلاثمائة وخمسة وعشرين فى السنة الفائتة ، وفى فنديه ، لم يظهر من الناخبين المستوفين للشروط أكثر من ١٧٣ ، من عدهم القانونى (٤٧٦) ، وامتنع ٢٨ منهم عن التصويت . وانتخب كلود فوشيه أسقفا لكالفادوس بعد حصوله على ٣٥٪ من أصوات المجلس الدينى .

واشتبكت الأندية فى حملة انتقامية مع الممتنعين عن التصويت ، وسعت من وراءها الى إعادة تجديد شاملة للناخبين . ولكن من سخریات القدر أن يؤدى تقلص جماعات المنتمين الى تضخيم التأثير « اليعقوبى » ، وترأس الجمعية المنتخبة رئيس نادى آراس ، وافتتح أعماله بإقامة قداس حضره أعضاء النادى كتلة واحدة . وفى بورج ، انتخب أعضاء

(*) على ترأس الجلسات

(**) للأسقف Perigieux

La Tour du Pin Montauban (***)

Perigieux (****)

الجمعية كسكوتيرين ومستولين عن عدد الأصوات ، وأوفدت بعض المدن (*) بعض المبعوثين لتسليم التعليمات ، وعقدت الأندية القائسة في مواقع الكليات المنتخبة اجتماعات عامة يوميا وتولى تطبيقها خاظر المنتخبين المدعويين لجمعية كاستر (من ١٣ - ١٦ مارس) متحدثون من المدافعين عن الدستور المدني لرجال الدين . وطبقا للبيانات التي وردت في الجرائد اليومية ، فإن « كان » استطاعت جمع ألف ومائتي عضو وزوار من الناخبين في قاعة اجتماعها في ١٤ مارس ، وهو اليوم المحدد لاختيار الأسقف الجديد ، وورد في أحد المجلات (**) أن عددا يناهز ٢٣٠ من الناخبين قد هرع الى اجتماع النادي في نانسي في ١٣ - ١٤ مارس ، وأدرجت ستراسبورج ١٣٣ ناخبا كأعضاء في الجلسة المنعقدة من ٢٦ فبراير الى أول مارس . ويقال لنا ان كثيرين من الناخبين قد جاءوا لجمع المعلومات التي سيكون بوسعهم الاستعانة بها في اختيار الموظفين المستولين ، وقامت مدن أخرى (***) بتعريف من يحق لهم الانتخاب الصفات التي يراد تحلي الأساقفة المأمولين بها .

ووجه المعاصرون الاتهامات لتدخل النادي لصالح بعض مرشحين بالذات ، واعترفوا بوجود أدلة مؤيدة لهذا الادعاء ، ويبدو أن هناك مدنا معينة قد خضعت للأيحاء بانتخاب جريجوار . وشنت بروج في البداية حملة لانتخاب لويس شاربيه من لاروش ، ولكنها عندما رفض المنصب اختارت بيار أناستاس تورنيه ، وهو قس بالغ اليعقوبيون في الاشادة بمناقبه في باريس . وعندما طلب ريوم ترشيح بعض من يستأهلون الارتقاء الى منصب الأسقفية وشحت مدينة أرتون أربعة أسماء (لم ينتخب أحد منهم) . وأعدت الجمعيات الشعبية في ليون وسان اتيين قوائم بأسماء بعض رجال الكنيسة التي تزكى للقبول ، وادعت الفضل في ترشيح اسم الأب أنطوان لاموريت أسقفا للرون واللوار .

وكوفي ١٩ من المبعوثين بمنصب الأسقفية ، وزكى الناخبون أيضا بعض أعضاء الأندية ، واختار الدروم (****) زعيما لجمعية أنصار الدستور في فالبنسي ، وزكت تولوز ترشيح أساقفة للجارون الأعلى (*****) . وأعلن بعض الفائزين الآخرين عن ترشيحهم للأندية ، بنشر مقالات تدافع

(*) مدن مثل Gueret, Foix, Coutances ونانسي

(**) Journal de Meurthe.

(***) Le Mans, Cherbourg, Soissons.

(****) Drôme تنظيم اداري قديم في فرنسا كان يجمع بعض المدن المهية ويقامه

الكلب المظلة المحطة بطنية Valence

Haute-Garonne.

(*****)

عن الدستور المدني ، أما بارت الذي انتخب أسقفا لجيرس ، فقد اكتسب شهرة في الجنوب بفضل عدة مؤتمرات عقدها ، وأرسل لي فيرديه (*) مبحثا لنادى روان قبل أيام قليلة من انتخابه أسقفا . وهكذا دواليك .

وبغض النظر عن هل كان الأساقفة مدينتين بمناصبهم للناخبين اليعقوبيين ، أم غير ذلك ، فانهم حظوا بالمساندة من الأندية بعد توليهم أعمالهم . وفي الحالات التي كان الزعماء الجدد يقيمون على مقربة ، كانت الجمعيات تبلغهم بحظهم الموفق وتصحبهم في موكب ظافر الى الكنيسة الكاتدرائية ، أما المقيمون في باريس أو في مناطق نائية ، فقد أرسلت لهم رسائل التهنئة على جناح الأثير . وأثناء رحلات الأساقفة الى مقار عملهم ، تقيم الأندية مظاهرات حافلة للترحيب بهم ، وتدعو لهم بالتوفيق في نشرات مطبوعة أو تهديهم بعض الأسفار أو القطع الفنية المقدسة ، وتنصب للأساقفة عروشا ومنصات ، ويحيى مبعوثو الأندية عربية الأسقفية خارج البوابة ، ويقدمون شعائر التقدير والتأمين ، ولا ينسون القاء بعض الخطب المعسولة ، ثم يصحبون الموكب الرسمي في طريقه الى المدينة ، وبعد التسبيحة أو القداس المختصر (**) يزور ضيف الشرف الجمعية ، حيث يعانقه الرئيس ويمتدح فضائله ، وغالبا ما تقام وليمة على شرفه ، ثم يرافق أعضاء النادي الكاهن وسط مظاهر الحفاوة بغض الطريق الى الوقفة التالية .

وأتيمت احتفالات مهيبة لدى وصول الأساقفة الى مقار عملهم ، ودعا ألبى كل جماعة في اقليم التارن لارسال ممثلين لها في حفل تنصيب الأسقف . وحتى تثبت بعض البلدان المنافسة ، عدم وجود من يبرزها في هذا المضمار ، أثبتت كاستريز (***) وجودها بإقامة عرض حافل ، وأثناء الحفل الديني الذي أقيم لأسقف ماین ، احتشد ألفان من المواطنين في نادى لافال واجتمع قرابة ألفين وخمسمائة في جمعية مارسيليا لاستقبال أسقف حلق حوض الرون . وأمرت بلدية بروج المواطنين ، بناء على طلب النادي بانارة ببوتهم . على أنه في بعض الأحيان حدث عدم تعاون من السلطات كما رأينا أميين تتخلى عن بعض الإداريين ممن تخافوا عن الحضور في حفل تنصيب أسقفها . واشتكت جمعية لانجريه لأن موظفي الاقليم بذلوا قصارى جهدهم لافساد الحفلات البهيجة التي أقيمت هناك ، الى حد اعدامها على تنفيذ حكم بالاعدام العلني في نفس اليوم .

Le Verde Choi y Le Roi
Missa breva
Castres

(*)
(**)
(***)

وجمعت مظاهرات ربيع ١٧٩١ بين مظاهر التعبير عن الابتهاج والجهود المحسوبة للدعاية . وفي كالفادوس حيث حدد فوشيه (*) بالحرمان الكنسي من قبل الأسقف السابق ، عانت الجمعيات الأمرين لاثبات التأييد الشعبي . وأعدت مدينة أخرى (**) العدة لقدوم الأسقف ، وطبعت بعض أحاديثه التي سبق أن ألقاها ، وعندما وصل عومل كأنه « ملاك هبط من السماء » ، وفي « كان » منح عضوية مجلس المدينة ، وبالح رئيس الجمعية في امتداحه ، وقاد أنصار الدستور عرضا اتجه الى الكنيسة الرئيسية حيث أقيم احتفال لشكر الاله ، وفي هونفلور بآرك فوشيه العلم ، وألقى خطابا طبعته الجمعية ، وقدم للصحفيين البارسيين ، وقرى في حضرة أعضاء جمعية فير مقالته عن النظام الاجتماعي ، ولقى إعجابا شديدا ، ثم حضر بعد ذلك وليمة حضرها ماينوف عن المائة شخص .

وبرز الأساقفة في شتى الأنحاء كزعماء للجمعيات . ويصح هذا القول بوجه خاص عن الأسقفيات التي استمرت فيها أغلبية الكليروس والشعب تدين بالاخلاص للنظام الأقدم ، ومثل اليعقوبيون العملاء الوحيدين الذين يمكن أن يعتمد عليهم الأساقفة الجدد ، وفي كالفادوس احتل فوشيه الصدارة شهورا قليلة ، فكان يحرر رسائل الأندي ، ويصدر تعليمات باسمها ، ونشر تورتية الثورة من خلال جمعية بورج ، وأشعل الحماسة عند اكليروس شير . وارتقى بالمثل الأسقف بوفيه الى أعلى المراتب ، وأن كان ذلك لم يدم طويلا ، وسعى النادي تحت قيادته لشن حملة لاستبعاد « المشاكسين » الذين أثاروا الشغب أثناء جناز ميرابو في شهر ابريل .

وسخط سلف ماسيو على الانتخابات ، وفي أواخر ابريل اقترعت بوفيه على طبع ألف ومائتي نسخة من الرد ، وعكفت الجمعيات الشقيقة على اعداد دفع لصالح الأساقفة السابقين أيضا ، وكان أكثر الملامح الجديدة ادماشا المقالات المناهضة للهرارشية في ربيع ١٧٩١ عنف لهجتها ، وشبهت بلوا أسقفها السابق بوخش ينفث سمومه ، وفي إحدى نشرات دويه (***) قورن بريماز الأسقف المستورى للشمال بالأديب الحكيم

Fauchet

Cheylus

Douai

(*)

(**)

(***)

« فنلون ، وما عرف عنه من فضل » . ومقابل ذلك ، صور الأسقف السابق لاراس كوتزيه (*) كداعر كرس حياته للمتعة الشهوانية .

وتعزز موقف الهيرارشية الفرنسية المنشقة في مارس ١٧٩١ ، عندما عاقب البابا لوفيه دي برين أسقف سنس ، لأنه أقسم اليمين للبرلمان المدني ، وأثارت رسالة البابا الى نوميديه زوبعة عاتية في النادي ، ورفع سنس شكايته الى الجمعية الوطنية ، وأبلغ سبانت مارسيلان اليعقوبيين غاضبا عن وجود أفراد من أصحاب النوايا الخبيثة قد أرسلوا بعض النشرات الى القسس الدستوريين في دائرته وأحرق جيون دميته في الميدان الرئيسي : تمثل أحدهما البابا ممسكا بمنشوره البابوي ، وتبين الدمية الأخرى الأب موري السيء السمعة جالسا تحت قدميه . غير أن هذه الأفعال بدت هيئة الشأن بالمقارنة بالانفعالات التي ثارت عندما وزع أحد الصحفيين من أنصار الملك بعض الرسائل البابوية في شتى أنحاء فرنسا في أوائل شهر مايو ، وأعلنت الرسائل المشار إليها ، والمؤرخة في ١ مارس و ١٣ مارس أن الإصلاحات الدينية للجمعية الوطنية خرق لتعاليم الكنيسة ، وتعنى إلغاء الانتخابات الأسقفية ، وأنذر من أقسموا اليمين بوجوب سحب قسمنهم في بحر أربعين يوما ، والا واجهوا الايقاف عن أداء عملهم .

ولم يعترف أنصار النادي في سيزان وبيتون (**) وجرأى بمسئولية البابا عن هذه البيانات ، وعللوا ذلك في البداية بتلفيق رويو لهذه الرسائل ، التي لا أصل لها ، على أنه بوجه عام يستطيع القول بقبول الجمعيات للمنشورات البابوية في ظاهرها ، وأدانت الجمعيات البابا بيوس السادس ، وتساءل الأب فيارد من لينيه في معرض حديثه عن بابوات روما : « عن مدى ما أثارت نزواتهم وكراهياتهم النابعة من الأنانية من إراقة لدماء آلاف البشرية ؟ » وأعلنت جمعيات عديدة ردودا مطبوعة ، واكفهر جو فرنسا من غبار حرائق الاحتفالات المقدسة . وتلقى جنجام (***) للرسالتين في ١٧ مايو ، وعكف على الفور في البحث عن وسيلة « لجلب الاحتقار والسخرية من هذه الأعمال المظلمة التي اصطنعت لبث الرعب في النفوس الحائرة ولشن حرب دينية في المملكة » . وانتهى الأمر الى اتخاذ القرار باتباع الآتي : يقوم ٤١ من الأعضاء حامل الوثائق بالتقدم في خطوات وقور صوب الميدان الرئيسي ، حيث ينتظرهم موظفو البلدية

Conzie

Béthune, Sezanne

Guingamp

(*)

(**)

(***)

بصحبة حشد من المواطنين . وبلغ غضب الجنود ذروته الى حد تمزيقهم للمنشورات البابوية ، أثناء سيرهم ، وتسلم العمدة الأجزاء المتناثرة من احدى الرسائل ، وتلقى رئيس النادي الرسالة الثانية ، وانتقلت أعداد نشرة رويو(*) من يد لأخرى ، وعند تلقي الإشارة أقيمت هذه النشرات في النيران .

وجرت عمليات الانتخاب لاحلال قسسي من غير المحلفين في جمعيات الأقاليم ، لاسيما في مارس وابريل ومايو ، وحاولت الأندية مرة أخرى تشجيع الحضور ، وأشارت في تعليمات مطبوعة الى أن اختيار القسسي حق للشعب منذ أوائل عهد الكنيسة ، وأرغم بيمبوف(**) جميع من يحق لهم التصويت على التعهد بالحضور ، ونظرت « برجراك » في مسألة تدبير أماكن للإقامة المجانية للناخبين في مقاطعتها ، واقرعت على حصر أسماء المتخلفين عن الحضور ، ويصح القول بأن كل جماعة في عواصم المقاطعات كانت تعقد اجتماعات يومية يحضرها العديد من الناخبين .

وفي اليوم الأخير لعقد الجمعية الانتخابية في سيزان ، أعلن مبعوثون من النادي « كم هو رائع أن نرى بين الكنسيين الجدد مواطنين اشتركنا معهم في عقد أقدس تحالف » . وفي مواضع أخرى أيضا ، اتضح أن العديد من حلوا محل القدامى كانوا أعضاء في الجمعيات ، أو معينين من قبلها ، وفي « فير » حيث وزع النادي قائمة بالتبائع المحلفين ، وبمن هم ليسوا أتباعا لهم ، للاسترشاد بها ، كان القسيس الجدد وجميع الشماسين التابعين لهم من اليعقوبيين ، وقدم رئيس أساقفة برجراك شكره لأعضاء الجمعيات : « لما أبديتهم من اهتمام بانتخابي » ولما سيج لاروشيل عن وجود زيادة في رجال الدين من المحلفين(***) ، وطلب من ليموج ارسالي قسيس لشغل الأماكن الشاغرة في الأبرشيات ، وكتب بيان بأولو الى جنجام طالبا ارسالي قوائم بأسماء بعض الأساقفة الطيبين ممن هم على استعداد للانتقال الى أماكن أخرى ، وزكت تورز لستراسبورج أسماء اثنين من الرهبان من القادرين على التحدث بالألمانية ، ومن يرغبون انشاء أبرشيات في الالزاس ، وأشارت ستراسبورج على كولمار باسم أحد الصالحين الأطهار من القسسي في باتنهايم ، ممن كانوا ينوون الخط من مكانة الأبرشية(****) .

Gazette.

Paimboeuf

Haute Vienne.

(*)

(**)

(***)

(****) وجعلها مجرد مكان صغير لا يضم احدا غير الخوري .

وفي الأبرشيات التي حل فيها القسس المنتخبون محل غير المحلفين ،
ثارت المتاعب عادة ، وغالبا ما كان الخوري القديم يبقى قريبا من موقع
الأحداث ، وكان الآباء والأمهات يصحبون أطفالهم اليه للمصاحبة
والتعميد ، ويسعى اليه أقرباء المحتضرين للاشراف على الطقوس الأخيرة
ويطلب منه الشباب ترأس احتفالات زفافهم ، وفي المصليات الخاصة
والبيوت والحقول وفي أي مكان متاح ، كان المؤمنون يلتقون للاستماع الى
« المشاكسين » وهم يتلون القسنداس والعشاء الرباني . ووصف
بيير دي لاجورس موقف القس الدستوري على هذا النحو :

« في الأبرشية التي ستؤول اليه ، لا أحد يرشده الى الطريق .
ففي نظره ، لا حاجة لوجود من يدق ناقوس الكنيسة ، ويتحمل عبء وضع
الكسوة للمذبح ، وتترك الأبرشية خاوية كأنها مكان جرد من محتوياته
قبل تركه للوقوع في أيدي الأعداء ، وفي المساء ، يجرد من كانوا رجال
أبرشيته يوما ما الكنيسة من محتوياتها ، ويلقون القش في البئر ويلطخون
الأبواب بالأوساخ ، ويسدون الأقفال بالرمال . وعندما يسارح المكان
القسس المحلفون يتبعهم الأطفال مقلدين صيحات الديكة ، كتلميذ للخيانة
التي تعرض لها القديس بطرس ، وعندما يمر في الطريق ، يطلق الفلاحون
كلابهم لاعتراض سبيله » .

وعندما تقع مثل هذه الأحداث ، كان القسس الدستوريون ينزعون
لطلب المساعدة من الأندية التي تعهدت بمسئوليتها عن حمايتهم ، والتقى
ممثلو جمع الجمعيات (*) في مؤتمر بكليرمون - فيران لبحث مشكلة
المقاومة الشعبية للدستور المدني ، وسبل العلاج الميسورة . وأصبح من
بين الأمور المألوفة في الأندية أيضا ايفاد مبعوثين لحضور حفلات تنصيب
الخوريين الجدد ، وتطوع أحد اليعقوبيين من فير باختيار طفل من أبنائه
ليكون أول من يعمده القس المنتخب . واقترح سان برييه تأليف جيش
من المتطوعين في بريتاني للانتقال الى أي مكان يتعرض فيه القسس
« الصالحون » للاضطهاد ، وأنشأ القسس المحلفون جمعيات أبرشية
كوسيلة دفاعية اضافية ضد المتعصبين ، وأنشأ الأب ماسموريه (**) القس
الدستوري ، وبالمقدور ذكر عشرات الأمثلة المماثلة .

وبمرور الأيام ، طالبت الجمعيات الجمعية الوطنية باستصدار قوانين
جديدة صارمة ، وسعت جمعيتان لكى يشمل القسم جميع العاملين

(*) في Puy de Dôme

(**) Masmoret . كما أنشأ أيضا Lemembre خوري Chavennes

جمعية Chateaufort sur-Cher

بالكنائس سواء أكانوا من الموظفين العموميين أم لا ، وألغت جمعيات أخرى على تخفيض مرتبات غير المحلفين أو وقفها ، أما جمعية بريود وبعض جمعيات غيرها فقد طالبت باستبعاد القسس السابقين من أبرشياتهم .
بينما طالبت جمعيات أخرى بنفيهم الى مكان يبعد ثلاث مدن أو أربع .
واقترحت مدينة كوندريو حشدتهم في الميادين الرئيسية للمقاطعات ، أما ستراسبورج فرأت اقصاصهم خارج الحدود ، بينما ارتأت مدينة بلوا تكليف جمعية ناشئة لتجميع جميع المشاكسين في بعض السفن ثم شحنهم الى احراج افريقيا وأمريكا ! .

واقترحت فير في سبتمبر ١٧٩٠ السماح لرجال الدين بالزواج « حتى يصبحوا مواطنين بالمعنى الصحيح للكنيسة » واستفسرت ستراسبورج في أغسطس من الجمعية الوطنية عن هل يحق للكنيسة الانفراد بالسيطرة على سجلات الزواج والتعميد . وعندما زادت صفاقة « المتعصبين » عن حدها ، تورطت بعض الجمعيات في عمليات العنف .
ففي حادثتين منفصلتين في ليبورن في مايو ، قبض على بعض القسس وهم يجوبون المدينة على ظهور الحمير ، ويرشقون الجماهير بالحجارة ، أما الأدهى من ذلك فهو البيان الحافل بالزهو الذي أرسله نادى ليبورن الى اليعقوبيين في باريس . وعلى الرغم من أن أحداث العدوان والقتل ظلت نادرة ١٧٩١ ، الا أن الوقت كان قد حان لكي يصبح الرعب مبدءا للممارسة المقبولة للتعامل مع القسس الأوغاد ! .

المراجع

- A. Cobban, *Aspects of the French Revolution* 1970.
- W. Doyle, *Origins of the French Revolution* (1980).
- J. Egret, *The French Pre Revolution 1787-88*, (1978).
- A. Forrest, *The French Revolution and the Poor* (1981).
- I. Godechot, *The Counter-Revolution : Doctrine and Action 1789-1809* (1971).
- L. Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution*.
- D. Johnson, ed. *French Society and the Revolution* (1976).
- G. Lefevre, *The Coming of the French Revolution* (1947).
- M. Lyons, *France under the Directory* (1975).
- R. R. Palmer, *Twelve Who Ruled : The Committee of Public Safety during the Terror* (1941).
- A. Saboul, *The French Revolution* (trans. 1975).
- T. Tackett, *Religion, Revolution and Regional Culture in Eighteenth-Century France : The Ecclesiastical Oath of 1681* (1986).
- C. Tilly, *The Vendée* (1964).

أصل الاتجاه المحافظ فى ألمانيا

كلاوس إبشتاين

من سخریات التاريخ ، ومفارقاته ، أن يكون الاتجاه المحافظ ، يعنى الأيديولوجية التى تسعى للحفاظ على حكمة الماضى ، ظاهرة فكرية عصرية • وما كان بالاستطاعة بزوغ هذا الاتجاه الا بعد أن تعرضت المعتقدات الأوربية التقليدية فى الدين والسياسة للتحدى الشديد والانتقاد العلوانى من قبل كتاب عصر التنوير ، وبعد أن اعتنقت الحكومات جانبا من هذه الأفكار النقدية •

ولقد جرت العادة على الربط بين الاتجاه المحافظ ورد الفعل ضد الثورة الفرنسية، غير أن العديد من معتقدات هذا الاتجاه ونظراته الأساسية تمت ابان العشرين سنة التى سبقت ١٧٨٩ كاعتراض على النزعة التنويرية المطلقة لحكام وسط أوربا ، وشرقها ، خصوصا فردريك الأكبر ملك بروسيا وجوزيف الثانى ملك النمسا • اذ أحاط العاهلان نفسيهما باتناس من ارباب النظرة المتنورة ، واتبعوا سياسات اصلاح عقلانية فى شتى الموضوعات وفى جباية الضرائب ، وكان الود مفقودا بينهما وبين المؤسسات الدينية فى بلديهما • وجرى جوزيف الثانى الكنيسة مما تملك من ارض •

وزعم لسان حال الموقف المحافظ ، الصاعد آنئذ ، أن المعتقدات العقلانية للتنوير قد أدت الى الشك والانحلال الأخلاقى ، فبغير ايمان دينى تقليدى ، سيجنح السواد الأعظم من البشر الى العيش حياة فوضوية بعيدة عن الانضباط ، فالعقل وحده عاجز عن التزويد بأساس لسلوك الذى يتبع فى الحياة اليومية • واستعان « المحافظون » بهذه الحجة فى معرض الدفاع عن العادات الاجتماعية التقليدية ، والدور السائد للدين

The Genesis of German Conservatism

(*) نقلا عن كتاب

تأليف Klaus Epstein (١٩٦٦) ص ٦٥ - ٨٢ •

والكنيسة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وأنكروا - بوجه خاص - مقدرة البشر على تحقيق أى نوع من التقدم الأخلاقى المهم . وكان المقصود من جميع هذه الحجج الدفاع عن الوضع الراهن (*) في الناحية الاجتماعية والناحية السياسية .

ولجأ المحافظون الجدد الى أنواع شتى من التكتيكات في حربهم الصليبية ضد التنوير ، وحرصوا الحكومات على الالتجاء للرقابة ، ما أمكن ، أو اقامة العقوبات أمام الصحف الانتقادية ، وهاجموا شتى أشكال التعليم التقدمى التى يقصد بها - على ما يبدو - اثبات إمكان رفع المستوى الأخلاقى ، أو مرغوبة الصعود الاجتماعى . وعلى الرغم من كراهيتهم لعالم الصحافة ، إلا أنهم اقتحموه ، فأنشأوا جرائد مناصرة قضيتهم . وحتى اندلاع الثورة في فرنسا ، لم تحقق هذه الاتجاهات المحافظة ، وعقائدها إلا نجاحا متارجحا . ولكن فيما بعد ، عمدت الحكومات والأرستقراط عبر أوروبا الى تبني نظرتها ، ونشرها زهاء نصف قرن من الزمان .

ظهرت الاتجاهات المحافظة طيلة عصور التاريخ المكتوب . ويعنى بهذا المصطلح الاتجاه الذى يشعر فيه الناس بمعادة التغيرات التى تطرأ على ما اعتادوا من حياة ، وما تعلقوا به من معتقدات ، قسمة ارتباطات . وتداع بين هذه الاتجاهات ومعنى التغير ذاته ، وتمتد جذور هذه الاتجاهات الى الخوف الآدمى من المجهول ، والرغبة فى الحياة فى بيئة بالاستطاعة التنبؤ بكل ما يجرى فيها ، ولقد حدثت جملة تغيرات طوال التاريخ لم يقتصر أثرها على تحفيز الشعور سيكلوجيا بعدم الارتياح . وإنما ترنب عليها أيضا التعبير الصريح عن الدفاع عن الاتجاه المحافظ . فمثلا اعتقد المتآمرون الذين اغتالوا القيصر أنهم يدافعون عن الدستور البرلماني القديم ضد نوع جديد من الطغيان ، ودافع الفيديوكنج السكسون عن آلهة جدودهم ضد الدين المستحدث لشرلمان ، ودافعت محاكم التفتيش الدومنيكية عن اتجاه الكاثوليكية المحافظة ضد الهرطقة (**). كما دافع اليسوعيون المناهضون للإصلاح الدينى عن وحدة العالم المسيحى ضد غزو المصلحين البروتستانت ، ودافع جون هاميدن عن الحق الانجائزى العتيد فى عدم فرض أية ضرائب عليه دون موافقته فى معرض الاعتراض على المطالب الجديدة للامتيازات الملكية ، وفى ذات الوقت ، دافع النبيل الألماني كالك شتاين عن الحقوق التقليدية للولايات البروسية الشقيقة ضد الحكم المطلق للوالى الأكبر وما فيه من اجحاف .

وتعد جميع هذه الحالات ، التي اخترناها بطريقة عفوية أمثلة للدفاع عن وضع راهن خاص في زمن خاص ضد زمان معين ، أما ماله أهمية ومغزى في القرن الثامن عشر - في ألمانيا حوالي ١٧٧٠ - فهو أنه بالرغم من أن الاتجاه المحافظ قد ظل في جوهره دفاعا عن المؤسسات الممثلة للأوضاع الراهنة (*) ، إلا أنه تبنى للمرة الأولى نظرية عامة (**) لها شخصية مميزة .

فلم يخطر ببال بروتس وفيلوكنج وهاميلتن أنهم يدافعون عن نظام اجتماعي وسياسي وثقافي جامع ضد هجوم عام يتغذى من رؤيا تصورية جديدة تماما للمجتمع ، وكيف يتعين أن يكون . ولا ريب أنهم شعروا أن ما يدافعون عنه له أهمية تتجاوز الوضع المباشر وما يترتب عن هريمتهم في هذه الناحية من ردود فعل بعيدة الأثر ، وانطلاقا من هذا الشعور ، باتت الخطوة قصيرة للغاية للاقترب من المنظور المحافظ السافر ، ويالها من خطوة قصيرة حقا ، وإن كانت حاسمة ، ولم يبق بخطوها أحد في ألمانيا قبل يوستوس موزر (***) ولقد اتخذت آنذاك كرد فعل لا مناص منه لتحدي التنوير (****) ببرنامجه العام الذي يدعو إلى أحداث تحول في كل قطاع من قطاعات الحياة ، وأرغم « التنوير » أصحاب الميول المحافظة على التخلي عن تقليديتهم التي تولدت عن عدم استبطانهم لذاتهم ، يعنى قبولهم الغريزي المدعم للوضع الراهن ، إيثارا للدفاع على نحو سافر عن المجتمع في جملته ، والوعى الذاتي به ، ولعل ما هو أفدح من ذلك إرغام هذه النزعة التقليدية أنصار الاتجاه المحافظ على انتقاد ممارسة نقد عصر التنوير لذاته . غير أن الرد المجزأ الذي يتناول كل قضية من قضايا البحث على حدة بالتحليل والفحص لم يحقق أكثر من انتصارات مؤقتة أو عابرة ، وقدر للاتجاه المحافظ من بدايته أن يضطر رغم شجبه للنقد والمحاكاة إلى عدم الالتجاء إلى السبيلين . والواقع أن بزوغ الفكر المحافظ والمحاكاة المحافظة قد ساهما في اشتعال المعركة الدائمة للأفكار التي اعتبرها المحافظون - في أغلب الظن - أكثر مظاهر روح العصر الحديث إثارة للأسف .

ولا بد أن نكرر القول بأن التورط المؤسف للاتجاه المحافظ قد ظهر منذ اللحظة الأولى من مولده . فالمحافظون يقدرّون أي مجتمع يقبل فيه الكافة النظام الوطيد بلا اعتراض ، وحيث يكون التشمّط الفكري

Status quo

Weltanschauung

Justus Moeser

Aufklaerung

(*)

(**)

(***)

(****)

اما فى أدنى مستوياته ، أو يكون مكرسا لتهذيب النمط القائم للحياة ، بدلا من نقده ، وهم يسمون ويسمّون من عادة النقد - والتي اتخذت صورة منهجية ابان عصر التنوير - والتشكك فى كل شيء ، والسخط على كل شيء ، ومع هذا فقد شعروا أنهم مرغمون بتأثير الروح النقدية الجديدة التى يتعذر كبتها على الدفاع عن المؤسسات التقليدية من كنائس وحكومات وأنظمة اجتماعية ، عند ما يوجه اليها أى هجوم ، ويشعرون غريزيا أن الحركة قد تعرضت لنصف خسارة ، بعد ارغامهم على خوضها . فلا بد فى رأيهم ، رغم بغضهم للمحاجة والمجادلة ، أن يدافعوا ، رغم شعورهم بأن الاكتفاء بالقبول بلا تساؤل أقدر على تحقيق الرضا الشعوري ، وارغامهم على الاقناع ، رغم كون الاقناع بلا ضرورة ، ولا يحتمل أن يعود بأى نفع . ان من يضع شروط المجادلة هو الفريق المؤمن بالحركة . ولقد كتب على الاتجاه المحافظ أن يحارب - بالضرورة - حربا دفاعية الى الأبد ، والانتصارات التى تتحقق عن طريق الجدل هى فى أفضل الأحوال من الانتصارات المثيرة للتشكك (*) ، لأنه حتى المؤسسة التى تنجح فى الدفاع عن نفسها ستتحوّل الى شيء مختلف تماما عن تلك التى لم تتعرض لأى تحديات تدفعها الى التزام الدفاع ، فالفضيلة النضالية لا تزيد عن عوض هزيل لسحر البراءة ، وإذا تعرضت البراءة للضياع ، فلن يكون بالإمكان استردادها البتة . ان هذا هو المعنى الأساسى للقول الذى ينسب الى تاليران : « ان من لم يعيش قبل ١٧٨٩ لن يكون بمقدوره ادراك ما هى حلاوة الحياة » ، وتبدو ضرورة انماء اتجاه محافظ صريح عند المحافظين الصميمين علامة لا تخطئ فى دلالتها على اختفاء العصر الذهبى الى الأبد .

نقد النزعة النقدية للتنوير

كان من الطبيعى أن ينطلق المحافظون من حصونهم الدفاعية لشن هجوم مضاد قوى ضد روح التنوير وأساليبه . وبلاستطاعة تحليل هجومهم المضاد تحليلًا نافعًا بعد ادراجه تحت عنوانين : أولا - نقد نتائج « التنوير » ، تمشيا مع النظرة التى ترى ان علينا أن نحكم على الشجرة من ثمارها . ثانيا - الهجوم على دوافع التنوير وشروطه المزعومة .

ويؤكد المحافظون أن التنوير قد أدى - على نحو ملحوظ وملحوس لا مفر منه - الى وقوع شرور ثلاثة : الشك ، والا أخلاق واضعاف جميع

(*) Pyrrhic نسبة الى الفيلسوف اليونانى بيري المؤمن بمذهب الشك المطلق .

السلطات القائمة ، فلقد أفسدت نظرة العقلانيين الى الدين الايمان
بالحقائق الأساسية للدين التقليدى ، وفى نظر المحافظين ، ليست هذه
الحقائق متعارضة هى والعقل ، ولكنها - يقينا - لا ترتكن الى العقسل
وحده ، ولقد ضل أنصار التنوير السبيل أساسا عندما اعتبروا العقل
المقياس الأوحده للمصداقية ، والواقع أن أنصار التنوير كانوا معادين
لدرجة كبيرة للمعجزات والغيبيات والقدرة الالهية . وكانت النظرة التى
ترتبت على رفض هذه العناصر الثلاثة الأساسية للمسيحية التاريخية هى
احتمال نشوء دين « طبيعى » يحافظ على جوهر المسيحية (المتمثل فى
تصورات الله الخالق ، والقانون الأخلاقى ، والخلود) مع التخلي عن كل
ما يسمى بالعوارض التاريخية ، ، على أن هذا الموقف لم يكن ملزما من
الناحية المنطقية للمفكرين . كما أنه لم يجتذب السواد الأعظم من الشعب .
فغالبا ما بدا هذا الحل مجرد توقف عند منتصف الطريق بين الشك
الكامل والمذهب المادى الكامل .

وكان الشاعر والعالم السويسرى ألبرخت فون هالر (١٧٠٨ -
١٧٧٧) من أوائل منتقدي تيار الشك ، وتكتسب حججه أهميتها من
كونها قد تركزت على أسس نفعية بحثة بدلا من استنادها على العقيدة
الدينية ، فلقد ذكر هالر أن الشك يضعف - بالضرورة - الايمان
بأسس الأخلاق التى تساعد على بزوغ نوع جديد من الانسان : الانسان
الذى يهب حياته للجري وراء المتع الحسية غير المقيدة بتصور وجود اله
منتقم فى الحياة الآتية . فمثل هذا الانسان لن يعترف بأى قيود أخلاقية
اطلاقا ، وهذا الاتجاه يؤدى فى الحياة الخاصة الى العواقب الآتية :
١ - احلال الصلات المؤقتة محل الزواج ٢ - اهمال الأبناء . أو ربما النظر
اليهم كمصدر قلق وأذى ، ٣ - قتل الوالدين المسنين ، لأن بقاءهما على
 قيد الحياة لن يكون مناسبا ، ٤ - ولما كانت الصداقة تحتاج الى شيء ما من
التضحية ، فان أمرها سينسى بالفعل ، وستكون العواقب العامة جائحة
بالمثل ، اذ سيختفى الشرف فى المعاملات التجارية ، وسيتوقف الخدم
عن الولاء لآسيادهم ، وستنعدم قيمة التعهدات ، وسيصبح الخوف من
العقوبة الوقتية الكابح الوحيد للجريمة ، وحتى هذا الكابح فانه سينعرض
للوهن من أثر فساد ذمة القضاة . ومن الآن فصاعدا ، لن يطمئن أى
حاكم لمن يعملون تحت امرته ، ولن يشق حتى فى ايكال المحافظة على
سلامته لحرسه الخاص . ان هذا الموقف سيكون حتما الموقف الذى تحدث
عنه هوبز ، عندما وصفه وصفا دقيقا بحرب الكل ضد الكل ، وقدم هالر
الصورة الآتية للانسان انشاك الجديد :

« ان الشاك الذى ينكر وجود اله منتقم ، وينكر الحياة الأبدية الآتية يحصر سعادتنا فى الفترة الوجيزة لحياتنا فوق سطح الأرض من حيث الديمومة ، ويحصر متعتنا فى الاستمتاع - من حيث الجوهر - بالمتع الحسية ، انه يؤكد أن لكل انسان الحق فى السعادة ، وأن عليه أن يهتدى اليها حيثما تكون ، ويتساوى المجرم هو والقديس فى استحقاقهما لهذه السعادة ، وينظر الى متعة الحب - وعلى الأخص الجانب الحيوانى من الحب - والى أكثر الأشياء اثارة لحواسنا على أنها أسمى خير يصيب الانسان . فهى وحدها التى تحقق لنا السعادة ، حتى اذا تحققت عن طريق غير شريف ، ولم يرض عنها أقراننا من البشر ، فلا يجب على الاطلاق أن تتقيد هذه السعادة بالكلمة المتعالة البالية المسماة بالفضيلة ، ان هذا المعنى بالذات من أوهام الخيال ومن العيل التى اخترعها البشر ، انه حقا نبت غريب لا ينمو على نحو طبيعى فى قلوبنا . ان ما نشعر به من تأنيب للضمير أو احساس بالذنب يطاردنا بلا هوادة ، يجب أن يستبعد ، وينظر اليه على أنه مجرد فكرة مستحوذة علينا من تأثير الضربات واللطمات التى وجهتها الحياة اليها فى الطفولة ، نعم علينا أن لا نفكر فى الله قط . وقد ثبت أنه لا وجود لآخرة ، ومن ثم فلا شئ يستحق أن يخشى سوى المخلوق الوحيد الذى يشوه سعادتنا ، يعنى الجلال العام ، فحتى الفلاسفة الذين يخشون شيئاً آخر ، أى لا شئ ، أعلى فى السماء أو تحتها ، فان عليهم أن يحترسوا منه ، ومنه فقط ، »

ثم قارن بعد ذلك هالر الفوضى الأخلاقية التى تنجم عن الشك ، وما يترتب عليها من حدوث حرب لكل ضد الكل ، بصورة حياة المسيحى التقليدى المتناغمة :

« تترتب على الايمان المسيحى نتائج متعارضة على طول الخط هى والنتائج الناجمة عن الكفر ، فالدين يوحد الجهود والارادات المتنافسة ، ويضمها فى جهد واحد واردة واحدة تتركز حول الله ، فقانونه يطالبنا بحبه وبحب جيراننا أكثر من أى شئ آخر ، مثلما نحب أنفسنا ، فكم هناك من حكمة لا نهاية لها . وكم هناك من قدرة لا متناهية على فعل الخير تكمن فى هذا الايمان البسيط ! . ان الوحي يعلمنا أن مصيرنا لا يتبع هذا العالم وحده ، ومن ثم فلا بد من الاستمتاع بخيرات الدنيا بتحفظ ، وأن لا تتعلق قلوبنا بها . فنحن نعرف أن اقامتنا فى هذا العالم مؤقتة ، وأن الموت سيقبل علينا ، عندما ننتقل الى عالم روحانى تختفى منه متع الجسد ، ويفقد كل طموح معناه ، والحق أننا بحكم الطبيعة كائنات متدنية ، تحتاج الى اعادة تشكيل عن طريق العناية الالهية ، قبل أن

تستحق عن جدارة الامتثال الى حضرتها برفقة آلاف المخلوقات ذات الطبيعة التي تسمو على طبيعتنا (الملائكة) ، .

ففى هذا العالم الراهن ، نحن جميعا اخوة مكلفون بالالتزام بأن نفعل للآخرين كل ما يتعين أن نقوم به من أجل اله يثيب بلا حدود ، اذا ظهر وسطنا متخفيا فى مظهر انساني وطلب منا العون ، ان هذا المعنى أبعد الزاما من أية شريعة أخلاقية تداع اعتمادا على البلاغة الانسانية فحسب ، فمن هذه القوانين الأساسية القليلة تتدفق جميع الفضائل المدنية ، واذا أطيعت فانها ستثمر - قطعا - سعادة البشر على الفور ، .

ولكى يوازن بين صورته الأولى لرذائل الشاك ، خصص هالزر باقى مقاله للندام عن فضائل المسيحي ، فباين بين الحياة الأسرية المسيحية ، وما يكتنفها من شعور بالارتياح ، والقلق المترتب على الصلات الجنسية المؤقتة ، وقارن بين تربية الأطفال على الطريقة المسيحية ، بما يحدث عندما يكون الأبوان مهملين لا يسعيان لغير البحث عن المتعة ، وقارن بين رضا المسيحي عن كل موقع فى الحياة والواجب الأخلاقى الذى يدعو الى الالتزام بما يفرضه هذا الموقع . وبوسعك أن تقارنه بسعى الشاك وراء الطموح والاشباع الحسى بلا حدود ، وأن تقارن بين التزام المسيحي بالقانون الأخلاقى المفروض بحكم الوعى بوجود اله حاضر فى كل شيء ، وعدم التقيد بأية قاعدة أو أى قانون عند الشاك الذى لا يخشى غير اكتشاف الشرطة له . وهناك اختلاف بين التصور المسيحي للحكومة ، حيث تعد طاعة السلطة المكتسبة عن جدارة واجبا مقدسا ، وطرح هالزر رأى المحافظ الكلاسيكى ، والقائل بعدم وجود مجتمع متحضر بمقدوره الاستغناء عن الأسس الدينية . وأضاف أن هذه الأسس لا يمكن أن تكون غير مسيحية ، على الأقل فيما يخص المجتمع الأوربى . فما زال بالاستطاعة الحيلولة دون تفكك الحضارة الأوربية بفضل التأثير الباقى للمسيحية . وصور هالزر المجتمع الأوربى على أنه يحيا منعزلا عن الرصيد (الروحى) الذى تراكم عبر القرون التى سبقت « التنوير » ، وليس هناك سوى الرؤى القائمة لما قد يحدث اذا لم يشرع فى التوفى تعزيز رصيد أوربا من المسيحية .

وانضم كتاب محافظون آخرون الى هالزر فى تصوره عدم قدرة العقل وحده الاتيان بأساس لأخلاقيات تفى باحتياجات المجتمع ، وأكد بافارى محافظ مرموق : كارل فون اكارتسهاوزن (١٧٣٢ - ١٨٠٣) فى محاجاته على اعتبار الدين التقليدى دعامة ما استمر فى البقاء من أخلاق فى أوربا ، كما أكد على عدم استطاعة الأخلاق الاستناد على غير

العادات الدينية والتقاليد ، وليس على المعتقدات العقلانية لأى أفراد مهما كانت هويتهم •

ويسأل هالدر المتنور ، الذى لا يكف عن نقد العادات التقليدية ، ألا تدرى أن القانون الأخلاقى يفقد قدرا كبيرا من فاعليته اذا لم يتوقف عن الطنين فى آذاننا أثناء طفولتنا ، أى قبل مدة طويلة من بلوغ عقولنا مكانة تؤهلها للحكم على المصائب التى تلحق بالانسان من وراء الرذيلة ، ويتهم ايكارتسهاوزن « المتنور » بالقضاء على الاحساس بالخزى : ان الشعور بالخزى الذى نشعر به عندما نعاقب عقوبة منصفة من بين النعم النفيسة التى وهبتها لنا الطبيعة ، فلا وجود لبديل لخشية العقوبة الالهية لدفع الأخلاق ، ولا سيما عند أنصار المذهب المادى الذين يجنحون الى الظن بأن العقوبة الدنيوية التى تنفذ بوساطة « العجلة » أو « ربما بوساطة أدوات تعذيب أقسى ، لا تختلف من حيث المبدأ عن نزلة نقرس ثقيلة أو مغص كلوى موجع » ان هذه الأسباب النفعية جعلت من المحتوم على أوربا مواصلة التعلق بالتقاليد المسيحية ، حتى بغض النظر عن حقيقتها السوجماتيكية ، وذهب ايكارتسهاوزن الى ما هو أبعد الى حد اصراره على القول « بأنه اذا ظهر عرضا علم صحة المسيحية - وان كان هو بالذات من المؤمنين المتحمسين - فانها ستحتاج رغم ذلك للحفاظ عليها ، لأنها تمثل الأساس الممكن الوحيد للأخلاقيات الأوروبية » ، وتوسل الى « المتنور » ان يلتفت الى المثل الذى ضربه سقراط الذى كثيرا ما هلكوا له كرفيق روحانى • فلقد كان سقراط حريصا على مراعاة العادات الدينية الأثينية ، التى لم يتظاهر باحترامها بناء على أسس دينية ، لأنه أدرك أنها الأساس الممكن الوحيد للأخلاق الأثينية •

ومن بين النتائج الأبعد « للتنوير » القضاء على كل احترام للسلطة القائمة • فلا وجود لأية مؤسسة مهما كانت درجة احترامها محصنة من النقد • ولم يكتف « المتنور » بتحويل النقد الهدام الى عادة شخصية ، ولكنه غمد الى استحداث الكافة - مهما كانت هويتهم ، أى كانوا من العوام أو من غير المتعلمين - الى مشاركتهم فى هذه العادة • وكان الكاهن اللوترى المدعو دانييل يواقيم كوبن (*) - من بوميرانيا - واحدا من العديد من الكتاب المحافظين ، الذين دافعوا عن الحاجة الى السلطة الدنيوية والسلطة الدينية على أسس عامة ، وكتب ١٧٨٩ - دون تأثر بالثورة الفرنسية - بأن أحدا لم يبرهن حتى الآن :

« على أن عامة الناس - في حالتهم الراهنة ، أو فيما يحتمل أن يصبحوا - قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم الحق والخير ، ومن السامع أن عامة الناس - يعنى السواد الأعظم من البشر - يعنى الخدم وعمال المياومة والكادحين والحرفيين الدارجين ، وغيرهم ، الذين قد يكونون أصحاب مرتبة أسمى من الناحية الرسمية - وإن كان مسلكهم مماثلا فى بداوته - عاجزون عن القيام بذلك ، نظرا لغباثهم الفطرى (البيولوجى) وأحوالهم الخارجية فى الحياة ، انهم يحتاجون قطعاً الى الارشاد من عل ، وستظل هذه الحقيقة محتفظة بصحتها مادام عامة الناس يرضحون فى أوصاب حالتهم الدارجة . فما دام الناس قد ولدوا ولديهم طباع وحشية يرتعون فى الجهالة - وستظل هذه الحقيقة سائدة الى أن تختفى البشرية من فوق البسيطة - ويحصلون على التعليم الأخلاقى عن طريق التعليم والتوجيه من مصدر خارجى ما . ومادام مضمون هذا التعليم ليس بالشئ المحايد ، ولكنه يشكل المسلك البالغ برمته للشعب . لجميع هذه الاعتبارات ، فلا مفر من وجود اشراف ما على المبادئ الدينية والأخلاقية التى تفرض على عامة الناس من خارج صفوفهم . ولكن من هو الذى يتولى هذا الاشراف الضرورى ؟ لا يخفى أن هذا الواجب من اختصاص السلطة القائمة .

ولقد استعان المحافظون فى القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا المرة تلو الأخرى بالحجج التى تنسب الى أهل الصفوة والمستنولين .

ولا يقنع المحافظون بالاشارة الى العواقب الوخيمة التى ترتبت على « التنوير » ، عندما قضى على الدين والأخلاق والسلطة ، ولكنهم يلجأون الى المحاجة (*) ضد الرذائل الشخصية « للمتنور » . ومن غير الانصاف اتهام المحافظين بأنهم أول من لجأ للتجريح الشخصى ، لأن مروجى الأفكار من الراديكاليين قد دأبوا على وصم أعدائهم بأنهم عصبية من الأغبياء والأنانيين من أرباب العقول المستغلقة والأفراط المفتقرين الى الخيال ، ورد المحافظون على هذه الألفاظ المكررة ، التى تردد نغما واحدا بعيدا عن الاطراد ، بفضح المتنورين ، ووصفهم بأنهم عصبية من المتعصبين والمتحمسين الجائرين الذين كرسوا أنفسهم للنقد السلبي المحض لأنهم لا يصلحون لأداء أى دور بناء ، وهوجموا أيضا باعتبارهم شخصيات تفتقر الى الاتزان ، وينقصها الاحساس بأهمية الشاعر والروحانيات والتقاليد ودورها فى شئون الانسان ، ولأنهم أصيبوا بغشاوة فى أبصارهم حالت دون رؤياهم عطائب المشاعر القومية .

(*) غير المنزعة من الصالح الذاتى ad dominem

ولا يولع المحافظون بشيء مثل ميلهم لزجر التعصب وعدم التسامح عند المتنور . وهذه اتجاهات تشهد بما لديهم من روح عدوانية ، لأن المتنورين يزعمون ، زعما صائبا بأنهم يسعون لازهاق روح عدم التسامح والتعصب باعتبارها رذائل . وخصص ايكارتسهاوزن جل أحد أحاديثه العامة (٥ ابريل ١٧٨٥) للتحدث عن عدم التسامح الأدبي في عصرنا وقال متعجبا :

« أيها التسامح ! أيها التسامح ! . يالهسا من كلمة رائعة ! كثيرا ما تتردد على الألسنة ، وإن كانت قلما تمارس في قرننا المتنور ! فنحن نسمع الفلاسفة الزائفين يصيحون في صلف : عليكم أن تفكروا مثلما تفكر ، والا فأننا سننعتكم في كتاباتنا بالمعتمين أو المضللين ، وسنلهب ظهوركم بالسياط ، وننكل بكم في نصف العالم . هذه هي الصيحات التي تنطلق من أفواه من أزهاقوا روح الأدب . انهم لن يترددوا عن التشهير بالشرفاء الأمناء الى حد القضاء عليهم » .

وذهب ايكارتسهاوزن الى وصف التعصب للخرافات عند « التنوير » في هذا النداء البليغ ، الذي وجهه لأعدائه :

« خبروني ، متى كانت الخزعبلات مماثلة في اثارتهما للسخرية لفلسفاتكم ؟ ومتى كشفت عن مثل هذه الحمية الانفعالية لكسب المبشرين لدعوة خاصة ؟ ومتى غمرت الخزعبلات العالم بالكثير من النشرات الغاضبة المتناقضة والمثيرة للسخرية ؟ ومتى سعت الى تحيز العالم ضد من يناصبها العداء اعتمادا على العديد من الأباطيل والموسوعات والأشعار والحواديت ؟ » .

ونسب ايكارتسهاوزن الشهرة التي تمتع بها دعاة « التنوير » الى شين مسلكهم وأهوائهم وولعهم بالثار والتنكيل بالأشخاص .

ووجه المحافظون قدرا كبيرا من النقد الى الوسائل البشعة الجائرة التي لجأ اليها « المستبدون المتنورون » - وبخاصة امبراطور الهابسبورج جوزيف الثاني - لدى عرضهم لقضية التنوير . ولنكتف بمثل واحد : المؤلف المحافظ ابن هانوفر : ارنست برانديس ، الذي شن في كتاباته هجوما شرسا ضد الطريقة التي اتبعها جوزيف في اصلاح الكنيسة ، ولا بد من ملاحظة عدم شعور برانديس بأي تعاطف نحو الرهبانية بحكم كونه بروتستانتيا ، ولقد أدرك ادراكا كاملا الحاجات المالية للدولة النمساوية التي دفعتها اضطرارا الى مصادرة بعض الأديرة ، ولكنه احتج على الطابع المتهور لأفعال الامبراطور والقسوة بلا مبرر التي عومل بها الرهبان والتنكيل بشخصهم ، والتدمير الهمجى للنقائس الفنية التي

لا تقدر بشئ ، والافتقار انتام لتبجيل مؤسسات يزيد عمرها عادة عن مئات السنين ، والاختفاق في اعداد الراى العام بنودة لمواجهة خطوات تبدو الحاجة ماسة اليها ، وهاجم برانديس الامبراطور « المصلح » لعدم اكترائه الذى اتصف به ، بمشاعر الآخرين ، مما أدى الى انسام نظراته حتى لأكثر الأفعال اتساما بالروح الخيرة ، بالحق ، ووصفت بالنظرة المستبدة ، وبخاصة عندما اصطدمت بالحياة التي اعتادها عامة الناس ، ومن أمثلة ذلك ، الغاؤه للعطلات الرسمية الزائدة عن الحاجة ، وحملته ضد مراسم الدفن في توابيت خشبية غير صحية وغير اقتصادية ، ومثل جوزيف أعظم تمثيل « المتنور » بحكم اعتقاده المتفطرس أنه يعرف على خير وجه ما الذى يعود بالخير على الآخرين ، ووجوب إعادة بناء المجتمع على أسس عقلانية ، وظنه أن كل عدو للأصلاح اما يتصف بالغباء ، أو من الحقودين الأراذل ، ولا يستبعد جمعه بين الصفتين ، واعتقاده بوجوب الاسراع بتطبيق برنامج التنوير دون مراعاة لأية عقبات تعترض طريقه .

وكثيرا ما هجا المحافظون أصحاب النشرات من أنصار « التنوير » ، ووصفوهم بزمرة من العاطلين المأجورين العاجزين عن الاشتغال بأى عمل محترم ، ورسم ايكارتسهاوزن هذه الصورة البعيدة عن المداينة المروجى معتقدات « التنوير » بلغة قوية ، اشتهرت بها مجادلات العصر :

« انهم اناس يفتقرون الى أية فلسفة حقة ، أدمغتهم مشحونة بما يدعى بالتصورات (المتنورة) التي بثت فيهم على نحو مهوش تماما ، ثم تقيثوها لعجزهم عن هضمها ، انهم يفتقرون الى أية معرفة بالطبيعة البشرية ، لأن حياتهم اقتصر على الدراسة ، أو ارتياد المقاهى فى أكثر تقدير . انهم فى واقع الأمر عباقره مزعومون ، سراويل مثقوبة (*) أو أوباش ، أو أعضاء فى جمعيات سرية ، أو من ثقال الظل الذين يتصورون أنفسهم ندماء ظرفاء (**) ، ومن ينفسون عن حقدهم وضيغنتهم ، وينفثونها فى وجه كل من يفتقر الى تصورات مهوشة مثل تصوراتهم ، ان أعوانهم وأتباعهم منتشرون فى طول ألمانيا وعرضها وتضم طوائفهم فى كل مكان الساخطين الدائمين ، والكثير من المخدوعين فى أنفسهم ممن يتوهمون أنهم الحكماء الوحيدون ، بينما الحقيقة هى أن كل ما يسعون اليه هو العثور على وعاء يصبون فيه غائظهم الفكرى (***) . فهم بظنون أن لديهم القدرة على تسيير دفة الحكم ، بينما والحق يقال ، هم يتسمون

Meistenheils Genies in lerri senen Hosen.

(*)

Witzlinge

(***)

die dann froh sind, wenn sie einen Topf aben, wo sie ihren (***)
Urath ausleeren Koennen.

بالعجز حتى عن تدبير شئونهم الخاصة ، وغارقون حتى آذانهم فى ديون لا يستطيعون الوفاء بها .

وأكد المحافظون أن « المتنورين » اناس يعوزهم الاتزان ، ويفعلون جوانب عديدة مهمة فى حياة البشر ، وأدى تشبثهم بمعتقداتهم وعقلايئهم الى ضمور ملكاتهم الشعورية (*) ، ويتفق على هذا رأى رواد الانجاء المحافظ وشعراء حركة « الانتفاضة العاصفة » (**) « سحرة الشمال » . لقد روجوا الزعم بأن التنوير ينزع الى تناسى مطالب المشاعر وانتوير والتبجيل والعاطفة ، لأنهم يرون الحياة بمنظور نفى متعصب ضيق ، وجنحت عقلائيئهم - فوق ذلك - الى ابعاد نظرتهم للعالم عن الاحساس التاريخى بشكل خطير ، فهم لا يبالون كثيرا بدور الفرد ، الذى يعد من أهم سمات التطور التاريخى . أما ما شغل أذهانهم فكان البحث عن مبادئ تصلح للتطبيق فى جميع المواضع والأوقات ، وتطبيقها على نحو يناسب هذا التصور ، وهكذا غدت الحركة التاريخانية التى وصفها المؤرخ الألمانى فردريش ماينكه « بأنها واحدة من أعظم الثورات الفكرية التى أقدم عليها العقل الغربى » حليفا قويا للنزعة المحافظة ، وان كان روادها وكثيرون من أوائل أنصارها ، خصوصا يوهان جوتفريد هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) قد نعطفوا بشخصهم مع الكثير مما جاء فى برنامج « التنوير » .

واعترض المحافظون على الايمان « بالقبليات » عند المتنورين كإيمانهم بأن الكون لا يتصف بخفاياه الروحية المستغلة - كما اعتقد طويلا - لأنه ميسور الفهم ، وكان ايكارتسهاوزن من بين الكتاب المحافظين العديدين ، الذين لم يكتفوا بأثبات اعتقادهم بتعذر فهم الكثير من جوانب العالم ، ولكنه طرب لهذا الاعتقاد . فلا أحد غير الله بمقدوره فهم خفايا الكون الذى خلقه ، فأنى للعقل المتناهى للانسان الاهتداء الى فهم كامل للكون اللامتناهى ، والذى لا يتطابق - كما لا يخفى - هو والطابع المحدود للتناهى ؟ . ولقد أكمل الله بحكم رحمته أوجه النقص التى لا مفر منها للفهم الانسانى بالوحي ، وان كان حتى الوحي نفسه يحتوى على عناصر خفية عديدة ، ولو كان ذلك ليس كذلك - كما يجادل ايكارتسهاوزن - فان الايمان لن يزيد عن حالة من الرضوخ الآلى ، ويتوقف عن الاتصاف بالفضيلة المسيحية ، فلا بد لكل ناضج أن يتعلم التعايش مع الأسرار الخفية وأن يتشبه بها . وعليه أن يتفادى الخطأ الساذج الذى وقع فيه

«المتنورون» عندما اعتقدوا تشابه كل حقيقة نافعة وضرورية بالبلور في الصفاء والشفافية ، لأن العقيدة « قد تحتوى على الكثير مما يصعب فهمه دون أن توصم لهذا السبب بأنها غير ضرورية أو من الحقائق التي لانفع لها » .

نقد استند اعتقاد مفكرى التنوير بالتقسيم الانسانى أساسا على ايمانهم بالنتائج النافعة للمعرفة العلمية التى تحقق الارتقاء للرفاهية المادية والسعادة الانسانية ، ولكن ما القول اذا كانت المعرفة فى المجالات الأساسية الحقيقية للحياة (الدين والأخلاق .. الخ) ثابتة فى الواقع ، لعدم صلاحية المنهج العلمى للتطبيق عليها ، وأنها من الناحية العملية ربما تعرضت للنكوص بعد ارتفاع تيار الشك ؟ وكان برانديس من بين من رفضوا الظن بحدوث تقدم حقيقى فعلى فى القرون القريية العهد ، وليس هناك من ينكر حدوث بعض التقدم فى مستوى المعيشة ، وان كان هذا التقدم لم يؤد الى ما هو أكثر من زيادة الترف والإسراف والابتعاد عن الأخلاق ، نعم لقد حدث بعض التقدم فى التعليم ، وان كان أثر ذلك قد أدى فقط الى تعريض العقليات اللانقدية لاصابة المذاهب المدمرة « للتنوير » ، ومن ثم فقد انتهى بهم الأمر الى وقوعهم فرائس للاغراءات التى كن الأفضل تجنبهم لها . ان التقدم الحق لن يعنى الا التقدم الأخلاقى للفرد وحسب ، وزيادة عمق ادراك حقائق الديانة المسيحية . ومن أسف لا يوجد ، ولو أوهى دليل ، على أن شيئا ما من هذا القبيل قد حدث . وعلى العكس ، فان ما بات واضحا للعيان هو انتشار الابتعاد عن الأخلاق ، والوقوع فى براثن الشك ، ان أصحاب العقول المتعصبة الضحلة هم الوحيدون الذين يعتقدون فى حدوث تقدم ثقافى منذ عهد الاغريق القدامى ، فهل استطاع « التنوير » انجاب فيلسوف أعظم من أفلاطون ، أو مؤرخ أعظم من توكوديد أو كاتب سير أعظم من بلوتارك ، أو رسام يتمثل فى عظمتة هو ورافايلو ؟ ان أسوأ أثر ترتب على مذهب « التنوير » - فى اعتقاد برانديس - تزويد - البشر ببديل سيكلوجى للاعتقاد فى الخلود الشخصى ، مما ساعد على اضعاف المذهب المسيحى الضرورى للأخلاق الشخصية والاستقرار الاجتماعى ، لقد زود البشر أيضا برؤيا يوتوبية للمستقبل ، يبدو فيها كل شيء ممكنا ، وأدى أيضا الى شل المحافظين وما يلزمهم من ايمان واه بالقدرية ناعم من اعتقادهم أنهم يحاربون حربا ميثوسا منها فى نهاية الأمر ضد عجلة التاريخ التى لا مناص من دورانها .

أما آخر اتهام وجه « للمتنورين » فهو افتقارهم الى الشعور الجرماني القومى ، فافكارهم كلية (عالمية) فى مضمونها ، ويرجع أصلها الى أوروبا

« الغربية ، مما يوحى بوجوب تعرضها لهجوم مضاد ذي طابع قومي ،
 ألا يجب على الألمان أن يؤمنوا ويتشبثوا بالمعتقدات والمؤسسات الألمانية
 التي نبتت من الموروثات الجرمانية المميزة ؟ ولم تستطع هذه الفكرة
 أداء أكثر من دور صغير نسبيا في القرن الثامن عشر ، لغلبة الروح العالمية
 (الكوزموبوليتانية) على هذا القرن ، ولكنها بشرت ومهدت لما اتضح أنه
 أعظم الحجج المؤيدة للاتجاه المحافظ في القرن التاسع عشر . »

يكفى القول في هذه النقطة بأن الاتجاه الجرمانى المحافظ لم يكن
 بمقدوره الاكتفاء بالاعتماد - سوسيولوجيا - على مقومات المجتمع الجرمانى ،
 كما أجملناها في القسم السابق ، ولكنه كان قادرا على الاستناد أيضا
 فكريا على الكثير من أقوى تيارات الحياة الثقافية في ألمانيا . إذ كان
 باستطاعة الاتجاه الفكرى المحافظ في هجومه على « المتنورين » و « التنور »
 الارتكان الى أفكار مثل التعلق بالعاطفة (*) في حركة الانتفاضة العاصفة ،
 وعلى النزعة الغيبية لهامان ، والتاريخانية (**) لهردر ، والتبرم من
 الحضارة ، كما عبر عنه برانديس .

منهج الدفاع عن الاتجاه المحافظ

اعتمد الدفاع العام عن المجتمع الألمانى في سبعينيات القرن الثامن
 عشر ، وثمانيناته - أساسا - على قمع أصوات النقد الراديكالى . وزاد من
 صعوبة هذه التعددية في نظام الدولة بألمانيا . بيد أنه حدثت عدة محاولات
 لفرض الرقابة بررتها تبريرا راسخا حجة ترى عدم أهلية الأشخاص
 العاديين للتصديق بالنقاش فى المسائل العامة على نحو ناضج . واتكأت
 أحيانا حتى الحكومة البروسية - رغم ما عرف عنها بوجه عام من نزوع
 نحو الليبرالية - على هذه الحجة لآخراس السنة رؤساء التحرير الذين
 سعوا لمهاجمتها . ولنكتف بمثل واحد للتدليل على ذلك : انه جريدة
 جوكنج (***) الجريدة التى يكتبها الألمان للألمان) والتى تسببت فى شكاية
 بعض الدول المجاورة من بروسيا ، لما وجه فى هذه الجريدة من نقد
 لحكامها . وقام فى التو وزيران بروسيا (****) بإرسال توبيخ شديد
 للهجة لحكومة هالبرشتات (المقاطعة التى تصدر فيها هذه الجريدة)
 فى ١٣ ديسمبر (١٧٨٤) جاء فيه ما يأتى :

Gefuehl

(*)

Historicism

(**)

Journal von und fuer Deutschland : الجريدة التى كان يصدرها

Goking

(****) الكونت Finkenstein والثانى الكونت Hertzberg (وكان معروفا

بايمانه بالتنوير)

« ليس من حق أحد إصدار أحكام عامة على الأفعال والاعراض والقوانين والتصریحات ، والقرارات الصادرة من الحكام أو وزرائهم ، أو من المكاتب الادارية أو المحاكم ، بما فى ذلك - بوجه خاص - الأحكام غير المستحبة . ويصح هذا القول أيضا - بطبيعة الحال - فيما يتعلق بنشر الأخبار المتلقاة بصفة شخصية عن أمثال هؤلاء الحكام وأفراد حاشيتهم . . . الخ . فلا يخفى أن أى شخص بمفرده يفتقر - بالضرورة - الى المعرفة الوثيقة بالسياق العام للأحداث ودوافع الشخصيات العامة ، سيعجز عن إصدار أحكام تخص هذه المسائل ، وتستحق الالتفات اليها . . . »

لن تستنير الأمة فكريا ولن ترتقى أخلاقها ، اذا دار نقاش متهور حول شئونها ، ولكنها ستزداد تعرضا للفساد . لقد انزلق الدافع الأرعن للتنوير - سمة عصرنا - الى حالة من التطرف والخلاعة البعيدة عن اللياقة . لقد داس المتنورون جميع الأشياء التى تتصف بالقداسة بالأقدام ، وجعلوا كل القيم الراسخة موضع ازدراء فى نظر الشعب ، وأحدثوا بلبلة فى تصوراتهم ، وأشاعوا الشغب والفتنة والعصيان والضجر والتمرد ، دون أن يساعدوا على تهذيب الشعب أو النهوض بمستواه . . . »

كانت هذه الحجة العامة هى التى يتذرعون بها فى الأغلب عندما يطالبون بقمع جرائم بالذات قد أقدمت على أحداث أية اساءة . ولم يتردد المحافظون عند شعورهم بالغضب عن التوصية بالالتجاء الى الضغوط الاقتصادية وغيرها من السبل لحث الرافضين من أهل الحكم على اسكات المحررين « الداعين الى الفتنة » . ومن الأمثلة التى كثر الحديث عنها الكونت أوجست فون ليمبورج - شتيروم الأسقف الجسور لشباير ، الذى اتسمت عظاته بشدة النزوع نحو الاتجاه السياسى المحافظ ، وسخر منها شلوتسر (*) على نحو أساء للأسقف بالخ الاساءة ، وكتب شلوتسر بوصفه أحد رعايا هانوفر ، مما جعل حكومتها مسئولة - على الأقل فى نظر شتيروم ، عن الآراء التى نشرت . ولما لم تسفر الشكوى الموجهة لحكومة هانوفر - بطريقة مباشرة - عن أية نتيجة ، لجأ الأسقف الى « الدايت » أو برلمان المقاطعة فى ريجنسبورج لتوقيع عقوبة على هانوفر . وعندما رفض البرلمان اتخاذ أى اجراء ، دعا أقرانه لشن الحرب على مصالح هانوفر (كأن يقاطعون جامعة جوتنجن التى ينتمى شلوتسر اليها) ولكن زملاء الحاكم رفضوا هذا الاقتراح غير العملى ، ويدلنا هذا المثال على مدى استعداد المحافظين للتمادى فى معارضة « التنوير » . . . »

وأسف المحافظون في أغلب الأحيان لما كان ينشر ويداع في الجرائد اليومية (*) . وفي كثير من الحالات لم يبتعدوا عن النظرة الدارجة التي أسفت لاختراع الطباعة الذي طالما هللت له حركة التنوير ، واعتبرته من آيات العصر التي ستساعد على تحقيق التقدم الانساني ، ولكن المحافظين اعتبروه مصدر متاعب للبشرية ، وتبعاً لذلك ، ساد الأسف أيضاً لما حدث من تقدم في انتشار التعليم بين الكافة الذي بدأ يزحف حثيثاً لمحو أمية الكتل البشرية . وتساءلوا ألم يؤد هذا الاجراء الى اتاحة الفرصة لاصابة عامة الناس بالتسمم الفكري ، والشعور - تبعاً لذلك - بالتبرم من نصيبهم التقليدي في الحياة ؟ وعبر الفيلسوف الشعبي (**) جارفة في كتاب نحدث فيه عن حالة الزراعة في موطنه شيليزيا ، وعما شعرت به طبقة الأعيان بخصوص هذه المشكلة ، عبارات مؤداها :

« لم تسنح الفرصة قط لجدودنا للعراك هم وعبيدهم الأميين . على أن مثل هذه الأمية لم تمنعهم من زرع الأرض على نحو مماثل لما يحدث الآن في أقل تقدير . وكانت الآداب المرعية حينذاك أفضل بما لا يحتمل الشك . واليوم لم يعد الأمر يقتصر على اتقان الفلاحين القراءة والكتابة ، ولكنهم شرعوا أيضاً في الالمام بالحساب ، بل ونزع بعضهم الى تثقيف نفسه بالاطلاع على الكتب ، فهل سيساعد هذا حقاً على ارتقائهم ؟ هل ستصبح حياتهم أقل انحلالاً ؟ وهل سيصبحون رعايا أكثر انصياعاً وولاء ؟ أو مزارعين أفضل للأرض ؟ ان ما حدث كان عكس ذلك . ألا يصح القول بأن آداب السلوك قد تدهورت بدرجة ملحوظة ؟ وأن الأعيان قد أصبحوا يعانون الأمرين في سبيل الحفاظ على تحكمهم في عبيدهم أكثر مما كان الحال عندما كانوا أميين ؟ ولو أحصينا من كانوا مصدراً للمتاعب في القرية (فلقد شهدت شيلزيا بعض اضطرابات بسيطة) ، ومن جنحوا الى تضليل الشعب ، فاننا سنكتشف دوماً أن هذه الفئة قد انحدرت من صفوف من أمضوا وقتاً أطول في المدارس ، ومن انبهروا بادعائهم الحكمة . . . ومن القواعد العامة حالياً ان أكثر الفلاحين اتصافاً بالأمانة هم الأغبي والأجهل ، ويصادف ضابط الجيش في أرض الطابور نفس تجربة المالك على أرضه . ولن يختلف اثنان على القول بأن أجهل الفلاحين وأخشنهم طباعاً هم الذين يشكلون أفضل الجنود . فبالاستطاعة معاملتهم كأنهم آلات . واذا عاملناهم على هذا النحو سيتسنى لنا الاعتماد عليهم بصفة مطلقة . »

وهاجم المحافظون هجوما ضاريا التعليم التقدمي الذي أدخله بازيدو (*) وأتباعه ، ووصفوا أنصار النزعة الانسانية (**) بأنهم مفسدون للشباب ، نعم لقد جاءوا باناس أفضل تنورا ، ولكنهم عديمو الفائدة في أى نوع من الأعمال البناءة في المجتمع . وأثار المثل الأعلى لبازيدو الذي سعى لخلق الانسان « الشامل » ، بدلا من التشجيع على التخصص ، وتعليم الأطفال بروح تشعرهم بعدم وجود فارق بين ما يعشقون من لعب ، وبين التعليم ، وأنهم لن يتعلموا الا ما يحبون تعلمه عندما يجدون أنفسهم على استعداد لذلك ، شعورا امتزج فيه العدا بالسخرية . وطرح شلوسر (***) قضية التخصص المبكر في العبارات الآتية :

« في أغلب الأحيان ، لا تكون مهنة الشخص متوافقة هي وما يجرى لملكاته الذهنية من تطور شامل (تحمس بازيدو لهذه الفكرة) مما يدفعني الى القول بأنه في غير مقدور المرء البدء منذ وقت مبكر كاف لتنشيط ضمور ثلثي هذه الملكات ، لأن الأغلبية تهيأ للنهوض بمهام لا يتوقع استفادتهم منها في مستقبل أيامهم ، فلماذا يخصى الثور والمهر حتى نؤهلها لتحمل مشاق جر العربات . ومع هذا فاننا نعمل على انماء القوى الانسانية في شمولها مع علمنا بالمثل بأنها قد حكم عليها تحمل مشاق النير وجر العربات ؟ .. انهم سيسقطون في الأخاديد ، اذا لم يعدوا اعدادا صحيحا ، أو يرفسون بحافرهم علامات الارشاد حتى يصابوا بالتهلكة » .

واعتقد شلوسر ان مهمة التعليم ليست تخريج أشخاص شاملين متعددي المهارات ، وانما بالأحرى هي اعداد أفراد قادرين على أداء دور اجتماعي (مهما كانت درجة تواضعه) لم يتعرض للمسح من جراء التوقعات المغالى فيها . « فمن اليسير صبغ أسمى درجات الكمال بالروح المثالية ، ولكن ما أصعب تحديد الدرجة المناسبة من الخير » . وأدان شلوسر ولع بازيدو بالألعاب الرياضية كمثل لخطورة الاسراف في السعى وراء الكمال . فهل هناك هدف وراء تحويل الأطفال الى أبطال رياضيين ، بينما سيرغم معظمهم بعد البلوغ على ملازمة مكاتبهم ، وقد لا يحتاجون لتحريك أطرافهم ؟ ان مكن أكبر خطر هو ما يتصف به الانسان الشامل من حياة متنوعة تجمع بين اللعب والمتعة (ألم يعتقد بازيدو في وجوب تنويع أنشطة الأطفال بحيث لا يستمر أى نشاط أكثر من نصف ساعة) . ان مثل هذا

(Johann Bernard) Bassedou, (1790 - 1723)

(*)

Philanthropine.

(***)

J. G. Schlosser (***) (١٧٢٩ - ١٧٩٩) وهو من الموظفين البارزين في

بادن وألف الكثير من الكتب السياسية والاقتصادية والتربوية .

الاسلوب هو أسوأ اعداد للحياة الحقة . « ألم يخطىء أنصار الدعوة لخلق الانسان الشامل عندما أخفقوا في تعويد سجنائهم منذ وقت مبكر على الالتزام بعمل مستقر ثابت ، خصوصا العمل الذهني المتواصل الشاق الذى يستغرق مدة طويلة ؟ » نعم ان الحياة تتطلب الانتهاء من انجاز الحصة المخصصة من العمل للشخص ، قبل أن يفكر فى الترويح عن نفسه ، غير أننا نرى بازيدو على عكس ذلك ، يعلم تلامذته خليطا مؤسفا من العمل والترويح عن النفس . ومن أمثلة ذلك طريقته فى تعليم اللغات الأجنبية التى يتبع فيها أسلوبا شبيها بأسلوب المباريات الرياضية ، بدلا من اتباع الطريقة التقليدية التى تعتمد على تحفيظ الكلمات عن ظهر قلب . وارتاب شلوسر فى النتائج الجوهرية للطريقة الجديدة ، وكان على يقين من تمتع الطريقة التقليدية « بقيمة أكبر فى بناء الشخصية ، وتشجيعها على الجهد والاجتهاد والجلد والانتباه : « ان من أمضى طفولته فى الملاعب لا بد - من ناحية أخرى - أن يظل ولدا (لعبيا) طيلة حياته » .

وانتقد أرنست برانديس مبدأ الاكتفاء بتعليم الأطفال المواد القابلة للفهم ، عندما يكونون مهئين لذلك ، لأن هذا المبدأ يتجاهل حقيقة مهمة وهى ان بعض الأشياء المهمة لا تتبع الفهم على الاطلاق ، ولكنها بالأحرى تتبع الوجدان والاعتقاد ، كالدين مثلا ، الذى استخف به بازيدو ، لأن مبادئه تعلو على مستوى الفهم عند الأطفال ، واستفز بازيدو شعور الغضب عند برانديس برفضه تعليم النشء الذى كان مسئولاً عن رعايتهم أى درس فى الصلاة قبل بلوغهم سن العاشرة على أساس أن صلواتهم الباكورة لن تزيد عن تمتمة بكلمات غير مفهومة لهم .

وأصدر ايكارتسهاوزن هذا الحكم النهائى على ممارسات المصلحين التربويين الذين يسرون على نهج بازيدو :

« انهم يفتقرون الى صبر الانتظار حتى يحل الخريف ، فهم يرغبون فى ازدهار الأشجار واثمارها فى نفس الوقت ! انهم يدعون امكانهم ادراك صورة الرجل الناضج من خلال مظهر الطفل ، ولكنهم فى الحق يحولون البالغ الى طفل دائم . انهم قد زودونا بنباتات أرغمت على الاخضرار فى بيوتهم الزجاجية ، وتحمل نكهة المستنبتات (*) طيلة ما بقى لها من حياة ، وتحدث ضررا بالغاً للثة أى انسان سليم البنية . انهم يتوقعون تعلم أطفالنا كل شىء بأسلوب المباريات الرياضية ، ومن يتخرج على أيديهم من شباب يظل طول عمره (لعبيا) يعتقد أن كل نشاط جاد وشاق مجرد مظهر من مظاهر الهمجية » .

وعلى الرغم من أن المحافظين كثيرا ما أسفوا لانتشار التعليم بين الكافة (وبخاصة التعليم التقدمي) وانتشار محو الأمية ، وغلبة جمهور قراء الصحف ، إلا أنهم أدركوا بالرغم منهم ، أن كل خطوة من هذه الخطوات المتطورة لها طابعها الذي لا يقبل الارتداد ، فلن يؤمل أى خير إذا نحن اكتفينا بالأسف والحنين للماضى ، واستنكرنا الحاضر استنكارا عقيما ، إذ انصببت مهمة المحافظين على « نشر رسالة المحافظين وتعاليمهم فى شتى الأنحاء » ، لكى تنافس مؤلفات أدباء حركة التنوير . وعكف المحافظون على نشر كميات هائلة من الكتب التى تعرض المبادئ الدينية والسياسية المحافظة فى ثمانينيات القرن الثامن عشر ، ونشر على سبيل المثال أحد وعاظ الكاتدرائيات (*) كتابا بعنوان : « كتاب مسيحي عن التعاليم الأخلاقية لأهل المدينة والريف » . وطبعت منه عشرات آلاف النسخ بناء على طلب الملك كريستيان السابع ملك الدانمرك . واستخدمت فى الكتاب عبارات سهلة مفهومة بالأمثلة المألوقة المنقولة عن الحياة اليومية الدارجة فى وصف واجبات المسيحي فى الزواج وتربية أولاده ، وكسب العيش والمواظبة على الذهاب الى الكنيسة والولاء السياسى الخ . وحث « فيدرزين » قراءه من أبناء الطبقة الدنيا على الالتزام بفضائل المسيحية التقليدية ، وأثبت أن هذا النهج سيعود بالخير على صالحيهم الدنيوى الأبدى ...

وحوالى ١٧٨٠ ، بدأت فى الظهور طائفة من الجرائد المحافظة ، كانت تهدف الى الحد من تأثير « التنوير » على عقول الطبقات المثقفة فى ألمانيا ، واقتصرت فى البداية على اختيار الموضوعات الدينية اللاهوتية .

وسعى أستاذ اللاهوت يدعى كوستر (**) وهو من الشخصيات التى لم يصعب على المتنورين التندر عليها والسخرية منها ، بعد أن كتب دفاعا عن وجود الشيطان ، لعله ساعد على رواجه وسرعة ظهور طبعته الثالثة ! وعمد كوستر الى الهزء من جميع البروتستانت أعداء التنوير فى كتاب أحدث الأحداث الدينية (***) (١٧٧٧ - ١٧٩٦) ، واقتدى به جولدهاجن (١٧١٨ - ١٧٩٤) ولكنه وجه سخريته الى دور الكاثوليك فى ألمانيا فى مجلة الدين (****) ، وكان جولدهاجن من الأعداء الأشداء لأنصار الامبراطور جوزيف امبراطور النمسا ، وساندته جماعة من اليسوعيين فى أوجسبورج

Jacob Friederich Feddersen (*)

Giesser H. Koester (*) (*) أستاذ اللاهوت بجامعة

Die Neuesten Religions begebenheiten. (***)

Religionsjournal (*) (*) (*) (*) اليسوعى Hermann Goldhagen فى مجلة

تحت زعامة يوزيف أنطون فايسنباخ (١٧٣٤ - ١٨٠١) . وهو كاتب غزير الانتاج ، عرف بوجه خاص من كتاب « نذر الوثنية الجديدة » (*) ونشر اليسوعيون في أوجسبورج عددا خاصا من احدى المجلات عن « نقد بعض النقاد والصحفيين وأصحاب النشرات » (**) (١٧٨٧ - ١٧٩٦) . وهدف هذا العدد الى دحض جميع الكتابات والنشرات التي أصدرها كتاب التنوير في ألمانيا ، وأكد اليسوعيون أيضا الحاجة لمحاربة النشرات عن طريق انتقادها واصسدارها نشرات يعاد طبعها أكثر من مرة وتكتب بأسلوب شعبي بسيط ، وتوزع على نطاق مماثل لما تفعله دعاية حركة التنوير ، وألفوا هم بالذات جملة نشرات ، وأعادوا طبع العديد من غيرها ، وبخاصة الأبحاث المناهضة للامبراطور جوزيف في سلسلة بدأ ظهورها . ١٧٨٣

وشعر المحافظون بشيء أشبه بالعجز في مواجهة نزوع أشخاص مثل جوزيف الناني نحو « الاتجاه المتنور المطلق » . ولم يكن بمقدورهم الدعوة بسهولة الى العصيان ضد الملك الشرعي (رغم ما في سياسته من انحراف عن الطريق السوي) ، بينما أصبح نسيا منسيا المذهب اليسوعي الذي كان يحض على اباحة دم الطغاة ، والذي ظل أمدا طويلا يتخذ كذريعة لقمع اليسوعيين . وتركز الأمل للأوحد للمحافظين في قوة المعارضة الجماهيرية العامة كرد فعل ضد المبادئ النظرية الصارمة لجوزيف وعدم الحرص على الاعتراف بحقوق رجل الشارع . وكان من الطبيعي أن يبذل المحافظون قصارى جهدهم لاثارة هذه المعارضة الموجهة ضد اصلاحات جوزيف . وفي البلدان والمقاطعات التي استمر فيها بقاء الاقطاعيات (***) ، وعلى الأخص في المجر وبلجيكا ، حاول المحافظون تعبئة المواطنين ضد تهديد الأوضاع الراهنة ، أما في الحالات التي اختفت فيها الاقطاعيات أو أصبح أصحابها بلا حول ولا قوة ، فلم يكن أمام المحافظين فيها أي خيار غير المعاناة والاستسلام ، الى أن يتخلى الملوك عن برامجهم الاصلاحية ، متأثرين بما ساد من دعر في اعقاب الثورة الفرنسية .

Die Vorbothen des neuen Heidenthums.

(*)

Kritik ueber gewisse Kritiker, Rezensenten und Bros-
chuerennacher.

(**)

Staefide

(***)

المراجع

- P. P. Bernard, *The Limits of Enlightenment : Joseph II and Enlightened Despotism* (1979).
- M. Butler ed. *Burke, Paine, Godwin and the Revolution Controversy*, (1984)
- T.C.W. Blanney, *Joseph II and Enlightened Despotism* (1970).
- D. Cameron, *The Social Thought of Rousseau and Burke* 1973.
- O. Chadwick, *The Popes and European Revolution*, (1981).
- J. C. D. Clark, *English Society 1688-1832* (1985).
- R. Cobb, *Reactions to the French Revolution* (1972).
- A. Cobban, *Edmund Burke and the Revolt against the Eighteenth Century* (2ed) 1960.
- M. Freeman, *Edmund Burke and the Critique of Political Radicalism* (1980).
- G. B. P. Gooch, *Germany and the French Revolution* (1923).
- I. Kramnick, *The Rage of Edmund Burke Portrait of an Ambivalent Conservative* (1977).
- F. O'Gorman, *Edmund Burke. His Political Philosophy* (1973).
- R. Pauslon, *Representations of Revolution 1789-1820* (1963).
- J. D. Popkin, *The Right-wing Press in France 1792-1800* (1980).
- E. Wangermann, *From Joseph II to the Jacobin Trials Government Policy and Public Option in the Hapsburg Dominions in the Period of the French Revolution* 2ed (1969).

سادساً :

القرن التاسع عشر

شهد القرن التاسع عشر تغيرات ملحوظة فى الحياة الأوروبية والمجتمع الأوروبى ، فلقد تزعمت القوة الصناعية لأوروبا الغربية باقى العالم . ونزح الأوربيون فى عملية هجرة واسعة من الريف الى المدينة . وفى أواخر القرن ، هاجروا من أوروبا الى شمال أمريكا وجنوبها . وساعد المد الجارف للروح القومية وجيوش بيدمونت وبروسيا على خلق دولة ايطاليا ودولة ألمانيا الحديثتين . وساعدت مثل القومية وضرورة انشاء دولة قوية على زيادة الوعي الذاتى عند « الأمم - الدول » القائمة بالفعل ، وعلى تعزيز مبدأ القومية .

وازداد الفكر الأوروبى فى القرن التاسع عشر تعقدا فى أعقاب ربع القرن الذى شهد الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية . ويكشف بحث فرنكلين باومر عن كيف اتخذت الاهتمامات اللاعقلانية الصدارة فى هذا القرن . ويتحدث أيضا عن الوعي الجديد بالتاريخ ، الذى سيلعب دورا مهما فى نزوع أوروبا فى القرن التاسع عشر نحو الاتجاهات القومية ، ويبحث كيف اتجه الكتاب الرومانتيكيون الى البحث على ضرورة تصور المجتمع كأنه كائن حى يواجه مواجهة متزايدة عملية تفسخ اجتماعى .

وأحدثت النهضة الصناعية والهجرة تغيرا فى الأوضاع الاجتماعية فى أوروبا ، وظهرت أدوار جديدة وأشكال جديدة للعمل ، استلزمت مشاركة المرأة فى هذا المضمار . وتحلل جوان سكوت ولويزا تيللى كيف اختارت بعض الفتيات القادمات من الريف أسلوب حياتهن ، وما صادفن لدى قدومهن للعيش فى بيئة مدنية . وتوضحان كيف نقلن عاداتهن القروية التقليدية وتطلعاتهن الى حياتهن فى المدينة . ويتحدث أنطونى وول بدقة وحيوية عن الأمراض التى توطنت فى المدن ، وجهود الحكومة والمهن الطبية للتغلب على المشكلات الفتاكة المترتبة عليها .

وتعززت مكانة الدول المستندة على فكرة القومية على أنحاء شتى في منتصف القرن . ولم تكن حروب « الوحدة » الا وسيلة من جملة وسائل ، ويكشف فيبر النقاب عن بعض السبل التي كانت تتبع في تعليم النشء القيم التي تتركز حول دور المواطن في الدولة العلمانية والحضارة العلمانية عوضا عن القيم الدينية . ويرى أن أساتذة المدارس كانوا من جملة نواح أعظم من شارك في بناء الأمم . وكانت أقوى دولة جديدة هي ألمانيا الامبريالية ، التي اشترك في توحيدها الجيش المحافظ والنظام الملكي البروسي . ويحلل جوردون كريبج دستور هذه الأمة الجديدة ، ويوضح كيف استطاعت المؤسسات المحافظة الامساك بزمام الأمور ، وتحديد اتجاه التاريخ الألماني مستقبلا الى حد كبير ، حتى في ظل الحكومة الدستورية ، التي طالما طالب بها الليبراليون في القرن التاسع عشر .

العالم الرومانتيكى

فرانكلين • ل • باومر

لم يختلف المؤرخون بشأن القليل من حركات الفكر بقدر اختلافهم حول تقييم الحركة الرومانتيكية. فثمة اتفاق عام على أنه فى الحقبة الواقعة بين ١٧٧٥ و ١٨٥٠ ، احتلت الصدارة معتقدات معينة عن الطبيعة البشرية والمعرفة والدين والمجتمع والتاريخ فى أوروبا ، وأثبتت هذه المعتقدات اختلافها عن المعتقدات التى تميز بها منتصف القرن الثامن عشر إبان حركة التنوير . بيد أن هناك اختلافا بين المؤرخين حول : هل كانت هناك حركة رومانتيكية واحدة ضمت جميع هذه الأفكار المتنوعة ، أم أن كل أمة أوروبية مرت بتجربة رومانتيكية مختلفة عن تجربة الأمم الأخرى ؟ وفضلا عن ذلك ، ولما كان الكتاب الرومانتيكيون كثيرا (وإن لم يكن دائما) ما ينتقلون مقدرة العقل على تفسير الموقف الانسانى ، ويمجدون الملامح غير العقلانية فى الطبيعة البشرية ، إلا أن هناك قدرا من الاختلاف بينهم حول هل عاد تراث الرومانتيكية على الحياة الأوروبية والحضارة الأوروبية بالخير أم بالشر ؟

ومن بين وسائل التحليل التى تسعى لتوضيح العديد من المشكلات المتصلة بالرومانتيكية ، النظر إليها كرد فعل رحيب متعدد الوجوه ضد كثرة من الأفكار الرائدة فى عصر التنوير . هنا تصادفنا مجموعة من التباينات المهمة . فبعد أن أثنى كتاب التنوير على انتشار نور العقل ، جنح الكتاب الرومانتيكيون الى الانبهار بالموضوعات القاتمة وبالعالم الأحلام ، وبينما أعجب فلاسفة القرن الثامن عشر بتصورات نيوتن الميكانيكية للطبيعة ، فأنسا نرى الرومانتيكيين كثيرا ما ينتقلون نيوتن ، وتصوروا الطبيعة كأنها غصويا حية . ولقد ارتبط عصر التنوير بنقد الدين ، وبالنظر

(*) نقلا عن كتاب Modern European : Franklin L. Baumer
Thought : Continuity and Change of Ideas 1600-1950 (1977).

وقد ترجمت هذا الكتاب للهيئة العامة للكتاب كاتلا وصدر فى أربعة أجزاء .

الى الله على أنه بعيد عن الحياة اليومية • أما الرومانتيكية فتبنت حركة تسعى لإعادة احياء الدين وتصور الله مصدر الالهيات حاضرا في الطبيعة • وبمقدورنا الاقتراب منه من خلال المشاعر الانسانية اللاتية • وأعجب كتاب القرن الثامن عشر « بالعالم القديم » ، بينما كشف الرومانتيكيون عن حماسهم من جميع النواحي للقرون الوسطى •

ولقد استند على جملة عوامل في تفسير ما حدث من تحول في الذوق والفكر • ولكن كان أحد هذه العوامل المهمة – يقينا – الاضطراب الذي صاحب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، وألقت هذه الأحداث ظلال الشك على اعتقاد القرن الثامن عشر الذي ذاع على نطاق واسع باحتمال الاعتراف بكفاية العقل الانساني كمرشد أولى للشئون الانسانية • في هذا الجو من البلبلة والمعاناة والتحويلات الجذرية ، اتجه مفكرون كثيرون الى إعادة توكيد القيمة الموجبة للمشاعر والدين والتكوين الاجتماعي العضوي ، وتبجيل الماضي •

تمتد جذور العالم الرومانتيكي امتدادا عميقا في القرن الثامن عشر ، بل ربما في القرن السابع عشر أيضا • وجرت العادة على تمثيل العالم الرومانتيكي كحركة مضادة للتنوير ، مثلما يقال ان التنوير مذهب معارض للمسيحية وايمانها بالخوارق • وعلى الرغم مما يبدو في هذا النظرة من صدق ، الا أنه يتعين ادراك تعذر اتخاذ الحركة الرومانتيكية هذه الصورة بغير «التنوير» ، ويصح القول بأنها نبعت – من جانب – من التنوير ، « وأنها لا تمثل بأي حال مجرد ارتداد لعالم تجاوزته التنوير » •

والحق أن الحركة الرومانتيكية كانت ثورة بقدر كونها ثورة مضادة أيضا • وليس من شك أنه ربما صح النظر اليها على أنها أول احتجاج كبير على «العالم الحديث» ، يعنى الحضارة العقلانية العلمية التي بدأت تتشكل في القرن السابع عشر ، وامتدت أبعادها في القرن الثامن عشر • غير أن احتجاجها قد جاء باسم الروح العصرية الجديدة ، اذ اعتقد بعض الرومانتيكين أنهم محدثون أو عصريون ، بمعنى أنهم مسيحيون ، ومناهضون للكلاسيكية في ذوقهم الفني • ولكن بمعنى آخر ، بوسعنا القول بأنهم كانوا عصريين أو محدثين ، أو أكثر حداثة مما ظنوا ، وبخاصة عندما اكتشفوا جانب الليل في الحياة والأحلام واللاوعي ، ولأنهم جاؤوا بالأساس النظري للنزعة القومية الحديثة • وفي هذه الجوانب من بين مجالات أخرى ، لا يخفى أن الرومانتيكيين قد أثاروا موجات من الفكر ، لم يبن أثرها كاملا الى أن جاء القرن العشرون •

على أن هناك صعوبة ستعترضنا اذا حاولنا تعريف الرومانتيكية . ولا يرجع ذلك الى « تعدد الرومانتيات » التي نبهنا اليها أرثر لوفجوى ، والذى كان باستطاعته اكتشاف عدم وجود « فكرة رومانتيكية أساسية واحدة » ، فى الخليط المضطرب من الحركات القومية التى تعرف اليها الآخرون ، ووصفوها وصفا بعيدا عن الدقة بالرومانتيكية ، ولاحظ لوفجوى أيضا انشقاقا بين « ألمانيا والغرب » ، ثار حول الجدل إبان الحرب العالمية الأولى ، واستمر على هذا الحال خلال الحرب العالمية الثانية ، ورثى رد هذا الانشقاق الى الحركة الرومانتيكية ، التى زعم إرنست ترولتش (*) وآخرون أنها تتميز بجرمانيته ، أو على أقل تقدير قد اختلفت فى ألمانيا اختلافا جذريا عن صورتها فى البلدان الأخرى . غير أن تعدد تصور آيه حركة ، ونسبة الاختلاف الى النواحي الاسمية بقدر ما ، مسألة تشترك فيها جميع الحركات الفكرية . وربما أخفقنا فى ادراك كيف تنطبق هذه الحالة على الرومانتيكية ، أكثر مما تنطبق على عصر النهضة أو عصر الإصلاح الدينى — مثلا . ان صعوبة تعريف الرومانتيكية ترجع أساسا وبالأحرى الى طبيعة الحركة ذاتها ، اذ كان لدى الرومانتيكيين أيا كان البلد الذى ينتمون اليه ، ولح بالجوانب الخفية ، واعطاء الصدارة للمشاعر الفردية والتعابير الفردية . كما نجحوا فى خوض غمار عالم المفارقات . ومن ثم فليس من الميسور دائما معرفة ما الذى كان الرومانتيكيون يتحدثون عنه ؟ . وما الذى عناه شلايرماخر بالضبط عندما قال هذه العبارة الغامضة : « التحليق الممتد فى الكل وفيما لا يستنفد ؟ » . أو ماذا قصد الفيلسوف فردريش فون شلنج بمصطلح « المثالية الواقعية » ؟! وتزداد المشكلة تعقدا اذا تمعنا فى كلمة « رومانتيكية » ذاتها ، فقد اتصفت هذه الكلمة بغموضها الى حد غير مألوف فى نظر الجميع ماعدا الألمان . ولم تقبل بالاجماع حتى بين الرومانتيكيين أنفسهم ، وفهمت وفسرت على أنحاء شتى . وفضلا عن ذلك ، فلم يكن « للرومانتيكية » منظمة أو مؤسسة أو مشروع جسور يعبر عن غايتها ، كالموسوعة الشهيرة فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن لديها مذهب محورى ، أو حتى مرجع موثوق به ، مثلما بدا الكتاب المقدس فى الحركة البروتستانتية والإصلاح الدينى .

فما هى الرومانتيكية أساسا ؟ لعل الأسهل هو القول ما الذى لم يتصف بالرومانتيكية ، أو ما الذى اعترض عليه الرومانتيكيون الأوروبيون ، لقد وضع الفيلسوف الانجليزى جون ستيورات ميل — الذى لم يكن هو بالذات رومانتيكيا ، ولكنه كان ملاحظا متعاطفا عليما بالأمور — اصبعه دون خطأ على مواضع كراهية الرومانتيكيين ، وقال عندما كتب عن أرمان

كاريل (١٨٣٧) : ان الرومانتيكية تمثل رد فعل « ضد ضيق أفق القرن الثامن عشر » . وعلى الرغم من أن ميل كان يتحدث في هذه الكلمات أساسا عن الأدب ، الا أنه من الواضح مما جاء فيما بعد في مقالات أخرى ، وعلى نحو جلي في مقاله الشهير عن كولريديج ، انه قد تصور الرومانتيكية كتمرد ضد الضيق في عدة جهات : في الفلسفة والعلم والفكر التاريخي والسياسي ، وأيضا في الشعر والدراما . اذ كان من بين الصفات التي استعملها توماس كارلايل في معرض حديثه عن أحد أقطاب حركة التنوير : « ديدرو » (١٨٢٣) : « انه لا يدرك غير الجزئيات » ، و « هامشي » و « تافه » و « هزيل » . ورفض كارلايل العالم المؤلف لديدرو ، ووصفه بأنه « نصف عالم قام ديدرو بمطه حتى يبدو كأنه عالم كامل » . بطبيعة الحال ، كانت الإشارة في الحالتين الى التنوير الأوربي ، الذي اتخذ حينذاك مظهرا متجمدا ، وأصيب من ناحية أخرى بالهزال . واعتقد الرومانتيكيون أن عالم التنوير ضيق الأفق ، لأنه أولع الى حد الادمان بالتفكير الهندسي ، وبالمذهب الكلاسيكي الجديد المحالف له ، وبالمذهب التجريبي للوك . فالروح الهندسية رغم جرأتها الميتافيزيقية قد حاولت اخضاع الحياة بأسرها للعقل ، وبذلك « ميكنتها » ، وحطت من شأنها تبعا لذلك . ونزع المذهب الكلاسيكي الجديد بحكم طموحه المائل وسعيه للبحث عن أنماط مثالية للطبيعة الى فرض قواعد كلية على الفن والفنان ، بدت أشبه بالأصفاد الحديدية . وهوجم المذهب التجريبي لسبب مقابل ، يعنى لأنه يبالغ في الشك ، ولأنه قصر المعرفة الانسانية - بصرامة - على عالم الحس والمظاهر ، ونظر الى نيوتن على أنه الممثل الرمزي لهذا الضيق .

وكان عالم الرومانتيكيين على عكس عالم نيوتن المخضب بالضوء عالما ليليا ، ويدل الليل بتباينه هو والنهار والضوء على « القدرة على التحليق والارتفاع بالأجنحة الثقيلة للروح الى آفاق لا متناهية تتجاوز عالم المكان - الزمان » . وقال الشاعر الفيلسوف الألماني نوفاليس (فردريش فون هاردنبرج) : « كم يبدو لي النور الآن تافها وصبيانيا » . وفضل نوفاليس على « النجوم المتوهجة التي ترى في السماء » « العيون اللامتناهية التي فتحتها الليل لي » . ان هذه الظاهرة واحدة من أعظم السمات الموجبة للعقل الرومانتيكي وميوله : التعلق باللامتناهى الذي يتمثل على أنحاء شتى ، دنيويا ودينيا . وعلى الرغم من وجود أوجه قرابة بين جوته وبعض ملامح من الرومانتيكية (وان كان هذا الشاعر العظيم لم يعترف بها دائما) ، فاننا رأينا يقول في بعض الأحيان ، « ان أعظم سعادة للانسان بوصفه كائنا مفكرا هي قيامه بسبرغور ما هو معروف ، وتقديره الرصين لما هو غير معروف » . ولعل هذه القاعدة أقرب الى الروح الكلاسيكية منها الى

الروح الرومانتكية ، لأنها وضعت حدودا لما بمقدور العقل الانساني معرفته والتطلع اليه ، مثلما سبق أن فعل كانط ، غير أننا نرى جوته في « فاوست » يتطلع الى اللامتناهى بطريقته الخاصة ، مثلما فعل بعض الرومانتيكيين الآخرين ، الذين لم يتماثل سمو علو احساسهم الميتافيزيقى بالعلو الذى سما اليه نوفاليس

وأقدمت الرومانتكية على محاولة لاعادة احياء الدين . واتخذت هذه الحركة جملة مظاهر ، لم يكن أقلها شأننا النزعة الصوفية لاضفاء الروحانية على الطبيعة . وكما لمح كارلايل ، لم تكن جميع هذه المظاهر مستلهمة من الاحساس العميق بالضياح الميتافيزيقى نتيجة لحركة التنوير ، وما أحدثته من تأثيرات ثورية . وشاع الاعتقاد بفقدان العالم لركيزتيه الميتافيزيقيه والدينية فى القرن الثامن عشر ، وبأن البشر فى حاجة الى استعادة ذاتيتهم ، لو أريد مرة أخرى ظهور أبطال وأعمال فنية عظيمة . ووصف كارلايل بطريقة شائقة هذا الشعور بالضياح فى فصل سماه « لا الباقية » . فى كتاب سارتور ريزارتوس (١٨٣٣ - ١٨٣٤) بقوله : « فى القرن الذى اختفى منه الايمان » ، لم يعد لله وجود ، بل أصبح على هامش العالم ، ومقيدا بقوانينه العقلانية ، وفى هذا الكتاب الذى يعد من أعظم مصادر نظرة كارلايل الى الله والدين ، يتحدث على لسان الأستاذ توفلسدريخ (*) عن الأزمة الروحية التى مر بها (من تأثير الأثر الأكل لشك عصر التنوير) ، وكيف بعد أن هيمنت عليه روح البحث ، انتقل من الشك الى المروق ، وانغلق فى وجهه باب الأمل تبعا لذلك ، واعتقد أن الله فى أفضل الأحوال « ربما كان غائبا عن الوجود » جالسا بلا عمل منذ أول سبت ، مكتفيا بالتفرج على الكون من خارجه لكى يدرك ما بداخله .

ولكن كيف يسترد الايمان الحيوى ؟ ان بعض الرومانتيكيين لم ينجحوا قط فى تحقيق هذه الغاية ، وكان اخفاقهم سببا فى اصابتهم بالاكتئاب . ومن ناحية ثانية رأينا كثيرين يعتنقون الكاثوليكية ، او يرتدون اليها ، وان كانوا قد برروا فعلتهم بمبررات جديدة ، اتسمت بروحها الرومانتيكية أيضا . وظل آخرون يتبعون البروتستانتية ، ولكنهم نظروا الى الدين نظرة رومانتكية . غير أن هناك آخرين أيضا - لم يكن عددهم قليلا - خلعوا رداء الكنيسة ، واخترعوا آلهة جديدة وأساطير جديدة ، وأحد هؤلاء وليم بليك الذى ارتضى فى قصيدته الملحمية « أورشليم » الايمان بخلط مبالغ فيه من المسيحية والأساطير الشخصية ، ولعل نوفاليس كان من أتباع هذا الاتجاه . فرغم استمراره فى اعتناق المسيحية ، إلا أنه أثر الباس دينه زيا غيبيا وخرافيا ، فرأينا « صوفيا »

« التي ترمز للحكمة » في إحدى حكاياته الخرافية (*) تقول : « لقد انكشف السر الأعظم للكافة ، وإن ظل خافيا إلى الأبد » . بيد أن علينا أن لا ننسى أن مثل هذه النزعات كانت تمثل المؤمنين بالخوارق الطبيعية ، يعنى من تماثلوا هم و كارلايل نفسه ، الذي اكتشف نوعا جديدا من الآله يعمل في العسالم والطبيعة . والحق أن هذا الآله لم يوصف بمجاوزته للعالم فحسب ، لأنه يظهر فى شكل ما أو هيئة ما ، فيما يقارب جميع التجارب الرومانتيكية على اختلاف صورها .

ويعبد الفيكونت دى شاتوبريان مؤلف كتاب عبقرية المسيحية (١٨٠٢) الذى يوصف بانجيل الرومانتيكية مثلا حسنا للنوع الجديد من الدفاع عن الكاثوليكية . واقترح شاتوبريان لاعادة الحياة لعقيدة يفترض أنها ووريت التراب النزوع الى استهواء الوجدان الانسانى عوضا عن البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، أو اعادة طرح العقيدة وقال : « ان الديانة المسيحية ذاتها نوع من المشاعر لها غمرة أفراحها وأشواقها وتنهداتها وأتراحها ودموعها وولعها بالمجتمع والوحدة » . وأوضح شاتوبريان مدى تمتع المسيحية بالشاعرية ، والروحانية ، ومدى اشباعها للاحاساس الفنى - وبخاصة عن طريق كنائسها - التى يظهر التباين بينها وبين المعابد الاغريقية (مهما كانت درجة أناقتها) مما تحدثه من اثاره لمشاعر التهيب والتذكرة بالامتناهى . وكم فى منجزاتها التاريخية من آثار خلافة ، فلم تكن المسيحية معادية للحضارة مثلما ظن المؤرخ الانجليزى جيبون (وكم حفل كلامه بالتناقض) ، ولكنها زودتها بأخلاقيات سامية وفن عظيم وأدب رائع ، وبكل سبل الارتقاء بدءا بالزراعة حتى أبعد العلوم تجريدا ، وقال شاتوبريان فيما بعد فى مذكراته : لو أنه أعاد تأليف كتابه ، فإنه سيبين فيه كيف أرسيت المسيحية أسس التماسك الاجتماعى الحق والمساواة والعدالة . وهذا تضرع محسوب لاجتذاب أفئدة الكافة بما فى ذلك الشباب فى حقبة انهيار ذهنى أخلاقى (كما تصور شاتوبريان) .

وفى ذات الوقت تقريبا ، حاول قس شاب من أبناء برلين ، ممن تعلموا عند التقويين المورافيين اعادة احياء البروتستانتية اعتمادا على مخاطبة الناس بصفاتهم الفردية ، بدلا من الاستناد على النفع الاجتماعى . وظهرت جميع أسس البروتستانتية الرومانتيكية فى تصور شلايرماخر للآهوت المشاعر ، خصوصا فى كتابه الباكر « رسائل عن الدين الى محتقره من المثقفين » ، الذى ألفه ١٧٩٩ بناء على اصرار أصدقائه الرومانتيكين فى العاصمة البروسية . ودافع شلايرماخر عن الابتعاد عن الثقافة الفرنسية ، التى لم تعد تكثرث بالدين ، والابتعاد أيضا عن المذهب

المؤله للطبيعة (*) واللاهوت العقلاني بوجه عام ، وبعد أن تعاركو هو
وكانط منذ أيام دراسته ، رفض ما قاله كانط عن « الدين في حدود العقل
وحدته » ، وتصوره اعتماد وجود الله والأخلاق على الوعي الأخلاقي عند
الإنسان . ففي اعتقاد شلايرماخر : الدين شيء ، والأخلاق أو الفلسفة
شيء آخر ، وتماثل هو والكثير من معاصريه في شوقه للامتناعي . وهذا
اتجاه بعيد الاختلاف عن محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، أو رد الدين
إلى الأخلاق . وقال في تعريفه المشهور : « الدين الحق يعني الاحساس
باللامتناهي وتذوقه » ، ولكن أين يستطيع الاهتداء إلى اللامتناهي ؟ ،
ورد على ذلك : في صميم روح الإنسان ، يعني في المشاعر . ورغم
اعتراضه على كانط ، إلا أنه تعلم من الفلسفة النقدية عدم الوثوق في
البراهين العقلانية لاثبات وجود الله ، وبذلك رجع بالدين إلى حالة ما قبل
الادراك والمعرفة . . فالشعور شيء فردي ، حتى وإن كان ملكة من ملكات
الروح الانسانية . وينظر على نحو ما الواقع الموضوعي ، وإن كانت هذه
الفكرة لا تبدو واضحة . . وأعرب شلايرماخر عن عدم ثقته في نظرة عصر
التنوير إلى الدين التي جنحت إلى صبغه بصبغة كلية تعميمية ، وقال إنه
ظل أمدا طويلا قانعا بما اكتشفه « العقل الكلي » . ولكن شلايرماخر
ارتأى فيما بعد وجوب « ارتقاء الإنسان إلى المستوى الأعلى للفردية » فلم
أعد أقنع بالنظر إلى الانسانية على أنها كتل وحشية هلامية ، متماثلة
في داخلها تماثلا كاملا . . وهكذا يكون قد أضفى على الدين الطابع الفردي ،
ونظر إليه نظرة سيكلوجية شعورية . فكل فرد عبارة عن تجسيم متفرد
للكل ، ويجرب الكل بطريقته المتفردة . وإذا كان الله شلايرماخر ليس
إله أنصار مذهب وحدة الوجود ، إلا أنه - يقينا - إله كامن يمكن الاهتداء
إليه في العالم ، وبخاصة داخل روح الإنسان ، وبوصفه عميدا فيما بعد
لكلية اللاهوت في جامعة برلين الجديدة ، استطاع التأثير بعمق في
اللاهوت البروتستانتي ، ودفعه إلى هذا الاتجاه « الرومانتيكي » الجديد .

واهتدى الرومانتيكون إلى الله في الطبيعة ، في صورة احتسبت من
مميزاتهم ، ولم يهتدوا إليه جميعا بطبيعة الحال . فلم يكن بين هؤلاء
المهتدين الفرد دي فينيه (**) أو اللورد بايرون . وإنما كان هناك بالتأكيد
نفر ملفت . ولقد سعى هؤلاء الفلاسفة المؤمنون بخوارق الطبيعة ممن
تمردوا ضد الآلية النيوتينية لجعل الطبيعة مكانا يستطيع الإنسان معاودة
العيش فيه والشعور بالاقتراب من الله ، وبذلك يحل مشكلة الثنائية التي
نكب بها المفكرون منذ عهد ديكارت . وجاء دافع هذه الطريقة في التفكير
في الطبيعة من روسو وأمثاله كثيرون ممن ساقهم تأمل الطبيعة إلى الشعور

Delam

(*)

• (١٨١٢-١٧٩٧) Alfred de Vigny

(**) الشاعر الفرنسي

بالانتشاء الصوفي (*) . ولقد حاول جوته دائما في دراساته المورفولوجية اكتشاف المبدأ الجوانى الاصلى للأشياء ، أى الأبدى فى المتناهى عند (اسبينوزا المقدس) الذى أعيد احياؤه فى ألمانيا على أواخر القرن الثامن عشر ، وكان قد دعا الى اله كامن ، بينه وبين الكون هوية على نحو ما ، وازدهرت هذه الصوفية الطبيعية فى مذهب شلنج (**) الذى أعجب به ايماء اعجاب صمويل تيلور كولريديج ، مثلما أعجب به الألمان ، وتمثل هذا الاعجاب فى شعر وردزورث عن الطبيعة ، وعند مصورى المناظر الطبيعية من أمثال جون كونستابل فى انجلترا ودافيد كاسبار فردريش فى ألمانيا .

فالانسان فى نظر الرومانتيكين ليس مقياس كل شئ ، كما هو الحال فى الفكر الكلاسيكى . واشتركوا فى رؤية الانسان فى سياق قوى كونية عظمى يختلط به فى « كل » أو « لامتناه » أعظم منه هو ذاته ، فقال الدكتور كاروس فى كتاب بعنوان « تسع رسائل عن تصور المناظر الطبيعية (١٨٣١) » : « عندما يتأمل الانسان الوحدة الرائعة للمنظر الطبيعى ، فانه يعى تفاهته ، ويشعر ان كل شئ عبارة عن جزء من الله ، وبذلك يشعر باستيعاب الله له ، وينبذ وجوده الفردى » ، ولا يتعارض مثل هذا التشديد على « الكل الأعظم » على أى وجه وأى تأكيد مماثل للفردية ، يلاحظ بالفعل عند شلايرماخر ، أو فى عمليات الخلق الانسانى ، ولكنه يوضح الطبيعة الميتافيزيقية - بالضرورة - للانسان الرومانتيكى ، فى الأنثروبولوجيا الرومانتكية ، ليس الانسان مجرد « كائن منحى ناحية الأرض » كما تصوره فيكتور هيجو ، « ولكنه مقنوف متجه نحو السماء ، أى الى الأصل الذى بعث منه » .

ان هذا يفسر لماذا قام الرومانتيكيون بثورتهم الكوبرنيقية فى الاستمولوجيا . فلا بد أن يتزود الانسان بالملكات العرفانية المكافئة لاحتياجاته الميتافيزيقية ، وتطلعاته ، ولا تخفى عدم كفاية استمولوجية لوك للنهوض بهذا الدور ، لأنها خصت انطباعات الحس بأكبر دور فى المعرفة . وحتى كانط ، فرغم أنه زاد من فاعلية العقل اعتمادا على مقولاته الشهيرة ، الا أنه جعل المعرفة قاصرة على المظاهر فى عالم الظواهر ، ومن هنا وضع كولريديج ، الذى كان شديد الاعتراض على لوك ، وإن كان شديد الامتنان « لحكيم كونجزبرج » (يقصد كانط) - ولعله لم يفهمه على خير وجه ! - ملكة خاصة للذهن سماها على نحو مثير للدهشة « بالعقل » للفرقة بينها وبين « الفهم » . وكانت هذه الفرقة المشهورة

Réveries du Promeneur Solitaire

(*) كما حدث فى كتابه

(١٧٧٦ - ١٧٧٨)

Naturphilosophie.

(**)

التي عبر عنها جميع الرومانتيكين تقريبا ، على نحو أو آخر ، معروفة بالفعل في ألمانيا بفضل الفيلسوف جاكوبي وكانط بالذات ، فليس بمقدور الفهم (*) معرفة أى شئ خلاف الظاهرات ، وتبعاً لتشبيهه ينسب لشوبنهاور : يتشابه الفهم هو وإنسان يدور ويحوم حول قلعة لرسم واجهتها ، ولكنه لا يهتدى قط الى أى مدخل . أما العقل (**) فباستطاعته اختراق حوائط القلعة ، يعنى النفاذ الى ما وراء الظاهرات ، الى الشئ فى ذاته ، وعلى حد قول كولريديج : « فانه يختار الحقائق الخفية والموضوعات الرومانتيكية العامة التي هدفت الى تحويل العقل من مرآة (***) الى مصباح قادر على تسليط أشعته للكشف » عن أرض جديدة وسماء جديدة ، لم يحلم بها الحسيون والفخورون بأنفسهم » .

وقارن كولريديج أيضا بالاستعانة بذخيره التي لا تستنفد من التشبيهات ، العقل بنبات يمتص العناصر الخارجية ، ولكنه عندما يتنفس تساهم أنفاسه فى انعاش البيئة . وبعبارة أخرى ، فان العقل يتميز بالقدرة الخلاقة ، لأنه ليس قادرا فقط على النفاذ فى الغيبيات ، وإنما لديه أيضا القدرة على تحويلها وبث الحياة فيها بخلق أعمال دالة على العبقرية الأصيلة . وبمقدور الانسان استحضار عوالم جديدة للحياة بالخلق والاختراع اعتمادا على الخيال شقيق العقل . وقد نسب اليه كولريديج القدرة التشكيلية (****) . ويصح هذا القول بقدر كبير عن الفنان ، الذى استحق عن جدارة فى العالم الرومانتيكى صفة المثل الأعلى للانسان ، وحل محل فلاسفة (*****) الموسوعة المشهورين . فرأى شيللى ، مثلا ، الشاعر شيئا أكثر من انسان ، لأنه صاحب رؤيا يشارك فى العملية الأبدية لاماطة اللثام عن « الجمال الخفى للعالم » وبالمثل رأينا شلنج يؤلف فلسفة كاملة النضج للفن يرى فيها الفنان وحده متفردا بين بنى البشر بفضل قوته على حدس « المطلق » ، ومن ثم استطاع فى عمله أن يعرض « لا متناهايا ليس بمقدور أى فهم متناه الاحاطة به » .

على أن هذه النظرة الرومانتيكية للعبقرية لا يمكن أن تفهم فهما كاملا بغير رجوع الى اللاوعى ، فليس من شك أن الانثروبولوجيا الرومانتيكية — بوجه عام — قد افترضت وجود عقل لا عقلانى أو لا واع أو لا شعورى .

Verstand.

(*)

Vernunft وسماء Jacobi : "Glaube" أو الايمان .

(***)

tabula rasa أو

(****)

esemplastic.

(*****)

les philosophes

(*****)

وربما صح القول بأن الرومانتيكين ليسوا أول من اخترع اللاشعور ،
 إلا أنهم كانوا أول من تحدث عنه بحرية وافاضية . واستعانوا باللاشعور
 لتفسير عملية الابداع الفني ، وأيضا للتحدث عن « الجانب الليلي » لحياة
 الانسان ، يعني عالم الأحلام والوحوش والأشباح والأطياف ، فهو تصور
 ميتافيزيقي أكثر منه تصورا علميا . وتصوروا الفنان - بوجه عام - بأنه
 نبات ينمو لا شعوريا ، أو كوعاء يستعين به « الأبدى » في فعله وتعبيره
 عن نفسه . واعتقد بعضهم كما فعل الشاعر الفينان ولیم بليك في الآلية
 الشاعرية (*) . وكتب عن كتابه « ميلتون » : لقد نظمت هذه القصيدة
 بفضل ما أملى على املاء مباشر . . . « دون تأمل مسبق » بل وربما ضد
 ارادتي ، وبطبيعة الحال ، يعبر اللاشعور عن نفسه على أفضل وجه في
 الأحلام وهنا يتكشف جليا الفارق بين الفكر الرومانتيكي وفكر عصر
 التنوير . فلقد حاول مفكرو « التنوير » رد الحلم الى ظاهرة طبيعية ترتد
 الى التجربة الحسية ، ويستطاع تفسيرها عن طريق القوانين الأولية .
 وتعد حالة اليقظة الحالة الأسمى ، لأن الروح أو النفس تفقد أثناء الحلم
 اتصالها بعالم الواقع . وقلب علماء النفس الرومانتيكون مثل الدكتور
 كاروس وفون شوبرت (مؤلف كتاب رائع عن رمزية الأحلام ١٨١٤)
 هذا الحكم رأسا على عقب . ففي الأحلام ، يتحدث الانسان لغة أسمى
 تمكنه من التنقل بنظره من وراء الى الأمام بغير التقيد المعهود بالزمان ،
 ومن لم تتسن له القدرة على التنبؤ في الأحلام ، وعندما تنقطع الروح عن
 عالم الانطباعات الحسية ، تتصل بالواقع الروحي ، وبذلك تساعد على
 انطلاق الشاعر المختبئ داخل الانسان . وتوضح العبارات الاستهلالية
 من قصة هينريش فون أوفتردينجن لنوفاليس (١٧٩٩) النظرة الرومانتيكية
 الجديدة : « ففيها يتحدث هينريش وأبوه عن الأحلام » ويقول الأب الشاك :
 « الأحلام يا بني كلام فارغ » . ولقد ولت الأيام التي كانت الرؤى تصادف
 فيها في الأحلام ، . ومعارض هينريش : « لعل الأحلام لم ترسل إلينا
 من السماء مباشرة ، ولكن ألا يتعين علينا أن نتصورها رغم ذلك كنوع
 من السماء تزيع الحجب التي تخفي طبائعنا الداخلية عن الأبصار .
 وتطلق عنان الخيلة المقيدة بالأصفاة وترشدنا في حجيجنا الى القبر
 المقدس » .

وكما بينا آنفا فان اللاشعور أشبه بمفترق طرق . فبمقدوره
 هدايتنا الى عالم أسمى ، ولكن بمقدوره أيضا اطلاق سراح القوى الشيطانية
 الكامنة بداخلنا . وكان الرومانتيكيون على بينة بما تتصف به الطبيعة
 البشرية من تشبه واضطراب ، وبالقوى الكامنة بالانسان التي قد تفصل

بينه وبين عالمه . وألقى فون شوبرت بنفسه محاضرات عن الجانب الليلي في العلم ، ومحذرا من المظاهر الشريرة للاشعور ، ومن مظاهره الخيرة أيضا . وحشد هينريش فون كلايست ، متأثرا بنظريات فون شوبرت ، دراماته في نفس الحقبة (١٨٠٦ - ١٨٠٨) بشخصيات مثل كيتش فون هايلبرون التي صور فيها الحب قوة بدائية لا شعورية . وعلى الرغم من أن كولريدج قد أثنى على عقل الانسان وخياله الالهي ، الا أنه في أعظم أشعاره دفع بطله لاقتراف جريمة لاعقلانية أساسا (لاشعورية) وهي قتل « القطرس » الطائر البحري ، مما سيؤدي الى وجوب معاناته حتى يصبح على وعى بما اقترف ...

أما أرتور شوبنهاور فهو فيلسوف هذا الجانب الليلي من الانثروبولوجيا الرومانتيكية ، واكتشف شلنج أيضا نوازع قائمة - لاشعورية الى حد كبير - في النفس ، ولكنه التزم جانب التفاؤل فيما يخص حرية الانسان ، وقدرته على التغلب عليها وتغيير طابعها . بيد أن شوبنهاور لم يؤمن بالحرية ، أو لعله آمن بها بقدر محدود . ففي كتاب « العالم ارادة وتمثلا » (١٨١٨) عرف الشيء في ذاته (يعني الحقيقة) بأنها ارادة العيش أو الحياة . وهذه الارادة عمياء ، لا مخطط لها ، وبلا أساس ، وتمثل سيطرة القطيع على الانسان ، وتورطه - تبعا لذلك - فيما لا نهاية له من الصراعات والمعاناة والتصدعات : « يتميز الكشف عن الطبيعة الباطنية للارادة بالضرورة الأبدية والتغير بلا حدود » . وليس باستطاعة الانسان تحقيق أى نوع من السلام الا اذا أوقف رغباته تماما ، أو عكف على التأمل الاستاطيقي . وتذكرنا ارادة شوبنهاور « بالهو » عند فرويد . فضلا عن ذلك ، فقد استمر فرويد يردد القول « بأن البشر ليسوا في حقيقتهم كما يتظاهرون » . انهم مجرد أقنعة : « اخلع النقاب ! » وانظر داخل الاشعور (وان كان شوبنهاور لم يستخدم هذه الكلمة بالفعل) فما الذي ستراه ؟ انك ستري أنانية وغلا وحقا بلا حدود ، مصدر شقاء النفس والنفوس الأخرى، من تأثير سيطرة ارادة الحياة ، وكتب شوبنهاور في مقال متأخر عن الطبيعة البشرية :

« من الحق اذن القول بوجود وحش قابع في قلب كل انسان يتحين الفرصة للاندفاع كالعاصفة ، والغضب ، كما يبين من اشتهاا الحاق الألم بالآخرين . أما اذا اعترض أحد سبيله فانه يقتله ... وعندما يحاول العقل ترويضه وتلجيمه الى حد ما ، فان حارس هذا الوحش يعاني الأمرين . ولربما نزع الناس الى تعليل ذلك بالشر المتطرف الكامن في الطبيعة البشرية .. الا اننى أنسب ذلك الى ارادة الحياة ، التي تزداد شعورا بالتنقيص والنكد من أثر المعاناة المستمرة للوجود ، ومن ثم فانها تسعى لتخفيف عذابها بتعذيب الآخرين » .

وليس بالمقدور فهم المعتقدات الرومانتكية عن التنظيم الاجتماعي والسياسي الا على ضوء هذه الانثروبولوجيا . وبالإضافة الى التاريخ العام للعصر ، فقد اتهمت الرومانتكية بجميع الخطايا السياسية تقريبا في الكتاب ، يعنى بالثورة ، وأيضا بالرجعية ، وبتبنى النزعات الفاشية ، بل وحتى بالافتقار الى الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية (*) . ويصح القول بمرور الرومانتكية خلال عدة أجيال بجميع ألوان العقائد السياسية المعاصرة على وجه التقريب بدءا من الاتجاه المحافظ ، الى الليبرالية والاشتراكية ، بل والفوضوية ، ومع هذا ، وكما يفهم ضمنا من هذا الرأي ، فان الرومانتكيين قد انحازوا الى مختلف المعسكرات في الصراعات السياسية للعصر . ولا يجوز القول بأنهم كانوا ينفرون من السياسة ، أو يرفضون التفكير فيها ، وان كان قلائل من الرومانتكيين قد شغلوا وظائف عامة بالفعل . وما من شك أن العالم الرومانتيكي قد أخرج عددا من الأفكار الأخاذة الجديدة والبعيدة الأثر عن تنظيم المجتمعات .

ومن بين هذه الأفكار تبرز واحدة منها فوق باقي الأفكار . انها فكرة الكيان العضوي الاجتماعي ، ولم تكن هذه الفكرة - بطبيعة الحال - شيئا مستحدثا . وبالرغم من ذلك ، فانها أصبحت تعنى الآن شيئا جديدا ، أو حرفت تحريفا جديدا . وليس من العسير فهم سر استهوائها المعاصر لنا ، فهي تعكس الخوف من الفوضى والعار في عصر الثورة ، والضيق الذي تشعر به الكثرة ، وليس مجرد الارستقراط ، بعد انهيار المؤسسات وتفكك الروابط القديمة ، غير أنها حدثت قبل أوانها ، وبشرت بالثورة الفرنسية ، التي نستطيع اكتشاف ارهاصات فكرية مهدت لها عند روسو وبيرك (ولا تعارض بين الاثنين كما حاول بيرك الإيحاء) وعند هردر أيضا . وهكذا مثلت فكرة الكيان الاجتماعي العضوي نفورا لا من التجاوزات التي حدثت في باريس أثناء الثورة فقط ، ولكنها مثلت أيضا نفورا من اسلوب التنوير بأسره في التفكير في المشكلات الاجتماعية .

وضرب كولريديج على الوتر الحساس في احبدي « عظامه » السياسية (**) ١٨١٦ ، والتي لحص فيها الى جانب أشياء أخرى ، نظرتة الى أسباب الثورة ، وما أعقب ذلك من اقتصاص . ونسب التفجر الى حد كبير الى الأفكار الزائفة التي لم يكن أقلها خطورة :

« التصور القائم على الانخداع العام بإمكان تشييد الدول والحكومات على النحو المتبع في صنع الآلات ، وأنه من الواجب مراعاة ذلك . وأيضا

(*) بل وحتى بالـ Weltpflucht

(**) (١٨١٦) Stateman's Manual

تصور امكان التكهّن بأية حركة واحتسابها مسبقا . ان الثمن الذى دفع فى مقابل ذلك على حساب ما لحق بالحقوق الوطنية للبشر ، وربما بأرواحهم هو ما ترتب على ذلك من ظهور عدد كبير من المخططات والدساتير والمخططات ومشروعى الدساتير ، والخطورة الفظة التى أبدى كل داعية أو مبشر باقتراح جديد استعداده للتعبير عنه

ووضع كولريديج فى مقابل هذه « الآلة » المخلوعة فى نفسها ما اعتبره الفكرة الصائبة عن الدولة التى تراها أخلاقية ، أو « كل عضوى » ولقد اعتقد كولريديج أن الدولة - أو المجتمع - أقرب الى الكائن العضوى أكثر من قرابتها للآلة ، فمثلا لم يصنع الدستور الانجليزى على غرار الآلة . لقد « نما » كائى كائن حى عضوى فى حقبة من الزمان . وتماثل الدولة - بعد ذلك - هى والكائن الحى فى كونها تتألف لا من ذرات مفردة تسعى كل منها لصالحها الأنانى ، وانما من أجزاء عضوية ، يعنى من أعضاء لها تاريخ كالملك والكنيسة والمليكيات . ويساهم كل طرف من هذه الأطراف بطريقته الخاصة لصالح الكل .

ولم تتصف النظرية العضوية التى جاء بها كولريديج بالأصالة ، كما أنها لم تكن قاصرة على انجلترا ، والحق أنها مثلت نظرة اشترك فيها رومانتيكيو جميع البلدان ، وتماثل أكثرهم مع كولريديج ، أى ابتدوا متحمسين للثورة ، ثم أصيبوا بالاحباط بعد ذلك . ولقد ورث كولريديج ذاته الفكرة عن ادموند بيرك ، الذى سبق له زجر الثوريين - قبل ذلك بسنوات - لأنهم نظروا الى السياسة كأنها تمرين هندسى . فلم يرجعوا الى الطبيعة البشرية أو التاريخ . وتغلغل تأثير بيرك فى ألمانيا ، مثلما فعل فى انجلترا ، وان كان الألمان لم يحتاجوا لبيرك لتعريفهم أن الزمان يدعو الى التشديد على دور المشاعر العامة (*) . فلقد هاجم الرومانتيكيون الألمان علم السياسة الذى يستند الى نموذج هندسى مجرد ، واستعاضوا عنه بشيء أشبه بالبيولوجيا السياسية التى أكدت دور النمو « الطبيعى » ، باعتباره معارضا للتخطيط الواعى ، وأكدوا أيضا دور المشاعر الجماعية بوصفها مقابلة للحقوق الفردية فحسب ، ويبدو شلايرماخر ، وكأنه اقترب من بيرك عندما نبذ فى بحث تلى على الأكاديمية الملكية للعلوم فى برلين ١٨١٤ المهندسين المعاصرين للسياسة ، لأنهم عاملوا الدول دائما كأنها أشياء ، « يستطيع الانسان اختبار براءته فيها ، ولم يعاملوها اطلاقا كتشكيلات تاريخية للطبيعة ، ولم ينتبهوا الى عدم ظهور أية دولة عن طريق الصناعة ، حتى ما لا يتمتع منها بالكمال » .

ورأى معظم الرومانتيكين ، خصوصا بعد الثورة الفرنسية ، الدولة ،
أو « الدولة - الأمة » أسمى صورة للكائن العضوى الاجتماعى ، وهكذا
لا يعد تصور « الدولة - الأمة » بالضرورة تصورا رجعيا ، ويصح القول
بأن الرومانتيكية ساهمت بدور أكبر من دور اليقوبيين أو نابوليون فى
بزوغ الحركة القومية التى ما لبثت أن أصبحت واحدة من أكبر الأساطير
الحديثة . ولا بد أن ندرك عدم وجود تعارض بين هذه القومية الرومانتيكية
والنزعة الفردية الرومانتيكية . فالواقع أن أحداث الثورة ، والحركة
الامبريالية الفرنسية التى جاءت فى أعقابها قد ولدت شعورا أقوى بالهوية
بين « الفرد » و « الدولة » ، وعلى الأخص فى ألمانيا ، ولكن ورغم ذلك ،
فلقد حرص الرومانتيكيون ، حتى فى ذروة حرب التحرير الجرمانية على
الحفاظ على كرامة الفرد ، وعلى الأخص من يتمتع منهم بالعبقريّة . وتمثلت
الفكرة الجديدة فى أن الفرد سيتمكن من النهوض بقدراته فى ظل المجتمع
المتحد على نحو أفضل وبمعاونة الدولة التى أصبح ينظر إليها الآن على
أنها تقوم بدور ريادى فى خلق الحضارة . غير أن أهم نقطة هى اتجاه
الفكر الرومانتيكى الى تصوير الأمة فى شكل فرد كبير ، يتمتع بشخصية
مختلفة عن شخصية الأمم الأخرى ، وان كان لا يلزم أن يكون معاديا لها ،
يعنى لقد عبرت الفردية الرومانتيكية عن نفسها سياسيا أساسا فى فكرة
الأمة . وتمثل هذه الفكرة مثلا آخر للتمرد الرومانتيكى ضد الاتجاهات
التعميمية والنازعة الى « الكلية » فى فكر القرن الثامن عشر . ويتحدث
الفيلسوف الألماني فيشته فى رسائل الى الأمة الألمانية (١٨٠٨) عن
الشخصية الفردية للأمة ، وكان فيشته قد عدل عن نظريته العقلانية الباكورة
واتبع نظرة رومانتيكية الى المجتمع .

ولقد قام هرذر بانماء هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، عندما
اشترك فى شبابه فى رحلة بحرية من ريجا الى فرنسا . ولمح أثناء هذه
الرحلة الخصائص المميزة لكل بلد ، واختمرت فى ذهنه فكرة الجماعة
أو روح الجماعة (*) .

غير أن فكرة القومية تعرضت لتغير ملحوظ عند المفكرين الرومانتيكين
المتعاقبين . فبعد أن كانت فى البداية فكرة حضارية الى حد كبير ، اتخذت
طابعا أكثر تأثرا بالسياسة - وبخاصة فى ألمانيا من تأثير الامبريالية
الفرنسية ، وبذلك بالاستطاعة وصف النزعة القومية عند هرذر - مثلا -
بأنها حضارية انسانية بحتة ، بينما اتصفت قومية فيشته التى ظهرت
فى ظل اذلال فرنسا لبروسيا ، بأنها سياسية وحضارية معا ، وكان

(*) الجماعة Volk . روح الجماعة Volksgeist .

أعظم أسهام قدمه هرذر لفكرة القومية هو تصور « الفولك » ، الذي كان مبنيا بدوره على فكرة الطبيعة . وكما يتعين أن نتذكر ، لم يكن ما تأثر به هرذر في الطبيعة هو انتظامها الآلى ، ولكنه تنوعها وثوراتها . وكتب يقول : « لقد وزعت الطبيعة خيراتها على أوجه شتى ، مرتبطة بالجو والثقافة . وعلينا أن نشعر بالرضا لأن الزمان ينبوع جميع الأشياء قد فاض الآن ببعض هباته ، ثم فاض بهبات أخرى من مكنوناته البشرية - على مهل - بكل مقوماتها وخصائصها العضوية » . ويمتد هذا التنوع في اعتقاده - إلى تاريخ الشعوب . ففي مجرى التاريخ ، اكتسبت كل « جماعة » طابعا فريدا أو روحا فريدة (*) ، تمثلت بصفة أساسية في دينها ولغتها وأدبها . ولم تتألف الجماعة بناء على تعاقد ، أو تبعا لمشيئة إنسان أو إرادته . لقد نمت كما ينمو الكائن العضوي ، وكما يتحول في نهاية المطاف إلى كيان حي مكتمل أعظم من الأعضاء التي يتألف منها . وعلى الرغم من تأييد هرذر لمبدأ منح الحقوق الثقافية لجميع الشعوب - بما في ذلك اليهود والسلاف - إلا أنه وجه رسالته أساسا للجرمان ، فذكرهم بتراثهم الأدبي العظيم ، وضرب مثلا بذلك بما جمعه من أغنيات شعبية (**) ، وحث على التحرر من محاكاة النماذج الكلاسيكية والفرنسية ، وأكد فتوة الحضارة الجرمانية ، وما ينتظرها من مستقبل باهر ، وباختصار لقد دعا الألمان لكي يعوا أنفسهم ويدركوا أنهم شعب فريد خلاق ، له دور مهم يشارك به في صنع الحضارة .

تزودنا هذه الأفكار الاجتماعية والسياسية بمعبرة طبيعية إلى التصور الرومانتيكى للتاريخ . ولم تبرز التاريخانية إلى الوجود متآنية مع الحركة الرومانتكية ، وإن كانت هذه الحركة قد هيأت المناخ الصالح الذى تحتاجه لكي تنمو وتنتشر . ويصح القول بأن التاريخانية مظهر آخر للتمرد الرومانتيكى ضد النزعات التعميمية للتنوير .

وترجع كلمة تاريخانية (***) إلى أواخر القرن التاسع عشر . فهي ليست كلمة رومانتكية ، ولكنها من قطافها ، ومنذ ظهورها ، اكتسبت العديد من مختلف المعانى ، بل المتناقضة . بيد أننا إذا أحسننا استعمالها ، سنرى أنها تعنى التغلغل المتعاطف الحق فى الماضى إلى جانب الفكرتين التوعمين : التفرد فى الزمن والنمو . وفى أواخر القرن الثامن عشر ومشارف القرن التاسع عشر ، بلغت هذه المعانى جديدة بالمقارنة بتصوير التنوير للتاريخ .

Geist

Volkslieder

. historicism

Historismus وتترجم إلى الإنجليزية

(*)

(***)

(***)

ولا يخفى أن فكرة التغلغل الوجداني الرومانتيكي في التاريخ متضمنة في تصور المجتمع ككائن عضوي ، ولقد ذهب هذا التغلغل الى ما هو أعمق من مجرد الاهتمام بالتاريخ ، أو حتى بالاعتناء بوجود شيء ما في التاريخ يمكن أن يعلم . فلقد تساوى هذا التغلغل حقا هو ومعنى الورع والتقوى ، فلقد أدرك الرومانتيكيون ، الذين كانوا يحيون في زمان سريع التغير ، جماقة الانقطاع كليا عن الماضي ، والوثوق في العقل المجرد أكثر من الاعتماد على التاريخ ، وتعلموا كيف يعظمون أسلافهم بدلا من الأسف لهم ، ورأوا في الأمة التاريخية مجتمعا باستطاعتهم تصوره كممثل لهويتهم ، حتى وهو مستمر في نموه ، وعرف عن ادموند بيرك هذا النوع من الورع ، فلقد انحاز لجانب « التواصل » و « ايثار العصور الغابرة » و « التقاليد العريقة » . وجميع هذه المصطلحات من الكلمات المحببة له . ولا وجود لامتداح للتاريخ يتمثل وهذه الجمل المقتبسة من كتابه عن الثورة الفرنسية (*) (١٧٩٠) :

« لعلنا نعرف نحن معشر الانجليز المحدثين أننا لم نكتشف شيئا ، وأنه من المتعذر اكتشاف شيء ما في الأخلاقيات ، أو اكتشاف الكثير في المبادئ الكبرى لفن الحكم ، أو تصور الحرية ، فقد أدركت هذه المعاني قبل مولدنا بأمد طويل . . . فبدلا من أن نلفظ المعاني العريقة المستحوذة علينا ، فإن من واجبنا أن نتعلق بها » .

وطرح هررد تصورا لهذه التاريخانية الجديدة في مقالين حظيا بأكثر قدر من الرواج . وفي المقال الأول الذي كتب ١٧٧٤ ، قارن التاريخ بشجرة تتفرع منها جملة غصون ، دائمة التجديد لنفسها . وكان هررد معنيا حينذاك بالتركيز على المواضيع التي يزدهر بها عصر التنوير ، والتي تزين منجزاته ، وأصدر أحكاما بالاطراء أو اللوم على العصور السابقة ، واستند في دفع نقد على كاتب سويسري مغمور (**) ألف قبل ذلك بعشر سنوات كتاب « تاريخ البشرية » ، ومجد فيه تقدم الانسان من الهمجية الى حضارة عصر التنوير ، وأعلن هررد « النسبية التاريخية » كدقابل للنظرة المؤمنة بالتقدم . واختلف عن الاتجاهات التعميمية للفلاسفة ، فاعتقد في تميز الحضارات والأفراد بالطابع الفردي . وقال : « لكل أمة ، وأيضا لكل عصر ، مركز لسعادته مثلما يوجد مركز جاذبية لكل جرم سماوي » . وبناء على هذه الحقيقة ، لا يصح القول بوجود معايير كلية للحكم . فاذا أردت حقا فهم أي بلد آخر ، أو قرن آخر ، عليك أن تتغلغل في أعماقه وأن تشعر به في داخلك . وهكذا رد هررد الاعتبار

Reflections on the Revolution in France : Edmund Burke. (*)

Isaak Iselin. (**)

لكل العصور والشعوب كالمصريين والفينيقيين واليونان والرومان ، وأيضا
للقرون الوسطى التي رفض أن ينظر اليها نظرة استعلاء وتباسط . وكان
العصر الأوحى الذى لم يهتد هردر الى كلمة طيبة يقولها عنه هو عصره ،
الذى رآه غارقا لأذنيه فى الترف ، ومسرقا فى التعلق بالعقلانية والخضوع
للمآلية ، « التى يتوهم أنها مرادفة للحياة » . وعندما كتب هردر هذه
المقطوعة الباكورة لم يكن قد تحرر تماما من تأثير النزعة المتشائمة فى النظر
للتاريخ عند روسو .

وكان أكثر عصور الماضى التاريخى استهواء للرومانتيكين هو القرون
الوسطى . ولقيت عصور أخرى أيضا الثناء ، بما فى ذلك اليونان القديمة ،
التي صبغها الشاعر الألماني هيلدرلين مثلا بصبغة رومانتيكية ، باعتبار
اليونان من البلدان التى ما زالت قريبة الصلة بالطبيعة المقدسة . غير
أن القرون الوسطى وحدها - التى تمتد حقبة طويلة وتضم فى صفوفها
الشهداء المسيحيين فى عهد ديوقليطس (*) فى حد طرفيها ، وشكسبير
وميلتون فى الطرف الآخر - هى التى بمقدورها الهام حركة حضارية فى
حجم حركة الأحياء القوطى . وتضم هذه الحركة كل ميدان من ميادين
الفكر تقريبا : ١ - الفكر الدينى (المدافعون عن المسيحية من أقران
شاتوبريان ، وحركة اكسفورد فى إنجلترا) ٢ - الكتابة التاريخية
(كالدراسات الرائعة للفزو النورماندى ودوقات بورغونيا والصلبيين ،
التي كتبها بعض المؤرخين الرومانتيكين) (**) ٣ - القصة والرواية
(وعلى الأخص روايات والتر سكوت وهيجو وشاتوبريان ، التى قرأها
الجميع بما فى ذلك المؤرخون) ٤ - الفن والعمارة (بما فى ذلك دور
البرلمان التى وضع تصميمها سير تشارلز بارى بعد نشوب الحريق
١٨٣٤ ، والكثير من الكنائس القوطية الجديدة التى أشرف على بنائها
المهندس المعماري الانجليزى ولبي بوجين) . وألهمت حركة إعادة أحياء
القوطية أيضا عملية ترميم العمارة الوسيطة ككاتدرائية كولونيا ومجموعات
اللوحات الفنية الوسيطة والوثائق التاريخية . والدراسات الباكورة فى
التاريخ الجرمانى (***) ، المشروع المعزز المحبب الذى ظهر حديثا (١٨١٩) ،
من أمثلة هذا الاتجاه الأخير . ولم تنفرد المسيحية بأسر انتباه هردر . فقد
انبهر أكثر من ذلك بالعصور الوسطى الجرمانية ، وبالحركة الفنية

(*) Gaius Aurelius Diocletianus واسمه فى الأصل Diocles صعد الى مرتبة
قائد جيش الامبراطور الرومانى نومريان . واختاره الجيش بالقرب من نيقومديا فى
نوفمبر ٢٨٤ ق م . للانتقام لقتل مليكه . وانتصر فى معركة مارجوس ، وأثبت حنكة
عندما عفا عن أعدائه .

(**) كالاخوة de Barante و Thierry
Monumenta Germaniae Historica. (***).

التي ارتادها القوطيون والاتجلوساكسون والفرنجة وآخرون ، والتي نشطت وبشت روحا جديدة في حضارة اعترأها الوهن . ولم يأت هرذر بجديد عندما وصف العصور الوسطى في ألمانيا « بالعصر المتفرد » ذاته فقد تميز نوفاليس بروح مثالية أعظم عندما تصور القرون الوسطى كمثل أعلى لجميع العصور باعتبارها العصر الأعظم للايمان ، ولما تمتعت به من وحدة ، وما اكتنفها من أسرار « واحساس بالقدسية » ، وتبخرت كل هذه المميزات في عصر التنوير الذي خلفها . وغالبا ما صورت العصور الوسطى كعصر ذهبي للفروسية – العصر الذي أصبح مهددا بالغزو الصناعي – وأيضا كعصر الحرفية والنوق السليم .

وركزت بقدر أكبر المقالة الثانية لهرذر ، وهي الأطول ، ولم يتمها : تأملات في فلسفة التاريخ (١٧٨٤ – ١٧٩١) ، وأفاضت الكلام عن معنى التقدم مثلما ركز المقال الأول على الاتجاه الجديد للنزوع نحو الروح الفردية (الفضائل التي تتميز بها كل أمة ويتميز بها كل قرن) والنسبية ، وتحدث هرذر في هذا المقال « عن تربية البشر » . وتطلعه نحو الروح الانسانية (*) . ويقصد هرذر بهذا المصطلح « الماهية الجوهرية للانسان » وتكوينه السامي ، الذي يضم العقل والحرية والأحاسيس والنوازع الرفيعة المقام ، بما في ذلك تعاطفه على الآخرين ، الذي وصفه هرذر « بأنه ليس شيئا جاهزا في النفس ، ولكنه قابل للتحقيق (بالقوة) » . وأخيرا استبعد هرذر من مذهبه روسو ، واتجه بدلا من ذلك الى مقارنة التاريخ بسلسلة مؤلفه من حلقات مترابطة بالضرورة « بملحمة الله عبر العصور وجميع القارات والأجيال » . ولا يصح وصف هذا التصور بمذهب في التقدم ، بالمعنى الذي فهمه عصر التنوير على أقل تقدير . واستمر بقاء أثر من روسو لكى يدفعه للتشكك في امكان التقدم نحو دولة ما في المستقبل تتسم بالكمال ، « فالنزعة الانسانية » بمثابة قيمة أو مبادئ هادية ، تقترب منها كل حضارة بالقدر الذي يناسبها ، ولعل هذا المثل لا يقبل التحقق بصورة كاملة عند أية حضارة على الأرض ، وفوق كل هذا ازداد هرذر في هذه الحقبة اتجاها نحو تصور وجود هدف ما ، وطريقة التقدم نحو هذا الهدف ، بعد أن أدرك بطريقة أكثر اكتمالا الجانب النامي (التطوري) في التاريخ ، وكيف يبدل التاريخ من مظهره كأنه « بروتئوس الأبدى » ، وكيف يحمل كل شعب في جعبته ما حدث من قبل ، وان كان يحاول التفوق على ما يتعرض له من أحداث ، حتى يزداد اقترابا من غاية « الروح الانسانية » ، بما يتناسب معه . وكان هرذر قد ذكر بالفعل في المقال الأول ، وهو يشعر بالدهشة :

« ان ما يحدث يعد تقدما صحيحا وتطورا متواصلا . . . ويصح ان يوصف بالضرورة في اوسع نطاق لها . وأثمرت «التاريخانية» عند من جاءوا بعده من مفكرين ، وبصورة واضحة عند هيجل . فبرغم اختلافاته الحقيقية والمهمة عن هردير إلا أنه استطاع استيعاب نظريته ، وتقديمها في صورة مذهب . ففي فصل بعنوان « مبدأ التطور » في كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ ، عقد هيجل مقارنة بين التاريخ والطبيعة . فليس في وسع الطبيعة الا تكرار نفسها ، بلا نهاية . (ولا يخفى أن هيجل لم يتبع أية نظرة رومانتكية الى الطبيعة) ، ومن جهة ثانية اعتقد هيجل أن التاريخ لا يتصف بالسكون اطلاقا ، فيحكم تميزه بالتغير ، وتجده الدائم ، وتقدمه نحو تحقيق الكمال ، فان طبيعته ما زالت « لم تتحدد » . وعند هيجل ، تجسم الروح نفسها تاريخيا في الجزئي ، يعنى في روح الجماعة (*) .

اعتادت التاريخانية الرومانتكية تفسير التاريخ بارجاعه الى الفاعلية « الروحانية » المقابلة للقوى المادية ، فقال كارلايل - مسائرا اعتقاده بأن الروح تعمل من خلال الأبطال ، وبذلك تشكل مسار التاريخ : « ان الروحاني هو الذي يحدد المادى دائما . وما تاريخ العالم الا سير عظماء البشرية » ، الذين استمر كارلايل يصفهم في محاضراته عن « الأبطال وعبادة البطولة » (**) « بأنهم مبعوثون الى العالم » . ومع هذا فلم يتمثل البطل عند كارلايل مع صورة الدمية عند هيجل ، أى لم يتخذ معنى « الفرد التاريخى العالمى ، الذى يدور حوله دائما موضوع التاريخ أكثر من كونه الذات الفاعلة فيه ، ويسخره (مكر العقل) لتنفيذ ما يريد وفقا لمشيتته » . فالبطل عند كارلايل يبرز كفرد خلاق ملهم من عل ، ولكنه ليس خاضعا لحتمية ما ، لان أفكاره وأفعاله تصنع التاريخ أو توقفه . وكان رد فعل كارلايل أشد قوة ضد الحتمية المفروضة من الجوانب المتدنية . اذ أصر على القول : « بأن الانسان سليل قوة عليا ، وليس عبدا للظروف وللضرورة ، ولكنه القاهر الظافر بحكم انتمائه للسماء » . وليس لدى الرومانتكين أى أثر من آثار النزعة البيئية التى روجها عصر التنوير ، والتى جنحت الى تشويه سمعة الأبطال ، ووصفتهم بأنهم « صنائع الظروف » أو المؤثرات الاجتماعية .

وعندما نتأمل ما جاء في أعقاب الرومانتكية ، فاننا نرى أنها حققت دورا ربما فاق الأهمية التى تزعم عنها ، وعلى الرغم من محو بعض معتقداتها ، الا أنها وضعت خاتمها الدائم على العالم الحديث . وترجع

عصريتها الى أنها فوق كل شيء قد كانت على دراية بالضرورة . اذ كان الرومانتيون يعون بقدر أبعد مما شعر به « فلاسفة التنوير » انهم يحنون في عالم لا يكف عن التغير ، ولقد قال كارلايل مستشهدا بشيللر : « ليست الحقيقة كينونة ثابتة » انها فعل مستمر » (*) ، غير أنه بالنسبة لكارلايل ومعظم الرومانتيين لم يكن هذا التصور غالبا نذيرا مفزعا بقدر كونه نذيرا محذرا ، ويستطرد كارلايل ويقول : « لا شيء في التغير مصدر ازعاج » فالأمر على عكس ذلك تماما ، لأن التغير يكمن في جوهر نصيبنا في الحياة على هذا الكوكب » . فلم يكن التغير قد بدأ يتخذ مظهرا مفزعا ، لأنه كان بالامكان ربط الضرورة بالكينونة ، وان لم يلزم أن يكون ذلك باتباع السبل التقليدية . أو لعل الأدق هو القول بأن ما حدث في العصر الرومانتيكي كان من بشائر الهوية بين الكينونة والضرورة ، بمعنى عدم إمكان كشف الحقيقة الا في عالم دائم التغير .

المراجع

- M. H. Abrahms, *The Mirror and the Lamp : Romantic Theory and the Critical Tradition* (1958).
- M. H. Abrams, *Natural Supernaturalism : Tradition and Revolution in Romantic Literature* (1971) .
- J . S. Allen, *Popular French Romanticism : Authors, Readers and Books in the Nineteenth Century* (1981).
- I. Berlin, *Vico and Herder : Two Studies in the History of Ideas* (1976).
- K. Clark. *The Romantic Rebellion* 1863.
- J. Engell, *The Creative Imagination : Enlightenment to Romanticism* 1961.
- H. C. Hatfield. *Aesthetic Paganism in German Literature from Winckelmand to the Death of Goethe* 1964.
- G. G. Iggers *The German Conception of History : The National Tradition of Historical Thought From Herder to the Present Day* (1968).
- H. M. Jones, *Revolution and Romanticism* (1974).
- J. J. McGrand, *The Romantic Ideology : A Critical Investigation* 1983.
- H. Peyre. *What is Romanticism ?* (1986).
- P. Santon, *Pugin*. 1971.
- J. E. Toews, *Hegelianism : The Path toward Dialectical Materialism 1805-1841*. (1980).
- W. Vaughen, *German Romantic Painting* (1982).
- A. Walicki *Philosophy and Romantic Nationalism : The case of Poland* (1982).
- C. We'ch, *Protestant Thought in the Nineteenth Century* (1972-1985).
- R. Welhk. *Concepts of Criticism* (1963).

المرأة ، عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر

جوان • و • سكوت - لويز • أ • تيللي

يحيط بفهمنا لتجربة المرأة في القوة العاملة في القرن التاسع عشر قدر كبير من الاضطراب • وكثيرا ما يزعم أن النساء القابعات في دورهن كن تشتغلن بأعمال غير منتجة ، وأن تحول المرأة من البيت الى نوع ما من أماكن العمل الرسمية قد أدى الى حدوث تغير اجتماعي حاد نسبيا ، والواقع ، أن الملامح البارزة للتجربة الاقتصادية والاجتماعية للنساء اللاتي اجتذبن أساسا للخدمة المنزلية وصناعة الملابس والمنسوجات قد كشفت في نقلهن مظاهر من التقاليد الريفية من قيم وممارسات وتراكيب اجتماعية الى الأوضاع المدنية والصناعية الجديدة •

وكانت اقتصاديات الأسرة هي أهم مجال مارست فيه المرأة نشاطها قبل نزوحها الى المدينة ، وما تلا ذلك • اذ كانت النسوة يمارسن في المناطق الريفية علدا كبيرا من المهام الاقتصادية داخل دورهن • ولربما عملن في مرحلة صباهن وبلوغهن الى كسب العيش لكسب أجر يضاف الى ايراد الوالدين • وقد يدخرن أيضا جانبا من أجرهن للاستعانة به في دوة الزواج • وبمجرد زواجهن ، كن غالبا تواصلن العمل في دورهن وفي أعمال الحياكة والغزل ، الى جانب رعاية أطفالهن • وكثيرا ما اضطلعت المرأة بمسئولية ادارة المسائل المالية المنزلية •

ونقلت النساء بعض هذه المهام الى المدينة • اذ كانت أغلبية النسوة من المشتغلات بالخدمة المنزلية وحياكة الثياب وصناعة المنسوجات صغيرات في السن ، ووحيدات • فقد كن من بنات أسر ريفية ، ومن ثم كن من السهل اغفأهن من أعمال الفلاحة ، وانتقلن عن طريق الأنواع الثلاثة للعمالة الى حياة تسودها الأوضاع السائدة في « البيوت » • وكانت الفتيات

(*) نقل عن (Comparative Studies in Society and History (Vol. 17)

من ص ٢٨ - ٤١ - ومن ص ٤٢ - ٦٤ تأليف Joan W. Scott, Louise A. Tilly

اللواتى يكلفن بأعمال من هذا القبيل يحولن جانباً من اجرهن الى البيت لكى يضاف الى دخل الأسرة • ولربما ادخرن بعض المال ، استعداداً لمواجهة مطالب الزواج فى نهاية المطاف • أما نوع العمل الذى ينجز فى الخدمة المنزلية أو فى حياكة الثياب أو فى النسيج فكان من نوعية الأعمال التى جرت العادة على نهوض المرأة الريفية به • وعندما تتزوج الفتاة النازحة من الريف الى المدينة للعمل بها ، فانها تتخلى عادة عن العمالة • ولكنها لا تتوقف عن العمل توقفاً تاماً • فأتناء رعايتها لأطفالها ، فلا بأس من أن تشارك بالعمل نصف الوقت ، كان تشتغل فى معظم الأحيان بالحياكة ، مما يساعدها على الاسهام فى اقتصاديات الأسرة دون انقطاع عن أداء واجباتها المنزلية •

وعلى نهاية القرن ، تأثرت التجربة الاقتصادية وعمل النساء بالكثير من القيم الفردية المنزع ، ولكن التجربة المبدئية للنسوة اللاتى اشتركن فى ميدان العمالة عكست قدراً ملحوظاً من استمرارية القيم والممارسات التى انتقلت من الحياة الريفية الى حياة المدن •

كانت النساء اللواتى اشتركن بالعمل فى أعداد كبيرة فى القرن التاسع عشر ينتمين بأعداد كبيرة الى الطبقات العاملة والريفية • وشغلت معظمهن وظائف فى الخدمة العامة وحياكة الملابس ، أو صناعة المنسوجات • وفى انجلترا ١٨٤١ وحتى ١٩١١ ، عكفت معظم النسوة العاملات على أداء الأعمال المنزلية ، أو على خدمة أشخاص آخرين • وفى ١٩١١ ، بلغت نسبة المشتغلات فى الخدمة المنزلية (بما فى ذلك الغسالات) ٣٥٪ وفى صناعة النسيج ١٩٪ وفى تجارة الملابس ١٥٦٪ • وفى ميلانو طبقاً لما جاء بإحصاءات ترجع الى السنوات ١٨٨١ و ١٩٠١ و ١٩١١ ، تركز عمل النساء بالمثل على الاشتغال بالمنازل • وجاءت أعمال حياكة الملابس فى المرتبة الثانية ، وتركز العمل فى النسيج بدرجة أقل مما حدث فى انجلترا ، وبالمثل فى فرنسا ، مع استبعاد الاشتغال بالزراعة ، كانت الميادين الرئيسية لاشتغال المرأة هى العمل فى النسيج وحياكة الملابس والخدمة بالمنازل • وفى فرنسا ، شغلت ٦٩٪ من النساء العاملات - خارج الزراعة - هذه الميادين الثلاثة ١٨٩٦ فكانت نسبة المشتغلات خادمت بالمنازل ٢٨٪ ونسبة المشتغلات بالحياكة وصناعة الملابس ٢١٪ والمشتغلات بالنسيج ٢٠ • وحدث تحول فى النسب آنفة الذكر ١٨٩٦ • ولكن كان المجموع الكلى ٥٩٪ موزعاً كالتالى : المشتغلات بالمنازل ١٩٪ والحياكة ٢٦٪ والنسيج ١٤٪ •

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى معدلات التصنيع بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا ، إلا أن الدلائل تشير الى أن النساء فى الحالات الثلاث

لم تشتركن في أعمال المصانع (باستثناء مصانع النسيج) - بأعداد كبيرة - والأرجح هو أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت التطور الذي نجم عن ازدياد المدن وانتشار الصناعة قد خلقت فرص عمل في القليل من القطاعات التقليدية ، التي شغلت فيها النساء أعمالا شبيهة بأعمالهن في المنزل . وضمت التغيرات الاقتصادية التي أدت الى ارتفاع نسبة العمالة بين النساء ، ما حدث من تصنيع للمنسوجات ، والتطور الذي أدى الى الاكثار من انشاء المدن ، وما يصحبها من أوضاع جعلتها تعمل في أعمال الانتاج وتسويق السلع الاستهلاكية ، وكمواقع لتشغيل الخادمت بالمنازل . وتضمن التوسع في انتاج السلع الاستهلاكية تزايد الصناعات الكبيرة للملابس بالقطعة ، وانتقل الانتاج من ورش الحرفيين الى بيوت المشتغلين بحياكة الملابس « المفصلة » . وخلق هذا التغير في عملية الانتاج فرص عمالة لأعداد كبيرة من النساء . وأدى ما أعقب ذلك من تدهور لهذه الطريقة في انتاج السلع الجاهزة ، واحلال منتجات المصانع محلها ، بالإضافة الى تدهور صناعة المنسوجات وتقديم الصناعات الثقيلة ، أدى الى حدوث هبوط في اشتراك المرأة في القوة العاملة في البلدان الثلاثة التي أشرنا اليها .

ولم تكن الوظائف الميسورة للنساء محدودة في عددها ونوعها فحسب ، ولكنها كانت أيضا منعزلة ، بمعنى أنها كانت تقتصر في شغلها على النساء على وجه التقريب . وكانت النساء شاغلات هذه الوظائف عادة من صغيرات السن ، ومن غير المتزوجات ، ففي ميلانو ، كان ٧٥٪ تقريبا من النساء بين سن الخامسة عشرة والعشرين يعملن ١٨٨١ و ١٩٠١ . وانخفض عدد الاناث اللواتي تجاوزن سن العشرين المشتغلات في صناعة النسيج ، والملابس الجاهزة ، ويفترض أن هذا يرجع الى زواجهن عند بلوغ هذه السن ، وتوقفهن عن العمل . وكانت المهنة الانثوية الوحيدة التي بلغت نسبة لا بأس بها (٥٠٪ وأكثر) للعاملات اللاتي تجاوزن الثلاثين هي الخدمة بالمنازل . وكانت معظمهن من العازبات . وفي بريطانيا العظمى ، يلاحظ وجود أنماط نسبية مماثلة في البيئات الميسورة المتفرقة ، اذ كانت سن أغلب النساء العاملات في منازل القطن بلانكشير ١٨٣٣ (ما بين ١٦ و ٢١) . ولم يتجاوز عدد المتزوجات بينهن ٢٥٪ في مقاطعات لانكشير ١٨٤١ ، ويزعم هويت حدوث زيادة في النسبة اما بين المتزوجات أو الأرامل بين العاملات في منازل القطن ارتفعت أحيانا في تسعينات القرن التاسع عشر ، ثم انخفضت بعد ذلك . أما العاملات الأقل تخصصا في لندن في ثمانينات القرن التاسع عشر ، فقد بلغت سنهن أساسا بين ١٥ و ٢٥ سنة .

وعندما اشتملت أعداد الاحصاءات في آخر الأمر على بيانات عن الحالة الاجتماعية (الزواج) لوحظ بعض اختلافات كبيرة بين مختلف

البلدان • ففي ١٩١١ ، بينما بلغت نسبة العاملات بين النساء العازبات في بريطانيا ٦٩٪ ، لم يزد عدد العاملات من المتزوجات عن ٩٦٪ • أما في فرنسا ١٨٩٦ ، فكان بها ٥٢٪ من النساء العازبات يعملن ، و ٣٨٪ من المتزوجات • وعلى الرغم من اتصاف الأدلة المتوافرة لنا بأنها انطباعات متناثرة ، الا أنه يبدو أن قلائل من النساء قد ظلن يعملن بعد انتشار التصنيع وتقدمه (على الأقل في الفترة السابقة لسنة ١٩١٤) • وهكذا كان في بريطانيا البلد الأكثر تقدما في الصناعة ١٩١١ أدنى نسبة من النساء المتزوجات العاملات • أما فرنسا ، وفيها كانت الزراعة والصناعة خاضعة للتنظيم على نطاق أضيق من الحال في بريطانيا ، فكان فيها عدد أكبر من النساء العاملات في سوق العمالة •

فلماذا كانت النساء تعملن في القرن التاسع عشر ؟ ، ولماذا كانت الغلبة للصغيرات في السن والعازبات في العمالة الأنثوية ؟ للإجابة عن هذين السؤالين لابد أولا أن نفحص العلاقة بين هؤلاء النسوة وعائلاتهن الأصلية (العائلات التي كن تنتمين اليها لدى مولدهن) ، وليس عائلاتهن بحكم الزواج ، أو العائلات التي تكونت بعد انجابهن • وعلينا أن نتساءل (ليس فقط عن طبيعة نظرة الأزواج الى اشتغال زوجاتهم) وانما أيضا عما دفع الأسر الى الزج بفتياتها الى سوق العمالة كعاملات في حياكة الملابس أو خادمت بالمنازل •

لقد كان آباء وأمهات أمثال هؤلاء الفتيات أثناء فترة التصنيع غالبا من القرويين والقرويات ، وفي حالات أقل من العمال بالمدن • وعندما نفحص الأصول الجغرافية والاجتماعية لخدم المنازل اللاتي تمثلن أكبر نسبة في مجموع النساء العاملات ، سيبين الأصل القروي واضحا • اذ كان ثلثا جميع خادمت المنازل في انجلترا ١٨٥١ ، من بنات عمال يعملون في الريف • وليس لدينا أرقام عن مجموع المشتغلات في فرنسا ، وان كانت الدراسات المحلية توحى بتمائل الأنماط • فمثلا لقد اهتمدى شاتلين(*) في دراسة لميلون الى أنه ما بين ٥٤٪ من خادمت المنازل (١٨٧٢) كن اما نازحات من مناطق قروية أو أجنبيات • وقدرت إحدى الباحثات في بحث أجرتة عن فرساي في الحقبة الواقعة بين ١٨٢٥ و ١٨٥٣ ، عدد النساء الخادمت من بنات الفلاحين بـ ٧٧ و ٥٧٪ • وفي بوردو ، بينت دراسة مماثلة أن مجموعهن ٨٢ و ٥٢٪ • وفي ميلانو في نهاية القرن ، كان الأبعد احتمالا هو أن تكون الخادمت منحدرات من أبوين ترجع أصولهم الى المدينة • ولنحاول الآن تمثل التجربة التاريخية للنساء العاملات ابان المراحل المبكرة للتصنيع • فلما كانت الاكثرية من المنتميات أصلا الى الريف ، فاننا سنبدأ

يفحص اقتصاديات القرية أو اقتصاديات الأسرة التي دفعتها قيمها واحتياجاتها الاقتصادية الى الزج بيناتها الى سوق العمالة .

ولقد عرض المعقبون على أحوال العديد من مختلف المناطق في أوروبا أوصافاً مماثلة للتنظيم الاجتماعي للقرى . وانطأهر أن هناك اتفاقاً بين علماء الانثروبولوجيا والمؤرخين الاجتماعيين على الاعتقاد بأنه بغض النظر عن ناحية الانحدار من الريف « فان الفلاحين يمثلون وحدة اجتماعية سبقت الصناعة ، ونقلت الى المجتمع المعاصر خصائص ترجع الى تركيبة ثقافية واجتماعية واقتصادية أقدم وأبعد اختلافاً . ويعد أصل التنظيم هو الأسرة ، التي ساعد تضامتها على التزويد بالاطر الأساسي للتعاون المتبادل والتوجيه واعطاء الصبغة الاجتماعية » . ويتركز عمل الأسرة عادة في الحقل الذي تملكه الأسرة ، ويعتقد أنه يخص جماعة من الأشخاص أكثر من انتمائه لشخص بمفرده . « فهناك وحدة خفية تجمع بين الفرد والأسرة والحقل . والملكية الفلاحية هي بحكم الواقع ملكية أسرية ، يقوم فيها رأس الأسرة بدور المدير أكثر من تمثيله دور مالك أرض الأسرة » .

ونحن نصادف ترديدا لأوصاف فلاحية أوروبا الشرقية عند ميشيل أندرسون عندما قارن الحياة الفردية بلانكشير بالحياة الفردية في إيرلاندة في بواكير القرن التاسع عشر ، وأشار الى أنه في كلا الحالين كان « أساس التضامن الأسري الوظيفي هو تبادل الاعتماد المطلق بين أعضاء الأسرة ، بحيث لا يتصور الآباء أو الأبناء وجود بدائل للأسرة كمصدر للتزويد بعدد مهم من الاحتياجات الضرورية . وتؤيد الأدلة المستقاة من إيطاليا هذا النمط . وعلى الرغم من أن لومبارديا في أواخر القرن التاسع عشر كانت تمثل نوعاً من الأخوانية (*) (يعني الحالة التي يشترك فيها الاخوة داخل الأسرة في العيش والعمل في الأرض سوياً) التي كانت بمثابة بديل شائع لأصغر صورة من صور الأسرة ، إلا أن الأسرة المألوفة كانت هي الوحدة الأساسية للانتاج . ويساهم كل عضو من أعضاء الأسرة بما في مقدوره الاسهام به من عمل في الحقل . وفي حالة النساء والنسج ، بالعمل في مناطق مدنية قريبة أو في مصانع النسيج بالريف . وتحول أجورهم وأجورهن الى رأس البيت أو الأسرة . وفي حالة الاخوة الذين يعيشون في بيت واحد ، يعهد للأكبر سناً بدور الرأس المدبرة ، والعناية بالمسائل المالية وعلاقات التعاقد ، لصالح الكل . ووصف جويس (**) في دراسة حديثة للأوضاع في نورمانديا في القرن الثامن عشر التطور التدريجي للأسباب التي كانت تساق عند طلب الزواج ، عندما كانوا يلجأون الى اتمام اجراءاته في الكنيسة ، ففي نهاية

هذا القرن ، ازداد شيوع عبارات مثل « سعي وراء السعادة » أو الرغبة في العيش حياة هنيئة . ويرى جويس ان اختلاف الكلمات المستعملة ربما كان مسألة سطحية . أما ما عنته جميع هذه الأقوال - رغم أن قلائل قد بينوا ذلك صراحة - فهو أن الشخص يتزوج لكي يعيش . فالزوجان يمثلان جماعة عمل ، أي أصغر وحدات العمل . وفي بريطانيا في القرن التاسع عشر « كان جميع العاملين في الحقل يؤلفون جماعة عمل ، يرتبط كل منهم بالآخر برابط أشبه بالرباط الذي يجمع طاقم السفينة » .

وعلى الرغم من اختلاف أنظمة الميراث واختلاف مساحات الأرض الميسورة ، فإن نظرية الاقتصاد الفردي التي وضعها شايانوف لروسيا في القرن التاسع عشر مازالت صالحة للتطبيق في حالات أخرى . وأساس هذا النظام هو الأسرة الروسية ، أو إذا توخينا الدقة قلنا انه بيت الأسرة في روسيا ويعنى (جميع من يأكلون في طبق واحد) . ولهذا البيت الأسرى دور مزدوج بوصفه وحدة إنتاج واستهلاك . إذ تتركز دوافع أعضائه - بعكس الأهداف الرأسمالية - « على توفير احتياجات الأسرة أكثر من تركزها على تحقيق الربح » . وتصور المشكلة الأساسية للأسرة حول تنظيم عمل أبنائها لتدبير ميزانيتها السنوية وحول رغبة واحدة لادخار رأس المال، أو استغلاله ، إذا سمحت الظروف الاقتصادية بذلك .

ولأبناء الأسرة ، أو بيت الأسرة واجبات محدودة واضحة تستند أولا - على أعمار أبناء الأسرة وبناتها وموضعهم وموضعهم في الأسرة . ثانيا - على ذكورتهم أو أنوثتهم . إذ لا يقتصر الأمر على تخصيص مهام مختلفة لهم ولهن . فهناك اختلاف في مكان العمل الذي يخصص لكل جنس ، ففي أغلب الأحيان - وإن كان هذا ليس دوما على الإطلاق - يعمل الرجال في الحقول ، بينما تدير النساء البيت وتولين تربية الأنعام ورعايتها ، وتشرفن على الحديقة ، وتولين تسويق الفائض من الناتج اليومي والدواجن والخضروات . ولديهن عمل موسمي أيضا في مواسم الزراعة والحصاد . وعبر أحد عمال البناء في إحدى قرى فرنسا عن الشروط التي يرغب توافرها في زوجته في العبارات الآتية :

« نحن نعرف أن هناك بلدانا تتزوج فيها المرأة ، وتأمل أن يقتصر عملها على العمل بالبيت ، غير أن فرنسا لا تعرف أي شيء من هذا القبيل ، والأمر على عكس ذلك ، فزوجتي تتماثل هي وباقي الزوجات في الريف ، لأنها نشأت على العمل في الحقل من الصباح الباكر حتى المساء . ولم تتناقص مقطوعة عملها بعد زواجنا .. » .

وليس من شك أن زوجات البنائين من أمثال زوجة صاحبنا البناء الذي تحدثنا عنه ، كان لهن وضع خاص . فبعد أن رحل أزواجهن لفترات زمنية

طويلة لبناء المنازل في ليون وباريس ، فلقد اضطروا لأداء جميع المهام الزراعية اليومية ، لأن نظام تقسيم العمل في قريتهم كان يقضى بنهوض النساء بأغلب الواجبات الزراعية ، واشتغال الرجال بدور الحرفيين في المدن . وكان عمل النساء في الحقول بالغ الأهمية مما دفع أسرة أحد سكان القرية في مناسبة ما إلى محاولة تزويجه بفتاة كانت أمها أرملة ، واعتقدت الأسرة أن تحقيق هذه الفكرة سيكسب حقلها جهد عرق اثنين بدلا من واحدة .

على أنه رغم تفرد المثل الذي ذكرناه ، إلا أن القاعدة السائدة في الاقتصاديات القروية كانت تنص على اضطلاع النساء بالعمل في الحقل . ويبين من تقرير أعمال الفلاحة في النرويج(*) في منتصف القرن التاسع عشر عن الحاجة لجهود النساء كعاملات تتمتع بخبرة فائقة ، وغالبا ما كان الشباب يختار نساء يكبرونهم منا كزوجات . وكتب زونت : « يعتمد التقدم المادي للأسرة على الزوجة بقدر اعتماده على الزوج » . وعندما وصف فردريك لي بلاي(**) عادات الزواج عند القرويين السلافيين لاحظ : « إن الفلاح يراعى عند اختيار الزوجة صلاحيتها لزيادة عدد الأيدي العاملة في الأسرة » .

ولم يقتصر عمل المرأة على الحقل ، بل كن تقمن بمختلف الأعمال التي تعتمد على ما باستطاعتهن تأديته . وامتد نشاطهن في أغلب الأنحاء فشمّل مهمة توفير الغذاء أو القوات للبيت وتربية الماشية وصناعة الملابس . وبلاستطاعة العثور على أسانيد مؤيدة لذلك في جميع الدراسات المعتمدة على المشاهدات الخاصة ، والتي تحدثت عما يجري داخل الأسرة مثل كتاب لي بلاي ، الذي روى حكاية زوجة عامل في مزرعة للكروم « تركزت مهمتها الأصلية على رعاية البقرة التي تملكها الأسرة . فكانت تجمع الدريس وترعاها ، وتحمل لبنها إلى المدينة لبيعه . وهناك زوجة أخرى « كانت تعمل مع زوجها أثناء مواسم الحصاد ، وتغسل الملابس ، وتشارك في أعمال أخرى للفلاحين وملّاك الأراضي في المزارع المجاورة » . وكانت تنسج الكتان أيضا لأسرتها ، وتبيعه في السوق . واتجهت نساء أخريات إلى حياكة القفازات أو الملابس ، وركزت بعضهن على أعمال التمريض . وفي المناطق المحيطة بمدينة ليون الشهيرة بصناعة المنسوجات الحريرية ، تولت المرأة عملية تربية دودة القز ، وشاركت في غزل الحرير . وفي لومبارديا بإيطاليا شغلت المرأة بالمثل في عملية تغذية دودة القز في موسمها ، في نفس الوقت الذي كانت تؤدي فيه واجبها في البيت الأسري . وتعد الأعمال من هذا القبيل من الظواهر التقليدية لتعزيز دخل الأسرة .

Eilert Sundt

(★) تقرير

(★★) Les ouvriers européens — Le Play. (٦ أجزاء)

ويصر لى بلاى على ادراج جميع أنشطة أبناء الأسرة فى بحوثه الخاصة بمواردها المالية ، استنادا « الى اسهام جميع الأنشطة الصغيرة التى تنهض بها الأسرة فى استكمال دخل عمالتها الأساسية » . وكثيرا ما يلاحظ اضطرار النسوة « بمهام أشق من المهام التى تتهدد للرجال ، وحرصهن على تحقيق الرفاهية للأسرة » وغائبا ما يثبت وجود المرأة الفارق بين الاقتراب من الجوع فى حالة عدم وجودها ، وتوفير الحياة الكريمة نتيجة لمشاركتها . وقدم بنشبيك(*) تقريراً أعدته إحدى الأبرشيات عن المرأة القروية، وعن كيف كانت تعجز عن العثور على عمل أثناء الأزمات « مما أصابها بحالة من اليأس والشعور بالعجز لعدم قدرتها على الاسهام بجهد يساعد على تعزيز دخل الأسرة ، والاحساس بالمرارة ، لأنها لم تقدم لزوجها أية خدمات خلاف رعايتها لأسرته فحسب » .

والظاهر أن موقفا مماثلا قد ساد بين الأسرة غير المشتغلة بالزراعة ، وبعض الأسر المقيمة فى المدن . والواقع أن ما ذكره شايانوف عن الاقتصاد الريفى يبدو مناسباً للتعريف بالخصائص المميزة لتنظيمات الطبقة الاجتماعية فى البيئات السابقة للصناعة . وتحدث بيتر لاسلت(**) عن بيت الأسرة كمركز للانتاج ، عندما لم يكن محل العمل منفصلاً عن البيت ، وكان البيت هو المقر الدائم لجميع أفراد الأسرة . فمثلا فى بيت أحد النساجين ، كان الأطفال يتولون عمليات التمشيط والتنجيد ، بينما تقوم الفتيات الأكبر سناً والزوجات بعمليات الغزل ، ويتولى الأب عمليات النسيج . وفى بيوت العمال العاملين بالمدينة كثيراً ما يحدث تقسيم عمل مماثل . فمثلا عند عمال المغاسل فى باريس ، يتوقع قيام جميع أفراد الأسرة بالعمل ، وإن كانت النسوة تنفردن بمسئولية « تحضير الصابون » والكى . والواقع أن هذا النوع من المهام ، كان يؤدي على خير وجه سواء تولاه الرجال أو النساء . وكثيرا ما كان الوالدان يوصيان فى وصيتهما بأن تؤول محالهم وزبائنهم لبناتهم ، مثلما يوصون بتوريثها لأبنائهم . وتساعد زوجات الحرفيين أزواجهن أحيانا فى عمليات الحياكة وصنع الأحذية والخبازة ، وأحيانا كن يدرن المحلات ويتولين بيع السلع وإجراء الحسابات . وعملت زوجات العاملين المهرة فى أدوات القطع كوسيطات بين أزواجهن وأرباب عملهن . فلم يقتصر دورهن على التقاط الأدوات لأزواجهن عند عملهم بالبيت ، ونقلهن للمنتجات بعد انتهاء العمل فيها الى صاحب العمل ، بل كن تتولين عمليات مثل التفاوض فى أمور كشحن البضائع والأجور .

Pinchbeck,

(*)

The world we have lost.

فى ككتساب

Peter Laslett

(**)

وعندما يكلف الزوج بعمل خارج داره ، كانت النساء تضطلعن بأعمال خاصة بهن . وتماثلت زوجات العمال في المدينة هن ونظرائهن في الريف ، فكن يساهمن في اقتصاديات الأسرة ، كالعناية بزروع الخضروات وتربية المواشى - غلبا بعض الخنازير والدواجن - وتسويق الفائض . وأقامت بعض النسوة مشارب في دورهن ، كما لجأت أخريات لبيع الأغذية والمشروبات من اعدادهن خارج البيت . واتجهت زوجة أحد صانعي السكاكين في مدينة شيفيلد «الى تحضير شراب مخمر» يدعى بوب « كانت تعبئه في زجاجات وتبيعه خلال شهور الصيف لسكان المدينة » . هذه أمثلة من بواكير القرن التاسع عشر ، ولكن أليس كلارك اشارت الى وجود عمليات اشتغال بالبستنة وتجارة الثياب في انجلترا في القرن السابع عشر . وذكرت مثلا مناسبا آخر لامرأة فقيرة « كانت تبيع المواد الغذائية المعرضة للتلف أثناء انتقالها من بيت لآخر » . واستمرت هذه الممارسات في القرن التاسع عشر . وذكر لى بلاى تفاصيل عن امرأة ألمانية متزوجة من أحد عمال المناجم ، كانت تحمل المواد الغذائية على ظهرها وتزور المدينة مرتين أسبوعيا ، حيث تشتري الدقيق والبطاطس . الخ . ثم تحمل هذه الأصناف على ظهرها وتطوف بها في أنحاء كثيرة (١٠ كيلومترات) ، وتخصص جانبا من هذه الأغذية لبيتها، وتوزع جانبا آخر على أثرياء المدينة، ثم تبيع ما تبقى في السوق مقابل ربح بسيط . وإبان القرن الثامن عشر في باريس وبوردو وبين الطبقات الشعبية ، « كان الدور المهم للنساء في الاقتصاد المنزلى مقبولا ومعترفا به . وامتھنت نساء كثيرات بعض المهن والحرف لكسب دخل اضافى . وكن يعملن كخدمات وغسالات وحائكات ، ويدرن الحانات ، ولا بأس من العمل أحيانا كعتلات تحملن أحمالا ثقيلة جملة مرات في اليوم الواحد . ولم يكن لديهن أى مانع أيضا يحول دون اشتغالهن بالتسول والتهریب اذا دعت الحاجة لذلك » . وكان دور الأم في اقتصاديات الأسرة بالغ الأهمية . « فلربما أدت وفاتها أو اصابتها بالعجز الى اضطرار الأسرة الى اجتياز الحاجز الضيق - وان كان عظيم الأهمية - بين الفقر والاملاق . » وكانت الأعراف الشعبية التى تقدر قيمة عمل المرأة عظيمة الأثر خلال معظم القرن التاسع عشر .

وثبت دور المرأة وعدم امكان الاستغناء عنه من قدرة الأرامل في عدة مجتمعات على الاشراف وحدهن على ادارة أية مزرعة (مع الاستعانة بأفراد قلائل لقاء أجر) ، فى الوقت الذى شعر فيه الرجال الأرامل بأن هذه المهمة تكاد تكون مستحيلة ! . وقد ثبت ذلك على نحو أوضح أيضا فى فترات الشدة المالية . وتصر هانتون(*) على القول بأن النساء كن أول من يشعر

بالآثار المادية للحرمان ، ويرجع ذلك أولا الى كونهن يحرم من أنفسهن من الغذاء فى سبيل اطعام باقى أفراد الأسرة • وتحدث آخرون عن مواقف مماثلة • ويمثل التقرير الذى كتبه أندوسون عن لانكشير ما حدث أيضا فى ايطاليا وانجلترا وفرنسا : « فمن المشاهدات التى رواها الأطباء حالة تعرض الأبوين للتدهور الصحى بصفة عامة أكثر من أطفالهما • وكانت الأمهات - بوجه خاص - يصبى بشحوب اللون وفقدان الكثير من أوزانهن نتيجة للجوع » •

وساعد الدور الذى نهضت به النساء عادة فى اقتصاديات الأسرة على منحهن قدرا أكبر من القوة داخل الأسرة • وتكمل المصادر التاريخية المتناثرة أبحاث علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين • ويبين من جميع هذه المصادر أنه بينما اتخذ الرجال الصدارة فى الأشغال العامة ، كانت الغلبة للنساء فى المجالات المنزلية الداخلية ، بل وتشير هانتون الى تمتعهن بالسيادة الاجتماعية داخل الأسرة • وتعد اشارتها صدى لمشاهدات لى بلاى الرائدة • ففى دراسته المستفيضة للأسرة الريفية والحضرية للطبقات العاملة (ما بين أربعينات القرن التاسع عشر وسبعيناته) شعر بالانبهار لدور المرأة : « النساء يعاملن بكل تبحر واحترام • وكثيرا ما يتمتعن بنفوذ كبير فى المسائل الأسرية » (*) ولاحظ مدى جديتهن واجتهادهن فى العمل دون انقطاع أكثر من أزواجهن • ويستخلص من ذلك « مدى تأثير عملهن وجهودهن وذكائهن فى التأهيل لتحمل أعباء الأسرة .. » •

ويرجع سر نفوذ المرأة ، بعد قصرها بطبيعة الحال على ميدان الأسرة ، الى ادارتها لبيت الأسرة • وفى بعض المناطق ، كانت زوجات الحرفيين يمسكن دفاتر للحسابات ، مثلما تفعل زوجات أو بنات المزارعين ، واكتسبن الدراية بلغة الأرقام من المامهن بعملية امساك حسابات بيت الأسرة ، وباعتبار المرأة كانت مسئولة عادة عن عمليات البيع الخاصة بالبيت فى السوق ، فانها كانت تتولى عمليات التجارة أيضا • وعلى الرغم من اتصاف عمليات الحساب « النسوية » ببداوتها ، الا أنها كانت وسيلة للتعامل مع العالم الخارجى • وكثيرا أيضا ما كانت الزوجات العاملات تسيطر على محافظ الأزواج ، وتصدرن القرارات المالية ، بل وتقررن المقدار الذى يسمح به « كمصروف » للزوج للصرف منه على النبيذ والطباق ، ولا يعد وصف لى بلاى لما كانت تفعله زوجة إحدى التجارين الباريسيين خاصا بفرنسا وحدها :

« كانت تقبض مرتبه الشهرى بمجرد استلامه له . . وتتولى كل صباح اعطاء زوجها ما يلزم من مال لشراء ما سيتناوله من وجبات خارج المنزل .
وتوكل لها وحدها عمليات ادارة البيت وطريقة التصرف فى موارد الأسرة طبقا للعادة السائدة بين العمال الفرنسيين » .

والحق ، لقد كانت هذه الممارسة وثيقة الصلة بدور الزوجة . ويشهد بذلك أنه بعد حلول المصنع محل البيت كموقع لعمل الحرفيين دأب بعض أصحاب المصانع - أحيانا - على دفع أجور الأزواج «لزوجاتهم» .
« والظاهر أن الزوجات سواء كن فى اللورين أو بريتانى أو لانكشاير ، أو بين عمال المناجم فى شمال انجلترا أو الفلاحين أو عمال لندن كن يسيطرون على الموارد المالية للأسرة (*) ، ويتحكمن فى بعض جوانب من القرارات الأسرية» .
فالرجل يزهر ويتبخر ويترأس الموائد ويصدر الأوامر ، أما القرارات المهمة كشراء مزرعة أو بيع بقرة أو دفع دعوى على الجار واختيار زوج الابنة ، فمن الأمور التى يجب أن تتم عن طريق (الباترونة) ! . أو كما لاحظ أحد المزارعين المتقاعدين فى قرية فرنسية لأحد علماء الأنثروبولوجيا الزائرين « العصمة دائما فى يد الرجل . ليس من شك أن هذا هو ما يقوله القانون . أما ما يجرى فى الواقع فمسألة أخرى . ولكنك لن تجد لهذه الناحية أى ذكر فى القانون المدنى » (**) .

وعن المهم أن نؤكد هنا أننا نتحدث عن النسوة المتزوجات . فكل ما تمتعت به هؤلاء النسوة كان من نتائج اشتراكهن بحكم كونهن زوجات فى الجهد المتبادل والنور المميز الذى اضطلعتن به اعتمادا على جنسهن .
ولقد انحصر تأثيرهن على المجال المنزلى ، وإن كان هذا المجال قد اتسع الى حد كبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأسرة . وفى هذا الموقف ، يصح القول بأن النساء قد اشتركن بدور فعال بعملهن فى مؤسسة الأسرة .

ولقد شاركت الفتيات فى الحياة الاجتماعية منذ وقت مبكر فى أسر الطبقات الدنيا ، للنهوض بمسئوليات الأسرة والعمل . « فالفتيات تبدأن المشاركة بمساعدة أمهاتهن فى كل أعمالهن بمجرد سماح قوتهن البدنية بذلك » . وكثيرا ما كن يخرجن من بيوتهن للخدمة فى أعمال الفلاحة أو للخدمة بالبيوت . وهناك أخريات تتلمذن على بعض النساء وتعلمن منهن الغزل والحياكة . وفى المناطق الريفية بسويسرا ، حيث كانت تمارس هناك أيضا صناعات الاكواخ ، كانت الفتيات تنهضن بدور مساعد مرغوب

Chef d'exploitation

Code civil.

(*)

(**)

الى حد كبير . فكان بالمقدور اسناد عمليات الغزل والنسيج اليهن أثناء اشتغال أم بأسمان البيت . « وكن يسلمن مستحققاتهن - كمسأله مفروغ منها - للوحدة الاقتصادية للأسرة » . « اذ كان الحفاظ على ملكية الأسرة له الصدارة على السعادة الفردية » . وتعلم الفتاة منذ نعومة أظافرها شعارا يعرفها « أن عمل المرأة لا يمكن أن ينتهى أبدا » ، مهما كان العمل الذى ستتولى أدائه . ومن ثم كانت تبدى استعدادا للعمل بجهد ونشاط طيلة حياتها تقريبا ، ولا بد أن تكون نصائح الأبوين قد زددت هذه الكلمات الموجهة الى فتاة صغيرة وكتبت ١٧٤٣ : « عليك أن لا تتوقعى الزواج اذا كنت فى حالة لا تجددين فيها أنت ورجلك فرصة للعمل - فالأحمق وحده هو الذى يرضى عن اتخاذ زوجة تعيش عالة عليه ، ولا تساعد بعملها فى سبيل الأسرة » . ومن هذا يبين أن ما كان يتوقع هو اشتراك النساء بالعمل ، وتمثل الأسرة وحدة قائمة على العلاقة الاجتماعية والاقتصادية معا . هذه اذن هى قيم الحضارة التى اعتنقتها العائلات التى كانت تزج بيناتها للعمل فى بواكير مراحل التصنيع :

ان عمل المرأة يعزز اقتصاديات الأسرة . وبالمقدور تعديل أدوارهن - مثلما يحدث فى حالة الأزواج والأخوات والآباء - وضبطه لمواجهة الظروف العصيبة وتبدل الأحوال . وهنا بوسعنا أن نستفيد مما ذكره شايانوف عن الأسباب التى تؤدى الى دفع المرأة للعمل :

« عندما لا يكون فلاحنا فى حالة تساعد على تدبير أموره بنفسه ، ولا يكون قادرا على تولى عملية بيع جهده نظير مقابل يفى باحتياجاته ، والحصول على ما يعتقد أنه أوفى ما يستحق ، فانه يتخلى مؤقتا عن عمله الخاص ، ويتحول ببساطة الى أجير يعمل تحت امرة آخرين ، وبذلك يتفادى التعرض للبطالة » .

ان هذا يعنى أن العائلات التقليدية كانت تستعين بشتى أنواع الاستراتيجيات للنهوض بصالح الوحدة الأسرية . فاحيانا كانت الأسرة عن بكرة أبيها تعمل كأجيرة للعمل فى مزارع الغير . وفى أحيان أخرى ، كان الرجال يضطلعون وحدهم بهذه المهمة . وفى حالات ثالثة ، كان يعهد بذلك الى صبي أو أكثر من صبيان الأسرة . وغالبا ما تكلف الأمهات فى أوقات الشدة أو الأزمات الاقتصادية بأعمال اضافية فى الصناعات المنزلية . وهذا يفسر لماذا كانت مثل هذه الأعمال فى الأغلب موسمية ، أو بصفة فردية . أما عادة ارسال الأولاد ذكورا وإناثا للخدمة فى حقول أخرى ، أو للعمل فى مدن قريبة ، فانها وسيلة أخرى ظهرت فيما بعد ، أى وسيلة لمد نشاط الأسرة - بصفة مؤقتة - الى ما هو أبعد من مواردها المحدودة لزيادة دخلها ، وبذلك تحقق التأمين الاقتصادى الذى يساعدها على البقاء .

وتأثرت بلدان أوروبا (فى أواخر القرن الثامن عشر فى انجلترا وبعد ذلك فى فرنسا وإيطاليا) بما حدث من تغير كبير فى البنىة الاجتماعية ، مما أدى الى اتباع هذه الاستراتيجيات ، والى ابتكار سبل أخرى (لمواجهة الضغوط والفرص الجديدة) لتحقيق الأهداف التقليدية للاقتصاد الأسرى .

ففى غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، أدى ازدياد عدد السكان الى حدوث انكماش فى مساحة الأرض فى بعض المناطق . فضلا عن ذلك ، فقد ترتب على الزراعة على نطاق واسع ، وترشيدها ، تعريض المناطق المنتجة انتاجا عشوائيا لشدة الضغوط التنافسية . وأدت الأشكال والطرائق الجديدة للإنتاج الصناعى أيضا الى أحداث تحول فى موضع وطبيعة عمل الحرفى فى الريف والمدينة . وفى هذا الموقف ، تزايدت حاجة أبناء العائلات - وبصفة خاصة الصغار - الى العمل خارج البيت . وأدى تزايد الأشغال المنزلية المرتبطة بمصانع النسيج المحلية بالريف ، وازدياد عدد سكان المدن (وما صاحب ذلك من ازدياد فى الحاجة الى سلع استهلاكية وخدمات داخلية) الى خلق فرص عمل جديدة .

ففى لومبارديا على سبيل المثال ، وهى مقاطعة فى شمال إيطاليا عاصمتها ميلانو ، مارس الفلاحون منذ أمد بعيد العمالة الزراعية المكثفة على أراض مستأجرة ، وإبان القرن التاسع عشر ، تزايد عدد الفلاحين غير القادرين ، على إعالة أسرهم المتنامية على هذه الأرض المستأجرة ، ف لجأوا الى خيارات مماثلة للوسائل التى اعتادوا اتباعها . فتوجهت النسوة والفتيات اللواتى كن أقل انتاجية من الرجال للعمل بمصانع الحرير القريبة من الريف، وقصدت أخريات ميلانو للعمل كخدمات بالمنازل ، أو بمصانع الملابس الجاهزة ، فيما كان بالضرورة أعمالا انتاجية هامشية قليلة الأجر ، واستغلالية . اذ كان الهدف هو الحصول على أى قدر من المال لارساله للبيت .

وظهر نوع آخر من الاستراتيجية فى زيورخ بسويسرا . تحدث عنه رودولف براون . ففى الأصل كان المتبع عند الفلاحين المقيمين بالأرض هو اشتراك جميع أبناء الأسرة فى العمل لتحقيق هدف واحد يلتقى عنده الجميع ، أى كخدم أو جنود أو أشباه خدم فى بيوت أقاربهم الذين ورثوا الأرض ، ويضاف الكسب من حصيلة العمل الى دخل العائلة . والحفاظ على الملكية له الصدارة فوق تحقيق سعادة الأفراد . فلم تعد مسألة من يتزوج من ، وفى أى سن ، مسألة تخضع لقرار الفرد ، بقدر كونها من المسائل التى يجرى الاتفاق بشأنها داخل الأسرة . وتسببت الضغوط الديموجرافية والاقتصادية فى تجريد بعض العائلات مما تملك من أرض ، واضطر آخرون الى الاشتغال بأعمال اضافية الى جانب الاشتغال بالزراعة ، كالعمل مثلا فى الصناعات الريفية ، وبخاصة مصانع النسيج . وفى هذه المناطق ظهر

ما يدعى نظام «الراست» (*) ، ويعنى هذا المصطلح ، دفع الأولاد قدرا من المال لذويهم نظير السكن والاقامة • وفي الحالات التي لا يعملون فيها في البيوت ، ولكنهم يشتغلون بأعمال الغزل في أحد البيوت الأخرى ، كان الأولاد يدفعون « الراست » لربة البيت • ولقد نظر الى هذا المبلغ ، والى هذا الاجراء كمسألة مسلم بها • واستقر هذا النظام ، واتخذ صيغة ثابتة ، وتغير حجم الاسهام المحدد بتغير علاقات العمل بين أبناء الأسرة ، ويخبرنا براون بحدوث تصدع في التعاون الأسرى نتيجة لما حدث من تحولات من هذا القبيل • وليس من شك في أنه أصاب الرأي • ولكن النقطة المهمة في المثل الذي ضربته زيورخ ، وما أرادت اثباته ، هي ما يجرى عند حدوث تحولات في القيم والممارسات القديمة من مؤثرات تستوجب احداث تكيفات استراتيجية تتواءم والأوضاع الجديدة •

وبمقدورنا الاتيان بأمثلة مماثلة عن حالات الأسر غير المشتغلة بالزراعة أيضا • فلقد أدت الثورة الصناعية الأولى في انجلترا الى احداث تصدع في الوحدة المحلية للبيت ومقار العمل ، بعد نقل عمليات الغزل ، ثم النسيج بعد ذلك ، الى المصانع • غير أن دراسة سملسر (**) للتغير الاجتماعى في الثورة الصناعية قد بينت أنه في حالة المصانع الأولى للنسوجات، انتقلت الأسرة بكاملها كوحدة عمل الى المصانع • وسمح الرؤساء للنساجين العاملين باستئجار معاونيهم • واختار النساجون زوجاتهم وأولادهم وأقرب المقربين وأقارب صاحب العمل • وانضم العديد من الأولاد - وبخاصة الأصغر سنا - الى المصنع بعد الحاج من آبائهم • وبطبيعة الحال ، لم يستمر اتباع اقتصاديات البيت في المصانع في بواكير التصنيع ، بعد عشرينات القرن التاسع عشر ، بالنظر الى ما طرأ على العمل من زيادة التخصص والتنوع • غير أن عملية التوافق المبدئى والتكوين الاقتصادى المتغير ، قد أدت الى اتباع القيم القديمة بعد تكييفها لكى تتواءم هى والأوضاع الجديدة •

ومما يثبت ذلك على أفضل وجه في حالة النساء العاملات ، العازبات اللاتى مثالن السواد الأعظم من قوة العمالة والنساء المتزوجات العديداً أيضا • فقبل القرن التاسع عشر بأمدة طويل ، كانت الأسر الدنيا ترسل بناتها للعمل • واستمرت هذه الممارسة والقيم والأسس التى ارتكنت عليها ، كما يبين من وجود أعداد كبيرة من النساء العازبات العاملات ، وأيضا من متوسط أعمار القوة العاملة من الاناث ، ومن أنواع العمل التى كانت تسند لهؤلاء النسوة ومن سلوكهن الفردى •

Rastgeben

(*)

(**) Neil Smelser فى كتاب Social Change in Industrial Revolution

ويستدل من تكون القوة العاملة للاناث فى أوربا بصفة أساسية من صغار النساء العازبات - أو الفتيات بلغة معاصريهم - على استمرار بقاء القيم الأسرية . فكانت الابناث تتكبدن نفقات طائلة للاقامة فى بيوت الريف والمدن ، ولعل هذه المبالغ كانت تفوق ما ينفق على الأمهات . وكن تعتمدن على عمل الأسرة وإخواتهن . وعندما انتقل العمل الى خارج المنزل، ولم يعد استمراره مؤكدا ، اقتضى صالح الأسرة تشغيل بناتها خارج البيت . ونظر الى الخدمة بالبيوت ، أى الملاذ الرئيسى لمعظم القرويات كميدان تقليدى لممارستهن للعمل . وكثيرا ما بدت هذه الوسيلة آمن طريقة للهجرة ، لأن الفتاة تشعر بالاطمئنان الى وجود مكان يأويها ، يتوافر فيه الغذاء والجو الأسرى . غير أن هذا السبيل لم يخل من بعض المخاطر . اذ كانت بطالة الخدم واستقلالهم من الحقائق المعترف بها . ومع هذا ، ففى خلال القرن التاسع عشر ، وعلى الرغم من أن العديد من الفتيات اللاتى كن يتزايدين عددا ، سعيا وراء الخدمة فى المنازل ، ويرغمن على الابتعاد عن بيوتهن على نحو فاق ما كان يجرى تقليديا ، الا أن هذا التحرك نفسه لم يبد أمرا مستغربا ، لأن الخدمة بالمنازل كانت عملا مقبولا لما لها من مزايا كتييسير الاحتماء باحدى العائلات ، والانتماء لبيت من البيوت .

ولا يصح هذا الحكم عن الخدمة بالمنازل فحسب ، وانما أيضا عن صور أخرى من الأعمال الأنثوية . فلقد حاول أصحاب مصانع النسيج فى إيطاليا وفرنسا تهيئة جو « عائلى » للفتيات العاملات عندهم . وكانت هناك قواعد للسلوك تحدد أنشطتهن ، وعهد للراهببات بالاشراف على المنشآت التى تقمن فيها ، فكن بمثابة أولياء أمورهن ، بل وأحيانا اتجه بعض أصحاب المصانع الى ترتيب زيجات مناسبة للاناث العاملات عندهم . وحققت هذه الممارسات فى المصانع النفع لصاحب العمل أيضا ، لأنها ساعدته على رقابة ما عنده من عمالة ، وحدث من عمليات ترك العمل وتبديله . كما خلعت صالح عائلات الفتيات أكثر من عائلات العازبات ، لأن أجور الفتيات كانت تحول بطريقة مباشرة الى أولياء أمورهن . ولا نود التعرض هنا لما كانت تتبعه المصانع عندما كانت تحول عنابر نومها الى مؤسسات خيرية . غير أن علينا أن لا ننسى أهمية اقتدائها بالأسرة فى علاقات العمل والعلاقات الاجتماعية ، وما حققه هذا الاجراء من أثر لصالح الأسر لحد ما .

واتبعت ممارسات مماثلة فى صناعات «الابر» ، التى ازدهرت فى مراكز الحضر . فلقد ترتب على ارتقاء صناعة الملابس الجاهزة ، حدوث تحول مزدوج فى صناعة الملابس . فأولا - حل العمل بالقطعة فى البيت محل العمل بالورشة - ولم يتحقق الا فى وقت متأخر فى انجلترا (١٨٥٠) وفى فرنسا فى سبعينات القرن التاسع عشر الاعتماد على المدينة فى

الصناعة (وتأخر حدوث ذلك في إيطاليا بعض الوقت) بعد أن ساعد التقدم في صناعة الآلات الحديثة على إعادة تنظيم صناعة الملابس في المصانع . وفي الفترة التي اتسع فيها نطاق العمل بالقطعة ، اهدت النساء الى فرص كثيرة للعمل . وكانت النساء اللاتي يعشن في المدن فعلا ، يصحبن عملهن معهن الى البيت بحكم العادة . أما النازحات الوافدات فقد احتجن الى بيوت ، ومن هنا نشأت فكرة تحويل بيوت بعض النساء صاحبات الذكاء الوقاد ، وبالاكتفاء على رأس مال بسيط ، الى دور لايواء العاملات بالقطعة ممن يعملن معهن . وعلى الرغم مما أحاط هذا العمل في كثير من الأحيان من استغلال وأحوال معيشية بائسة ، الا أنهن استطعن خلق جو « بيتي » للفتيات يعنى بيتا تستطيعن العمل فيه على نحو مماثل لما كن يفعلن أو تفعله أمهاتهن في البيت .

وتعد الخدمة بالمنازل ، وصناعة الملابس ، والعمل بمصانع المنسوجات ، المجالات الثلاثة التي تركز عليها عمل النساء غالبا . وهذه المجالات جميعا من القطاعات التقليدية لعمل النساء . وبعبارة أخرى ، فان نوع العمل الذي كان الأبوان يرسلان بناتهما فيه للعمل لم يكن يستلزم ابتعادا جذريا عن الماضي ، فكثيرا ما كنا نصادف زوجة أمضت « بنوتتها » في بيت أحد الأشخاص الآخرين . وكانت الأعمال بالقطعة وعمليات الغزل والنسيج شائعة في البيوت التقليدية . وعندما حدث تغير في « موقع » العمل ، أدى هذا التغير في نهاية الأمر الى حدوث سلسلة كاملة من الاختلافات الأخرى . ولكن مبدئيا بوسعنا القول بأنه لابد أن تكون الأسرة قد شعرت بشيء من الارتياح عندما أرسلت ابنتها الى مدينة قصية ، واطمأنت الى أنها قد أرسلتها للعمل في مجال من المألوف اشتغال المرأة به .

وكما أرسل الآباء والأمهات بناتهم وهم مطمئنون الى مصيرهن ، والى ما ينتظرهن من توقعات تقليدية ، كذلك حاولت الفتيات اثبات صحة هذه التوقعات . وبلاستطاعة الاهتداء الى دلائل تثبت استمرار بقاء القيم الأسرية ، كما يبين من مواظبة الفتيات العاملات على ارسال بعض المال الى عائلاتهن . وبينما اتجهت المصانع في بعض حالات الى ارسال أجور الفتيات ، الى آبائهن ، رأينا حالات أخرى حرصت فيها الفتيات على ارسال معظم ما توافر لهن من نقود الى البيت . وفي انجلترا ، لم يحدث قبل تسعينات القرن التاسع عشر اتجاه الفتيات العازبات المقيمات بمنزلهن الى الاحتفاظ ببعض المال لانفسهن . ومنذ وقت أبكر في أوروبا ، كانت نظراؤهن يحولن أجورهن بأكملها عادة الى دخل الأسرة . وقامت ابنة أحد صانعي الأقفال في بلجيكا بخدمة أسرتها في البداية بالاشتغال بأعمال الحياكة ، واعتادت تسليم أسرتها كل ما تكسب ، مما أدى الى عدم توافر

أية مدخرات لديها عند زواجها • وكانت النازحات الايرلانديات يرسلن نقودهن حتى عندما يعملن في أماكن بعيدة مثل لندن في انجلترا أو بوسطن في أمريكا • وحتى في الحالات التي كانت الخادمت الفرنسيات والإيطاليات لا يتوقعن فيها الرجوع الى ديارهن للزواج ، والعيش في موطنهن ، فاننا رأيناهن تحرصن على مواصلة ارسال المال الى بيوتهن • وكانت الفتيات الخادمت اللاتي يعملن عند إحدى الأسر المرموقة(*) في ريف فرنسا في الحقبة ما بين ١٨١١ و ١٨٧٧ ، ترسلن نقودهن الى الوالدين • وجرت بعض ترتيبات تنظيمية ، فكان المسيو فلاحو يرسل أطعمة بدلا من المال ، أو يدفع الأيجار المستحق نيابة عن والد الفتاتين الخادمتين اللتين يعملان عنده ، أو يرسل اليه بعض الملابس والفحم • وفي بعض الأحيان ، كان الاخوة الذكور والاناث من صغار السن أو المتعطلين عن العمل ، يتلقون هذه العطايا التي كانت تخصص من استحقاقات الخدم • ويذكر لنا هوبشر(**) أن بعض المزارعين المستأجرين لأرضهم ، « كانت مساهمات بناتهم لا غنى عنها فبغيرها كانت ستتعذر فلاحه الحقول المؤجرة لهم » • ويردف قائلا : « بأن المعونة المقدمة من الفتيات لأولياء أمورهن بدت طبيعية تماما للطرفين » • فقد مثلت « تضامنا عائليا قويا كان يتطلب وجود ابن ناضج ومستقل اقتصاديا لكي يشترك في تقديم المعونة لأقربائه » • وكانت الفتيات العاملات في مصانع لومبارديا تسهمن بارسال مال لعائلاتهن • وفي حالة إقامتهن على مقربة ، كانت العائلات ترسل اليهن سلالا من المأكولات بصفة منتظمة • وطبقا لتقرير ورد في إحدى السير الذاتية ، فإن صاحب العمل كان يحرص على إيفاد رجل وعربة للمرور على قرى الفتيات العاملات - أسبوعيا - لجمع سلال المأكولات المقدمة من العائلات •

وفي لانكشاير في انجلترا ، كان هناك حرص على « الحفاظ على الاتصال » بين النازحات وعائلاتهن • فكانت النقود ترسل للأهل ، وكانت بنات الأسرة تستدعين الى المدينة للعيش وسط أبناء من عائلاتهن ممن سافروا ، وحدثت في أحيان أخرى عمليات « نزوح عكسي » • فمثلا أرسل أبناء البنات المتزوجات اللاتي يعملن في مدن النرويج كخادمت الى بيوتهن لكي يتولى جدودهم كفالتهم • وفي هذه الحالات ، يواصل الزوج الشاب وزوجته العمل منفصلين كخادم وخادمة للدخار تمهيدا لإنشاء بيت الزوجية • وحتى في الحالات التي نزلت فيها عائلات بأكملها الى الولايات المتحدة ، فانها وازبطت على اتباع هذه الممارسات • ولاحظت ويلاكاثر(***)

Fiahaut (★) أسرة

Hubscher

(★★)

My Antonia Willa Cather في كتاب (★★★)

قيام الفتيات النازحات ممن سبق لهن الاشتغال خادمت أو فى أعمال
معاونة للمزارعين ، بالمشاركة فى فك رهن المزارع الحصبية التى أنشأها
آباؤهن فى نبراسكا .

وكشفت القيم الحضارية التى دفعت صغار الفتيات للعمل فى سبيل
أسرهن عن أنواع مختلفة من السلوك الشخصى . فليس من الغريب ادراك
ما لاحظته المؤرخون وعلماء السكان من تزايد فى عدد معدلات المواليد غير
الشرعيين فى العديد من المدن الأوروبية فى الحقبة الواقعة بين ١٧٥٠ ،
و ١٨٥٠ . ومن المفارقات أن يحدث ذلك الى جانب استمرار بقاء التقاليد
العريقة فى أطر جديد . فربما كان دافع الفتيات لمغادرة بيوتهن والاقامة
فى المدينة هو اقامة صداقات مع الشباب ، سعيا وراء احتمال الزواج من
أحدهم ، وأملا فى تحقيق ارتباط أسرى . وليس من شك أن ما حدث من
اختلاف فى القيم ، انما يرجع الى احتمال أن لا تكون العادات الاجتماعية
التي تفرض فى البيت ، مناسبة للمدينة .

فعندما تبتعد الفتاة عن بيتها ، لن تقدر أسرتها على فرض رأيها
الا قليلا على من ستتزوج ومتى ؟ . ولم يكن باستطاعة الضغوط التى
حافظت على استمرار الابنة السويسرية فى ممارسة الغزل فى بيتها حتى
بلوغها الأربعين من عمرها أن تؤثر على الابنة بعد نزوحها الى المدينة .
والواقع أن النزوح نفسه يدل على أنها لم تعد ترغب استمرار الوضع الذى
كان سائدا فى بيتها . ولا يخفى أن الشعور بالوحدة والانعزال فى المدينة
كان من بين عوامل الضغط التى حثت على الزواج . والأمر بالمثل فيما
يتعلق برغبة أية فتاة فى الهروب من الخدمة المنزلية ، حتى تصبح سيدة
نفسها والمتحكمة فى بيتها أسوة بأمها . وساعدت أيضا تقاليد الخدمة
بالبوت ، التى كانت تطالب عادة الخدم بعدم الزواج على حدوث علاقات
غير مشروعة ، ودفعت الكثيرات من الخادمت الى التخلي عن أطفالهن . وهذه
حقيقة معروفة منذ أمد بعيد . وما حدث بعد ذلك من اختلاف فى القرن
التاسع عشر فى أوربا هو ارتفاع نسبة المشتغلات بالخدمة المنزلية على
نسبة المشتغلات بالمصانع . وهذا يعنى حدوث تزايد نسبى لم يسبق
له مثيل فى عدد المشتغلات فى هذا المضمار . وهذا عامل مساعد مهم
لإنجاب أطفال غير شرعيين .

غير أن هناك دافعا آخر للزواج هو الدافع الاقتصادى . فلقد قيل
ان الفتيات العاملات فى المصانع كن يتقاضين أجورا مجزية . ولكن ليست
جميع الفتيات من العاملات بالمصانع . ولا ننسى أنه قلما حصلت النساء
العاملات بصناعة الابر وغيرها من الصناعات الصغيرة على ما يكفى لكى
يقيم أودهن مع ملاحظة ، حدوث تقلبات مستمرة فى تجارة هذه المنتجات،

وما حدث من انخفاض في انتاجها وطلبها في انجلترا وفرنسا ، . وجرت العادة على دفع أجور للنساء المشتغلات في هذه الحرف تساوى نصف الأجر الذى يحصل عليها الرجال مقابل أعمال مماثلة ، تمشيا مع الافتراض الغالب باعتبار أجور النساء جزءا من أجر الأسرة ، (وان كان هذا الافتراض لم تؤيده الحقائق دوما) ففي البيت الريفى كانت مقومات الحياة تتطلب عدة اسهامات . وكان الاتجاه المنطقى لآى فتاة وحيدة ودفعتها الظروف الى الابتعاد عن أسرتها وتتقاضى أجرا لا يكفى لآعالتها ، أو يمكنها من ارسال بعض النقود للبيت هو الشروع فى البحث عن زوج باعتبار هذا الحل سيمكنهما سويا من مواجهة مطالب الحياة .

وقد تشاء الظروف الحسنة أن تخطب « الفتاة الصغيرة » ، ثم يجىء فى أعقاب ذلك ما كان سائدا من ممارسات شبت عليها معظم الفتيات فى المناطق الريفية ، فكن يضاجعن من يتوين الاقتران بهن من رجال . وعندما يحدث الحمل ، اما يختفى الرجال ، أو يواصلن العيش معهم ، وان كانوا لا يعقدون القران . وأحيانا يتم الزواج بعد انجاب الطفل الأول ، أو ربما أكثر من طفل . وفى بعض الأحيان ، كان القيد الذى فرضته الضرورة التقليدية بتقديم دوة عند عقد الزواج ، كان يعنى ان تعمل المرأة أثناء معاشرتها لعشيقها ، وأن يطرح الشوار جانبا . وحال الافتقار الى السند الأخلاقى للأسرة والمجتمع المحلى والكنيسة دون تحقيق ما هو مأمول من الزواج . ولعل الافتقار الى المال ، والضغط الاقتصادى القاسية ، بالإضافة الى اختلاف التوجهات والتوقعات - فى أغلب الظن - من قبل الرجال ، قد حال دون وفائهم بوعودهم . ويبين مما شهدت به النساء المهجورات لهنرى مايهو (*) أنه كثيرا ما حدث الآتى : أ - لم يتوافر مال لعقد زواج صحيح . ب - كانت أعمال الرجل تستوجب كثرة التنقل . ج - خلق الفقر حالة من احتمال الشعور بالتوتر . د - التقاليد المحيطة بالطرفين ، والتى كانت تدعوها الى التحقق من حسن سير وسلوك الطرف الآخر ، والذى ربما لا يكون متوافرا . وينتهى الأمر بمطاردة صغار الفتيات للذئاب الذين نالوا مأربهم ، ومن ثم سلكوا نحوهن مسلكا تقليديا ، ثم تتغير الظروف وتظهر نتائج غير متوقعة غالبا مالا تكون سارة .

وحتى بين المومسات ، وكثيرات منهن كن من المخدمات أو الخادومات العاطلات عن العمل أو العاملات بالقطعة . ويلاحظ فى حالتهم خلط عصب من التوجهات القديمة والحديثة . ففي المجتمع السابق للصناعة ، كانت نساء الطبقة الدنيا ، تبتكرن ما لا نهاية له من مصادر الاقتيات ، وتوفر المآكل للأسرة . وكان التسول مسألة مألوفة ، واعترف بالمغازلة ومعاشرة

بينات الهوى كوسائل للحصول على الخبز والدقيق في أوقات الشدة .
وفي القرن التاسع عشر ، في لندن ، ذكرت المومسات عند لقائهن بمايهو
أن شعورهن بالخزي كان مجرد وسيلة للحصول على ما يسد رمق أسرهن .
وأوضحت امرأة انجبت طفلا غير شرعى رأيها فقالت ان الحفاظ على بقائها
وحماية طفلها من الجوع « قد أرغمها على الالتجاء للتمومس » ووصفت
أخرى العشاء الفاخر الذى تناولته مقابل تبذلها ..

على أن جميع العاملات لا يتعرضن للهجر بعد انجاب أطفال غير
شرعيين . كما أن معظمهن لم يجنحن الى « التمومس » ، رغم ما يتصوره
أبناء الطبقة المتوسطة من تخيلات تدفعهم الى الانزعاج . فكثيرات منهن
انتهى أمرهن بالزواج ، وابتعنت أغلبهن عن القوة العاملة بعد الزواج .
ويعكس عدم وجود نساء متزوجات أكثر تقدما في السن الاصرار على اتباع
التقاليد الأسرية . وعندما تتزوج الفتيات ، فلا أحد كان يتوقع استمرارهن في
الاسهام بأجورهن في تمويل بيت ذويهم . اذ يعنى الزواج عملية انتقال من
أسرة لأخرى ، والاضطلاع بتمثيل دور جديد . على أن بعض الفتيات
الوحيديات ظلن يتمسكن بقيم أمهاتهن وممارساتهن بعد الزواج . فلقد
كان الدور التقليدى للمرأة المتزوجة ، ودورها الاقتصادى الحيوى في
اقتصاديات الأسرة وراء اشتغالها ، عندما كان ايراد عملها مطلوبا لتعزيز
ميزانية البيت . وعندما أصبح دخل زوجها وأبنائها كافيا لسد حاجات
الأسرة ، بادرت بترك القوة العاملة . وأحيانا لا تقدم أمهات الأبناء الصغار
على ترك القوة العاملة الا بعد تعطل الابن الأكبر عن العمل . ويحقق هذا
النمط ما هو منشود منه داخل نطاق ما يجرى في العائلة من تطورات ،
ولكن في حالات الحاجات الوقتية كالمرض أو موت رب الأسرة وعائلتها ،
فلم يكن من المستبعد رجوع المرأة للعمل . وحتى عندما لا تكون مصدرا
للتمويل ، فإن اسهامها في اقتصاديات الأسرة يعد أمرا جوهريا . وفي
تسعينات القرن التاسع عشر في لندن ، كانت زوجات الطبقة الدنيا
« تتحملن مسئوليات جسيمة ، سواء كن تتقاضين راتبا أم لا ، لأنهن كن
المتصرفات في ايراد الأسرة ، ولم يكن مسئولات عن شراء المأكولات فحسب ،
وانما كن تتولين دفع الايجار وشراء الملابس ودفع أقساط التأمين ، والاشراف
على مصاريف مدارس أبنائهن » .

وعلى الرغم من أن نقل العمل الى المصانع وأماكن خارج البيت قد
يسر للمرأة الوحيدة الاضطلاع بهذه المهام تيسيرا متزايدا ، الا أن بعض
المتزوجات واصلن البحث عن عمل . وساعد التصنيع على تحقيق التحول
في فرص شغل العمل تدريجيا . اذ استمرت الأعمال القديمة باقية الى
جانب الأعمال المستحدثة . واحتفظت النساء ممن تزوجن عمال صناعيين

يعيشون فى المدن بأساليبهن السلوكية التقليدية ، وقمن بتكييفها حتى تتواءم والظروف المستجدة . وكانت أغلب الأعمال التى يعهد بها للمتزوجات وقتية . ويصف أندرسون أنواعا شتى من وظائف الخدمات فى بريستون ١٨٥١ ، ويقول « ان كثيرات كن تعملن على معاونة أزواجهن . وهناك أخريات لجأن الى فتح محلات (بوفيهات) صغيرة للمأكولات والمشروبات . » ويردف قائلا : « ان أكثر من ثلث العاملات كن تشتغلن فى أعمال بعيدة عن المجال الصناعى ، وعملت كثيرات أخريات على نحو غير منتظم ، أو نصف الوقت . » وغالبا ما كان لا يجىء ذكر أسمائهن فى السجلات الرسمية باعتبارهن لا يشغلن أعمالا محددة . والحق أن الصيغة التى وضعها أندرسون لتمثيل ما كان يجرى فى لانكشاير وتعبيره عنها بالقول بأنه بالمقدور « وصف نمط تكوين الأسرة فى المدن بأنه كان متأثرا بالأنماط الريفية التى سبقته » . ان هذا القول الذى جاء على لسان أندرسون ينطبق على حالات كثيرة جاءت بعد ذلك . فنحن نلاحظ فى مدن وعواصم أوروبا وأمريكا وجود تشابه بين أنماط عمل المتزوجات والأنماط الأقدم فى الممارسات السابقة للصناعة . فعلى سبيل المثال - كانت النسوة النازحات الى مصانع النسيج فى نيو انجلند هن الجماعة الكبيرة الوحيدة من النساء العاملات المتزوجات اللواتى كن تعملن بانتظام باستثناء الزنجيات . ويشرح سمطس ما يعنيه فيقول ان ما كان يجتذبهن ليس العمل المألوف للغزل والنسيج ، لأن الأهم من ذلك هو إتاحة الفرصة لهن للاشتراك مع أولادهن فى العمل . « فالأم التى يعمل أبنائها بالمصنع أقدر على مراقبتهم اذا كانت تعمل قريبة منهم فى نفس المكان » . وكيفت النساء النازحات ما لديهن من مهارة مع الأوضاع الأمريكية ، اعتمادا على خبرتهن بطبيعة الحال . وهكذا اشتركت الأمهات الايطاليات هن وأبنائهن فى قطف الثمار والخضروات فى مزارع قريبة من بافالو ونيويورك ، ولعل هذه الأعمال ذكرتهن بما كن يفعلن عندما كن فى جنوب ايطاليا . أما الايطاليات المقيمات فى الطرف الشرقى من نيويورك فقد شغلن بحياكة السراويل أو صناعة الزهور من الورق بالاشتراك مع بناتهن فى البيت . وعندما كانت هؤلاء النسوة يتابعن عملهن بالمصانع ومحلات الحلوى ، كان الرجال يعكفون أحيانا على إدارة شئون المنزل ورعاية الأطفال . وتحولت النساء الايرلانديات المتزوجات ممن لا يملكن ما هو أكثر من الخبرة بالزراعة ، الى خادمت بالمنازل . ولكن كثيرات منهن شغلن بتنظيف الابنية فى نيويورك ليلا حتى يتفرغن لرعاية شئون أسرهن بالنهار .

وسواء عملت المتزوجات خارج بيوتهن أم لم تعملن فقد حرصن دوما على الموازنة بين عملهن واقتصاديات الأسرة . والواقع أن اشتغال النساء المتزوجات خارج بيوتهن يكاد يبدو أشبه برافد داخلى من قيم ما قبل

الصناعة في نطاق أسرة الطبقة العاملة • فبعد أن بدأ أزواجهن وأولادهن بأمد طويل اتباع بعض القيم النازعة نحو الفردية التي صاحبت التصنيع ، واصلت هؤلاء النسوة التحلي بقيم التضحية بالذات ، واستنفاد كل طاقتهن في سبيل أسرهن • هذه القيم التي خلبت لب « لي بلاي » ، والتي تميز بها الاقتصاد الفلاحي واقتصاديات البيت • وليس من شك أن هذا هو ما عنته شهادة امرأة نيويورك التي استشهد بها بيتر ستيرنر : « لو اقتضى الأمر شراء شيء ما مثل زوج من الأحذية لأحد الأطفال ، فليس هناك ما يحول دون حرمان نفسي وحرمان أولادي من بعض المأكولات ، والاكتفاء بكوب من الشاي وكسرة من الخبز ، وتوفير الغذاء لزوجي أثناء قيامه بعمله ولا أبوح له بذلك قط » • فما دامت المرأة قد كرسَت دورها - اقتصاديا - لخدمة أسرته ، فإنها تعتقد أنها أدت رسالتها على الوجه الصحيح الموائم للقيم الأسرية • وظل دور المرأة الاقتصادي في عائلات الطبقة العاملة يجمع بين وظيفة ربة البيت والمديرة المالية والحائكة ، التي قد تدفعها الظروف للعمل خارج البيت والكسب من حين لآخر •

وهناك مثل آخر عظيم الدلالة يمثل التضامن الجماعي أعظم تمثيل • فلقد ولدت فرنشيسكا • ف حوالي ١٨١٧ في منطقة ريفية من أعمال مورافيا ، وظلت مقيمة في موطنها الى أن بلغت الحادية عشرة من عمرها : وعاشت الطفولة المعهودة لاية طفلة من طبقتها ، وتعلمت من أمها تدبير البيت ، والمعاونة في الفلاحة ، وتعلمت في المدرسة القراءة والكتابة والحساب ، وأهم من ذلك الحياكة • واشتغلت في عدة بيوت مختلفة على التعاقب لزيادة دخلها ، وكانت تغير من طبيعة عملها سعيًا وراء هذه الغاية • واكتسبت من أحد البيوت خبرة في الحياكة ، ساعدتها على ادخار بعض المال ، الذي كانت تقطع منه جزءا ترسله الى موطنها الذي دأبت على زيارته من حين لآخر ، مرة كل سنة على الأقل لرؤية أهلها ، وتجديد جواز سفرها •

ولم تختلف تجربة فرنشيسكا عن تجارب صغار الفتيات من الأجيال التي سبقتها ، الى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها • بيد أنها عندما صممت على التوجه لفينا لتجربة حظها بدأت مرحلة جديدة من حياتها • وبعد أن تلقت أجمل التمنيات من والديها ، دفعت مصاريق السفر بالعربة من مدخراتها • وبعد ثلاثة أيام من وصولها اهتدت الى العمل كخادمة ، وعاشت عند أسرة بورجوازية ، وعملت عندها زهاء ستة شهور ، ثم تركت العمل عندما عثرت على عمل أفضل ، استمرت تشغله الى أن مات رب البيت (بعد ستة شهور من إقامتها) فتركت العمل وشغلت وظيفة خادمة في دار أخرى استمرت تعمل بها سنة كاملة •

وعندما بلغت العشرين من عمرها ، وبعد أن استهوتها القرص
الميسورة للعمالة في بلد كبير ، وبعد أن شعرت بأجهاذ العمل بالمنازل ،
قررت العمل صبية لأحد نساجى الصوف ، الذى أفلس بعد سنة أخرى .
وحالفها التوفيق فعثرت على عمل جديد ، وتخلت عنه عندما اكتشفت
عدم استقراره ، فاتجهت الى الاشتغال بحياكة القفازات لأحد المصانع
الصغيرة . وكانت صناعة القفازات - بالقطعة - صناعة رابحة . وكان على
فرنشيسكا أن تعمل « بالمنزل » الذى كان أشبه بمنبر للنوم ، فكانت
تشاركها الفراش عاملة أخرى من « المشبهوات » . وبعد أن شعرت
فرنشيسكا باستهجان لهذا الوضع ، حالفها التوفيق فالتقت بنجار شاب
من أصل ريفى ، فوافقت على مشاركته العيش . ولم تكن ممارسة المرأة
للنوم مع خطيبها من العادات غير المعروفة فى البيئة القروية لمورافيا طبقا
لما ذكره لى بلاى . وسرعان ما أنجبت فرنشيسكا طفلا كانت ترعاه أثناء
حياكتها للقفازات ، وادخرت فى هذه الأثناء مالا يساعدها على الزواج .
(اذ كانت السلطات الفيناوية حينذاك تطالب العمال بإثبات قدرتهم على
إعالة الأسرة قبل السماح لهم بالزواج . وكانت مهمة الادخار تقع على
كاهل عروس المستقبل !) .

وبعد ثلاث سنوات لالتقائها بالنجار تزوجا ، ودفعت فرنشيسكا
جميع تكاليف الزواج ، وزودت البيت « بالجهاز » المطلوب - من أغذية
وأثاث منزلى - وبوصفها ابنة لأحد المزارعين الريفين ، فانها أصبحت الآن
ربة بيت عامل من عمال المدينة . وعلى الرغم من استفاد معظم وقتها فى
رعاية أطفالها وإدارة شئون البيت ، فقد استطاعت الحصول على عمل يدر
عليها دخلا طيبا (١٨٥٣) . فقد تعاقدت على عمل يستمر ١٢٥ يوما
كاملا فى صناعة القفازات . وقدر لى بلاى مدة التعاقد بمائة وخمسة وعشرين
يوما ، الا أن فرنشيسكا كانت تشتغل فى حياكة القفازات بعض أجزاء
من اليوم طوال معظم أيام السنة .

وساعد الايراد المكتسب عن طريق العمل بالقطعة على تعزيز أجر
زوجها بمال اضافى . ولكن بعد انشاء المصانع ، وتناقص الاهتمام بالانتاج
بالقطعة الذى يجرى بالمنازل ، تفاقم الصعوبات التى واجهت أم الأطفال
الخمسة الصغار ، فاضطرت الى التخلي عن الواجبات المنزلية لكسب
عيشها من عملها الخارجى . وساعدت الأحوال الاقتصادية فى فيينا فى
خمسينات القرن التاسع عشر على تيسير نهوض فرنشيسكا بالدور المتوقع
من امرأة تنتمى الى الطبقة الشعبية .

ولم تصمد القيم التقليدية بلا قيد أو شرط فى وجه التطورات
الحديثة ، أو النازعة الى التحديث . فعندما أقدمت الأم على تكييف

مخططاتها للتعامل والمواقف الجديدة مرت بتجارب مختلفة غيرت العلاقات داخل الأسرة ، وغيرت من تصورهما لها . وكما استطاعت عملية التغيير استيعاب القيم والممارسات القديمة ، فانها استطاعت أيضا تغييرها .

واشتملت التحولات الأساسية على اتجاه لاحتلال القيم الفردية المنزعة محل القيم الأسرية ، وغرست هذه التحولات الاعتقاد بأن الفرد مالك لنفسه أو لنفسها أكثر من كونه أو كونها مجرد جزء من كل اجتماعي أو معنوي . فلقد أثبتت هذه التحولات تكيف أبناء الأسرة مع احتياجات أسرهم ، تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة(*) ، بحيث تحقق اسهاماتهم عائدا في المدى القصير جدا . ونمت هذه الاتجاهات في أشكال مختلفة تبعا لما واجهتها من ظروف . وبالرغم من كل هذا فقد بينت الدلائل وجود تماثل كامن فيما جرى وفي النتيجة النهائية . فلقد سمح أولا للبنين ثم للبنات فيما بعد بالاحتفاظ ببعض ما يحصلون عليه من مال . ومنح الأبوان هذا الحق في بعض حالات . وفي حالات أخرى ، حددت الأسرة نصيبا خاصا لها . وفي حالات ثالثة ، كانت الابنة هي التي تقرر الحصة التي يتوجب عليها دفعها من أجرها لدويها (وبمرور الزمان تناقصت هذه الحصة ، وتزايد عدم انتظام مقدارها ومواعيد ارسالها) . وأشار أندرسون الى ما حدث من انعكاس للأوضاع من تأثير ما يتقاضاه الأبناء من أجور عالية . وأدى التوتر الناجم من الاختلاف على من له الأولوية : الأبوان أم الأبناء ، الى حدوث مشاحنات . وغالبا ما كانت تنتهي هذه المواقف الى مبارحة الأبناء لبيوتهم باختيارهم ، وهم يشعرون بالاغتياب لما حصلوا عليه من حرية ، وبالقدرة على تقرير مصيرهم بلا كابح أو جامع .

وانتهى الأمر بأن أدى الابتعاد عن موطن الأسرة والهجرة الى اضعاف الروابط الأسرية ، كما أدت ضغوط الأجور المنخفضة والعيش المستمر في الحضر ، وارغام أعداد كبيرة من صغار الفتيات على الاستقلال في العيش ، الى شيوع الاتجاه نحو الحرص في الانفاق ، وتدعيم النزعات الانانية ، فاتجهت الفتيات الى ايثار أشغال معينة باعتبارها وسيلة تسمح لهن بالانطلاق الاجتماعي والمهني ، أكثر من كونها وسيلة مؤقتة لكسب بعض المال للأسرة . واستمرت الخدمة بالبيوت هي وسيلة العمل الأساسية للمرأة حتى في أغلب أنحاء أوروبا الى أن بدأ القرن العشرون . (والواقع أن عدد النساء المشتغلات بالأعمال المنزلية في منتصف القرن التاسع عشر قد زاد زيادة هائلة) . ومع هذا ولما كان الاشتغال بالمنازل قد مثل العمل الأنثوي التقليدي ، لذا ساعدت وظيفة الخادمة على إتاحة الفرصة للعاملات بها على الانطلاق الجغرافي والتنقل من عمل لآخر . فبمجرد قدوم الفتاة

الصغيرة للمدينة ، واجتيازها فترة التكيف مع حياة الحضر ، في كنف إحدى العائلات ، كان يوسعها البحث عن عمل أفضل وأكثر اثابة . وانتعشت أيضا توقعاتها بإمكان الزواج من شخص من المدينة يتقاضى أجرا أفضل .

ولا يخفى أن هذه التجارب الجديدة ، وما تعرضت له هؤلاء الفتيات من صعوبات واحباط قد خلق عند صغارهن نزوعا أكثر اندفاعا نحو الروح الفردية ، ومحاولة التكيف تبعا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وتزايد عيشهن وعملهن بصحبة رفقاء واتجهن لادخار بعض المال ، لانفاقه على شراء الملابس والمرفهات ، وتعلمن كيف يبحثن عن نعمهن ، وتقدير قيمة كل بنس تحصلن عليه واتخذت رغباتهن ومصلحتهن الصدارة فوق رغبات الأسرة ، ومصلحتها .

وأیضا تعدلت مخططات العمل الأسرى من تأثير تناقص وفيات الأطفال ، وتزايد فرص التعليم . وبدلا من قيام الوالدين ، بإرسال جميع أولادهم للعمل لصالح الأسرة ، اتجهوا الى الاستثمار فى سبيل تحقيق مستقبل أفضل لأولادهم ، وعدم إلحاقهم بالقوة العاملة ، وإرسالهم الى المدرسة . (ومن الواضح أن هذا المخطط قد اتبع فى حالة البنين فى وقت أبكر من اتباعه فى حالة البنات ، وسنتحدث عن التاريخ الدقيق لمتى بدأت هذه العملية فيما بعد) . وجمعت الأسرة فى أخلاقياتها بين اقرار مبدأ انطلاق الأجيال ، والاتجاه المستحدث الفردى المنزع .

وهكذا شاركت عدة مؤثرات فيما اعترى اقتصاديات الأسرة من تدهور . فكان بين هذه العوامل : ١ - موضع فرص العمل . ٢ - ارتفاع مستويات الحياة والأجور العالية . ٣ - مدى القرب من مراكز التغير الاقتصادى . ٤ - زيادة التعرض للقيم البورجوازية ، والتمسك بها باعتبارها تتيح فرص الانطلاق نحو الروح البورجوازية المتزايدة . ٥ - التنوع العرقى والعنصرى فى أنماط العمل والانظمة الأسرية . ٦ - اختلاف معدلات التنمية فى مختلف البقاع والبلدان . وساهمت جميع هذه العوامل فى تدهور الأسرة كوحدة منتجة ، وأدت الى حدوث تبدل فى القيم المصاحبة لها . وبالمقدور تحديد تاريخ حدوث ذلك على أنحاء شتى فى مختلف المواقع والطبقات والفئات العنصرية . فهى لم تظهر عند الفلاح الأوروبى والعامل الصناعى الأوروبى الا فى القرن التاسع عشر . ولم تصل الى بعض بقاع مثل جنوب ايطاليا وريف ايرلاندة وريف فرنسا الا فى القرن العشرين . غير أن فائدة اتخاذ نموذج الأسرة كوحدة لتحليل العلاقات الاجتماعية والقرارات الاقتصادية لم تختف .

يتطلب إعادة تحديد العلاقات الأسرية والتغيرات التي طرأت على تعريف عمل المرأة ، وما حدث من تبدل في مكانها ، قدرا كبيرا من الجهد . فلا يخفى حدوث جملة تغيرات . فلقد أدى ارتفاع مستوى المعيشة وازدياد أجور الرجال ، - مما يسر لهم اعالة أسرهم - الى انقاص ضرورة اشتغال المرأة المتزوجة بالعمل خارج البيت . (ولا ننسى أنه في بداية عهد التصنيع ، كان الثمن الذى دفع مقابل ذلك باهظا ، تمثل فى ازدياد نسبة الوفيات بين الأطفال والرضع) وحتى فى حالة النسوة العازبات ، فقد قللت التغيرات الاقتصادية من فرص العمل التقليدية ، بينما فتحت أبوابا جديدة للعمالة للنساء الأكثر تعلما . فبعد الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال ، قلت أهمية الخدمة بالمنازل كميدان عمل لصغار النساء ، وحل عدد أصغر من الحاديات المستديمت اللواتى حولن هذا العمل الى مهنة محترمة بدلا من السيل الدائم التدفق من صغار الفتيات اللاتى كن تمثلن العاملات فى خدمة المنازل . وترتب على ازدياد انتاج الملابس فى المصانع الحد من فرص العمل الميسورة للنساء فى ميلانو وغيرها من البلدان . ومن جهة أخرى ، زودت الزيادة التى طرأت على الوظائف الجديدة فى الخدمات الحكومية ، بعد اتساع نطاقها ، والخدمات المعاونة للمشروعات العامة ، والتجارة والخدمات الصحية والتعليم فرص عمل للنساء العازبات ، وبخاصة من حصلن على قدر ما من التعليم الأساسى .

وهناك شواهد توضح ما حدث بمرور الزمان من تبدل لدور النساء فى بيوتهن ، يعنى دورهن كزوجات أو بنات . ففي بريطانيا ، بدأت نساء عائلات الطبقة العاملة تفقدن السيطرة على النواحي المالية منذ وقت مبكر من القرن العشرين . غير أن هذه العملية لم تكتمل حتى نشبت الحرب العالمية الثانية . فلم تحصل الفتيات العاملات على ايراد يستطعن الانفاق منه على شؤونهن الخاصة الا فى نهاية القرن التاسع عشر . وبعد حوالى ١٩١٤ تزايد عدد الفتيات العازبات اللاتى كن تحتجنزن مبالغ متزايدة من أجورهن ، وخصص الأزواج جانبا من ايرادهم لمصروف خاص للزوجات . أما ما تبقى من ايراد الزوج فكان ينفقه وفقا لمشيئته . وتوحي المجادلات التى دارت فى تنظيمات الطبقة العاملة أيضا بما حدث من تغير فى تصور دور الأسرة ، فلقد طالبت اتحادات العمال بأجور أكبر للرجال ، حتى يتسنى لهم اعالة أسرهم وإبقاء زوجاتهم بالمنزل . ووصفت بعض الصحف الاشتراكية المجتمع المثالى بأنه المجتمع الذى يسمح « ببقاء الزوجات الاشتراكيات الصالحات » بالمنزل لرعاية صحة « الأطفال الاشتراكيين الصالحين » ، وتعليمهم .

وتعد التغيرات التى أثرت فى عمل المرأة ، ومكانتها فى الأسرة ، فى وقت متأخر من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الموضوعات التى

لم يكشف المؤرخون النقاب عنها بالفعل ، ومن غير المقدور فهم هذه التغيرات بمعزل عن السياق التاريخي الذي عرضناه . فلقد كانت أسر الفلاحين الأوربيين والطبقة العاملة الأوربية أول من تعرض للتغيرات البنيوية في القرن التاسع عشر . وكانت هذه التجارب بعيدة عن الاتصاف بالاطراد . فلقد اختلفت تبعاً للموقع الجغرافي والمؤثرات العرقية والزمان ، واشتملت على أنماط معقدة من الديناميات ومظاهر مختلفة لكيفية اتخاذ القرار عند الأسرة . على أن أول احتكاكات بالتغيرات البنيوية في جميع الحالات قد اشتملت على عمليات تكيف وهواءة مع مخططات تقليدية ، وكانت تخضع لقيم تمتد جنورها في اقتصاديات الأسرة . ولن يتسنى لنا فهم عمل السواد الأعظم من النساء في القرن التاسع عشر ، الا اذا أدركنا هذه الشروط . فعلى أن نفحص تجربتهن على ضوء قيمهن الأسرية ، وليس على ضوء قيمنا الفردية . فليس بالاستطاعة الربط بين قيمهن منطقياً وتاريخياً بالحقوق السياسية التي منحتهن حق التصويت . ولن يتحقق البدء في فهم الاضطراب الذي صاحب عمل المرأة ، ومكانتها الا اذا فحصت الافتراضات على ضوء المعطيات التاريخية . فلا بد من استبعاد تفسير المذهب التطوري الذي يزعم وجود تجربة وحيدة ومتماثلة تشترك فيها جميع النساء ، أي تجربة تسير فيها العوامل السياسية موازية للعوامل الاقتصادية ، على ضوء الدليل التاريخي .

المراجع

- M. Anderson, *Family Structure in Nineteenth Century Lancashire* (1971).
- J. A. Banks, *Victorian Values : Secularism and the Size of Families* (1981).
- M. Hewitt *Wives and Mothers in Victorian Industry* (1958).
- J. R. Lehning, *The Peasants of Marlies : Economic Development and Family Organization in Nineteenth-Century France* (1980).
- A. McLaren, *Sexuality and Social Order : The Debate over the Fertility of Women and Workers in France 1770-1790* (1983).
- J. Murray, *Strong Minded Women and Other Lost Voices from Nineteenth-Century England* (1982).
- I. Pinchbeck, *Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850*, (1959).
- F. K. Prochaska, *Women and Philanthropy in Nineteenth-Century England*, 1980).
- P. Robertson, *An Experience of Women : Pattern and Change in Nineteenth-Century Europe* 1982.
- N. Smelser, *Social Change in the Industrial Revolution : An application of Theory to the British Cotton Industry* (1959).
- B. G. Smith, *Ladies of the Leisure Class : The Bourgoises of Northern France in the Nineteenth Century*, 1981.
- G. D. Sussman, *Selling Mothers' Milk : The Wetnursing Business in France 1715-1914*, (1982).
- M. Vicinus(ed) *Suffer and Be Still : Women in the Victorian Age*, (1972).
- M. Vicinus (ed) *A Widening Sphere : Changing Roles of Victorian Women*, (1980).
- J. R. Walkowitz, *Prostitution and the Victorian Society. Women, Class, and the State* (1980).

الحمى ! الحمى !

أنطون • س • وول

ربما لا يوجد عامل من العوامل المؤثرة في الحياة اليومية في الماضي قد اختلف اختلافا بينا مع ما يجرى في عصرنا الحاضر ، يتمثل هو وعامل تفشي الأمراض المعدية الفتاكة التي لا يعرف سببها • وخلال القرن التاسع عشر ، اشتملت هذه الأمراض على الكوليرا (وكانت مرضا مستحدثا تماما على تجارب الأوربيين) وعلى التيفوس والتيفود والانفلونزا والديفتريا • وأضطرت الطبقات الفقيرة التي تقطن مدنا مكتظة بالسكان من تأثير هذه الأمراض الى دفع ضريبة أفدح من الضريبة التي دفعتها الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية ، وان كانت هاتان الطبقتان لم تأمنا الإصابة بهذه الأمراض ، وأبلغ شاهد على ذلك هو وفاة الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا متأثرا بإصابته بالتيفود •

ووقعت عدة تغيرات في النظرة العامة الى هذه الأمراض المميتة خلال القرن • فلقد أحدثت تجربة الإصابة بالكوليرا إبان ثلاثينات القرن ، التي قتلت أناسا من مختلف الطبقات الاجتماعية ، أثر إصابتهم بمرض لم يسبق معرفته بأوربا ، وان كان معروفا تماما في آسيا ، أحدثت صدمة للحكومة الانجليزية دفعتها الى اتخاذ اجراءات لمواجهة هذا الخطر ، وتركزت معظم اجراءات الحكومة على تحسين وسائل الصرف الصحي وتنقية مصادر المياه وترتب على ذلك حدوث تزايد مطرد وان كان حذرا - في مستويات الحكومات المحلية والمركزية في بريطانيا عن شئون الصحة العامة • ولم يكن مستطاعا أن تحقق هذه الجهود ما هو أكثر من التقليل المحدود بالنظر الى قصور المعرفة الطبية آنئذ ، ولم تعرف على نحو مرض الصيغة الجرثومية للمرض ، الا في الثلث الأخير من القرن ، وان استمر تردد السلطات والمسؤولين في الأوساط الطبية لسنوات عن الاعتراف بها ، والحكم عليها

(★) نقلا عن Endangered Lives : Public Health in Victorian Britain (١٩٨٢) Anthony S. Wohl. تأليف

بالمقارنة بالنظريات المنافسة لها • وحتى بعد أن عرفت وسائل منع هذه الأمراض مثل التحصين ضد مرض الجدري ، فقد ثارت معارضة أخلاقية وسياسية محلية تعترض على تفويض الحكومة لاتباع هذا السبيل من سبل العلاج • ومع هذا فقد نجحت السيطرة على معظم هذه الأمراض بقدر « معقول » في مشارف القرن العشرين ، برغم ما شاب هذه الناحية من بلبلة ومنافسات سياسية • ولقد شدنا على كلمة « معقول » ، وربما كان من الواجب ملاحظة ذلك ، لأنه في العقد الثامن من القرن العشرين ، اجتاحت موجة من الانفلونزا الوبائية أوروبا وأمريكا ، أصابت أو فتكت بملايين ممن تعرضوا لهذا المرض •

السرطان والنوبات القلبية وحوادث المرور ، جميع هذه الأحداث من مقومات مجتمعنا الحديث • وليس هناك ما يدعو إلى شعورنا بالقلق من حدوثها مادامت لم تصبنا بأي أذى • فالخوف والتهديد بالموت المفاجيء يكمن في كوامن وعينا • وكان القرن التاسع عشر يتمثل معنا في تخصيصه الجانب الأكبر من وقته وفكره للأحداث المباشرة الخاصة بالاستمتاع بالحياة ، أو الكفاح من أجلها أكثر من الجانب الذي يخصه للتفكير في احتمال الموت المبكر • إذ كان الناس على عهد الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) يحيطون الموت بمظاهر التقديس ، حتى يخفوا عن أنفسهم وطأة صدماته ، وحول الأثرياء الجنائزات إلى احتفالات مهيبة تتطلب نوعا خاصا من المراسم والاتيكييت ، بل والفنون الزخرفية • وحولها الفقراء إلى مناسبات تخضع لنفس البواعث السيكولوجية ، أي لكي يلتقوا بالأصدقاء والجيران ، وللاستعانة بنفس التقليد كبلسم يخفف من لوعتهم ، ويتيح الفرصة للشراب والغذاء والثرثرة وأداء الشعائر ، ومشاطرة الأحزان والعطف على المحزونين • وتساعده عملية التذكرة على تيسير فرص الحشوع والاحترام للموتى ، وللتخفيف من مشاعر لوعة فراق واحد من الأعداء ، التي يشعر بها من استمروا باقين على قيد الحياة • وكان احتمال التعرض لموت مفاجيء غالبا ما يكون موجعا - من جراء الإصابة بمرض أو آخر من الأمراض الوبائية العديدة حينذاك - من الحقائق التي لا منص من وقوعها في حياة أبناء القرن التاسع عشر •

وعندما نقول ذلك ، فأننا لا نقصد الإيحاء بهول صدمة الموت على الأحياء • فعندما كانت تحدث إصابة « بالحمى » ، كانت تترك آثارها على حي بأكمله • وكانت مشاهدة الوالدين وأهل البيت أو صغار الأولاد وهم يتداعون على مهل أو يموتون فجأة من المشاهد التي يتعذر تفادي الباقيين على قيد الحياة الأفلات من تأثيرها • ولم يكن بالمقدور مواساة أهل الفقيد إلا بقدر محدود ، كتذكيرهم بحتمية وقوع هذا الحدث عندما تتقدم السن •

وينزع المؤرخون الاجتماعيون والطبيون الى التركيز على الأرقام الصماء لنسبة الوفيات . بيد أن مثل هذه الاحصائيات لا تكشف لنا الا القليل عما اعتري من بقوا على قيد الحياة من هزال ، أو عن الشقاء المادى أو السيكولوجى الذى ترتب على المرض أو الموت . وفيما يتعلق بتأثير المرض على الفقراء ، يمكن القول بأنه قد يعنى الانحدار الى درجة الكفاف والالتحاق بمعسكر من يستحقون القوت . وقد يعنى المرض بالنسبة للمجتمع فى شموله تعطل الحياة العادية والاحساس بالتوتر واللهفة التى تذكرنا بحالة مجتمع فرض عليه الحصار .

وابان القرن الثامن عشر ، ظهرت طائفة من مستحدثات الاغذية وتوافرت محصولاتها ، مما أدى الى حدوث تحسن فى توريد الغذاء ، تمخض عنه انخفاض فى نسبة الوفيات وازدياد مدعم فى عدد السكان . غير أن ما حدث من نزوح سريع الى الحضر فى بداية مراحل الثورة الصناعية لم يترتب عليه أى تبدل فى نمط التقدم العام . وتغير هذا الحال بأكمله تغيرا حادا قبل ارتقاء فيكتوريا لعرش انجلترا . فلقد ذاعت أخبار العودة المزعجة لعهد الأوبئة ، وجرت احصاءات بشأنها استندت الى أرقام منتزعة من بيانات الاحصاءات السنوية ، التى نشرها مكتب القيودات العامة الحديث الانشاء والأبحاث التى أجرتها الجمعية الاحصائية بلندن . وساهم ما نجم عن ذلك من ازدياد الدراية بارتفاع نسبة الوفيات بقدر كبير فى النهوض بالمدين فى عهد الملك جورج الخامس فيما بعد ، وصحب ذلك ارتفاع نسبى فى كثافة السكان المقيمين وسط المدينة الذين شعروا على حين غرة بانتشار الأوبئة ، مما شجع الطبقات الاثرى على ترك وسط المدينة والاقامة فى الضواحي . وساعدت عودة انتشار الأمراض المعدية والوبائية بمعدل عال - وبخاصة الكوليرا ، وهى مرض جديد على الحياة الانجليزية ، ولعلها أول وباء ينتشر فى البلاد منذ انتشار الطاعون فى القرن السابع عشر - على تذكير الانجليز فى عهد فيكتوريا بأنهم رغم ما أحرزوا من تقدم ، الا أنهم ليسوا محصنين ضد اقتصاصات الماضى .

ان هذه الأمراض الوبائية الرئيسية ، رغم انتقالها على أنحاء مختلفة (أى عن طريق المياه الملوثة والاطعمة والملابس وأدوات الطهو وقمل الملابس والذباب أو رذاذ الفم) واحتياجها الى سبل مختلفة للعلاج ووسائل الوقاية ، تتأثر جميعا بالنظام الغذائى والنظافة الشخصية والعزل الصحى ، وترتيبات أسلوب العيش بالمنزل . وتتطلب هذه الأمراض شيئا أكثر من الفن العلاجى للطبيب ، والأبحاث التى يجرىها المعمليون . انها تتطلب من الدولة التفتيش والتحكم فى المغالاة فى الكثافة السكانية العشوائية واهمال الريف . قصارى القول ، لقد دفعت هذه الأمراض الدولة للتصدي لمسائل الصبغة العامة والاضطلاح بدور حارس البيئة .

ومن بين الأمراض القاتلة في العصر ، انفردت الكوليرا بنسبتها العالية كما أثبتت البيانات الاحصائية . فلقد اتبعت الكوليرا في تقدمها خطا صارما بدأ من آسيا عبر أوروبا ، وغزا انجلترا لأول مرة (١٨٣١ - ١٨٣٢) ، ثم عاودت الكرة (١٨٤٨ - ١٨٤٩) ثم خفت حدتها (١٨٥٣ - ١٨٥٤) و (١٨٦٦ - ١٨٦٧) وتتساوى في الأهمية مع عدد الوفيات النسبة العالية للمضحايا من مخالطي المرض (من ٤٠٪ الى ٦٠٪) ، وسرعتها في إصابة الأفراد . ومن غير المستبعد أن يموت الضحية بعد ساعات قليلة من ظهور أول أعراض المرض . ولكن الأعم من ذلك هو موته بعد عدة أيام من معاناة أوجاع المعدة والقىء والاسهال وخمول الجسم . وتنخفض درجة حرارة الجسم خلال هذه الأيام ، ويهبط النبض هبوطا شديدا ، ويتيبس الجلد . وخلال المراحل الأخيرة ، قد يعتقد أن المصاب قارق الحياة ، ورويت حكايات بشعة عن عمليات دفن متسعة قبل الأوان ، وعن محاولة الضحية (الغلبان) الإفلات من المصير الزائف ، وتمزيق الكفن ! وازدادت المخاوف بعد أن حدثت حالات وفاة فجائية لأشخاص أصحاء ظاهريا . وكتبت إحدى المجلات (*) ١٨٣٢ مقالا عبر عما لوحظ من انزعاج :

« عندما نرى نفرا من أقراننا من المخلوقات ينعمون بصحة جيدة . ويتمتعون بكامل العافية وهم في مستقبل العمر ، تنتابهم بغتة أعراض تقلصات شديدة ، ثم يلقى بهم في القبر بعد ساعات قليلة . ألا تؤدي مثل هذه الحالات الى إثارة أشد الأعصاب صلابة ، والى إثارة هلع أقوى القلوب ؟ »

وهكذا اكتسبت الكوليرا اسم « مرض الصدمة » .

وزاد من حدة الازعاج العام التقارير الواردة من أوروبا عن تعرض المسئولين أو الأطباء للمرض والمبالغة في ذكر الأخبار ، كما فعلت جريدة « لانسييت » عندما قالت « لم يتمكن أى شخص مهما علا مقامه من الإفلات من أوصابها . فقد أبيئت عائلات كاملة ، وتحولت الأمم المتحضرة الى قطعان من الهيج ، وتلاشت كل درجات التنظيم الاجتماعى وروابطه » . وليس من شك أن جريدة التايمز اللندنية كانت تبالغ ١٨٣١ عندما اختارت عبارات مثل « الذعر الأكبر » . ولكن في السنة التالية ، وقعت ثلاثون حادثة من حوادث الشغب رافقت ظهور الكوليرا في لندن وليفربول ومانشستر واكستر وادنبرة وبرمنجهام وبريستول وشيفيلد وجلاسجو وجرينتشر وبازلى . وعلى عكس ذلك لم يحل تفشى الكوليرا في مدينة هل وسلبى وليدز في ربيع ١٨٣٢ دون حضور أهل البلاد القريبة من يورك مواكب القديس الذى يقام في ذكرى وثيقة الإصلاح ١٨٣٢ ، كما

لم تساعد الكوليرا على تخفيف زخم التضاحم على مشاهدة السباق الأسبوعي للخييل . وقد أثارت معظم أحداث الشغب المخاوف التي شاعت عن انتهاز طلبة الطب والأطباء فرصة تفشى الكوليرا للحصول على جثث الضحايا والاستعانة بها فى دروس التشريح . وأشيع أنهم يقتلون ضحايا الكوليرا . وحدثت حالة من الخوف المرضى من الكوليرا (*)، امتدت بضعة أميال من مركز انتشار الوباء . فعندما ظهرت الكوليرا لأول مرة فى سوندرلاند فى الشمال، ثار الذعر على الفور فى مدينة كيرنرفورن وجلوستر ونورويش وبليموث . وصحبت هذه الحالات دوما مخاوف الانتشال السريع (**) للمشتبه فى موتهم والدفن المتعجل للضحية قبل التأكد من الوفاة ، أو الدفن فى أرض مدنسة . ولا شك أن حالة الصحة تتطلب الانتظار مدة معقولة بين الوفاة والدفن . وجاء اصرار الجهات المسئولة على سرعة دفن ضحايا الكوليرا متعارضا هو وعادة تكريم الموتى . فلقد حالت الأعداد الكبيرة للموتى دون احاطة عمليات الدفن بمراسم التكريم التى تتطلبها الأعراف . فكان رجال الدين يتلون شعائريهم فى عجلة مع الابتعاد بالقدر الكافى الذى يوفر الأمان ، خارج حوش المدفن ، ولم تعر الجنازات أى اهتمام . وكما علق شارلوت يونج على ذلك بقولها : « الأحياء أولى بالرعاية من الموتى » . وشعر الايرلانديون بوجه خاص بالغضب من سرعة اجراءات الدفن ، وانجازها على وجه لا يناسب المقام . وفى بعض الأحيان ، حاولوا التصدى للسلطات عندما كانت تحضر لدفن الجثة ، ورفضت الشرطة المسئولة عن دساكر لندن الشهيرة الاقتراب من جثة أحد ضحايا الكوليرا ، وكان أقارب الضحية يحاولون حمايتها من الدفن المتعجل . وطلبت السلطات المحلية من بعض « الكونسبتلات » الخاصين اقتحام المكان واخراج الجثة ، ولكن قواص الكنيسة أبلغهم بعدم سماح الأبرشية دخول أى كونسبتابل مهما كانت الأسباب ، ولن تقدم لهم أية مساعدة من الدار . وانتهى الأمر بتطوع بعض السقاين بحمل الجثة نظير خمسة بنسات لكل منهم . وهذا أجر سخى (لأنه يتساوى مع ما يتقاضونه لدى اشتغالهم يومين أو ثلاثة أيام) ويمثل ما سموه « بدل الهلع » (***) .

ودلت جميع الشواهد كحالة الخيل التى اجتاحت الحى بأكمله والرائحة النفاذة للبقار المحترق وما يتصاعد منه من دخان كثيف ، ودمدمة نحيب أقارب الضحية عند خروج النعش مدى أثر الكوليرا . وبدأت بعض المدن بعد هروب عدة آلاف من سكانها بمجرد لمحهم أول بوادر الكوليرا

Choleraphobia

(*)

Burking

(**)

Wages of Fear.

(***)

أشبه بمدينة أشباح : ولاحظ الدكتور أليزون « أنه قلما رثى أحد يسير في الطريق ، ولم يسمع أى صوت خلاف صوت العربية التي يركبها الأطباء ، والغمز الدائر على الألسن » . وفي مدينة بلستون قرب ولفر هانتون كتب أحد الشماسين بالكنيسة : « لقد توقفت تماما جميع أنشطة السكان ، ولم يعد هناك أى أحد يتمتع بالسلطة غير العوز والمرضى والموت والفقر الشائع في كل مكان » . أما في ولفر هانتون نفسها ، فقد جاء وصف الطبيب المحلي لها على الوجه الآتي :

« في جميع الأركان ، لا يوجد غير أحد المرضى وأحد المحتضرين وأحد الموتى . . . وساد الصمت المدينة ، الذي لا تقطعه غير أصوات دق جرس الخباز . ياله من صمت رهيب . وكانت الشوارع مهجورة ، لا يلمح فيها سوى خطوات الأطباء ، ومعاونيهم وهم يسرعون الخطى ، أو بعض من يجرون بحثا عن يقدم لهم العون . ولا يسمع أى صوت غير أصواتهم وصوت أجش لحصان عربية الطبيب الأوحده وهو يهرع لاداء واجبه . ولعل هذه العربية كانت العربية الوحيدة التي تشاهد في الطرقات بعد أن كانت تعج عادة من شدة الزحام » .

ومما يثير الدهشة ، أن لا يوجد سوى قدر قليل من الذعر . وعلينا أن لا ننسى أن أول وبائين للكوليرا قد حدثا في فترة من فترات القلق السياسي والاجتماعي . وكشفنا عن مقدار ما كان ينعم به المجتمع الانجليزي من استقرار .

ويزداد وضوح هذه الحقيقة على ضوء العجز الكامل عن السيطرة على هذا الوباء الوبيل ، ناهيك بالقدرة على منعه أو علاجه . اذ يستفحل شر مرض الكوليرا من جراء ابتلاع بعض المياه ، أو تناول طعام ملوث من تأثير نوع البكتريا المسببة لها ، وربما استطاع الفيبريو (*) الاستمرار في البقاء خمسة أيام في اللحم واللبن أو الجبن ، وبدرجة أقل في الخضروات ، وحتى ستة عشر يوما في التفاح . وبمقدوره العيش في الماء زهاء خمسة عشر يوما . وينتشر بدرجة أشد في المياه الملوثة بافرازات ضحايا الكوليرا ، أو عن طريق الذباب الذي يفتس أو يتغذى ببراز المريض .

وانقسم رأى الأطباء مما دفع الى اليأس من امكان تحليل أسباب الكوليرا . وبين مما نشر في أكثر من سبعمئة بحث في الحقبة الواقعة بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ عن الكوليرا في لندن أن هذا المرض لم يكن « مرض الصدمة » فحسب ، ولكن أسبابه ومنعه كانا من الموضوعات التي تحتمل

تفسيرات شتى • ولاقت النظرية التي تعتقد أن الكوليرا من الأمراض المعدية الكثير من المعارضة • أولا - لأنها ستجر في ذيلها انشاء مناطق للعزل الصحي (كراتينة) • ويؤدي هذا الاجراء الى تعطيل التجارة ، وقيل ان أقصى ما يمكن أن يتحقق من وراء الحجر الصحي هو زيادة الفقر والبطالة لجماهير الشعب ، وبذلك تزداد خطورة انتشار الكوليرا • وعلى أية حال ، لم يكن من الميسور انشاء جهاز اداري يحظى بالقبول لهذا الحجر الصحي داخل البلاد • وأثارت الاستعانة بالجيش شبح الاجراءات القمعية والأحكام العرفية • كما أن أجهزة الأمن التابعة لوزارة الداخلية لم تكن جاهزة للنهوض بمثل هذه المهام • وعندما قررت السلطة في ستراتفورد على نهر الافون فرض حصار حول المدينة ، كان عليها الاعتماد على زمرة طاعة في السن ، وعلى الحثالة • ورئي أن هذا الاجراء لا يليق بمدينة خالدة انجبت أحد مفاخر انجلترا : شكسبير • أما الأهم فهو اصابة الكوليرا لبعض أفراد من العائلة وعدم اصابتها لبعض آخر ، ومن ثم انهارت نظرية القائلين بانتقالها عن طريق العدوى • ورأت النظرية البديلة ارجاع انتشار الكوليرا الى « ميازومات » أو مخلفات العفن في البراز ، كما اعتقد شادويك • وبدأ هذا الرأي وكأنه قد وضع اصبعه على السبب الحقيقي ، لأنه وجه الانتباه الى خطورة القاذورات ومخلفات الغائط المترتبة - بوجه خاص - عن عدم كفاية الصرف الصحي وتراكم القمامة •

على أن ازاحة الافرازات ازاحة كاملة كانت من المقترحات التي يحتاج تنفيذها الى وقت طويل ، بينما يتطلب القضاء على الوباء عملا فوريا • وذكرت عدة وسائل للعلاج ، أوحى معظمها باقتراب الفيكتوريين في تصورهم لمحاربة الأمراض الوبائية من القرون الوسطى ، أكثر من قربهم من عصرنا • وذكرت مجلة لانسييت في مقال مفعم بروح التفاؤل (١٨٣١) خبرا عن نجاح بعض يهود شرق أوروبا في النجاة من الكوليرا بفضل دهن أجسامهم بمحلول مؤلف من النبيذ والخل ومسحوق الكافور والمسطرده والفلفل والثوم ومسحوق آخر للأجسام المجففة للخنافس التي تعرف هناك باسم الذبابة الاسبانية ! • ومر موردو الأدوية المرخصة بأيام عصيبة • إذ كان بين الوصفات أشياء عجيبة (*) • • • • • وفضل كثيرون الدواء الأكثر اغراء وتوافرا في الأسواق ، وكان عبارة عن عشرين نقطة من اللودنم (صبغة الأفيون) في زجاجة من البراندي !

(*) ذكرت قائمة كبيرة لعلها معروفة للمشتغلين بالصيدلة أو العطارة وعلى رأسها اكسير Moxon Effervescent Maagnesium, Daffey وخلطة من الخضروات الصحية الحقة •

أما العلاج الأبلغ أثرا ، رغم صعوبة الاعتراف بذلك ، وإن كان له أثر معترف به في طمأنة النفوس ، فهو إقامة الصلوات وصيام بعض أيام . وذكر هذا الاقتراح بعض أصحاب المناصب الدينية الوقورة . وأعلن في صوت هادر من فوق آلاف من المنابر أن الكوليرا عقاب أنزله الله بالناس لانحلالهم الخلقى والروحاني، ولا فراطهم في الشراب، وعدم احترامهم لقدسية أيام السبت ، بالإضافة الى عدة ذنوب أخرى من ضمنها إعطاء حق الانتخاب لليهود ، والزواج من شقيقات المصابات بالوباء . واتجه الانجليكانيون بوجه خاص الى مطالبة الفقراء بالوثوق بالصلوات ، كما قدمت طائفة دينية أخرى كانت تطالب بالاستقلال الذاتى للكنائس علاجا أخلاقيا للوقاية من الكوليرا ويتلخص في التعفف والنظافة والاجتهاد والجلد وتلاوة الكتاب المقدس . أما طائفة الوحدويين فجنحت الى نزعة أكثر عقلانية وأرجعت « الخطيئة الى الحالة العامة للطبقة الدنيا » ، التى تشجع على انتشار المرض . « وربما ساعدت الصلوات على شفاء الروح الجريحة ، ولكنها لن تداوى الجسد الممزق ، وإذا أفلحت في تنقية القلوب ، فانها لن تطهر الجو . . » .

واتبع نفس الاتجاه الى حد كبير اللورد بامرستون . فعندما طلبت منه بعض الطوائف الكنسية أثناء زيارته ١٨٥٣ اعلان يوم وطنى للصوم أجاب وزير الداخلية : « ان خالق الكون قد وضع قوانين معينة لطبيعة الأرض التى نحيا فوقها . ويعتمد ما يصيب البشر من كرب أو فلاح على مراعاة هذه القوانين أو تجاهلها » . وأشار بامرستون الى أن الأجدى هو « الشروع فى تطهير أحياء الطبقة العاملة فى جميع المدن ، والنهوض بها ، حتى يتسنى الخلاص من : »

« مصادر العدوى التى اذا سمح لها بالبقاء ستولد الوباء بلا مراعاة رغم كل شعائر الصلاة والصيام التى تقوم بها الأمة المتحدة ، وإن كانت خاملة الهمة . وإذا بذل الجميع قصارى جهدهم لتحقيق سلامتهم ، سيكون من المناسب حينذاك التضرع لله لكى يوفق جهدهم » .

وعندما رجع سيرجون سايمون بذاكرته الى استعراض الأحداث فى نهاية تاريخه الطويل ، انضم الى رأى بامرستون ورآه يرمز الى « مميزات عصر جديد » . ان هذا العصر ، وما يتميز به من تصميم الحكومة المركزية على ارشاد الجماعات والطوائف المحلية ، وتوجيهها ، قد بدأ عندما انتشر وباء الكوليرا ١٨٣٢ ، وما تمخض عن ذلك من مطالبة الحكومة للتحرك . وبينما لم تفعل الحكومة شيئا ما لمواجهة « الحميات » التى كانت متوطنة فى جميع المدن الكبرى ، والتى كانت على المدى البعيد مسئولة عن بعض الاصابات التى أدت الى الوفاة ، وفاق عددها ضحايا الكوليرا ، الا أنها قد غلت الآن مرغبة على اتخاذ اجراء ما . وتم الاسراع فى تشكيل مكتب

مؤقت للصحة بعد تبادل الرأي بين «المجلس الخاص» (*) وكلية الأطباء الملكية . . وكان هذا المكتب يتألف من رئيس وأربعة أعضاء من كلية الطب والمشرف العام على الحجر الصحي والمدير العام للخدمات الطبية في القوات المسلحة والمستشار الطبي لإدارة التغذية واثنين من العاملين خارج الدوائر الطبية .

وأصدر هذا المكتب المؤقت للصحة سنة ١٨٣١ و ١٨٣٢ مجموعة من التوصيات في شكل تعليمات صحية ، وطالبت هذه التوصيات الحكومات والادارات المحلية بإقامة مكاتب للصحة . واقترح أن تضم واحدا أو أكثر من المعينين المسئولين وأحد رجال الدين وعددا من أصحاب الدور الخاصة (وهي توصية تميزت بها هذه المكاتب على الهيئات المحلية السابقة) . وواحدا أو أكثر من المشتغلين بالطب . وتضمنت التوصيات قيام المكاتب المحلية بتعيين مفتشين للأقاليم والأحياء ، ولعلها المرة الأولى التي تقترح فيها الحكومة المركزية انشاء شيء ما في جميع أنحاء إنجلترا ، « للإشراف على حالة غذاء الفقراء وملابسهم وفراسهم ، والتهوية في دور إقامتهم ، وحالة المكان ووسائل التنظيف وعاداتهم ، ومدى اتصافهم بالاعتدال والتعفف » ، وأشير الى وجوب طلاء المساكن وتنظيف أغطية الفراش ، وإقامة مستشفيات للكوليرا ، وإنشاء معسكرات للحجر الصحي - وإن كان هذا المطلب الأخير لم يتصف بقدر كاف من الجدية - بالإضافة الى توزيع الغذاء والكساء على الفقراء ، وتوحي هذه التوصيات بإدراك الحكومة ضرورة توافر النظافة في أماكن الإقامة ، وكفاية الملابس والغذاء الوافي لزيادة مقاومة المرض ، بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من تأثير أزمة الكوليرا . على أنه في العقدين التاليين ، انتقل التركيز بفضل جهود المصلح البريطاني سير ادوين تشدويك (١٨٠٠ - ١٨٩٠) الى اصلاح المرافق الأكثر عمومية كمصادر المياه وأجهزة الصرف الصحي .

وتميزت أغلب توصيات المكتب بمعقوليتها ، ولكن الجهات المسئولة ظلت حائرة في تفسير أسباب تفشي الكوليرا ، ومن ثم عمدت الى اضافة نصيحة بالشروط الواجب مراعاتها عند اختيار وجبات الغذاء ، الى جانب نصيحتها باتباع النظافة الشخصية ونظافة المأوى :

« عليك أن تتناول في وجبة الغذاء مقدارا معقولا من شواء اللحم البقرى بدلا من اللحم المسلوق ، مع كسرة من الخبز الناشف والبطاطس وزجاجتين من النبيذ الممتاز بالماء أو مقدارا مكافئا من المشروبات الروحية الممتازة بالماء ، أو الجعة السوداء . وعليك التزام الحرص على تناول الفاكهة والخضروات الطازجة ، وتجنب اللحوم السميكة والمأكولات المفرطة

الحلاوة ، وباختصار ، وخشية التعرض للاصابة بالكوليرا ، تناول الوجبات الغذائية الجافة ، واحرص على أن تكون وجبتك كاملة القيمة الغذائية أكثر من كونها متعددة الأصناف ، والتزم الحذر عند تناول وجبة العشاء ، لأن الكوليرا غالبا ما تصيب ضحاياها عند اقتراب منتصف الليل ، وفي وقت مبكر قبل الشروق » .

واعترف المنشور نفسه بإخلاص « بعدم العثور حتى الآن على دواء للوقاية من الكوليرا ، وحذرت توصياته من رؤى الدجالين وما يقال عن جدوى عملية الاستنزاف بواسطة دودة العلق ، والحمامات الدافئة المتبوعة بالتدليك بقطعة من الفانيلا ، أو تناول مزيج من زيت الحوت واللودن ، والضمادات المنقوعة في مزيج من زيت الخردل والنعناع وزيت التربنتين الساخن » . ومن الطريف أن مجلة لانسييت لم تر في هذه الوصفات ما يستحق النقد ، واكتفت بالتعليق عليها بالقول بأن المكتب لم يوضح توضيحا كافيا دور الأطباء .

أما داخل البلاد ، فقد شعرت المجالس المحلية بقدر من الانزعاج من فكرة انشاء مكاتب وقتية للصحة وشن حرب عشوائية نوعا على القاذورات طبقا للأسس التي وضعها المكتب العام ، وأنفقت مبالغ من المال لم يسبق لها مثيل على النظافة ، فاعتمدت ادنبرة مثلا مبلغ ١٩٠٠٠ جنيه لمحاربة الوباء (١٨٣٢) . غير أن هذه المكاتب كانت مزققة ، وتماثلت في أثرها المهلك هي والكوليرا ، لأنها بمجرد انتهاء الوباء سينسى أمرها ، وترتجل الاصلاحات على عجل ، ولم ينظر اليها على أنها وسائل لمواجهة التحدي ، وأنها أساس للنظرة الشاملة الى مشكلات الصحة العامة . وإذا نظرنا فيما وقع في هذه السنة ، سنرى أن السجل السنوي (*) ١٨٣٢ قد ذكر انتشار المخاوف على نطاق واسع : ففي كل مكان داهمته الكوليرا لم تكن بالفضاعة ولم يترتب عليها ضحايا بالقدر الذي تخيلته التصورات المسبقة ، وكان الفرع أشد بدرجة كبيرة من الخطر . وعندما اختفى المرض شيئا فشيئا ... « شعر الجميع بالدهشة لما أصاب الناس من شدة الهلع » . وعندما عاودت الكوليرا الظهور بعد عقد ونصف من الزمان ، تبين ببشاعة مدى ضآلة ما أنجزته السلطات المحلية ، فحتى ١٨٤٨ ، فشل الوباء في الحث على انشاء مكاتب محلية للصحة في شتى أنحاء البلاد ، واستمرت مراكز عديدة لتجمعات الأهالي تعاني من البلبلة ومن جهل الشرطة ، وعمال الصرف الصحي والاضاءة ورصف الطرق ، الذين كانوا جميعا يرزحون تحت وطأة تخلفهم وافتقارهم للكفاءة الى درجة محبطة للأمال .

وفي ١٨٨٥ ، عندما أشرف الدكتور بالارد على عملية مسح للكوليرا بتكليف من مكتب الحكومة المحلية ، انتهى الى القول : « بأن بمقدورنا الآن أن نواجه بشعور أخف من الفرع مما تشعر به أية دولة أوربية ظهور وباء الكوليرا ، وليس من شك . . أنه على الرغم من ظهور الكوليرا في ٦٤ مجتمعا (١٨٩٣) ، الا أنها اقتصرت على احداث اصابة واحدة في كل ٤٢ حالة . وهذا بالتأكيد مقياس تقريبي لما حدث من ارتفاع في مستوى الخدمات الصحية العامة ، وكما كتب المسئول الطبي عن الصحة (*) في مكتب الحكومة المحلية بعد شعور بالارتياح والتهلل : « لقد جاءت هذه النتيجة ، والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الكوليرا - في اعتقادي - بفضل تحسن الأحوال الصحية في انجلترا ، وفي ١٨٩١ ، تسنى للحكومة « استبعاد الكوليرا كأحد الأمراض المستوردة من الخارج » وبعد أن كان متوسط الوفيات سنويا قد بلغ معدل ٢٣١ في المليون من الأحياء ، في الحقبة الواقعة بين ١٨٤٨ و ١٨٧٢ ، هبط هذا المعدل الى مقدار تافه ٠٠٦ ر (١٩٠١ - ١٩١٠) » .

وفي الفترة التي تفصل انتشار الوباء الأول للكوليرا ، وانتشارها في الوباء الثاني ، قلت المجاهرة نوعا برد الكوليرا الى انتقال المرض عن طريق العدوى ، أو ارجاعها الى عقوبة موقعة من الله . أما النظرية « المiasمية » فاستمرت مهيمنة على الرأي الطبي العام ، حتى بعد ظهور نتائج التجارب التي أجراها الدكتور وليم باد والدكتور جون سنو (**) ١٨٤٩ . فقد استخلص الدكتور باد الذي أجرى أبحاثا عديدة للتعرف على أسباب التيفوس والتيفود (١٨٤٩) الاعتقاد بأن « الكوليرا كائن حي من نوع متميز ، يدخل الجسم أثناء عملية البلع ، ويتكاثر في الأمعاء بتأثير التكاثر الذاتي » ، وأذاع سنو هذه النظرية على نطاق واسع (***). وأتيحت لسنو ١٨٥٤ الفرصة لاثبات صحة نظرياته ، عندما تتبع حالات الكوليرا على نحو درامي وقاطع الدلالة في بيوت مزودة بمياة ملوثة مستمدة من شركات للمياه في ساوثورك وفوكسهول ، وعندما حاول اقناع الساطات المحلية بايقاف ضخ المياه في شارع برود بسوهو (وهو من الأحياء المكتظة التي بلغت فيها نسبة وفيات الاصابة بالكوليرا خمسين شخصا يوميا) ، وتوقفت حالات الموت المفاجيء . وعلى الرغم من عدم افلاح أحد في التعرف على فيروس الكوليرا قبل نجاح العالم الألماني كوخ في هذا الشأن ١٨٨٣ ، الا أن ما أنجزه سنو يعد انتصارا لعلم الأوبئة .

Moh.

(*)

John Snow, William Budd

(**)

*** كتاب (On the Mode of Communication of Cholera. ١٨٤٩)

وعلى الرغم من أن الكوليرا كان لها وقع درامى تفردت به بين جميع الأمراض ، إلا أن الحمى خلال القرن التاسع عشر هي التي استحوشت السلطة المركزية والسلطات المحلية على بذل أعظم الجهود لمكافحتها . فالكوليرا تروح وتجيء ، كما لاحظ « المجلس الخاص » ١٨٦٤ « أما حمى التيفوس ، فالظاهر أنها لا ترغب فى مفارقتنا قط » . وكانت مختلف أمراض الحمى تتصف دوما بتوطنها وغلبة ارتفاع معدل الإصابة بها عن المعدلات المعروفة عن الأوبئة ، ومن ثم فإنها كانت تترصد وتهدد صحة البلاد . ولفتت الحمى الأنظار الى أوصاب القاذورات والفقر ، وبذلك أرغمت السلطات على الالتفات الى مسائل الصحة العامة ، يعنى الظروف الاجتماعية والبيئية ، بعد التغرف على أثر مستوى المعيشة وعواقبه .

ويعرف التيفوس أيضا باسم « الحمى الايرلاندية » وحمى « السجون » و « حمى السفن » و « حمى العفونة » و « حمى المعسكرات » والتيفوس مرض ماكر خداع ، ينتشر بصفة أساسية عن طريق براز المصابين . وكانت نسبة وفياته عالية ، وان كان حتى أواخر عهده لا ينتهى بالوفاة إلا فى حالة ثلث الحالات المبلغ عنها . وانخفضت نسبة الإصابة بالتيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر فى سائر أنحاء إنجلترا . وفى سنة ١٨٦٩ ، عندما أمكن التفرقة بين التيفود والتيفوس لأول مرة ، كانت هناك حالات وفيات من أثر الإصابة بالتيفوس مقدارها (٤٢٨١) حالة فى إنجلترا وويلز . واقترب عدد الموتى من التيفوس فى سبعينيات القرن التاسع عشر من ١٤٠٠ سنويا ، وخلال العقد التالى ، انخفض المتوسط الى ما هو أكثر ، فوصل الى أقل من ربعمائة ، وانخفض عدد الوفيات فى التيفوس والتيفود معا الى ما يقرب الربع بين احصاء (١٨٥١ - ١٨٦٠) واحصاء (١٨٩١ - ١٩٠٠) وفى ليفربول ، وهى مدينة فقيرة يقيم فيها نازحون من الفقراء والعمال العرضيين ، وعرفت بشدة اكتظاظها بالسكان ، وقد أثبتت هذه المدينة أثر القاذورات فى انتشار المرض . ولما عولج هذا السبب انخفض المتوسط السنوى للوفيات من جراء الإصابة بالتيفوس من ٧٤٨ (١٨٠٦ - ١٨٦٠) ومن ٦٠٢ (١٨٦٦ - ١٨٧٥) الى ٢٣٨ (١٨٧٦ - ١٨٨٥) . وتضاءل العدد الى ١٥ شخصا فقط (١٨٩٦ - ١٩٠٥) ، وتناقص العدد الى ما هو أكثر من ذلك بين ١٩٠٦ ، و ١٩١٣ ، الى عدد تافه ، يعنى أقل من ستة أشخاص سنويا . ومما يثير الانتباه أنه بالرغم من استمرار التيفوس فى البقاء إلا أنه قد ازداد التحكيم فيه بدرجة ملحوظة ، ولم يعد وجوده فى محافل ليفربول يحمل أى تهديد باحتمال تحوله الى وباء داهم يصعب السيطرة عليه .

فكيف نفسر هذا الانخفاض الملحوظ ؟ لقد شاع القول حديثا باحتمال رد الانخفاض الدرامي فى التيفوس فى سبعينات القرن التاسع عشر ، الى حد كبير الى التاريخ الطبيعى للمرض ذاته أكثر من رده الى ما حدث من تبدل فى البيئة الفيزيائية نتيجة لمخطط واع . وتستند هذه الحجة - من ناحية - على الترتيب الزمنى للانخفاض . فقد زعم أنه كان أسبق فى الحدوث من ظهور آثار النهوض بمرافق الصرف الصحى وموارد المياه ، وما عاد من ذلك من آثار حميدة على السواد الأعظم من الآدميين . ويشار دعما لهذه الحجة الى أن المناطق التى عانت أكثر من غيرها من وباء التيفوس كثيرا ما كانت آخر المناطق التى جرت فيها اصلاحات لموارد المياه ، فلم يتم انشاء مرافق المياه الجارية فى أحياء الطبقة العاملة فى لندن - حيث كان التيفوس متوطنا - الا فى سبعينيات القرن التاسع عشر . ولا يستبعد تفسير آخر ركز على حدوث « تغير خارجى فى خطورة تأثير الكائن الدقيق الناقل للعدوى » ، وابتعد عن تأكيد دور برامج اصلاح المدن تبعا لمخطط واع ، وهذا لا يعنى « انه استبعد هذا العامل الأخير استبعادا كاملا ، ولكنه سعى فقط لاعادة ترتيب أولويات العوامل العلية » .

وهناك بالتأكيد الكثير مما يدعم هذه النظرية التى صححت المعتقدات السائدة ، وبخاصة لأن انخفاض عدد الوفيات بالتيفوس بالرغم من عدم اتصافه بالاطراد على الاطلاق قد انتشر ابتداء من سنة ١٨٧٠ ، وبعد ذلك ، بينما لم يحدث تحسن مماثل فى الرعاية الصحية فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر ، اذ قلت خطورة الإصابة بالتيفوس واحتمال تسببه فى موت ضحاياه فى البقاع التى لم تصل اليها اصلاحات النواحي الصحية . ومع هذا فلعلنا نتساءل هل كان التيفوس سيتضاءل بنفس هذا القدر المدهش فى المواضع المزدحمة كحارات المدن الكبرى وسجونها ومحاكمها ، لو أنهم اكتفوا باضعاف الكائن الدقيق ، ولم يعمدوا الى ازالة القمامة ونزح نفاية الصرف الصحى ، فلقد تضاءلت الإصابة بالتيفوس ، وتباطأت سرعة انتشاره فى مدن مثل بلقاست ودبلن وسوندلاند وليفربول ، أى فى المدن التى تقاعست عن تنفيذ عمليات اصلاح المرافق الصحية وموارد المياه ، حيث نجح الفقر المنتشر فى التعايش مع القاذورات ، وعندما تكون الكائنات الدقيقة فى حالة نزوع الى الضعف فانها لن تحتاج الى ما هو أكثر من أوهى المؤثرات الاضافية (كرفع المستوى الغذائى مثلا) كى تزداد ضعفا . وبينما يصح القول بأن التيفوس قد خفف من قبضته المريعة قبل تعميم نظام الصرف الصحى ومشروعات المياه فى شتى أنحاء انجلترا ، فلا يمكن أن ننكر أن أبسط التحسينات التى تمت فى ستينيات القرن التاسع عشر كالخلاص من القمامة الملوثة واستعمال الأوانى والأسطال الجافة التى تتوافر فيها الشروط الصحية والاكثر من الاستعانة بالقطنيات

(الأسهل في غسلها من الملابس الصوفية) في صنع الملابس الداخلية وأغطية الفراش ، قد عجلت باضعاف أثر التيفوس . وإذا سلمنا بالقول بأن الطبيعة ذاتها كان لها دور أساسى فى التخفيف من أثر التيفوس ، كمرض قاتل ، فلا بد أن نصحح هذا الرأى ونقول ان الطبيعة كانت تعتمد على جهود المجالس البلدية وتشجيعها .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان من الصعب التفرقة بين التيفوس والتيفود ، وكان هناك خلط بينهما ، وبينما يصيب التيفوس المريض بالوهن والخور وينتشر عن طريق قملة الجسم ، فان التيفود من الأمراض البكتيرية ويتشابه هو والكوليرا فى انتقاله بوساطة الطعام والشراب الملوثن . ويحتمل أن يكون حامله ، أى من ينقل المرض من شخص لآخر محصنا من الاصابة به . وتضيف هذه الظاهرة الى غموض التيفود ، ويعرض مريض التيفود جميع أعراض الحمى وآثارها كالاصابة بالفتور والخمول وفقدان الشهية والحرارة المرتفعة المتواصلة ، التى ربما صاحبته حالة اسهال شديد (ولا تصحب هذه الأعراض التيفوس على الاطلاق) . وربما كانت جرثومته عالقة بالماء ، وبخلاف ما يحدث فى التيفوس ، فان الاصابة به قد استمرت طيلة القرن التاسع عشر ، وتعرضت لها أيضا جميع الطبقات . فقد مات بسببه الأمير البرت ، وأصيب به اصابة خطيرة ادوارد أمير ويلز ، أثناء اقامته فى القصر الريفى للكونتيسة لوندسبرى (*) . ومات بنفس هذا المرض سايس الأمير والايرل شسترفيلد ، الذى كان مقيما بالقصر أيضا . وساعدت نجاة الوريث الشرعى للعرش البريطانى ، بعد أن كان مهددا بالموت على تحذير الآخرين من أبناء الطبقة الأرستقراطية بضرورة العناية بوسائل الصرف الصحى فى دورهم . وبعد ذلك بعامين ، تفشى التيفود فأصاب احدى كليات جامعة كيمبردج ، ولفت الانتباه الى بدائة وسائل الصرف الصحى بالكليات التى يتخرج منها زعماء بريطانيا . وعلى الرغم من احتمال انتقال العدوى بالتيفود عن طريق سبل متعددة ، الا أنه من الواجب تشخيصه كباقى الأمراض الاسهالية كمرض من أمراض القاذورات . ومن غير المستبعد أن تكون المياه الملوثة ببراز آدمى وراء معظم الوفيات التى نجمت عن الاصابة بالتيفود فى القرن التاسع عشر . فمثلا فى مدينة ستوكبورت ، بلغت الاصابة بالدور التى لا يزيد ايجارها الشهرى عن أربعة جنيهات أربعة أمثال الاصابة فى الدور المجهزة بدورات للمياه ، وثمانية أمثال الدور التى يتراوح ايجارها الشهرى بين خمسة جنيهات وثمانية . وعندما أوفد المجلس الخاص (١٨٧٠) الدكتور بوشانان (**) للتحرى عما اعتقد أنه

Countess of Londesborough.

(*)

Buchanan.

(**)

الاصابة بالتيفوس (وان كانت الحقيقة قد بينت أن الاصابة كانت بالتيفود)
رأى وجود مؤثرات « تحتم الاصابة بالأمراض الاسهالية ، نظرا لسوء حالة
وسائل التخلص من البراز وتلوث مياه الشرب ، مما جعل الآدميين مرغمين
على شرب برازهم » .

ولربما ساعد تعميم وسائل الصرف الصحي التي ساعدت بلا ريب على
الاقبال من عدد المتوفين من جراء الاصابة بالتيفوس ، على زيادة عدد
وفيات الاصابة بالتيفود . وهذه نكتة تثير السخرية ! ويرجع السبب
الى أن عمال الصرف الصحي كثيرا ما يلقون بالبراز الملوث في الأنهار
التي تعد مصدرا رئيسيا لمياه الشرب . . . وبغض النظر عن السبب
الحقيقي ، فإن التيفود قد استمر متوطنا حتى نهاية القرن ، وحارت في
أمره السلطات المحلية والحكومة المحلية ، وبمجرد التفاتهم الى أحد المصادر
التي يحتمل نقلها للعدوى ، ظهر مصدر آخر أثار اشتباههم كمصادر المياه
واللبن والمواد الغذائية مثل الكارسون المائي (حب الرشاد) وبعض
الأسماك . واعتبرت جميع هذه الأشياء من حين لآخر مسئولة عن انتشار
التيفود . وكافحت مقاطعات نورثمبرلاند ودورهام ويوركشاير لتفادي
تكرار الاصابة بوباء التيفود . واستمرت مدن أخرى (*) تتعرض لوباء
التيفود حتى نهاية هذا القرن . اذ كانت جميع هذه المدن تستقى مياهها
من نهر التيمز ، وفيه تلقى عشرون قرية مخلفات صرفها ، دون تنقيتها ،
وبوجه عام ، بلغ عدد وفيات التيفود ضعفى باقى الوفيات في المدن والريف
على السواء .

وهكذا واصل « التيفود » دوره كمقياس لعدم كفاية مصادر المياه
ووسائل الصرف الصحي حتى نهاية القرن . وعندما تفشى التيفود في
بعض المواقع ، كميدستون مثلا ، انتهزت المكاتب المحلية وانتهز المسئولون
عن الشئون الصحية الفرصة فقدموا المختصين بالمياه محليا للمحاكمة .
وحتى عندما حدث اشتباه في ارجاع التلوث الى مصادر أخرى (كاللبن
أو الروث الذي يستخدم لتسميخ التربة) كثير ما استغل التيفود كوسيلة
للضغط على شركات المياه المحلية للعناية بمرافقها .

وعلى الرغم من غموض أسباب الاصابة بالتيفود وأسباب تفشيه ،
وعدم الدراية بها ، فقد نجحت وسائل تحسين الامداد بالمياه والعناية
بمرافق الصرف في تخفيف آثاره الضارة ، اذ بلغ عدد الوفيات من التيفود
في الحقبة الواقعة بين ١٨٩١ و ١٩٠٠ نصف عدد الوفيات من ١٨٧١ -

١٨٨٠ على وجه التقريب . وما أن جاءت ١٩٠٤ حتى انخفض معدل الوفيات . الى ما هو أقل من ثلث المعدل الذى ساد طوال سبعينيات القرن التاسع عشر .

نظرنا حتى الآن فى الأمراض الوبائية التى تصيب الأمعاء ، وإن كانت الأمراض الرئيسية للقرن التاسع عشر قد اشتملت على العديد من الأمراض التى تصيب الجهاز التنفسى والرئتين ، وعلى سبيل المثال ، كانت الانفلونزا من الأمراض المتوطنة طوال القرن التاسع عشر ، وانتشرت بعض الأمراض الوافدة فى فترات مختلفة بين (١٨٣٠ و ١٨٣١ وبين ١٨٣٦ - ١٨٣٧ وفى سنة ١٨٤٣ ومن ١٨٤٧ - ١٨٤٨ وأيضاً من ١٨٨٩ الى ١٨٩٢) ، وعندما انتشرت الانفلونزا فى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ بلغ عدد ضحاياها خمسين ألف شخص فى لندن وحدها . ويعادل هذا العدد حوالى خمسة أضعاف عدد وفيات الكوليرا (١٨٤٩) . وساعد على انتشار الانفلونزا نوع المأكولات التى يتغذى بها الفقراء ، والتى تضعف مقاومة الجسم . وأيضاً أحوالهم الاجتماعية العامة وارتفاع ثمن الوقود واستسلمت جميع الأطراف للانفلونزا معظم سنوات القرن ، ولم تبدأ تثير اهتمام أجهزة الصحة العامة إلا فى القرن الحالى .

وتحولت أمراض عديدة أخرى الى أمراض وبائية من تأثير انخفاض مستوى التغذية ، وما تبع ذلك من ضعف فى المقاومة . ولكن جميع هذه الأمراض لم تتماثل مع الحالة التى وصلت اليها الحمى القرمزية ، ولقد خشى الجميع هذا المرض ، لانخفاض نسبة نجاة الأطفال الذين كانوا يصابون بها . (إذ كان ٩٥٪ من المصابين فى جميع الحالات من الأطفال الأقل من عشر سنوات) . وفى وقت متأخر كثمانينات القرن التاسع عشر كان هناك فى ادنبرة طفل يموت من بين كل ١٤ يصابون بالمرض ، بينما اختطفت هذه الحمى ابان الوباء الكبير فى ثمانينات القرن التاسع عشر واحداً تقريباً من بين كل خمسة أطفال من المصابين بها . وعلى الرغم من الاشتباه فى تلوث اللبن كمصدر للمرض ، إلا أن سببه الحقيقى لم يعرف ، واستمر من الأسباب الرئيسية للاماتة طيلة القرن . وفى ١٨٦٣ ، مات من جرائها ٣٤٠٠٠ وفى ١٨٧٤ ما ينوف عن ٢٦٠٠٠ . وفى لندن وحدها ، كانت سبباً لموت ألف أو يزيد فى وقت متأخر (١٨٩١) . وطالب سير جون سيمون (١٨٩١) بعد أن أصابه الاحباط لاختفاق الاجراءات الصحية لمنع انتشارها ، بإنشاء نظام للحجر الصحى يتماثل فى الصرامة هو والنظام المفروض على الحيوانات المصابة ، وطالب أيضاً بإنشاء مستشفيات للحجر الصحى . وبطبيعة الحال ، تعذر إنشاء نظام للحجر الصحى فى المساكن المكتظة للفقراء . وعلى الرغم من الحاج هذه.

الضرورة ، الا أن السلطات المحلية تقاعست في الاستجابة لمطلب انشاء
عنابر للعزل في مستشفيات الأطفال والمستشفيات . ويرجع ذلك الى
الجهل بطريقة انتقال المرض ، والى التقدير ، وبعد ثلاثين سنة من تقدم
جون سيمون لأول مرة بمطلبه ، استمرت السلطات المحلية عاجزة عن
الاستجابة لرغبات المسئولين المحليين عن الصحة . وهكذا كان الأطفال
يتنقلون أحرارا من دورهم التي تعرضت للاصابة الى المدارس ، ويعودون
منها ناقلين المرض الى دورهم في أحيان أخرى ، (وكانت الحصبة بالمنزل
من الأمراض المعدية التي لاقت نفس المصير) . وفي الحالات التي اتبعت
فيها اجراءات العزل المعززة بالتبليغ المباشر عن الحالة ، وبالرقابة المحكمة
على توريد الألبان ، كانت النتائج مذهلة في أغلب الظن . وبوجه عام ،
يمكن القول بأنه بين ١٨٦١ و ١٨٩١ ، هبط عدد وفيات الحمى القرمزية
بمقدار ٨١٪ . ويرجع ذلك جزئيا الى ضعف قوة الميكروب السببي الذي
يسبب الحمى القرمزية ، أو مناعة أهل الحضر ، وقد اشتركت عوامل
مختلفة في تحقيق انخفاض الاصابة بالحمى القرمزية ، مما جعلها لا تزيد
عن نسبة ١٩٪ من معدل الوفيات العامة في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر .

ومن الأمراض المميتة الأخرى التي كان يخشى بأسها : الدفتيريا (*) .
وبعد أن يبدأ هذا المرض بتقرح في الحلق يتحول بسرعة الى تسمم الدم
وهبوط في القلب أو الى التهاب في الغشاء المخلف لفتحتى الأنف ، يتطلب
شق القصبة الهوائية ، وغالبا ما كانت تجرى هذه العملية عندما تسوء
الحالة ، كمحاولة أخيرة لانقاذ المريض ، وتستعمل في جراحاتها آلات بدائية
أو ربما بعض الأدوات المستخدمة في المطابخ ! وكان المسئولون عن السجل
العام يدرجون الدفتيريا ضمن مرضى الحمى القرمزية حتى ١٨٦٠ ، ولم
تعامل معاملة علمية جادة الا في النصف الثاني من القرن . وفي ١٨٨٣ ،
نجح ادوين كريبس في التعرف على جرثومتها . وفي ١٨٩٤ ، شاع
استعمال مضادات السميات . وكما حدث في حالة الحمى القرمزية ،
كانت نسبة وفيات المصابين بالدفتيريا عالية (حوالى ٢٠ - ٢٥٪) وتمثلت
ايضا والحمى القرمزية في عدم معرفة سببها وطريقة انتقالها ، مما دفع
المسئولين الرسميين عن الصحة الى اعتبارها لغزا ، والى الجنوح الى القاء
تبعة الاصابة بها على الوسائل غير الصحية المتبعة في توريد الألبان .
وكان لهذا الاتهام ما يبرره . وشعرت الجهات المسئولة عن الصحة العامة

(*) تسمى ايضا Croup وتعنى التهاب الحلق والتقرح والعفن في الحلق
أو التقرح الخبيث بالحنك أو حمى الحلق . وتسمى هذه الاسماء من غموضها بمسمى
الجهل بطبيعة المرض .

بعد تزايد عدد وفيات الأطفال الأقل من ١٥ سنة من الدفترية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن بالاحباط . واحتدم الخلاف حول تأثير اللائحة التعليمية الصادرة في ١٨٨٠ على زيادة نسبة الوفيات من الدفترية والحصبة والحمى القرمزية . وزودت لائحة ١٨٨٠ اللائحة التعليمية التي سبق إصدارها ١٨٧٠ ، بأنياب حادة أرغمت السلطات المحلية على تشديد مواظبة التلاميذ على الانتظام في الدراسة . وقيل ان ازدياد الاحتكاك بين الأطفال من بين الاسباب الكامنة وراء ارتفاع معدلات الوفيات .

ولعل « السل » كان أشجع الأمراض القاتلة التي تصيب الجهاز التنفسي أو الأمعاء ، وربما أمكن القول بأن ثلثي من ماتوا من المرضى في عهد فيكتوريا كانوا من ضحاياه . وهكذا صدقت تسمية الأديب الانجليزي جون بنيان في القرن السابع عشر له « بالطاعون الأبيض » ، وزعيم رسل الموت . وعلى الرغم من الربط بينه عهدا طويلة وبين الفنانين والشعراء ، وعلى الرغم من اصابته لجميع الطبقات ، الا أنه كان وثيق الصلة بمستويات التغذية ، وكانت أفدح وأدهى اصاباته تحل في أحياء الطبقة العاملة بالمدينة ، ممن يحيون في ظروف تهوية سيئة وفي دور مكتظة . وكان المرض ينتشر بسرعة ، وتزداد خطورته القاتلة ، عندما تتكرر اصابته لشخص يقيم في أماكن سيئة التهوية ، واسترعى انتباه أحد الأطباء انتشار المرض بين التريزية ، منذ مشارف هذا القرن . كما اجتذب انتباه « المجلس الخاص » شيوخه بين غيرهم من العاملين في أماكن مزدحمة كالحرفيين وعمال المناجم وبائعي الملابس الداخلية . ومن المتعذر تحديد المسار البياني لسير مرض السل على نحو موثوق منه ، لاختلاطه في الأغلب بأمراض أخرى ، بما في ذلك السرطان ، ولم يكن هذا المرض من الأمراض التي تركز عليها الانتباه حتى ١٩١٢ . ومع هذا فالظاهر أنه في الحقبة الواقعة بين ١٨٥١ و ١٨٦٠ ، وبين ١٩٠١ و ١٩١٠ ، انخفض عدد الوفيات الى قرابة النصف ، وعلى الرغم من الآمال المبشرة ، التي حملها هذا الانخفاض ، الا أن السل قد ازدادت أهميته نسبيا حتى أصبح على نهاية القرن المرضى التالي للسرطان من بين الاسباب الرئيسية المؤدية للموت . وزعم ١٨٩٤ أنه في كل سنة ، يموت ثلاثة أشخاص لاصابتهم بالسل مقابل ميتة واحدة كانت تحدث أثناء العمليات الحربية أو من جراء المرض أثناء حرب القرم . ومع هذا فقد حدث انخفاض له أهميته . اذ ينسب نصف ما حدث من انخفاض في المجموع الكلي لمعدل الوفيات في النصف الثاني من القرن الى ما حدث من انخفاض في نسبة الموتى بمرض السل .

ويزودنا مرض السل « بدليل حساس ربما يفوق باقي الأمراض التي ذكرناها آنفا عن الحالة المعيشية في أي مجتمع » ، ويحتاج التغلب

عليه الى اجراء تحسينات بعيدة المدى في احوال الاقامة ومعايير التغذية ونوعية الالبان . ولقد حدثت تحسينات في هاتين الناحيتين الأخيرتين ، ولكن ما باليد حيلة اذ ظل الاكتظاظ بالسكان مشكلة عارمة ، وظلت الأكواخ والدساكر (*) التي ترتفع فيها نسبة الاصابة بالسل الى قرابة ٥٠٪ زيادة عن نسبة الوفيات في النوع الآخر من محلات الاقامة في المنطقة ، والتي اختلفت احوال معيشة الطبقة العاملة فيها عن ظروف الاعاشة ، بعد منتصف القرن .

ولا يستبعد أن تكون محاولات الجمعيات الخيرية وأجهزة الاشراف على الشئون الصحية قد ساعدت على تناقص الاصابة بالسل ، فلقد حاولت السلطات المحلية في نهاية القرن التاسع عشر السيطرة على المنقشات المشوشة التي تنقل السل ، وأصدرت السلطات في أولهاام تعليمات تحذر فيها المواطنين من ارتفاع نسبة العدوى من السل ، واحتمال انتشاره بمجرد بصق الشخص المصاب بالمرض . وحظرت التعليمات المواطنين من البصق في الغرف العامة وعربات السكك الحديدية ، وغيرها من الأماكن العامة ، ونصحت باحراق المناديل والخرق التي يستعملها المسلولون فور انتهائهم من استعمالها ، وأخطرت الكافة باستعدادها لتطهير البيوت التي يشغلها المصابون بالسل ، وبالمثل ، أصدرت السلطات المسئولة عن الشئون الصحية في برايتون « تعليمات للوقاية للمصابين بالسل » ، حثت فيها المواطنين على عدم البصق الا في « أوعية يمكن تفريغ محتوياتها قبل أن تجف » . وراود الجهات المسئولة الأمل بأن تقتدى انجلترا بالمثل الذي ضربته الولايات المتحدة ، وتحظر البصق في الأماكن العامة ، وذكرت بعض جوانب من الوسائل الوقائية التي يصعب حصرها . . وليس من شك أن التنبيه باستعمال المناديل وعدم البصق لم يسهم بدور كبير في الاقلال من احتمال نقل العدوى عن طريق الجو الحامل للجراثيم . ولعل السلطات الصحية قد تقاعست عن فرض القوانين التي تمنع البصق ، والتي تشدد على فرض رقابة صارمة على الألبان ، لأنها لم تتبن النظرية الجرثومية للأمراض الا بعد لاي ، مما حدا برئيس القسم الطبي في الجمعية الطبية الانجليزية الى المجاهرة بعد قرابة ١٧ عاما من اكتشاف ميكروب السل بما يأتي :

« أقول ان بمقدورنا محاربة الدرن على الطريقة التقليدية ، برفع مستوى الوراثة عندما يتيسر ذلك ، وبارتقاء مستوى البيت وأحوال المعيشة والعمل ، فجميع هذه السبل ممكنة على الدوام ، وتحتاج لتدخل المسؤولين ،

أما هذه المطاردة المخبولة لجراثومة السل ، وكأنه بالاستطاعة تفريغها في مبعقة ثمنها بنسان ونصف ينس ، ثم الخلاص منها ، فلعمري أنها أحق حرب صليبية شنت على أساس بعيد عن المنطق .

ولما كان قد أصاب في نظره للأسباب التي أضعفت مقاومة السل ، فإنه قد كشف عن أحجائه على الموافقة على الاعتراف بالسبب الأصلي للمرض ، وفي ذات الوقت ، فقد استمر الهلع من السل . ولجأ الفقراء للوصفات الشعبية مثل أكل القواقع الحلزونية الحية وبيض الذباب ، أو استنشاق الهواء المتصاعد من أنفاس الخنازير والبقر والخيول ، أو استعانوا بعقاقير الدجالين . وبما من شك أن اتباع هذه الوسائل قد بدا أرحم في نظرهم من انتظار الارتقاء بمستوى المعيشة الذي يستغرق وقتا أطول .

ومن بين جميع الأمراض الوبائية في القرن التاسع عشر ، انفرد الجدري بإمكان التغلب عليه ، ورده ، اعتمادا على أحد الاكتشافات الطبية ، وقدر الانخفاض في نسبة الوفيات من المرض في عهد الملكة فيكتوريا بخمسة في المائة من معدل الوفيات من الأمراض . وتحقق ذلك بفضل التطعيم الإجباري الذي أقحم الدولة في المسائل الصحية العامة على نحو مباشر ، وبطريقة بدت ديكتاتورية في نظر بعض النقاد المعاصرين . ولقد شاع التحصين على نطاق واسع طبقا للعملية التي ابتكرها (١٧٩٨) العالم الفزيائي البريطاني ادوارد جينر (١٧٤٩ - ١٨٢٣) عندما اعتلت فيكتوريا عرش إنجلترا ، وصدر قرار من البرلمان ١٨٠٨ يبين مدى ما سيعود على رعايا جلالة الملك بالخير والفائدة من جراء إنشاء معهد مركزي لتصنيع المصل . وفي ١٨٣٢ ، أنتجت منشأة الأمصال الوطنية (وكانت وقتئذ تحت إشراف كلية الطب الملكية ثم انتقل الإشراف عليها إلى المجلس الخاص ١٨٦٠) ما ينوف عن مائة ألف عبوة من « اللنف » ، كما أنتجت بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ثمانمائة ألف عبوة أخرى .

ومن المحتمل نسبة الفضل للتطعيم بالجدري في تعريف المواطنين على عهد الملكة فيكتوريا مبدأ التدخل الحكومي في مسائل الصحة . وكتبت مجلة الجرافيك (١٨٧١) « ان منظر أبناء الشعب ، وهم يعرون أذرعهم اليسرى انتظارا لخدشها ، لمن المناظر المثيرة للسخرية ، ومجرد اقبال الناس على ذلك يثير الضحك » . وعلى الرغم من أن مجلة الجرافيك قد اكتشفت ما يبرر السخرية من حالة الاطمئنان والرضا التي ارتسمت على أوجه المقبلين على التطعيم ، فإن منظر « الاستسلام الرهيب » عند من يتهاون لخدش أذرعهم ، والارتجاف من الرعب عند من لمس المشرط أذرعهم - ومهما بدا في هذا المنظر من مظهر آدمي هزلي - إلا أنه كشف عن جوانب بعيدة الأهمية . فلقد مثلت هذه الحالة وكشفت عن استعداد الرأي العام

للوثوق ثقة كافية فى علم الطب ، مما دفعها الى تقبل الحقن بجراثيم من المرض اللعين . والواقع أن العملية يرمتها قد برهنت على الابتعاد الملحوظ عن مبدأ اطلاق الحرية دون قيد أو شرط (*) ، والتحرر من تدخل الحكومة . ولم يكن مستغربا أن تهب حركة قوية مناهضة للتطعيم باسم الحفاظ على قدسية الجسم الآدمى وسلامة كيان الدولة ومستندة على أسس دينية وسياسية تهدف الى وجوب الدفاع عن حقوق الفرد ضد هذا التهديد الجديد للدولة المتطبعة . وقيل على نحو شبيه بما يحدث الآن من معارضة للارغام على ارتداء راكبي الدراجات البخارية للخوذات بأنه من الواجب أن يسمح للفرد بتجربة حظه مع الموت ، بدلا من تعريضه للتهديد والخضوع لدولة بوليسية فضولية ثرثارة . وأوضحت بعض النساء من أمثال آن سابل التى استدعاها المسئولون خمسا وعشرين مرة لاستجوابها لرفضها « أن تكون طرفا فى عملية تسميم طفلها الرضيع » ، على حد قولها ، والتى واجهت الحكم بالحبس ، وفضلت ذلك على الخضوع لعملية التطعيم . وبذلك أصبحت هى وأمثالها شهيدات وشهداء لهذه القضية .

ولم تفرض الحكومة على عهد فيكتوريا التطعيم الاجبارى على الشعب ، قبل اجتياز مرحلة تجربة التطعيم الطوعى ، ومثل وباء الجدري (١٨٣٧ - ١٨٤٠) ، والذي مات فيه ٤٢٠٠٠ شخص تحديا كان من الضروري مواجهته . وكان الرد على ذلك هو صدور قرار بالاذن بالتطعيم (١٨٤٠) يبيح لكل شخص التطعيم على نفقة الدولة ، وأوكل عبء الاشراف على عملية التطعيم على المسئولين عن تنفيذ قانون الفقراء ، الذى كان مثقلا بالفعل بالأعباء . ولم يتقرر التطعيم الاجبارى الا سنة ١٨٥٣ ، بعد أن أجريت دراسة من قبل جمعية علوم الأوبئة فى لندن . ونص هذا القرار على الزام الآباء بارسال أطفالهم للتطعيم بعد ثلاثة شهور من مولدهم . وعلى الرغم من أن التقرير اعتبر التطعيم مسألة عامة فى شتى أنحاء إنجلترا ، الا أن تنفيذ القرار تم على نحو عشوائى ، وتفشى الجدري بين ١٨٧٠ و ١٨٧٣ (ومات فى هذه الفترة حوالى ٤٤٠٠٠ ، ربعهم تقريبا من لندن وحدها) وتوافق ظهور هذا الوباء هو وتعيين مجلس صحى لشئون الجدري انتهى الى اصدار قرار جديد لمكافحة هذا المرض ، واحكام تنفيذ الطابع الاجبارى للتطعيم ، والنص على الزام المكاتب المحلية بتعيين مسئولين عن التطعيم ، وفرض غرامة تصل الى ٢٥ بنسا على من يرفضون تطعيم أطفالهم ، وبالسجن لمن يرفض دفع الغرامة .

ولربما خطر بالبال احتمال اثاره وباء (١٨٧٠ - ١٨٧٣) قدوة كافيا من الفزع يدفع المواطنين لتعميم التطعيم ، ولكن ما حدث كان عكسه ذلك ، ولقد حشدت الحركة المناهضة للتطعيم صفوفها فى الربع الأخير من القرن . وترتب على ذلك هبوط معدل من طعموا من الأطفال من ٨٥٪ (١٨٧٣) الى ما هو أكثر قليلا من ٧٠٪ (١٨٩٧) ولقد كانت فاعلية التطعيم ضد الجدرى مسألة لا يتطرق اليها الشك . ففى وباء ١٨٧١ ، لم تزد نسبة الوفيات فى لندن بين من أصيبوا بالمرض ، وسبق تطعيمهم عن ١٠٪ أما نسبة الوفيات بين من لم يطعموا فكانت ٤٥٪ ولا يستبعد أن ترجع أسباب التفاوت الى أسباب أخرى .

وبدأت الحركة المناهضة للتطعيم نشاطها بعد صدور القرار ١٨٧١ بتعيين مسئولين عن التطعيم فى جميع أنحاء البلاد ، واستمرار الاجراء الذى اتخذه « المجلس الخاص » بإفساد معتشين للتفیش على المراكز المحلية للتطعيم . واعتبر « تدخل » الحكومة المركزية الى جانب الالتزام الذى فرض على السلطات المحلية حينذاك بتعيين مسئولين عن التطعيم ، واستحابة اختيار حل بديل لذلك ، من قبيل الوسيلة التى كانت تتبعها مدينة لايسستر التى كانت تخطر المصاب أولا ثم تعزله - اعتبر لطة انتهكت حريات السلطات المحلية ، واعتقد كثيرون تمشيا مع المخاوف الكامنة والملاحظة منذ أمد بعيد فى البلاد ، أن اهتمام الحكومة بالصحة العامة قد يؤدى الى اصدار قرارات ديكتاتورية ، فحتى ذلك العهد ، اقتصر دور الحكومة على عملية الاعلام والاقناع ، ولكنها ظهرت - الآن - فى لونها الحقيقى ، كوحش يشتهى الهيمنة ، وانضمت الى هذه الحجج الصيحات التى تتمسح فى كرامة الجسم البشرى ، واعتبار التطعيم اجراء مصطنعا ، يتعارض والطبيعة (وأضافت مجلة لانسييت على ذلك بأنه من غير الطبيعى أيضا ارتداء الملابس أو ركوب القطار .) . واستندت معارضة التطعيم الاجبارى كذلك على مبادئ دينية ، يعنى القول بأن حقن مدنسات فى الدم رجس ، وهى حجة اعترف بها فى نهاية الامر فى الفقرة التى تركت هذه المسألة لضمير أولياء الامر فى لائحة الجدرى التى صدرت ١٨٩٨ ، بالرغم من الحجج المضادة « التى نددت بما يترتب على ذلك من لقاء الأطفال لحتفهم من اثر الاهمال » .

وكانت مدينة لايسستر وراء القوة المتزعمة لحركة مناهضة التطعيم ، ورغم سوء الأحوال الصحية فى هذه المدينة ، فانها كانت تتمتع بمميزات كاختفاء البطالة منها وقلة الزحام وخلو سجلاتها الطبية من فداحة الاصابة بالجدرى بفضل اتباع طريقة « لايسستر » التى تقضى بالعزل الاجبارى لضحايا الجدرى ، والحجس الصحى لجميع من يضطرون الى

مخالطة المصاب ، واتباع برنامج متشدد فى النظافة ، وجزء غلبسات تطهير ، ولا مانع أيضا اذا لزم الامر من احراق فراش المريض وملابسه ، وتطهير دار الافة ، وفى ١٨٦٩ ، تأسست جماعة لايسستر المناهضة للتطعيم ، واشتركت هى « وجمعية لندن لالغاء التطعيم الاجبارى » فى شن حملات منظمة ضد السياسات المركزية للحكومة ، وفى الحقبة الواقعة بين ١٨٦٩ و ١٨٨٤ ، حكم بالسجن فى لايسستر على ٦١ شخصا ، وتصاعدت الحركة عندما قامت مظاهرة كبيرة ١٨٨٥ التفت حولها جميع القوى المعادية للتطعيم القادمة من أكثر من خمسين مدينة ، وعلى الرغم من أن انخفاض نسبة الوفيات من الجدري ترجع الى التطعيم أكثر من نسبتها الى أى تحسن طرأ على الشئون الصحية ، الا أن القرار الذى صدر عن التطعيم ١٨٩٨ قد تضمن فقرة تنص على ترك مسألة التطعيم لضمائر الأفراد مما يسر على الآباء والأمهات تفادى التطعيم الاجبارى لأطفالهم ، وعلى نهاية ١٨٩٨ ، بلغ عدد الشهادات التى منحت للمعترضين الذين تركوا لضمائرهم تمشيا مع ما جاء فى اللائحة (٢٠٣١٤٣) شخصا ينتمى أكثر من ربعهم الى لانكشاير . وطالبت لايسستر بشهادات ل ٢٨٥٢٤ حالة ، وعلى الرغم من اشتراط اللائحة منع حصول الشخص فى الأغلب على تأمين على حياته واستئجار منزل ، أو الحصول على وظيفة بغير اثبات أنه أجرى التطعيم (فى حالة طلب هذه التراخيص من مجلس مقاطعة لندن ومجلس الاسكان بلندن) الا أن آلافا من الأطفال فى نهاية القرن ظلوا بلا تطعيم ، وبعد أن انخفضت نسبة عدد غير المطعمين الى ٣٨٪ فقط من الولادات المسجلة فى انجلترا وويلز ١٧٨٥ الى ٧٥٪ فى لندن ١٨٨١ ، ارتفعت نسبة الأطفال غير المطعمين باطراد حتى بلغت ٢٢٣ و ٢٦٦٪ على التوالى (١٨٩٨) . ولا يوحى ما حدث من نقص فى عدد المطعمين حدوث تناقص لضرورته ، بعد انخفاض الاصابة بالمرض (وانخفاض عدد حامله) أو انتشار الجهل بالدواء الذى يساعد على الوقاية من أوصابه ، أو قوة الشعور بتعزيز الحكومة (التى تحاول فرض وصايتها عليهم) لهم مما دفعهم الى الاعتقاد بأنهم يتمتعون بتمام الصحة والعافية ، فلقد أثبت الصراع حول مسألة التطعيم أن تحسن أحوال الصحة العامة قد اعتمد على ما هو أكثر من التزام الحكومة القوى برعاية صحة المواطنين ، أو حتى على تقدم الكشوف العلمية ، فقد كانوا بحاجة أيضا الى تعاون الحكومة المحلية والمسؤولين عن الصحة ومؤازرة العاملين بمهنة الطب فى جملتهم ، واستعداد الرأى العام لقبول أحكام السياسة الصحية للسولة .

ولا يخفى أن مختلف الأمراض تتطلب اجراءات حكومية متنوعة ، فالتيفوس والتيفود والكوليرا والأمراض الأخرى التى تنتشر عن طريق

الكائنات الدقيقة الموجودة في الماء والألبان أو الغذاء والتي تصيب الأمعاء أو تنتشر عن طريق الأصابع والذباب بالمقدور التغلب عليها إذا أمكن تنقية المياه ، وتم انشاء مرافق صحية أفضل حالا ، وعندما يحدث تحسن في صحة الأشخاص . غير أن هناك أمراضا أخرى تنتشر عن طريق الفيروس ، عندما يتطاير رذاذ اللعاب في الجو . وإذا صح ما قاله أحد الثقات في الطب حديثا : « بأننا في كل شهقة نشهقها في غرفة تضم شخصا أو أكثر ، ينتقل هذا الرذاذ المتطاير من لعاب الآخرين الى أنوفنا ، وتتسارع هذه العملية كثيرا من جراء عمليات السعال والعطس ، ومن ثم يتعين اتخاذ اجراءات أخرى غير التدابير الصحية . فمن المستطاع تخفيف خطورة أمراض عديدة كالسل والحصبة والجدرى والحمى القرمزية إذا اتبع نظام للتنبيه والانذار المبكر وعزل المصابين . وتتطلب هذه الاجراءات الوقائية قدرا من التعاون الوثيق بين السلطات الصحية المركزية ، والسلطات الصحية المحلية وبين المسؤولين عن الصحة والرأى العام ، بقدر لا يقل عن القدر الذى يحتاج اليه لمحاربة القاذورات .

وزاد من خطورة مشكلة الأمراض التي تنتقل عن طريق الهواء ، المقدار الهائل من الازدحام بالسكان ، والذي يسود معظم المراكز السكانية الكبرى ، والافتقار الى عدد كاف من المرافق ، وامتداد التحركات السكانية في القرن التاسع عشر ، والتي زجت بموجات جديدة من صفار شباب وفتيات الريف الى المدن ، ممن يتمتعون بصحة أوفر ، وبذلك ارتفع مستوى الصحة العامة . ولكن في مقابل ذلك ، فقد زجت حركة النزوح ذاتها بوافدين لا يتمتعون بقدر كبير من المقاومة لشتى الأمراض ، التي تنتشر في المدن الصناعية المكثفة بالسكان ، ودفعتهم للعيش وسط أهل المدينة الأصلية . ولعله لم يكن في جعبة الحكومة ما تستطيع أن تفعله للحد من حركة الهجرة الداخلية (وعلى أية حال ، فان تأثيرهم على بداية المرض هو بالتأكيد مسألة بالغة التعقيد) ، لأن حل مشكلة التكدس السكاني تحتاج الى أنواع شتى من الحلول طويلة الأجل ، التي يهتدى اليها بعد عناء ، وبعد تكرار المحاولة والوقوع في الخطأ ، على أن « الاخطار والعزل » كانا من السبل التي بوسع الحكومة الدعوة اليها ، والارغام على اتباعها ، ولكن لسوء الحظ لم يتبع هذا الاجراء الا بعد تردد طويل .

ومنذ عهد باكر يرجع الى ستينات القرن التاسع عشر ، نادى «سيمون» باتباع نظام فعال للاخطار والعزل لمحاربة الأمراض المعدية ، ولكن نداه ذهب ادراج الرياح ، في ١٨٧٤ ، ومن منظوره المركزى في مكتب الحكومة المحلية ، نسب استمرار الارتفاع الكبير في نسبة الوفيات

الى عاملين رئيسيين : ١ - الاغفال أو السهو « عن اجراء عملية اخلاء النفائات والفضلات الجامدة والسائلة من اماكن الايواء » ، ٢ - الترخيص الممنوح لحالات الأمراض المعدية « بالانتشار الى خارج موطن الإصابة » ، وعلى الرغم من الالاحاح المستمر لجون سيمون ، الا أن انشاء مستشفيات للعزل أو عنابر للعزل في المستشفيات القائمة بالفعل قد تأخر نوعا ، ففي ١٨٨٣ ، لم يزد عدد المدن التي أدخلت نظام الاخطار الاجبارى عن الأمراض المعدية عن ٣٤ مدينة (*) ، تضم مليونين ونصف فقط ، وترك أمر الأخذ بنظام « الاخطار » لمشيئة المسؤولين المحليين ، واتضح أن الحاجة كانت ماسة اليه ، ولقد اتبعت مدينة هادرسفيلد نظام الاخطار منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وجرى اتباع نظام الاخطار فى عدة مدن انجليزية ابتداء من ١٨٧٩ غير أن النظام لم يتبع فى جميع أنحاء إنجلترا الا بعد التصديق على لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ ، أى بعد عشرين سنة تقريبا من بدء المسؤولين عن الصحة العامة حملتهم الدعائية ، ومما يثير الاهتمام عدم ادراج السل ضمن قائمة الأمراض التى يتعين الاخطار عنها ، ويرجع ذلك أولا - الى ما قد يثيره هذا القرار من مصاعب اقتصادية (من جراء العزل الاجبارى) للسواد الأعظم الذين سيعانون من ذلك ، ومن بين أسباب التمهّل فى اتباع نظام الاخطار الطوعى انقسام الدوائر الطبية فى الرأى فى هذه المسألة ، لأنه بينما حدث اجماع على وجوب الاخطار ، الا أن الرابطة المحلية للمسؤولين عن الصحة العامة رأت القاء مسئولية الاخطار على عاتق الممارسين العامين . ورأى فريق آخر أن الانصاف يقضى بالقاء المسئولية على كاهل أصحاب الدور التى تحدث فيها الإصابة بالمرض ، وفى مثل فذ لروح المبادرة عند الطبقة العاملة فى المسائل الصحية العامة ، والعمل لصالحها ، اجاز مؤتمر اتحاد العمال ١٨٨٣ قرارا بالاخطار الاجبارى ، متضمنا مبدأ سبق عصره بالتعويض عن الخسائر التى تلحق بالأجور من السلطات المحلية .

ونصت لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ على أن يكون اخطار الأطباء للسلطات المحلية اجباريا ، واتبعت على الفور ٧٥ سلطة محلية ، وبقدوم ١٨٩١ ، اتبعته ٥٥٥ ادارة صحية بالمس و ٣٧٢ بالريف . وفى هذه السنة ، اعتقد مكتب الحكومة المحلية أن اللوائح قد نفذت (ولا يلزم بالضرورة أن تكون قد فرضت قسرا) فى مناطق يقطنها قرابة عشرين مليونا من بين عدد السكان الذين كانوا يعيشون حينذاك فى

(*) مثل Llandudno, Jarrow, Nottingham, Burton, Bolton
Harrington, Edinburgh, Preston, Oldéam, Leicester, Derby
n Blackpool, Rotherham, Norwich, Blackbur.

انجلترا وويلز ، ويقدر عددهم بستة وعشرين مليوناً . ومن بين المدن المحلية (وعددها ١٤١ مدينة بالإقليم يربو سكان كل منها على ٢٥٠٠٠ نسمة) ، اتبعت اللائحة فيها جميعاً باستثناء ١٣ . وفى ١٨٩٣ ، كان عدد من يستظلون بهذه اللائحة نظرياً حوالى ٢٥ مليوناً .

ويمثل هذا التبنى الشامل للقرارات التى تعفى الأشخاص من التطعيم ضد الجدري التزاماً من السلطات المحلية باتباع الطب الوقائى ، الذى ذهب الى ما هو أبعد من اصلاح المجارى ومرافق الصرف الصحى ومصادر المياه ، وعمليات الرصف . وتندرج جميع هذه الاجراءات تحت عنوان « وسائل النهوض بالمدينة وتجميلها » ، ومثلت هذه السياسة الاعتراف المتزايد على المستوى المحلى بالنظرية الجرثومية للمرض ، وربما كان ما ألهمها هو الدراية بعد صدور اللائحة التعليمية الالزامية (*) ١٨٧٠ ، بأنه ما لم يراع مبدأ « الاخطار والعزل » ، فانه لا يستبعد أن يزداد انتشار الأمراض المعدية ، التى تصيب الأطفال ، أو تنتقل اليهم بالعدوى .

وبعد أن ازدادت أعداد الأطفال المقبولين بالمدارس بين ١٨٧٠ و ١٨٨٩ ، ارتفعت نسبة الأولاد (من سن خمس سنوات الى خمس عشرة سنة) من ٢٢٧/ الى ٥٥٪ ، وازداد تبعاً لذلك انتشار أمراض مثل الحمى القرمزية والحصبة ، ولم تتوافر الحوافز الصحيحة للمدرسين للإبلاغ عن حالات العدوى ، لأنهم كانوا يشعرون بالرضا اذا ارتفعت نسبة المواظبة بالفصول ، لأنها كانت تساعد على حصولهم على علاوات مالية من الحكومة .

على أن تبنى اللوائح التى جعلت التطعيم طوعياً شىء ، وتقدير التيسيرات للعزل الصحى شىء آخر ، لأنها كانت تكبد السلطات المحلية مصاريف اضافية ، وتجعلها عرضة للاتهام بالاسراف من قبل دافعى الضرائب الذين لا يتوانون عن ترقيب أية هفوة من هذا القبيل ، وعلى أية حال لقد كان هناك ترقيب ملحوظ كثيراً ما تصاعد لدرجة الهلع من مستشفيات العزل ، لأنه لم يكن من الميقون منه البتة نجاح المسئولين بالمستشفى فى وقف تسرب المرض الى الخارج الذى يفترض أنه انحصر فى حيز محدود ، وتلويثه للأماكن المجاورة ، وتهديدها ، فلا عجب اذا سمعنا ما كره دافعو الضرائب فى اقليم محلى كأدنبرة عن كيف تعرضت عمليات الصرف الصحى فى عنبر المرضى بالأمراض المعدية فى احدى

المصحات للفيض وغمر مرفق الصرف الصحي كله ، وبذلك تنتقل العدوى الى جميع أنحاء المدينة . وعندما أقدمت إحدى الإدارات على إنشاء مستشفيات للعزل لأول مرة ١٨٧٠ ، شن السكان المحليون حملة معارضة شرسة ، أدت الى اغلاق بعضها ، وتأجيل افتتاح البعض الآخر . وفي نهاية القرن ، اضطرت مدينة وندسور الى انشاء مستشفيات المؤقت للجذري بالصاج المعرج محاذية لمزرعة يخرقها مجرى للصرف الصحي ، بعيدا عن المناطق السكنية ، وصدر كتيب عن الأحوال الصحية ١٨٨٥ تضمن الحديث عن مستشفيات الأمراض المعدية ، واحتوت القائمة بيانا عن المدافن وأعمال الصرف الصحي ، ومواقع تجميع القمامة .

وهكذا تباطأت جهود انشاء عنابر ومستشفيات العزل الخاصة . فحتى وقت متأخر (١٨٧٩) لم تتوافر لأكثر من خمس الإدارات المسئولة عن الشئون الصحية في الأقاليم (وعددها ١٥١٠) أية وسائل لعزل الأمراض المعدية ، وحتى بعد ذلك ، أي سنة ١٨٩١ ، لم يرفع المجموع الكلي لهذه المنشآت الى ما هو أكثر من حوالي ربعمائة ، ونكرر القول بأنه كما يحدث في الكثير من قطاعات الصحة الأخرى ، كانت المشكلة في المقام الأول ، مالية ، لأنه برغم استطاعة الحكومة تقسيم قروض ، إلا أن العبء كان يقع في نهاية المطاف على الموارد المحلية : ففي دريشاير على سبيل المثال ، كانت هناك جهتان مسئولتان عن الصحة المحلية ، وقدرت الضرائب على كل منهما بمبلغ أربعة آلاف من الجنيهات . وقدرت الضرائب في أربعة أو خمسة أقاليم أخرى بمبالغ تراوحت بين أربعة آلاف وثمانية آلاف جنيه ، وكتب المجلس المسئول عن الشئون الصحية الى المجلس المحلي بدريشاير : « ليس في مقدور هذه الأقاليم انشاء مستشفيات لائقة ، أو حتى صيانتها ، والحفاظ عليها ، لو تم انشاؤها » ، وتبعاً لذلك لم توجد جهة مسئولة واحدة في دريشاير - وهي اقليم يتسع ل ٤٢٦٠٠٠ نسمة - قادرة على انشاء مستشفى عزل دائمة ١٨٩٥ . ويسرت لائحة مستشفيات العزل الصادرة ١٨٩٣ للمجالس المحلية انشاء مستشفيات للعزل ، وان كانت التكاليف المنتظرة لمثل هذا المشروع قد أثبتت عزيمة الجميع ما عدا المبالغين بحمية عن الطب الوقائي ، وفي ١٨٨٢ ، قدرت الحكومة المحلية تكاليف انشاء السرير الواحد في أية مستشفى تحت الانشاء بمبلغ يتراوح بين المائتين والثلاثمائة جنيه ، وتتجاوز مثل هذه المبالغ امكانيات الأقاليم الريفية الصغيرة ، والكثير من المدن أيضا . وعندما أرادت ليفربول في وقت متأخر انشاء مستشفى يضم ثلاثمائة سرير قدر لهذا المشروع اعتماد يتجاوز الثمانين ألف جنيه .

وهكذا اكتشفت المجالس المحلية في تسعينات القرن التاسع عشر ،
عدم كفاية مرافق العزل للأمراض الوبائية المعدية في أغلب أنحاء البلاد ،
ولقد جاء إنشاء أكثرها على نحو عشوائي . ففي بعض الأقاليم كانت
مستشفيات العزل في الأصل دورا لايواء الكلاب الضالة ، ولم تزد
الأسرة فيها عن خمسة فقط ، ولم توجد بها أية وسائل للتطهير ، بينما
كانت تخدم قطاعات يقترب فيها عدد السكان من الأربعين ألف نسمة . وفي
مدينتين أخريين (*) اشتهرتا بصناعة الخزف ، وارتفعت فيها نسبة
الاصابة بأمراض الرئة ، لم يزد عدد الأسرة في مستشفيات العزل -
والأصح هو وصفها بمعسكرات العزل - عن ثمانية عشر سريرا ، بينما
كان متوسط عدد السكان في المدينتين ٤٦٠٠٠ نسمة . أما مدينة
للانيللي (سكانها ٢٤٠٠٠) فلم يوجد بها أى مستشفى للعزل على
الاطلاق ، بينما كانت مدينة ويجامن أسعد حظا ، لوجود ستين سريرا بها ،
تخدم خمسين ألف نسمة ، ولم تكن المدن الأكبر حجما أفضل حالا .
اذ ضمت مدينة ليدز دارا واحدة للنقاغة تحتوى على ستة وأربعين
سريرا ، ومستشفى للجدرى (٣٦ سريرا) وماوى صغير للناقهين من
الأطفال الذين شفوا من الحمى القرمزية ، بينما كان تعداد هذه المدينة
٣٦٧٠٠٠ نسمة ، أما مدينة بولتون البالغ عدد سكانها مائة وخمسة عشر
ألف نسمة فكانت أول مدينة في انجلترا تحصل على سلطات تبيع لها
حق ارغام المواطنين على الاخطار عن الأمراض المعدية (١٨٧٧) . وقد
فرضت الزاما على كل من الأطباء وأصحاب الدور معا للإبلاغ عن الأمراض
المعدية ، ولكن لم يتوافر لها أية عناصر للعزل الى أن أنشئت بها مستشفى
للحميات ١٨٨٢ . وفي ١٨٩٥ ضمت هذه المستشفى اثنين وثلاثين سريرا
والقليل من الأكواخ ، واعتمدت مدينة ليفربول مثل الكثير من المدن الأخرى
على بعض الورش المحلية لايواء المرضى الذين يعانون من الأمراض المعدية .
وفي ١٨٨٥ زادت الجمعيات الشعبية في ليفربول من ضغطها على المسئولين
الحكوميين بعد أن أخفقوا في تزويد المدينة بمرافق للعزل ، واقترحت
انشاء مرفق يضم ٥٧ سريرا كانت في أمس الحاجة اليها ، وانتهى الأمر
بارغام المدينة على الاستجابة لهذا المطلب ، وفي ١٨٩٢ ، زودت ليفربول
بثلاثة مستشفيات للعزل تسمح بإقامة ٢٩٨ مريضا في مدينة يقدر عدد
سكانها بخمسمائة وثمانية عشر ألف نسمة . ولم تخصص مانشستر أية
اعتمادات لانشاء مستشفى للبلدية ، ولكنها اعتمدت على التبرعات التي
قدمت لانشاء « مصحة ملكية » تضم ٣٧٢ سريرا في عناصر العزل ،
وانشأت برمنجهام (٤٧٨٠٠٠ نسمة) مستشفى للعزل يضم ربعائة

(*) في مدينتي Burton, Burslem على نهر الترننت

سرير . . أما برستون فكانت من المدن القليلة العناية بالشئون الصحية (عدد سكانها ينوف على ١٧٠٠٠٠ نسمة) ولم تنشئ أى مرافق للعزل على أى نحو كان .

وبغض النظر عن عدم كفاية هذه المرافق ، إلا أنها كانت أفضل حالا من الأقاليم الريفية التى لم يكن بها أى بديل لاهلحيات الأبرشيات ، وفى لندن ، كان الموقف أفضل حالا ، فبفضل لائحة المتروبوليتان للفقراء ، زودت المدينة بشبكة من مستشفيات عزل الأمراض المعدية ، وأنشئ أول مستشفى للحميات (١٨٧٠) وخصص للمصابين بالجدرى والحمى القرمزية ، ولم يعد دخول المستشفيات مقصورا على انفقراء ، بعد أن قرر المسئولون بكل حزم الخلاص من وصمة التفرقة بين المعوزين وميسورى الحال . وفى ١٨٩٣ ، توافر لمصحات مدينة لندن أكثر من خمسة آلاف سرير ، أو بمعنى أصح كان هذا العدد من الأسرة تحت الانشاء فى مستشفيات الحميات ، وبينما كانت جملة وفيات الحمى القرمزية فى مستشفيات لندن تعادل ٢٪ من مجموع عدد وفيات هذه الحمى ، ارتفع بعد ذلك هذا الرقم إلى حوالى ١١٪ (١٨٨٣) ثم ازداد ارتفاعا إلى أن بلغ ٧٤٪ ، والأمر بالمثل فيما يتعلق بالدفترية ، فقد ارتفعت هذه النسبة من حوالى ٤٪ (١٨٨٨) إلى ٣٨٪ (١٨٩١) . ولا يدل هذا المؤشر على عدم فاعلية العلاج بالمستشفيات بقدر دلالة على ازدياد عدد المصابين بأمراض معدية ، وكان الكثيرون منهم فى المراحل المتقدمة من المرض ، وسمح لهم بالعلاج فى المستشفيات التى تديرها البلديات ، وحث قرار «الخطار الاجبارى» عن الأمراض المعدية على تسريع الخطى فى تنفيذ هذا القرار ، وازداد عدد من دخلوا مستشفيات لندن ١٨٩٣ وخدوها ، عن عدد من دخلوا هذه المستشفيات طيلة العقد (من ١٨٨١ - ١٨٩٠) .

وصودق على قرار الخطار الالزامى الصادر (١٨٨٩) بعد صدور قرار الحكومة المحلية (١٨٨٨) وكان من بين آثاره تخصيص مسئول صحى عن الإقليم وكان بمقدور هؤلاء المسئولين عن الأقاليم أحيانا الضغط على السلطات المحلية ، ورأينا مثلا المسئول الصحى فى أحد الأقاليم (*) يركز على الأمراض المعدية ويستحث السلطات المحلية على تنفيذ قرار « الخطار الاجبارى » على الفور ، وعلى انشاء مرافق كافية للعزل . وبفضل استمرار قوته الدافعة ، ارتفع عدد البلاغات من سبعة عشر

(*) إقليم West-Riding فى يوركشاير .

بلاغاً (فى نهاية ١٨٨٩) الى ٦٩ فى (١٨٩١) • وارتفعت نسبة بلاغات مرض الجدري والدفتريا والحمى القرمزية والتيفود التى سمح لها بدخول المستشفى من ١٤٪ الى ٣٠.٤٪ •

لم يكن انشاء مستشفيات لايواء المرضى الذين يعانون من امراض معدية على قمة الأولويات عند السلطات المحلية فقط • ولم يتم انشاء مستشفيات للعزل الا بعد الحاج مكتب الحكومة المحلية ، وصودر تشريعات شاملة • وليس بمقدورنا القول بأن السلطات المحلية استجابت بنفس الحماسة للنظرية الجرثومية للمرض ، مثلما فعلت قبل ذلك بثلاثين سنة فى حالة البسيروجينى (التى تعيش فى الأوساخ والأدناس) • وعلى أية حال يمكن القول بأن التخطيط الصحى قد قوبل بالترحاب فى عصر الملكة فيكتوريا الذى عرف باحساسه الحضارى ، ناهيك بقوة حاسة الشم عنده ، بغض النظر عما تطلبه من اعتمادات مالية ، ومن العسير القول بأن مبدأ « الإبلاغ والعزل » قد حظى باستهواء مماثل ، لارتباطه بالحجر الصحى ، والأسر وتقييد الحرية •

وعلى الرغم من اتصاف الاستجابة للأوبئة الرئيسية فى عهد الملكة فيكتوريا بأوجه نقصها وحيرتها وترددتها ، الا أنها قد تركت أثراً مهماً ، وباستثناء الجدري ، فانهم كانوا مضطرين لمحاربة هذه الأمراض دون حاجة الى الانتفاع بمزايا مضادات التوكسين أو التسمم ، ومع هذا فقد نجحوا فى مهمتهم • وفى عصر عرف بما جرى فيه من اتساع فى المدن وبسرعة ازدياد عدد السكان ، لابد أن ينظر الى هذه الحالة على أنها من دلائل انتصار الطب الوقائى • انها شهادة أيضاً على ما تمتع به عصر الملكة فيكتوريا من حماسة وخصب خيال وبعد نظر ، وبطبيعة الحال ، لم تنح جموع الناس بكل خشوع للوائح الحكومة المركزية ، ولما تضمنته من تعليمات ، كما أنهم لم يبتلعوا عن طيب خاطر أقراص التشريعات الالزامية ، ولا يمكن انكار حدوث تصدع ومرارة فى كثير من الأحيان فى علاقة الحكومة المركزية بالسلطات المحلية ، فلقد شب الصراع بين الطرفين باعتبارهما جهازين حديثى الانشاء • وكان أحد الطرفين يتكلم بلغة الصحة الوطنية والعزيمة الوطنية والكفاية والتقدم • بينما يستعمل الطرف الآخر مصطلحات المعدلات المتدنية وحقوق المحليات فى اختيار قراراتها والاستقلال والحرية •

والى اللقاء فى الجزء الثالث

المراجع

- J. Brand, *Doctors and the State : The British Medical Profession and Government Action in Public Health (1870-1921)*, 1965.
- W. Coleman *Death Is a Social Disease Public Health and Political Economy in Early Industrial France (1831-1932)* 1982.
- M. Durrey : *The Return of the Plague : British Society and the Cholera (1831 — 1832)*, 1979.
- J. Eyler, *Victorian Social Medicine : The Ideas and the Methods of William Farr* (1975).
- S. E. Finer, *The Life and Times of Edwin Chadwick* 1952.
- T. Gelfand, *Professionalizing Modern Medicine. Paris Surgeons and Medical Science and Institutions in the Eighteenth Century* (1950).
- R. Lambert, *Sir John Simon (1816-1904) and English Social Administration* (1963).
- R. E. McGrew, *Russia and the Cholera 1823-1832* (1965).
- M. Pelling, *Cholera, Fever and English Medicine. 1825-1865.* (1978).
- F. B. Smith, *The Peoples Health 1830-1910* (1979).
- F. B. Smith, *Florence Nightengale. Reputation and Power* (1982).
- C.E.A. Winslow, *The Conquest of Epidemic Disease : A Chapter in the History of Ideas* (1980).
- A. J. Youngson, *The Scentific Revolution in Victorian Medicine,* (1979).

اقرأ فى هذه السلسلة

- أحلام الاعلام وقصص أخرى
الالكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا فى مائة عام
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
الأرض الغامضة
الرواية الانجليزية
المشهد الى فن المسرح
آلهة مصر
الانسان المصرى على الشاشة
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
الهوية القومية فى السينما العربية
مجموعات النقود
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
ديلان توماس
الانسان ذلك الانسان الفريد
الرواية الحديثة
المسرح المصرى المعاصر
على محمود طه
القوة النفسية للآهرام
فن الترجمة
تولستوى
ستندال
رسائل واحاديث من المثقى
الجزء والكل (محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائى عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
أعلام العرب فى الكيمياء
- برتراند رسل
ي • رادونسكايا •
الدىس مكسلى •
ت • و • فريمان
رايموند وليامز
ر • ج • فوربس
ليستر ديل راى
والتر آلن
لويس فارجاس
فرانسوا دوماس
د • قدرى حفى وأخرون
أولج فولكف
هاشم النحاس
ديفيد وليام ماكدونالد
عزيز الشوان
د • محسن جاسم الموسوى
أشرف س • بى كوكس
جون لويس
بول ويست
د • عبد المعطى شعراوى
أنور المعداوى
بيل شول وادنييت
د • صفاء خلوصى
رالف ثى ماتلو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنر هيزنبرج
سيدنى هوك
ف • ع أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د • نعمة رحيم العزاوى
د • فاضل أحمد الطائى

فكرة المسرح

الجحيم

صنع القرار السياسي

التطور الحضارى للانسان

هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال ؟

تربية الدواجن

الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

النحل والطب

سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء

مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

الصحافة

اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن

التشكيلى

الادب الروسى قبل الثورة البلشفية

وبعدها

حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)

الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

١٨٨٥ - ١٩٨٥

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

نظريات الفيلم الكبرى

مختارات من الأدب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟

حرب الفضاء

ادارة الصراعات الدولية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الأدب اليابانى

تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما

الزمن وقياسه

اجهزة تكييف الهواء

فرنسيس فرجون

هنرى باربوسى

السيد عليوة

جاكوب برونوفسكى

د . روجر ستروجان

كاتى ثير

ا . سبنسر

د . ناعوم بيتروفيتش

جوزيف داهموس

د . لينوار تشامبرز رايت

د . جون شندلر

بيير البير

الدكتور غبريال ومبه

د . رمسيس عوض

د . محمد نعمان جلال

فرانكلين ل . باومر

شوكت الربيعى

د . محيى الدين أحمد حسين

تأليف : ج . دادلى اندرو

جوزيف كونراد

طائفة من العلماء الأمريكيين

د . محمد أسعد عبد الرؤوف

د . السيد عليوة

د . مصطفى عنانى

صبرى الفضل

جابريل باير

انطونى دى كرسبنى

وكينيث هبنوج

دوايث سوين

زافيلسكى ف . س

ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والايدز
صور افريقية
نجيب محفوظ على الشاشة
الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية اسماك الزينة
كتب غيرت الفكر الانسانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخى عند الاغريق
قضايا وملامح الفن التشكيلى
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
للكون

حوار حول النظامين الرئيسيين
الارهاب
اخناتون

بيتر رداى
جوزيف داهموس
س . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
و نورمان د . اندرسون
د . أثور عبد الملك
والت روستو
فرد . س . هيسى
جون بوركهارت
الان كاسبيار
سامى عبد المعطى
فريد هويل
شاندرا ويكراما ماسينيح
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
د . محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
أحمد الشنوانى
جمعها : جون . ر . بورر
وميلتون جولد ينجر
أرنولد توينبى
د . صالح رضا
م . ه . كنج وآخرون
جورج جاموف
د . السيد طه أبو سديره
جاليلى جاليلى
أريك موريس ، الان هو
سيريل الدريد

القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسستلر
التوافق النفسى	توماس ١٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى آرمر
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاي متشيرو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل البى
تاريخ النقود	جيمس لفلوك
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	فيكتور مورجان
الشاهنامه (٢ ج)	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	جاك كرابس جونيور
العثمانيون فى اوربا	محمد فؤاد كوبريلى
مختارات من الآداب الآسيوية	بول كونر
التمثيل للسينما والتلفزيون	اختيار واعداد صبرى الفضل
سقوط المطر	قونى بار
صناع الخلود	نادين جورديمر وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	موريس بيربراير
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	آدامز فيليب
الحملة الصليبية الاولى	أحمد الشنوانى
رواد الفلسفة الحديثة	جوناثان ريلى سميث
جماليات فن الاخراج	ريتشارد شاخت
الكنائس القبطية (٢ ج)	زيجمونت هبئر
كرانيم زرادشت	الف د ٠ ج ٠ بتلر
	اعداد ٠ د ٠ فيليب عطية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٠٣٥ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3603 — 4

استدراك

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٦	٢٢	ولت المحامى	ولفت المحامى
١٤٢	٥	محاولة للوصول	محاولة للحصول
١٧٧	٢٥	القرن الثانى عشر	القرن الثامن عشر
١٨٨	١٦	استهلال كولمان الذى سجله	استهلال كولمار سجله
٠٠٠	٢٣	وقال الاكليروس	وقام الاكليروس
٢٠٠	٦	وشرلى لانجى وبورج	وشعرت لانجر وبودج
٢٠٧	٣	من نهاية الصفحة القس الدستورى	الدستورى جمعية ابراشية فى اقليم ليموج

مازلنا نكتب التاريخ على النحو التقليدي، أي في صورة أحداث متعاقبة، فيما يدعى بالكرونولوجي أو الحوليات.

وقد تطورت الكتابة التاريخية منذ بداية القرن التاسع عشر وظهرت مدارس متعددة ومتنوعة مازال أثرها وأنها في مصر. وقد جمع المؤلفان مجموعة من المقالات التاريخية التي تمثل التاريخ من شتى جوانبه.

ومن الموضوعات التي يتناولها هذا الجزء :

اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية

الحكم الفردي للويس الحادي عشر

ثورة القوزاق وحرب الفلاحين في روسيا

وسائل التسويق في السوق الدولية

المرأة عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر